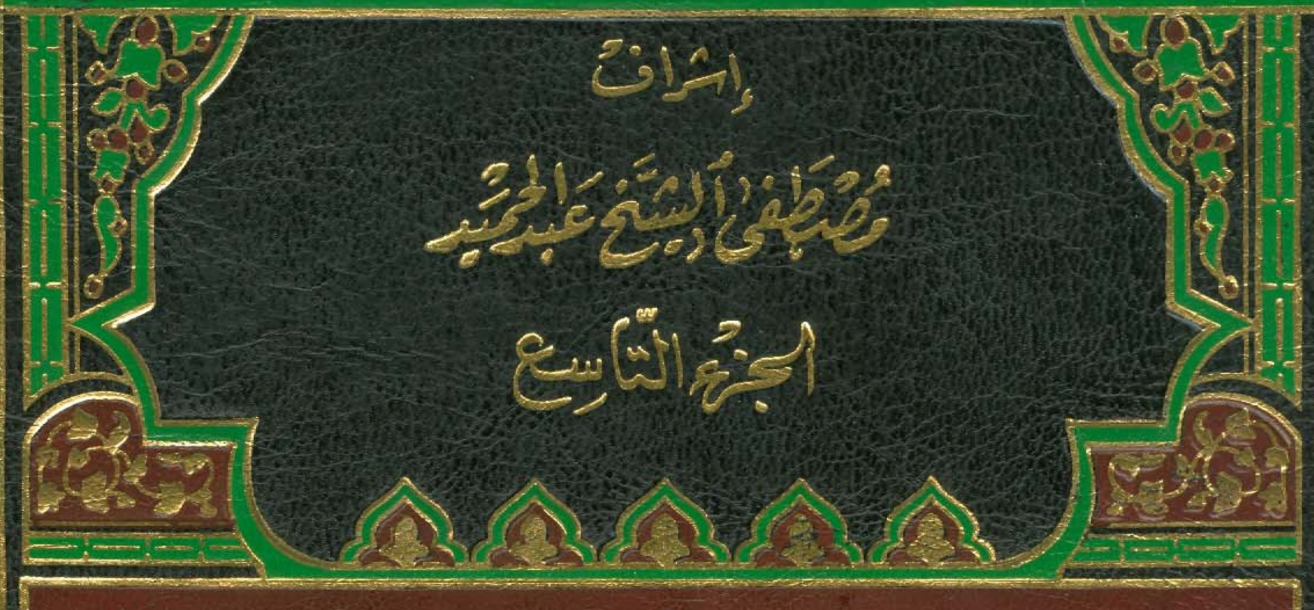
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء التاسع

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث


محاضرات الوائلي
رحمه الله


مصورات
حسين الخزاعي لعام 2012م
مدينة العلم والعلماء قم المقدسة


بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء التاسع

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الثانية

في بيروت

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

يطلب من:

لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ

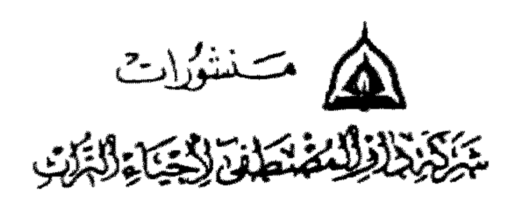
هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ - ٧٠٠٦٦٦٩١ - ٠٠٩٦١

سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤ ٠

مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤

تلفاكس: ٧٧٣٨٨٥٥ ـ ٠٠٩٨٢٥١

البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿١٦٣﴾

الأخلاق في مسيرة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الانتماء الأسري

هنا سؤال في البين يطرح نفسه، هو: هل إن الغرض من قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾** هو التأكيد على أن ابتداء الغاية في عمليّة خلق الإنسان هي بطن الأُم؟ إن الجميع يعرف حقيقة ثابتة هي أن مسيرة الإنسان عبارة عن دورة تبدأ من التراب، ففي التراب توضع القابلية على أن يتحوّل إلى نبات، ثم يتحوّل إلى نطفة في صلب الأب، ثم تتحوّل النطفة إلى جنين في رحم الأُم، وبعدها يتحوّل الجنين إلى إنسان في رحم الدنيا، ثم يتحوّل إلى ميّت في رحم القبر، ثم يبعث خلقاً آخر في عالم الآخرة.

فهذه دورة مسيرة الإنسان؛ وهي صريحة في أن ابتداء الغاية في عمليّة خلق

---

(١) النحل: ٧٨.

الإنسان من التراب، لكن ما الذي يتراءىٰ لنا من الآية؟ إن الأكثر يقولون: إن اللّه يريد أن ينبّهنا إلى منزلة الرحم الذي حملنا، وإلى أهمّية بطن الأُم في حملنا، وحجم الأعباء التي تتحمّلها الأُم في فترة الحمل؛ لأن هذه الأعباء شديدة جدّاً خصوصاً في بعض أنواع الحمل؛ حيث إنه يسبّب القلق وعدم الاستقرار.

ولهذا فإن الشارع راعى المرأة في بعض حالات الحمل؛ منها أنه يحسب لها أجر الشهيد فيما لو ماتت أثناء الولادة [1]. ثم إنها حينما تقوم عن الجنين تقوم منهكة مرهقة؛ فالألم الذي تتحمّله كبير جدّاً جدّاً.

بين التزاحم والتعارض

وهذه المسألة يبحثها الفقهاء في باب التزاحم أو التعارض، بمعنى أنه إذا تزاحم دليلان: مهمّ وأهمّ؛ فإنه سيقدّم الأهم، فمثلاً لو أخّر المصلّي صلاة العصر إلى ما قبل الغروب بمقدار أداء العصر، بحيث إنه إذا لم يصلّها في هذا الوقت ستغرب الشمس وسيفوته وقت العصر فتصبح قضاء عليه، لكنه رأى غريقاً يصارع الموج وقد أشرف على الهلاك لدرجة أنه إذا لم ينقذه فإنه سيموت. ففي مثل هذا الحال يتعين عليه إنقاذ النفس المحترمة؛ لحصول حالة تزاحم بين مهمّ وهو واجب الصلاة، وأهمّ وهو إنقاذ النفس المحترمة؛ لأن الصلاة لها بديل.

وهناك حالة أُخرى هي التعارض، وذلك كأن يجيء الأمر: «صلِّ»، والأمر: «لا تصلِّ»، كأن يكون الإنسان في مكان مغصوب وقد دخل وقت الصلاة، وهو لا يستطيع أن يخرج من ذلك المكان؛ فهنا يتوجّه إليه أمران:

---

(١) انظر صراط النجاة ٢: ٦٠ ـ ٦١ / السؤال: ١٧٢.

الأوّل بالصلاة؛ لدخول وقتها، والثاني بالنهي عنها؛ لأنه سيوقعها في مكان مغصوب [١].

ومثله ما إذا أمر الأب ابنه بشراء دار، ونهته أُمّه عن ذلك. فإذا كان مثل هذا الموضع من باب التعارض فإن القولان المتعارضان يسقطان، أما إذا كان من باب التزاحم ـ والأكثر يقولون به ـ فإن قول الأم حينئذٍ هو المقدّم؛ لأن القاعدة العقليّة تقول: «الغنم بالغرم»، فمن يعمل عشر ساعات يأخذ أُجوراً أكثر ممّن يعمل خمس ساعات. وآلام الأُم لا تتناهى ولا يمكن أن توازيها آلام الأب، فصحيح أن الأب يألم؛ لأن من لوازم الولد عبء المعيشة، وأنه لابدّ من رعايته ومتابعته، لكن تعب الأُم أكثر. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى

---

(١) إن هذه المسألة داخلة فيما يسمّى في علم أُصول الفقه بباب «اجتماع الأمر والنهي»، وهي موضع اختلاف بين المسلمين عامّة وبين علمائنا كذلك؛ فمنهم من يذهب إلى جواز الاجتماع، ومنهم من يذهب إلى امتناعه. وأساس الخلاف هو عنوان الاجتماع؛ ولذا فإن البعض أضاف قيد «المندوحة» لتصحيح وقوع الاجتماع. وهذا الاجتماع يكون على نحوين:

١ـ الاجتماع الموردي، وهو ألّا يكون هناك فعل واحد مطابق لكلّ من العنوانين (الأمر والنهي)، بل يكون هنا فعلان تقارنا وتجاورا في وقت واحد: أحدهما مطابق لعنوان الواجب، وثانيهما مطابق لعنوان المحرم، وذلك مثل النظر إلى الأجنبية أثناء الصلاة. فلا النظر مطابق لعنوان الصلاة، ولا الصلاة مطابقة لعنوان النظر إلى الأجنبية، ولا هما ينطبقان على فعل واحد.

٢ـ الاجتماع الحقيقي وهو أن يكون هناك فعل واحد مطابق لكلّ من العنوانين، كالصلاة في المكان المغصوب. فهما وإن كانا لا ربط لأحدهما بالآخر، لكن قد يتّفق للمكلّف أن يجمع بينهما دون قصد، فيلتقي العنوانان. وحينئذٍ فإن هذا الفعل الواحد يكون داخلاً فيما هو مأمور به من جهة؛ فيقتضي أن يكون المكلّف مطيعاً للأمر ممتثلاً له، وداخلاً فيما هو منهي عنه من جهة أُخرى؛ فيقتضي أن يكون المكلّف عاصياً به مخالفاً.

انظر أُصول الفقه (المظفر) ٢: ٢٧٦ ـ ٣٨٢.

فإن حقّ الأمّ في تكوين الولد أكثر من حـقّ الأب فـيه؛ لأن الأب يـخرج مـنه الولد نطفة، لكنه يأخذ من جسم أمّه إنساناً كاملاً كبيراً وربما يسبّب لهـا المـوت في لحظات الولادة.

السبب في تأكيد القرآن الكريم على ذكر الأم

فحقّ الأُمّ أهمّ من حقّ الأب، وقـوله تـعالى: ﴿**وَاللَّـهُ أَخْـرَجَكُمْ مِـنْ بُـطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ يلمح إلى هذا المعنى، فصحيح أن هذه المسألة بديهية، لكنها قد تخفى على الإنسان فلا يلتفت إليها. فالقرآن الكريم هنا يحاول أن ينبّهنا إلى ذلك فـي أكثر من موضع؛ لأن الإنسان قد اعتاد على نسيان ما يأمره اللّه تعالى به، فنحن نقرأ فيه مثلاً: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِـنْ آيَـةٍ فِـي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَـمُرُّونَ عَـلَيْهَا وَهُـمْ عَـنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾[1].

فهو يمرّ في هذه الآية الكريمة ولا يعرف أهميّتها، ولا يهتدي بها إلى مـعرفة اللّه تعالى: فهو غافل عنه أبداً. إذن فالقرآن الكريم يريد أن يعيد لأذهاننا التذكير بأن هذه البطن التي حملتنا علينا واجبات تجاهها، وعلينا التـزامـات يـجب أن نؤدّيها؛ لأن الأسرة تنبعث من الأمّ وتنبثق عنها. وهذا هو السبب فـي أن هـناك تأكيداً من علماء الاجتماع على ضرورة تثقيف الأمّ حتى تنطلق الأُسرة من قاعدة ثقافيّة واعية.

إن المسألة ليست مسألة ثقافة، وإنما هي مسألة تربية، فلو كانت الأُم مثقّفة فإنها سوف تعرف الكثير من الأُمور الصحيّة ذات العلاقة في تربية الطفل. وهذه المعرفة قد تكتسبها المرأة العادية، لكن المهم أن يرتضع الولد الأخلاق من حجر طاهر.

---

(١) يوسف: ١٠٥.

وفي التشريع الإسلامي أن المرأة المنحلّة تسقط حضانتها؛ لأن الإسلام يهدف إلى أن يقدّم أُنموذجاً صالحاً للمجتمع؛ ولذا فإن على الوالدين أن يربّيا ولدهما وينشّئاه في بيئة صالحة، تغذيه الخلق والآداب والقيم. ولهذا فإن الرسول الأكرم ﷺ كان يؤكّد على هذا المضمون كثيراً، فنسمعه يقول: **«اظفر بذات الدين تربت يداك»**(١).

أي أن على الإنسان أن يبحث عن المرأة المؤمنة؛ لأن المرأة التي تملك ديناً تملك قيماً وأخلاقاً؛ ذلك أن الدين هو عبارة عن منظومة من القيم الأخلاقيّة مصبوبة في قوالب شرعية؛ فالسرقة حرام، والربا حرام، والقتل حرام، وما إلى ذلك من أُمور حرّمها الشارع المقدّس. إذن فالدين مجموعة من التعاليم والأوامر والنواهي والأخلاق تحملها المرأة لتغذّي بها أبناءها. ومن الآثار الإيجابيّة لذات الدين: الإخلاص والأمانة في البيت، ومراعاة جانب الأخلاق فيه، ورعاية حقّ الزوج والأطفال.

إننا في واقع الأمر نعيش حالة نقص في إعداد مؤهّلات المرأة في هذا المجال، وجانب تقصير فيه بحيث إنه ليس هنالك من هيئات تثقّف المرأة دينيّاً، وإن وجدت فهي نادرة، بل نادراً ما تحضرها المرأة. مع أن المفروض أن تكون في مجتمعاتنا مثل هذه الهيئات الأخلاقية والثقافية؛ لأن من الضروري أن نلتفت إلى جهات تكون مهمّتها تثقيف المرأة وإعدادها دينياً؛ لأنها العنصر الأكثر تأثيراً على الأُسرة، ولأن الرجل بطبيعة عمله يكون منشغلاً عن بيته خارجه لتدبير أُمور معاشه ومعاش عائلته.

---

(١) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

المبحث الثاني: حقوق الأمّ

تقول الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، أي أن على الإنسان أن يعرف حقوق هذا المكان الذي خرج منه، وفضله عليه، وعناءه في سبيل تكوينه.

ربما يقول قائل: إن الأبوين لا يفكّران بالولد لحظة ممارستهما غريزتهما، وعند وضعهما الولد.

ويجاب بأنه صحيح أن الأمر ربما كان كذلك، لكن الكلام الذي نطرحه هنا ليس في خصوص هذه المرحلة، بل في مرحلة ما بعد أن يعلق الجنين، حيث ستعتري الأمّ الآلام والمشاكل والأمراض، ثم آلام الولادة ومسؤوليّة الحضانة ودور التربية. وهذا هو الذي يسعى القرآن إلى أن ينبّهنا إلى ما نحن عنه غافلون عنه وإزاءه؛ فنحن لا نعطي الأُمّ الحقّ الذي يتناسب مع مكانتها وسهرها ومهمّتها الإنسانيّة.

لماذا أوصى الله تعالى الولد بأبويه دون العكس؟

وهنا نقطة يثيرها الفقهاء أجد من الضروري الإشارة إليها، وهي أن القرآن الكريم درج على أن يوصي الولد بأبويه، ولم يفعل ذلك مع الأبوين؛ فلم يوصِهما بالولد. إن هذا الأمر لم يكن عن عشوائيّة أو محض اتّفاق ومصادفة، بل إنه يخضع لقوانين تكوينية وضعها الله تعالى لترسيم علاقة الولد بأبويه؛ فالولد لا ينظر إليه أبواه إلّا أنه جزء منهما وقطعة من كيانهما، ولا يحسّانه ولا يشعران به إلّا كذلك، أما الولد فلا يشعر أنه جزء منهما. كما أن الأب لا يسعد إلّا أن يعطف على أولاده؛ سواء كان الولد بارّاً أم عاقّاً، مع أن من المفترض أن يكون مكان البارّ أكبر في

نفسه، ويتألّم لأجل ابنه العاقّ.

إذن هذا هو السبب في أن وصايا السماء تنصبّ كلّها في هذا المضمار؛ كي توجد نوعاً من التوازن في علاقة الأبناء بآبائهم. فعلينا أن نرعى الأُمّ ونبرّها؛ لأن المرأة ركيزة البيت الإنساني.

المبحث الثالث: الإنسان ومسؤوليّة التربية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾، والعلم هو حصول صورة الشيء في الذهن. فكل المعلومات لها صورة ذهنيّة، والإنسان يخرج إلى الحياة وليس عنده معلومات سابقة سوى ما يولد معه من قوانين فطرية؛ مثل قانون السببيّة، فالطفل مثلاً حينما يشتري له أبوه سلعة فإنه يسأله عن المصدر الذي اشتراها له منه، أو يسأله إذا رآه متألّماً: لماذا تتألّم؟ وهذه الحالة المعرفية فطريّة، أي أنها تولد عنده قبل حصول عمليّة التفاعل الاجتماعي وإدراك الجزئيّات.

وكذلك تولد معه صفة حبّ التملّك؛ فعندما يأخذ أحد من الطفل الذي عمره ستّة أشهر لعبته، فإنه يبكي لأجلها، وهذا طبعاً لما عنده من غريزة حبّ التملّك التي تولد معه. وفي هذا الأمر منطلق من المنطلقات الاقتصادية الإسلاميّة التي تنصّ على أن حبّ التملّك لا يكتسبه الإنسان من المحيط، وهو خلاف ما تذهب إليه الماركسية؛ حيث إنها تصوّر للناس أن الملكية الفرديّة أمر يكتسبه الإنسان من المحيط الذي يعيش فيه؛ فإذا نشأ في محيط لا يحرص على الملكيّة فإنه سينشأ وهو بعيد عن غريزة حبّ التملّك. كما أنها فلسفة ترى أن الملكية مصدراً من مصادر الشرور؛ فلابدّ من إلغائها.

وقولهم هذا ينطوي على مغالطة، وإلّا فإن الملكيّة لا يمكن أن تكون مصدراً للشرور، والذي يمكن أن يكون كذلك هو الانحراف في استعمالها، فهو الذي يؤدّي إلى ذلك.

ومسألة فطريّة حبّ التملّك يؤكّدها الإسلام الحنيف؛ ولذا فإنّ القرآن الكريم يقول: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾[1]، فهو يولد وتولد معه هذه الغريزة، ثم يأتي دور المحيط لينميها أو يضعفها.

فالإنسان يولد من غير معلومات، والذي يلقّنه ويعلّمه بعد ذلك هو المحيط الذي ينشأ فيه، أو البيئة التي يولد فيها؛ ولذلك فإن الرواية تقول: «**كلّ مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[2]. فهنا تلج ساحةَ المسؤوليّة تربيةُ الأبوين لابنهما وتنشئته وسلامة علاقتهما به، وحسن التواصل الروحي بينهما وبينه، فالولد يولد صفحة بيضاء لا شائبة أو دنس فيه. كان النبي الأكرم ﷺ إذا جيء إليه بمولود ولد لتوّه ـ كما هي عادة المسلمين من أنهم عندما يولد لهم مولود يأتون به لرسول الله ﷺ ليسميه ويباركه ـ يقبّله ويقول: «**هذا جديد عهد بربّه**»، أي أنه لم يُلوّث بعد بعادات المجتمع وانحرافاته.

معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

فالإنسان قد يتعلّم من المجتمع الكذب والحقد والجريمة والافتراء، يقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾[3]. أي أننا

---

(١) العاديات: ٨.

(٢) تصحيح اعتقادات الإماميّة: ٦١، الاحتجاج ٢: ١٧٦.

(٣) التين: ٤ ـ ٥.

أنزلناه من بطن أمّه سالماً سويّاً كاملاً، وجعلناه نقيّاً طاهراً ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، لكن بعد ذلك استرجعناه من الأرض ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. والعلماء لهم تفسيران حول هذا الآية الشريفة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾:

فبعض المفسّرين يحمله على الجسد، أي أن الإنسان يكون في أول أمره ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ثم بعد ذلك يكبر فيصبح ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾؛ من حيث الضعف والمرض والوهن الذي ينتابه ويعتريه [(١)]. والحقيقة أن الإنسان ليس كذلك؛ فهو يولد من ضعف، ويخرج من الدنيا في حالة ضعف، وهذه الصورة يرسمها لنا الأفوه الأبيوردي في قوله:

كأني وقد جاوزت سبعين حجّة	خلعت بها عني عذار لجامي

فمهمّة اللجام هي أن يوجّه الفرس، لكن الإنسان حينما يكبر لا يستطيع أن يسيطر على أعضاء جسمه. ثم قال:

على الراحتين مرّة وعلى العصا	أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى	فكيف بمن يُرمى وليس برامِ [(٢)]

وهناك صورة لابن حمديس أكثر رسوخاً منها حيث يقول:

ولي عصا من طريق الذمّ أحمدها	بها أُقدّم في تأخيرها قدمي
كأنها وهي في كفّي أهشّ بها	على ثمانين عاماً لا على غنمي
كأنني قوس رامٍ وهي لي وتر	أرمي عليها زمان الشيب والهرمِ [(٣)]

---

(١) قال جلّ وعلا: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ النحل: ٧٠.

(٢) الأمالي (المرتضى) ١: ٣٥، وفيه: «تسعين»، بدل: «سبعين»، وقد نسبه لعمرو بن قمئة، الأغاني ١٥: ٣٦٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ٣٨٧، ولم ينسباه للأفوه.

(٣) ديوان ابن حمديس: ٤٨٢.

فالإنسان يولد ضعيفاً تحمله الأيدي، ويخرج كذلك، فتحمله الأيـدي وهـو داخل نعشه. يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وارحمني محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي**»[1]. فالإنسان عندما يولد يحمله أبواه وأقرباؤه، وكذلك إذا مات فإن أبناءه وجيرانه وأقرباءه يتناولون أطراف جنازته. إذن فالإنسان خلق من ضعف، ويولد ضعيفاً، ويموت ضعيفاً.

ويحمله بعض على ما يكتسبه الإنسان من رذائل واخلاقيّات مرفوضة عند الشارع المقدّس، فهو يرد ﴿**أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ بما يتعلّمه وما يصبح عليه من حال وقد تلوّث بفعل تأثير البيئة والمجتمع عليه. فنحن قد خلقنا لا نعلم شيئاً، ونكتسب من أُسرتنا ومحيطنا الذي نعيش منه، إمّا الأخلاق الحسنة والمبادئ العالية، أو الرذائل والأخلاق الذميمة.

المبحث الرابع: نعمة الحواسّ

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ**﴾، إن الأفئدة هنا بمعنى العقول، أي أن اللّه تعالى جعل لكم السمع والأبصار والعقول؛ لتستثمروا وجودكم في الدنيا. إن الإنسان بطبيعة الحال إنما يكلّف إذا كان يسمع أو يبصر أو يعقل، أمّا الذي لا يسمع فلا يستطيع أن يتعلّم القراءة، وكذلك الأعمى ومن لا عقل له، وبالتالي فإنه حينئذٍ لا يكلّف؛ ولذا فإن الصبي والمجنون لا يكلّفان.

وهذه اللفتة من نعم اللّه تعالى علينا؛ حيث إنه جلّ وعلا قد أعطانا الحواسّ لنبصر ونسمع ونذوق ونشم ونلمس بها، والإنسان لا يشعر بقيمة الحاسّة إلّا إذا

---

(١) الصحيفة السجّاديّة: ٢٠٢ / ١١٢ ـ دعاؤه عليه السلام في رجب.

فقدها؛ وبهذا فإن علينا أن نشكر اللّه تعالى على ما منحنا وأعطانا من هذه النعم، وهذه الحواس. لكن في المقابل علينا أن نجعلها تـؤدّي دورهـا الصـحيح فـي المجتمع؛ فلا نسمع الغيبة، ولا نرى ما حـرّم اللّـه رؤيـته، ولا نسـرق بأيـدينا، ولا نسكت عن الحقّ.

المبحث الخامس: نعمة الشكر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. إن البعض يظن أن الشكر هو أن يقول مثلاً بعد انتهائه من وجبة طعامه: الشكر للّه. إن هذا كما هو معروف شكر قولي، في حين أن اللّه سبحانه وتعالى أراد منا نؤدّي مضافاً إلى هذا فروض الشكر العملي: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾[1].

مراتب الشكر العملي

وهذا الشكر له مراتب منها:

الأولى: أنه يجب على الإنسان أن يعرف أن النعم كلّها من اللّه تعالى، وأنه هو المفيض والمنعم ومسبّب الأرزاق.

الثانية: أن يقع الشكر بالجوارح عـن طـريق التـذلّل والخـضوع له سـبحانه وتعالى.

وبهذا الشكر يزداد الإنسان قرباً إلى معطي النعم ومفيضها؛ فلا يفرح بـالدنيا وما فيها؛ لأن عطايا اللّه سبحانه وتعالى أكثر من أن تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]. ثم إن طلب اللّه عزّ وجلّ من العباد أن يشكروا إنما هو لأجل نفع العباد أنفسهم؛ لتحصيل القرب من اللّه تعالى؛ كي يزيدهم نعماً

---

(١) سبأ: ١٣.
(٢) إبراهيم: ٧.

في الدنيا، ويدخلهم الجنّة في الآخرة. وهذا إن وقع فإنه لن يزيد في ملكه تعالى شيئاً، كما أنه إن لم يقع لم ينقص منه شيئاً.

إذا كنت في نعمة فارعَها ... فإنّ المعاصي تزيل النعمْ

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريعُ النقمْ [(١)]

وممّا يروى في هذا الصدد أن اللّه تعالى أوحى إلى النبي داود عليه السلام أن اشكرني حقّ شكري، فقال عليه السلام: **«يا ربّ كيف أشكرك حقّ شكرك، والشكر من نعمتك تستحقّ عليه شكراً؟»**. فقال تعالى: **«يا داود، إذا عرفت أن ذلك مني، فقد شكرتني»** [(٢)].

وفي رواية أُخرى أن النبي داود عليه السلام سأل اللّه تعالى قائلاً: **«كيف كان آدم قد شكرك حقّ شكرك، فجعلته أباً لأنبيائك وصفوتك، وأسجدت له ملائكتك؟»**. فقال اللّه تعالى له: **«إنه اعترف بأن ذلك من عندي، فكان اعترافه بذلك حقّ شكري»**.

ولذا فإن كلّ نعمة هي من اللّه تعالى، وحتى شكره نفسه هو نعمة منه علينا. فعلى الإنسان أن يشكره على كلّ حال مهما مرّ به من ظروف ومصائب ومشاكل؛ فهذه هي سنّة الحياة، فهي لاتخلو من فرح أو حزن. يروى أن النبي يونس عليه السلام سأل اللّه تعالى أن يدلّه على أعبد أهل الأرض، فأهبط إليه جبرائيل عليه السلام يرشده إليه، فجاءا عليهما السلام، إلى مكان فيه رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه، وهو يقول: إلهي متعني بها حيث شئت، واسلبنيها حيث شئت، فقد أبقيت لي فيك الأمل، يا بارّاً بي،

---

(١) اختلف في نسبتها. روضة الواعظين: ٤٤٩، أعيان الشيعة ١: ٥٥٣، الجهاد: ٣٧.

(٢) رسائل الشهيد الثاني: ١٥٧، الكافي ٢: ٩٨ - ٩٩ / ٢٧، مشكاة الأنوار: ٧١، وفيهما أنه عن النبي موسى عليه السلام.

يا وصولاً. فقال له النبي يونس: **«يا جبريل، إنما سألتك أن ترينيه صوّاماً، قوّاماً»**. فقال له جبرائيل: **«إن هذا كان قبل البلاء هكذا، وقد أُمرت أن أسلبه بصره»**.

فأشار إلى عينيه بإصبعه فسلبتا، فقال: متعني بهما حيث شئت، واسلبنيهما حيث شئت، فقد أبقيت لي فيك الأمل، يا بارّ، يا وَصول. فقال جبريل: **«هلم تدعو وندعو معك؛ فيُردّ عليك يديك ورجليك وبصرك، فتعود إلى العبادة التي كنت فيها»**. قال: ما أُحب ذلك. قال: **«ولم؟»**. قال: إذا كان محبّته في هذا، فمحبّته أحبّ إلي من ذلك. فقال النبي يونس: **«يا جبرائيل، يا الله، ما رأيت أحداً أعبد من هذا قط»**. فقال جبريل: **«يا يونس، إن هذا الطريق لا يوصل إلى رضا الله بشيء أفضل منه»** (١).

فهذا الرجل قد وصل إلى هذه المرحلة من الشكر للّه سبحانه وتعالى على الرغم من كلّ ما ابتلي به.

فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾، فهي إنما تقرّر حالة تسود المجتمع البشري، وهي أن القليل من الناس هم أُولئك الذين يشكرون نعم اللّه وفضله عليهم، أمّا الأعمّ الأغلب منهم فيعمدون إلى ارتكاب المعاصي المحارم، واكتساب المآثم.

نعمة إرسال النبي الأكرم

فنعم اللّه تعالى كثيرة لا تحصى، وليس هناك من نعمة أنعم بها على عباده كنعمة الرسالة، سيّما هذه الأمّة؛ إذ أرسل إلينا النبي محمداً مبشّراً ونذيراً، وبعثه

---

(١) كتاب الرضا عن الله بقضائه: ٦١ – ٦٢ / ٢٥، وقريب منه في مسكّن الفؤاد: ٨٧.

لينقذ الناس من جاهليّتهم، ومن عبث الأفكار التي كانوا يعيشون تحت تأثيرها، وحوّلهم إلى مجتمع وأُمّة تضاهي الأُمم الأُخرى، بل إن الأمر بلغ حدّاً كانت تلك الحضارات الأُخرى معه تستلهم علومها ومعارفها من حضارتنا الإسلامية، وكلّ هذا بفضل هذا الرجل العظيم الذي أنعم اللّه به على البشريّة كلّها.

هل شكر بنو أميّة نعمة الرسالة؟

لكن كيف قوبلت هذه النعمة؟ وماذا فعل بنو أُميّة بأهل بيت رسول اللّه ﷺ؟ وهل شكروه فيهم؟ لقد فعلوا ما فعلوا بأهل بيت النبوة الطاهر، وحاربوا ابن رسول اللّه ﷺ، وقتلوه هو وأهله وأصحابه، ووصل بهم الأمر إلى قتل شبيه رسول اللّه ﷺ، وقد قال عنه الإمام الحسين عليه السلام عندما خرج ليبارزهم: **«اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»**[(١)].

لقد كان حبيباً إلى نفس الإمام الحسين عليه السلام وإلى قلبه، ولم يورد المؤرّخون أن الإمام الحسين عليه السلام قد فعل مع أحد مثل ما فعل مع علي الأكبر عندما سقط على أرض المعركة صريعاً يخور بدمه، حيث رمى عليه السلام بنفسه الشريفة من على ظهر جواده، وأخذ يحتضنه ويعتنقه، ثم وضع خدّه على خدّه فرأى أنه قد أسلم الروح، فصاح بأعلى صوته: **«بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وأبقيت أباك لهمّها وغمّها. وما أسرع اللحاق بك!»**[(٢)]. ثم

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.
(٢) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

انحنى عليه يشبعه لثماً وتقبيلاً.

ثم بعد ذلك قام يكفكف دموعه، وقال للهاشميّين: «**احملوا أخاكم، فواللّه لا طاقة لي على حمله**». فحملوه إلى المخيم ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحوه إلى جانب النساء، فوقعت عليه أُمه تحتضنه:

انه الوالده وتعبت برباك　　　اسهرت طول الليل وياك

احنه المثل هاليوم ردناك

يبني علي يا فتشة العين　　　يبني صواب الضاهدك وين

* * *

يا كوكباً ما كان أقصر عمره　　　وكذا تكون كواكب الأسحار



﴿١٦٤﴾

فلسفة الجزاء في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: تعريف العقاب وأقسام الحماية

يعرف فقهاء القانون العقاب على أنه إيقاع الجزاء على مرتكب الجريمة حماية للهيئة الاجتماعية، أي ليحموا المجتمع منه. ويقسم هؤلاء الفقهاء الحماية إلى قسمين:

الأولى: الحماية الخاصّة

وهي الحماية التي تستهدف شخص المجرم نفسه، بأن يوقع العقاب عليه. وهذا العقاب له حالات علاجية؛ فإما أن يردعه، أو أن يوقع عليه الألم، أو أن يستأصله نهائياً كأن يعدم.

الثانية: الحماية العامّة

وهي الحماية التي لا تنظر إلى المجرم نفسه، بل تنظر إلى الجريمة، فيشرعون

---

(١) النحل: ١٢٦.

إزاءها عقاباً يجعل أي فرد من المجتمع لا يقدم على ارتكاب مثلها.

صور العقاب في الشريعة الإسلامية

وسواء كانت الحماية خاصّة أو عامّة فإن العقاب في عرف الشريعة له منشأ اشتقاق، ونحن نعرف أن العقوبة في الفقه الجنائي الإسلامي على أقسام، لكنه يهدف بالدرجة الأُولى من وراء إيقاع العقوبة إلى أن تكون لحماية المجتمع. وحماية المجتمع عن طريق معاقبة المجرم تتم بعدّة صور، منها:

الأولى: تأهيل المجرم

وهي العقوبة التي تكون إما بتأهيل المجرم للعودة إلى المجتمع فرداً صالحاً بحيث يخوّف ويهذّب ويحسّس بأنه قد ارتكب خطأً. وهذا فيما لو لم تكن جريمته من الجرائم الكبيرة.

الثانية: إقامة الحدود والتعزيرات

ومن صور المحاسبة في الشريعة الإسلامية أن يوقع على المجرم أحد لونين من ألوان العقاب:

١ـ عقاب غير محدّد المدة والكمّ.

٢ـ عقاب محدّد المدة والكمّ. وهذا فيه حدّ وفيه تعزير، لكن التعزير موكل لنظر الإمام. هذا فيما إذا كانت الجريمة من الجرائم المهمّة.

المجتمع والجريمة

ويجب ألّا ننسى أن المجتمع هو الذي ينشِئ الإجرام وينشّئ عليه؛ فيصبح الفرد مجرماً. وإلّا فإن الإنسان يولد نظيفاً[1]، ولكن البيئة هي التي توجّهه. وأوّل تركيبة

---

(١) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو

اجتماعية تقوم بهذا الدور ـ سلباً أو إيجاباً ـ هي الأسرة، فالأُسرة (الأُم والأب) يعلّمان أطفالهما على ممارسة حالات الكذب والانحراف حينما يفعلان ذلك أمامهم، في حين أن الطفل يرى أبويه قدوة له. والعكس صحيح كذلك؛ فإذا كان الأبوان طاهرين فإن الولد ينشأ صالحاً.

أما الدور الثاني والثالث للتربية فهما للمدرسة والمجتمع. ثم يأتي الدور الرابع ـ وهو دور هامّ جدّاً ـ وتتبنّاه وسائل الإعلام، فالتلفزيون أداة فاعلة و مؤثّرة، وكذلك الوسائل الأُخرى كالكتب والمجلّات وغيرها، فكلّها تلعب أدواراً هامّة في التأثير على تربية الولد.

وبهذا تصبح مسؤولية الأُسرة مسؤولية مضاعفة تتطلّب أن تجنّب الولد المزالق.

المبحث الثاني: موضوع الآية الكريمة ومجالات تطبيقه

نعود للآية الكريمة حيث تقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾، وواضح أنه عقاب يعقب الجريمة. فالجريمة قد وقعت لتوّها، فلابدّ أن يأتي العقاب من بعد وقوعها بأقصر مدّة ممكنة؛ لأنه إذا تركت الجريمة حتى تبرد، فإنها ستترك مضاعفات كثيرة ومشاكل قاتلة. أي أنه إذا ارتكبت جريمة قتل، وبدأ التحقيق فيها يأخذ مجراه، لكن المدّة طالت، وكان دم وليّ الدم يغلي ولا يستطيع أن ينتظر، فهنا تحصل مضاعفات سيّئة.

وكذلك فإن فكرة العدل تنثلم في نفوس الناس، فيبدؤون بالتساؤل عن وجود العدل. كما أنه يجب أن يكون العقاب الواقع على الجريمة عقاباً فاعلاً رادعاً نافذاً. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1]، فالحياة تولد

☚ يمجسّانه». تصحيح اعتقادات الإماميّة: ٦١، الاحتجاج ٢: ١٧٦.

(١) البقرة: ١٧٩.

من الموت، حيث إن المجرم إذ اعتدى على المجتمع فالمفروض أن يجتذّ حتى تحمي المجتمع منه. أمّا إذا كان هناك تهاون في التطبيق، فسوف تحصل عنه مضاعفات سيّئة كما ذكرنا.

فالآية الكريمة إذن تؤكّد على هذا إذ تقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾. لكن ما هي مجالات تطبيقاتها؟ إن آراء المفسرين إزاءها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الرأي الأول: أنها في المشركين

فهؤلاء يذهبون إلى أن الآية الكريمة نزلت في قتال من يقاتل المسلمين من المشركين. فالله تعالى لم يعطِ الإذن للرسول الأكرم ﷺ بأن يقاتل كلّ الكفّار والمشركين حتى بعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وإنما أعطاه الأمر بأن يقاتل من يقاتل المسلمين منهم، ويشنّ عليهم الحرب: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1]، هذا بخصوص الكافر الحربي، أما الكافر غير المقاتل، فالأمر بقتاله منذ البداية لم يكن؛ لاقتضاء الضرورة ذلك، ثم صُرّح للرسول الأكرم ﷺ بعد ذلك بقتاله.

والسبب في هذا معروف؛ حيث إنه لم يكن للإسلام في بداية أمره طاقة أو قوّة عسكريّة يواجه بها الدنيا بأكملها، والدنيا يومئذ كافرة كلّها، ولذلك فإنه كان يقاتل من يقاتله. فالمسلمون كانوا في بداية أمرهم لا يملكون قدرات ولا سلاحاً، وإنما كانوا عبارة عن مجموعة صغيرة ضعيفة فقيرة، ولولا نصر اللّه

(١) البقرة: ١٩٠.

تعالىٰ ما صنعوا شيئاً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى، إنهم إنما أُمروا في البدء بقتال من يقاتلونهم كي يتركوا فرصة للذين يريدون أن يجيئوا للدين بدون قتال، فلعل هؤلاء يهتدون عن طريق السلم، وهو أفضل؛ فليس للإسلام مصلحة في أن يسفك الدم؛ذلك أن الدم عزيز جدّاً في نظر الإسلام. فالإنسان له قيمته وكرامته عنده [1].

وبالفعل بدأ الرسول الأكرم ﷺ بتنفيذ هذا المعنى، فكان أصحابه يفتقدونه فيجدونه جالساً بين مجموعة من البدو، يرشدهم ويوجّههم إلى رسالة الإسلام. وكان ﷺ يتحمّل من هؤلاء ألوان الآلام والعذاب، وقد استطاع أن يؤدّي دوراً جبّاراً وكبيراً في هذا المجال.

ثم إن هؤلاء المشركين ربما برز منهم عقلاء يردع بعضهم بعضاً، وهذا ما يروى في واقعة بدر، حيث إن بعضهم قال لقريش ـ وكانوا منهم ـ: لماذا تقاتلون هذا الرجل، فهو لا يدعو إلّا إلى صلاح، وإنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وصلة الأرحام، ويريد أن يعلّمكم ويهذّبكم؟ أي أنكم يجب أن تفخروا به.

فلما لم تجدِ الوسائل السلمية نفعاً، نزل الأمر بقتال المشركين: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [2]. فالآية في بادئ الأمر أمرت بقتال المشركين الذين يقاتلونهم فقط.

أخلاق الحرب في الإسلام

وينبغي مراعاة الضوابط التي حدّدها المشرّع الإسلامي في ساحة القتال،

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٦٩.

(٢) التوبة: ٣٦.

فالمرأة لا يجوز أن تقتل، وكذلك الطفل. ورجل الدين سواء كان في بيته أو كنيسته فإنه يحترم إلّا إذا ثبت أن له دوراً خطراً في التأليب على الإسلام، فإنه يقتل حينئذٍ. فساحة الحرب تقتصر على المقاتلين، وهذا مبدأ من مبادئ القانون الدولي الحديث الذي أقره الإسلام قبل أربعة عشر قرناً. فالإسلام لا يقر الاعتداء على غير المقاتلين، وبالأخصّ النساء و الأطفال.

وهكذا نجد أن أصحاب هذا الرأي يصرفون الآية الكريمة إلى هذا المعنى.

الرأي الثاني: أنها في الظلامات

ويذهب هؤلاء إلى أن الآية الكريمة نزلت في الاقتصاص، أي في الظلامات، فالقاتل يقتل، والسارق يؤخذ منه بقدر ماسرق من غير أن يرجع إلى الحاكم. بمعنى أنه إذا اقترض أحد ما من شخص (١٠٠) دينار، ولم يعطِها له، ثم تمكّن المقرض من أموال المقترض، فالمفسرون والفقهاء يقولون بجواز أن يستنقذ حقّه من مال المقرض بمقدار ما أخذ. وهذا يدخل في باب المقاصّة؛ حيث إن له أن يعاقب بقدر ما أُخذ منه، فتقابل ظلامته بالمثل.

لكن هناك تيار يرفض هذا الفعل ويرى غيره، وأصحابه يستندون إلى حديث عن رسولنا الأكرم ﷺ، وهو: «**أدِّ الأمانة إلى من استأمنك، ولا تخن من خانك**». ومورد هذا الحديث يميل إليه البعض من المذاهب الإسلامية الأُخرى. والغريب في هذه الرواية التي يرويها القرطبي [1] في تفسيره عن (مسند ابن سنجر)، أنها لا تناسب مقام الصحابي السائل، فقد ذكر أن شخصاً جاء إلى النبي الأكرم ﷺ، وقال له: يارسول الله، هذا فلان فجر بامرأتي، وقد تمكّنت الآن من امرأته؛ إذ أنه

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٠١، وانظر المحرّر الوجيز ٣: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

قد ائتمنها عندي وسافر، فهل أفجر بها؟ فنهاه النبي الأكرمﷺ عن ذلك، وقال له: **«أدّ الأمانة إلى من استأمنك، ولا تخن من خانك»**.

وهذا الكلام غير مقبول، حيث إن هذا الرجل صحابي كما هو واضح، فهو يعرف أن مسألة استيفاء الحقّ هنااعتداء على الكرامة والعفاف، فلا يمكن أن يصل صحابي إلى هذا المستوى المتدنّي من الفهم. وعليه فلا سبيل إلى قبول هذه الرواية أو هذا السبب.

قانون المماثلة والبدليّة

وهنا نقطة ينبغي الإشارة إليها حول قانون المماثلة الذي ينصّ عليه هذا المقطع الشريف: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾**، فهو يفرض أن تراعى المثليّة في العقوبة، فإذا لم يُستطع إليها سبيلاً، فحينئذٍ يُنتقل إلى البديل. فمثلاً لو أن شخصاً ضرب آخر ففقد سمعه، وأُريد الاقتصاص منه، فإنه يعاقب بالعقاب نفسه. لكن يرد هنا أُمور منها:

الأول: إشكاليّة مثليّة العقوبة

فنحن هل نستطيع مثلاً أن نضمن أن الضربة العقابيّة تؤدّي إلى فقدان السمع فقط، أم لا، بحيث إن المعاقَب سوف يموت من الضربة؟ فإذا لم نستطع أن نحرز المثليّة، فإننا ننتقل إلى البدليّة، وهي الدية أو التعزير.

وهذا المقطع الشريف من الآية الكريمة صريح في أنه في المقاصّة، وهو أمر شرعي وصحيح، ويسير عليه فقهاء المسلمين. فمثلاً إذا ضرب أحد ما شخصاً، ثم سنحت للمضروب فرصة في أن يضربه، فليس له أن يضربه أكثر من ضربة، وإنما هي ضربة بضربة [1].

---

(١) وهذا ما أكّد عليه أمير المؤمنينعليه السلام في وصيّته بابن ملجم، حيث قال: «انظروا إن أنا متّ

أمّا أن يعتدي عليه بأكثر من الضرب، فهذا مخالف للقانون، وهي مسألة تحتاج إلى ضبط عواطف، خصوصاً إذا لبست بعض الأثواب. كان أحد ملوك الغساسنة، وهو جبلة بن الأيهم قد أسلم، فجاء في أحد الأيام يريد الحجّ، وكان قد أمر بقبة له ديباجة صفراء فضربت له خارج الحرم، وكان يلبس رداء طويلاً مزركشاً، وأثناء الطواف وطئ رجل من فزارة على إزاره فانحلّ الإزار، فالتفت إليه جبلة وقال له: يابن اللخناء، أتطأ على ردائي؟

ثم ضربه بكفّه على وجهه ضربة هشم بها أنفه، فأقبل الفزاري إلى عمر بن الخطاب ـ وكان يومئذٍ معهم في الحجّ ـ ودمه يسيل من أنفه، فأخبره بقصّته مع جبلة، فبعث عمر إلى جبلة بن الأيهم فأحضره، ثم قال له: أرضِ الرجل في حقّه وإلّا أقدته منك.

فاستكثر جبلة هذا وقال: أو تفعل هذا؟ قال: نعم والله أفعله. قال جبلة: إنه رجل من السوقة وأنا ملك ابن ملك، والله لقد ظننت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهليّة. فقال له عمر: إن الإسلام وعدله بخلاف الجاهليّة، فأرضه من نفسك؛ فالإنسان مساوٍ للإنسان، ولا ميزة لك عليه، ولابدّ من إعطائه الحقّ. فقال جبلة: فإن لم أُرضه؟ قال عمر: إن لم ترضه أمرته أن يهشم أنفك كما هشمت أنفه قصاصاً؛ فإن الإسلام جمعك وإياه.

فلما رأى جبلة أن عمر يأبى إلّا القصاص قال: نعم، غير أني ناظر في أمري ليلتي هذه. فقال عمر: ذلك إليك.

فانصرف جبلة يومه ذلك مفكّراً، حتى إذا نامت العيون خرج في قومه الذين

☚ من ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة». نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

قدموا معه إلى بلاد الروم، ثم أقبل قاصداً إلى القسطنطينية، ودخل على هرقل ملكهم، فتنصّر هو وجميع من كان معه، ففرح به هرقل ورأى أنه فتح فتحاً عظيماً [١].

الثاني: التكافؤ بين الجاني والمجنيّ عليه

والإنسانية سواء في القصاص، حتى وإن كان المقتصّ أدنى من المقتصّ منه مستوى ومنزلة، وهذا ما جعل البعض يتساءل حوله، فقاتل المتنبّي مثلاً يستحقّ القتل، لكنه هل يعدل المتنبّي في أدبه وفكره؟ إن هذا لا يمنع تنفيذ القصاص بالجاني، والجاني إذ يجني فإنما يجني على نفسه، والمسألة لا تعدو حفظ النظام وتطبيق القواعد والقوانين لا أكثر.

فالمثلية أمر واقع، والإنسان ينبغي ألّا يسيطر عليه شعور بأنه أفضل من غيره؛ فهذه الفكرة ليست من الإسلام في شيء، وكلّ إنسان هو مخلوق كغيره من بني جنسه، له ما لهم وعليه ما عليهم.

الثالث: الإسراف في القتل وعدم اعتماد نظام المثليّة

إن من يعتدي ويقتل ربما لا يتّسع وجوده لأن يسدّ الثغرة التي يخلّفها المقتول، فيكون هذا الأمر دافعاً لأن يحمل ولي الدم على أبي القاتل وأمّه وأهله وأُسرته. وهذا لا يجوز بحال؛ فالقرآن الكريم يحدّد لنا هذه العلاقة بوضوح فيقول: ﴿**وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[٢]؛ فما ذنب الأُسرة؟ بل إن الأمر عند البعض يتجاوز حدود الأُسرة ليصل إلى القبيلة التي ينتمي إليها القاتل

---

(١) الفتوح ١: ٢٣٢ – ٢٣٤، خزانة الأدب ٤: ٣٦٢ – ٣٦٤.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

كلّها، فتصبح مطالَبة بدم المقتول، فما ذنب هؤلاء؟ إن القبيلة فيها المتديّنون والمهذّبون والأخيار، وهذا التصرّف جاهليّة رعناء. إذن يجب مراعاة المثلية، وهذا هو معنى العدل.

وهكذا نرى أن أصحاب هذا الرأي من المفسّرين يذهبون إلى أن مجال هذه الآية الكريمة جاء في خصوص المقاصّة، أي في الظلامات التي تكون في الكرامة أو الجسد أو المال.

الرأي الثالث: أنها في مورد خاصّ

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الآية الكريمة نزلت في موضوع خاصّ هو سبب نزولها؛ فهي نزلت في المدينة بعد واقعة أُحد التي حدثت فيها تجاوزات على قتلى المسلمين، فمُثّل بهم مثلات شنيعة. ومن هذه المثلات ما فعل بالحمزة بن عبد المطلب ﵇، فقد مُثّل به تمثيلاً هزّ النبي الأكرم ﷺ من أعماقه، فقد كان جسد الحمزة ﵇ مقطّع الأوصال بشكل آلم النبي الأكرم ﷺ حتى إنه صرّح معه قائلاً: **«لئن ظفرت بهم، لأمثلن بسبعين منهم»** [1]. ثم أمر ﷺ به فسجّي، وصلّى عليه، وكبّر عليه عشراً، ثم جاؤوا بالشهداء، فكان كلّ شهيد يصلّي عليه النبي الأكرم ﷺ يوضع الحمزة ﵇ إلى جانبه فيصلّي النبي ﷺ عليه، فكان أن صلّى ﷺ عليه سبعين صلاة.

وعزم المسلمون على مثل هذا؛ حيث إنهم لمّا رأوا المثلة بجسد الحمزة ﵇

(١) تفسير السمرقندي ٢: ٢٩٧، تفسير ابن زمنين ٢: ٤٢٣، أسباب نزول الآيات: ١٩٢، تفسير الواحدي ا: ٦٢٤، تفسير السمعاني ٣: ٢١٠، زاد المسير ؛: ٣٧٠، تفسير البيضاوي ٣: ٤٢٧، تفسير الثعالبي ٣: ٤٤٨، شرح معاني الآثار ٣: ١٨٣، مجمع الزوائد ٦: ١٢٠، وفي بعضها: «ثلاثين رجلاً» بدل «سبعين رجلاً».

وغيره من الضحايا قالوا: لئن رجعنا إلى الحرب وظفرنا بقريش لنمثّلن بالأحياء منهم فضلاً عن الأموات. لأن هذا التصرّف من المشركين ينمّ عن خسّة وانحطاط، ولا ينمّ عن رجولة؛ فالجريح لا يجهز عليه، فكيف بالقتل.

وحينما عزم النبي الأكرم ﷺ على أن يمثّل بهم وقال: «**لأمثلن بسبعين منهم**»، نزلت الآية تنهاه عن ذلك: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ**﴾؛ حيث إنها تخاطب المسلمين وتقول لهم: إنهم إن مثّلوا بواحد منكم، وكنتم تستطيعون أن تنتقموا له ممّن مثّل به وهو القاتل فتقتلوه، فبه ونعمت، ولكن المثلة غير مسموح بها؛ لأنها لا تحقّق تكافؤاً ولا عدلاً.

إن الرسول الأكرم ﷺ وكذلك الإمام علي عليه السلام لم يخرجا في كلّ حروبهما عن الشرع الشريف [1]، ولكن هؤلاء الذين قابلوهما كانوا يعيشون الجاهلية العمياء بكلّ أبعادها؛ فالأمويّون لحقوا بعمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه من الموصل إلى الشام وقتلوه. وفي أيّام العباسيّين عندما انتهت واقعة فخ التي انجلت عن (١٣٠) ألف قتيل، جاؤوا بالرؤوس المقطّعة إلى الهادي العباسي، فوقف فرحاً وبيده السيف يهزّه ويتمثّل:

بني عمّنا لا تنشدوا الشعر بعدما	**دفنتم بصحراء الغميم القوافيا**
فلسنا كما كنتم ترجّون سلمه	**لنقبل حكماً أو نحكّم قاضيا**
ولكن حكم السيف فيكم مسلّط	**فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا**

---

(١) بل إن أمير المؤمنين عليه السلام منع المثلة بقاتله، حيث أوصى السبط المجتبى عليه السلام بابن ملجم وهو على فراش الموت قائلاً: «بالله عليكم اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي. فإن عشت فأنا وليّ دمي، وإن متّ فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثّلوا بالرجل؛ فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور، وإن تعفوا فذلك أحبّ إليّ». نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

وقد ساءني ما جرّت الحرب بيننا بني عمّنا لو كان أمراً مدانيا

فإن قلتمُ إنا ظُلِمنا فلم نكن ظَلَمنا ولكنا أسأنا التقاضيا [١]

فهذا تلاعب بالألفاظ، ولا يمكن أن يقبل أحد به، فالعبّاسيّون هم الذين ظلموا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد أمر بالأطفال من السبايا فجيء بهم، وأمر بضرب أعناقهم. وبهذا فإن الإنسان له القابلية على النزول إلى أدنى مستويات البهيميّة؛ ولهذا فإن الشرائع تلحّ كثيراً على مسألة تهذيب الإنسان وتربيته تربية دينيّة صالحة.

المبحث الثالث: الأمويّون في منظور الآية الكريمة

وبعد أن نزلت الآية الكريمة تنهى النبي الأكرم ﷺ والمسلمين عن المثلة، نزل عليه هذا المقطع الشريف منها: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾[٢]. فرجع النبي الكريم ﷺ بعدما دفنوا الشهداء، ومر بدور الأنصار، فسمع النحيب والبكاء، فقال «**ما الخبر؟**». قالوا: يا رسول الله، إنهن النسوة يبكين على الشهداء. فذرفت عيناه الشريفتان الدموع، وقال ﷺ: «**ولكن عمّي الحمزة لا بواكي له!**»[٣]. فرجع الأنصار كلّ واحد منهم إلى بيته، وأمروا أهلهم بأن يذهبوا إلى بيت حمزة ﵁ ويبكوا عليه مع من يبكي.

الخليفة الثاني يبكي أخاه

وكان لعمر بن الخطاب أخ اسمه زيد قد استشهد في واقعة اليمامة، فكان

---

(١) وهي أبيات للشميذر الحارثي. مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢٣، معجم ما استعجم ٣: ١٠٠٧ ـ الغميم، وقد أورد البيت الأول فقط. (٢) النحل: ١٢٦.

(٣) شرح الأخبار ١: ٢٨٢، ٣: ٢٣١، مسند أحمد ٢: ٤٠، سنن ابن ماجة ١: ٥٠٧ / ١٥٩١، السنن الكبرى ٤: ٧٠.

يجلس ويبكي عليه بكاء شديداً، وكان يقول: ما هبّت الصبا إلّا وأجد منها ريح زيد [١].

ويبكي وينتحب الليل والنهار. وهذه ظاهرة طبيعية لا ينبغي أن يعاب عليها أحد؛ فعندما يذكر الإنسان عزيزاً ذهب عنه، يبكيه ويندبه.

على أية حال فإن الآية الكريمة نزلت تنهى عن المثلة، وتحذّر من فعلها وتستبشعه، لكن ما الذي وقع في أعقاب معركة الطف؟ لقد حصل فيها مثلات ومجازر لاحدود لها.

وقد فعل البعض بعد الواقعة أفعالاً لا يفعلها الإنسان الغيور مع أي كان، وهي أفعال لا تمتّ للإنسانية بصلة مطلقاً، وإلّا فهل يسوغ قطع إصبع للإمام الحسين عليه السلام من أجل أن يُستخرج منه خاتمه كما فعل بجدل؟ وهل يسوغ قطع الرؤوس وفصلها عن الأجساد الهامدة التي لا حراك فيها، وحملها على أطراف الأسنّة بعد انتهاء المعركة؟

بل بلغ الإصرار على الإجرام أشدّه حينما أصرّوا على أن يضعوا الرؤوس أمام النساء الثاكلات الوالهات، وكانت كلّ واحدة منهن لها قتيل يُدفع إليها رأس قتيلها

---

(١) تاريخ الإسلام ٣: ٦٠ - ٦١، كنز العمّال ٤: ٥٩٤ / ١١٧٣٥، الأنساب ٢: ٣٨١، وفيات الأعيان ٦: ١٥ - ١٧، الاستيعاب ٢: ٥٥٠. وفيها كذلك أن عمر قال لمتمّم بن نويرة: ما أشدّ ما لقيت على أخيك من الحزن؟ قال: كانت عيني هذه قد ذهبت، فبكيت بالصحيحة حتى أسعدتها الذاهبة وجرت بالدمع. فقال: إن هذا لحزن شديد. ثم قال عمر: يرحم الله زيد بن الخطّاب، إني لأحسب أني لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك. فقال متمّم: لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل زيد ما بكيته أبداً. فأبصر عمر وتعزّى عن أخيه. وكان عمر يقول: كان زيد خيراً مني؛ أسلم قبلي وهاجر قبلي. تاريخ الإسلام ٣: ٦٠ - ٦١، كنز العمّال ٤: ٥٩٤ / ١١٧٣٥، الأنساب ٢: ٣٨١.

ويوضع أمام عينيها؛ نكاية بها، ومبالغة في المثلة، وإمعاناً في إلحاق الأذى بعائلة الرسول الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. وهذه مبالغة في الانتقام من أهل البيت النبوي الطاهر‌عليهم‌السلام والحقد عليهم لا مثيل لها.

لقد أمر اللّه تعالى المسلمين بملازمة مودّة أهل بيت النبوّة‌عليهم‌السلام، فهو تعالى قد رفع شأنهم بين الناس، ويريد منهم أن يرفعوا شأنهم كذلك، لكنهم قابلوا اللّه تعالى وقابلوا رسوله الكريم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بهذه الطريقة العدائيّة الجاهليّة.

وقد وصل الحال بعمر بن سعد أن سأل جنوده عندما جلبوا الرؤوس أمامه قائلاً: هناك رأس مفقود، فأين هو؟ قالوا: رأس من هو؟ قال: إن الحسين قتل له طفل اسمه عبد اللّه الرضيع، فأين رأسه؟ قالوا: بلغنا أن أباه احتفر له بجفن السيف، وواراه في أرض المعركة؛ فإنه طفل لايحتمل رضّ الخيل والمثلة. وكان‌عليه‌السلام قد واراه تجنيباً للنساء عن هذا المنظر المؤلم. قال: انبشوا الأرض برماحكم، وأخرجوه واحتزّوا رأسه وجيئوني به.

فنبشوا الأرض برماحهم، واستخرجوا عبد الله برمح من تلك الرماح، واحتزّوا رأسه وذهبوا به إلى ابن سعد. ولذا فإن أُمه الرباب خرجت إليه في مثل هذه الليلة، فوجدته مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، يقول المؤرّخون: جمعت زينب‌عليها‌السلام عائلة الحسين‌عليه‌السلام، فتفقّدت الرباب فلم تجدها، فخرجت لتبحث عنها، وإذا بفارس يدور حول الخيمة، قالت: من أنت؟ قال: سيدتي، أنا من معسكر عمر بن سعد، وقد أمرني أن أحرسكم هذه الليلة. فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عين أبي الفضل أنت الذي تتولى حراستنا؟ أبعد عيون الأبطال من آل محمد‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنت الذي تتولّى حراستنا؟

إلي مناشده وياك وعتاب ... يمنوّخ الهودج على الباب

وسـبعطعش يـبرونِ اله حسـاب　　　أشـوف الرجـا وذاك الأمـل خـاب

ثم سألته: يا هذا هل رأيت امرأة؟ قال: لا، ولكن حينما مررت بأرض المعركة سمعت أنيناً لفت انتباهي، فربما كانت هي.

فأقبلت الحوراء عليها السلام تنادي: رباب أين أنت؟ واستمرّت تنادي إلى أن اقتربت من أرض المعركة، فأجابتها الرباب، فقالت لها زينب عليها السلام: ما أخرجك في جوف الليل؟ قالت: سيدتي صدري، فأقبلت إلى ولدي عبد الله لعل فيه رمقاً من الحياة ليرتضع.

هذا لأن الجيش الأُموي أباح لهم شرب الماء بعد مقتل الحسين عليه السلام وانتهاء المعركة، فالذي يظهر أن الرباب حينما شربت الماء در صدرها على ولدها بعد أن دار فيه الماء؛ ولذا أرادت أن ترضع طفلها، لكنها وجدته مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، فاحتضنته وحملته على صدرها، وأقبلت تطوف به حول مهده في الخيمة:

خـذت سـلوتي وظـلّيت اسـالي　　　بـرويحتي والدمـع هـالي

أدورن عـلى ايـميني وشـمالي　　　أهـز بـالمهد والمـهد خـالي

﴿١٦٥﴾

فلسفة صلاة الجمعة وأهدافها الإيحائيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: مشروعيّة صلاة الجمعة

ترتبط هذه الآية الكريمة بفقه صلاة الجمعة، وهي الفريضة التي لاقينا ولا زلنا جرّاءها الأمرّين؛ فنحن إذا رجعنا إلى كتب فقه السنّة، وإلى ما يكتبه حملة الفكر الإسلامي حول هذه الفريضة حينما يمرّون بوجوبها فإننا نجد أنفسنا موضع اتّهام وعرضة للكثير من الحملات التي تصل في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من القسوة. والحال أننا لا نخرج بها من سياق أيمّة المسلمين بصورة عامة، فعند ملاحظة الأحكام الفقهيّة نجد أنها موضع اختلاف بين المسلمين جميعاً، ومناشئ الاختلاف واضحة كأن تكون فهم الدليل والالتزام بالمبنى، أو وثاقة الراوي وعدم وثاقته، أو اختلاف ذهنيّة الفقيه الاستنباطيّة، وما إلى ذلك.

---

(١) الجمعة: ١٠.

الاختلاف بين فقهاء السنّة

وهكذا نعرف أن هناك أسباباً كثيرة لاختلاف آراء الفقهاء حول الكثير من الأحكام الشرعيّة. ويُلاحظ أن كمّاً صغيراً من الأحكام ليس فيها اختلاف بينهم، وإلّا فإن معظم الأحكام الاجتهادية فيها اختلاف بين الفقهاء والعلماء. وكمثال على هذا ما نلاحظه من أبناء المذاهب الأربعة حينما يتناولون الحديث المروي عن الرسول الأكرم ﷺ، والذي يقول: **«أصحابي كالنجوم؛ بأيّهم اقتديتم اهتديتم»** (١).

فهم يستفيدون منه أنه إذا أعطى صحابي رأياً، وأعطى صحابي آخر رأياً يقابله فالمكلف بالخَيار، بأيهما أخذ فهو على صواب وهدى؛ لأن الحديث الشريف يعطي للصحابة كافّة منزلة ومكانة (٢). ومعنى ذلك أن قول الصحابي حجّة حتى لو خالف صحابيّاً آخر، فلا مانع حينئذٍ في هذا. وهذا التوسّع في الباب نشأ من اختلاف الآراء.

وممّا هو معروف في مأثورات المذاهب الإسلاميّة الأربعة وفتاواهم أن بعضهم يقنت في صلاة الفجر، وبعضهم لا يقنت (٣)، وبعضهم يأتي بالبسملة قبل سورة

---

(١) تخريج الأحاديث والآثار ٢: ٢٢٩، ٢٣٠، شرح مسند أبي حنيفة: ٣٢٨، ٤٩٨، عمدة القاري ١٠: ٢٠٢، تحفة الأحوذي ١٠: ١٥٥، ١٩٦، الاستذكار ٤: ٧، التمهيد ٤: ٢٦٣، جامع بيان العلم وفضله ٢: ٧٨، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٥٦٨، ٦: ٣٨٦.

(٢) في فتح الباري ٤: ٤٩، أن حبر الأمّة ابن عباسﷺ كان يقول للمسوّر: أنا نجم وأنت نجم، فبأينا اقتدى مَن بعدنا كفاه.

(٣) فعند الأحناف كما في المبسوط ١: ١٦٥، تحفة الفقهاء ١: ٢٠٣، والحنابلة كما في المغني ١: ٧٨٨، أنه لا يصحّ إلّا في ركعة الوتر، أما عند المالكية كما في مواهب الجليل ٢: ٢٤٣، والشافعية كما في فتح العزيز ٣: ٤٤٠، المجموع شرح المهذب ٣: ٤٩٤، ٥٠٤، ٤: ٢٤،

الحمد [١] والبعض الآخر لا يأتي بها [٢]، وبعضهم يجهر بها والبعض الآخر لا يجهر بها [٣]، ومع ذلك فإن من يجهر بالبسملة يصلّي حلف من لا يجهر بها، ومن لا يعتقد بضرورة المجيء بالبسملة يصلّي خلف من يعتقد بضرورة المجيء بـها، دون أن يكون هناك تحسّس إزاء بعضهم.

والمذاهب الإسلامية تصرّح بهذا المعنى وقائمة عليه. فالخجندي مثلاً ـ وهو من فقهائهم الكبار ـ سأله رجل يوماً، فقال له: أنا كنت على المذهب الشـافعي، فانتقلت إلى المذهب الحنفي، وقد فاتتني سنتا صلاة قبل أن أنـتقل إلى المـذهب الحنفي، والآن أُريد قضاءهما؛ فعلى أي مذهب أقضيهما؟ فقال له: بأيهما اعتقدت يكفيك؛ فلا فرق بينهما.

فهو أفتاه بألّا فرق في البين مع العلم أن الخلاف في المسائل بين المـذهبين واضح للعيان، ومن ذلك أن الشافعي يرى قراءة سورة كاملة بعد الحـمد [٤] فـي حين أن أبا حنيفة يجوّز قراءة ما تيسّر من القرآن ولو كانت آية واحدة، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [٥]، و﴿مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ يصدق عـليه حـتى الآيـة الواحدة وإن كانت تتكوّن من كلمة واحدة، مثل ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [٦]، بل كان يقول=

☚ روضة الطالبين ١: ٤٣٢، فيُقنت في صلاة الصبح من بعد أن يرفع المصلّي رأسه من ركوع الركعة الثانية. في حين أنه مستحب عند الإمامية في جميع الصلوات كما في الرسائل العشر (ابن فهد): ١٥٩، مدارك الأحكام ٣: ١٩، وغيرهما.

(١) إعانة الطالبين ١: ١٧٤. (٢) مواهب الجليل ٢: ٢٥١.

(٣) انظر هذا المبحث والذي قبله مفصّلين عـلى آرائـهم فـي المـجموع شـرح المـهذّب ٣: ٢٣٤ ـ ٣٥٦.

(٤) المجموع شرح الهذّب ٣: ٣٨٥، ونقل فيه عنه استحباب ذلك.

(٥) المزمل: ٢٠. (٦) الرحمن: ٦٤.

يجوز أن تترجمها إلى الفارسية [١]. وهذه نقطة اختلاف كبيرة عن المذهب الشافعي.

وهناك العشرات من الفتاوى من هذا النوع ممّا هو داخل ضمن إطار موارد الاختلاف؛ سواء كانت صادرة عن صحابي، أو عن أحد المتأخّرين.

كما أن هناك اتّجاهاً فقهيّاً يجعل عبد الملك بن مروان من جملة الفقهاء؛ فنجد جملة من الآراء الفقهية التي تنسب له، ويؤخذ برأيه فيها. وهو بهذا يوضع في مصافّ الفقهاء الكبار. وبهذا نجد أنه ليس هناك أي تحسّس بين مذهب وآخر في فهم حكم من الأحكام. وفقهاؤنا لم يعدوا هذا الأمر، وهم إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا من الوجوب التخييري لصلاة الجمعة لغرض الجمع بين الدليلين؛ فإنهم يذهبون

---

(١) روى الذهبي وابن خلّكان في تأريخيهما قالا: ذكر إمام الحرمين الجويني في كتابه (مغيث الخلق في اختيار الأحقّ) أن السلطان محموداً كان حنفي المذهب مولعاً بعلم الحديث، يسمع من الشيوخ ويستفسر عن الأحاديث، فوجدها أكثرها موافقاً للمذهب الشافعي، فوقع في نفسه، فجمع الفقهاء في مرو، وطلب منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين. فوقع الاتّفاق على أن يصلّوا بين يديه على مذهبي الإمامين ليختار هو.
فصلى أبو بكر القفّال بطهارة مسبغة، وشرائط معتبرة من السترة والقبلة، والإتيان بالأركان والفرائض صلاة لا يجوّز للشافعي دونها، ثم صلّى صلاة على ما يجوّز أبو حنيفة، فلبس بدلة كلب مدبوغاً قد لطّخ ربعه بالنجاسة، وتوضّأ بنبيذ التمر، وكان في الحر، فوقع عليه البعوض والذباب، وتوضّأ منكّسا، ثم أحرم وكبر بالفارسية، وقرأ بعد الحمد: «دو برگ سبز» ـ أي ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ـ ثم نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ولا ركوع ولا تشهّد؛ ثم أتى بما ينافي الصلاة في آخرها قبل الفراغ منها، من غير نيّة السلام، وقال: هذه صلاة أبي حنيفة.
فقال السلطان: إن لم تكن هذه الصلاة صلاة أبي حنيفة لقتلتك. وأنكرت الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة، فأمر القفال بإحضار كتب أبي حنيفة، وأمر السلطان كاتباً نصرانيّاً أن يقرأ المذهبين جميعاً، فوجدت كذلك، فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة وتمسّك بمذهب الشافعي. ثم قال الذهبي: هكذا ذكر إمام الحرمين بأطول من هذه العبارة.
تاريخ الإسلام ٢٩: ٧٢ - ٧٣، وفيات الأعيان ٥: ١٨٠ - ١٨١..

إلى ذلك في حالة عدم الإمام العادل ونائبه الخاصّ. أما بعض فرق الشيعة فيقولون بالوجوب التعييني حتى مع وجود النائب العامّ، كالفقيه. فالأغلب لا توجد عندهم حجة على الوجوب التعييني لهذه الفريضة؛ وعليه فلا ينبغي أن نعتبر هذا الأُسلوب الذي يتعامل به بعض حملة الأقلام أُسلوباً لحملة العلم، أو أُسلوب المسلم الذي يرى أن على لسانه من اللّه رقيباً.

وعليه فمناشئ الاختلاف بين المسلمين متنوّعة، ولا ينبغي للمسلم أن يسيء الظنّ بالمسلم الآخر ما دام يبحث عن الدليل من القرآن الكريم، ومن السنة النبويّة الشريفة، ومن مصادر التشريع الأُخرى المتّفق عليها بين فقهاء المسلمين، كما ينبغي ألّا يؤدّي ذلك إلى حصول التشنّج بينهم؛ لأنه يفرّق بين المسلمين ولا يخدم وجودهم.

المبحث الثاني: المشاركة الوجدانية

هناك موضوع تبحثه مدارس علم النفس يسمى «المشاركة الوجدانية»، وهو عبارة عن حالات من التأثّر المحسوسة التي تتحكّم بالأفراد والجماعات، وهي عادة تكون عند الإنسان والحيوان على حدّ سواء.

المشاركة الوجدانيّة عند الإنسان

إن هناك حالات من التأثّر المحسوسة في المحيط، وهي حالات بمجرّد أن يراها شخص ما فإنه يشارك بها. فلو أن شخصاً دخل مجلساً ورأى أهله يضحكون، ثم سألهم عن السبب وأجابوه، فإنه سيشاركهم في الضحك. وبعكسه، فيما إذا كان عندهم محفل حزن، فإنه سيشترك معهم في حزنهم. فتأثير المؤثّر على المتأثّر موجود عند كلّ إنسان، بل وعند الحيوان كذلك، لكنه عند الإنسان

يتّسم بكونه في صورة أرقى منها عند الحيوان، فيعتبر عنده من الأُمور المترقّية من دنيا الحيوان إلى دنيا الإنسان.

المشاركة الوجدانيّة عند الحيوان

ومن مظاهره عند الحيوان ما نلاحظه من أنه إذا هرب حيوان ما لسبب أو لغيره، فإن الحيوانات الأُخرى من بنات جنسه سيتبعنه دون استثناء. وهذا نوع من المشاركة الوجدانية، وكذلك إذا صاح ديك فإن الديكة الأُخرى في المنطقة كلّها ستصيح. ومعنى هذا أنه يوجد تأثّر وتأثير، وكما رأينا فهو عند الحيوان كما هو عند الإنسان. وهذه المشاركة تؤدّي إلى الاشتراك الاجتماعي، بمعنى أنه إذا اشترك أحد ما في هذه المؤثّرات الوجدانية، وتكرّرت لأكثر من مرّة؛ فإن نتيجة ذلك أن يندمج بهم ويندمجوا به، ويتأثّر بهم ويتأثّروا به.

أثر المشاركة الوجدانيّة في الدعوة

والمشاركة إذا كانت دينيّة كان تأثيرها كبيراً، ويمثّل لها بقاعة درس فيها مجموعة من الطلبة يطرح أمامهم الأُستاذ مسألة دينية كالوفاء أو العدالة، ثم يشرحها لهم؛ فإن كان هذا المعلّم متأثّراً برسالته التي يشعر بضرورة أدائها، غير مأجور ـ ذلك أن البعض يعمل لأجل الأجر الدنيوي، فلا تجد عنده حرارة صاحب الرسالة ـ فإنه سيؤثّر إيجابيّاً على قاعة الدرس التي يدرّس فيها؛ لأنه يحمل رسالة هو قبل أي شيء كان متأثّراً ومقتنعاً بها.

وفي مثل هذا الحال نرى أن الطلّاب يندمجون معه اندماجاً كاملاً، ويشتركون مع أدائه مشاركة وجدانيّة حقيقيّة، فإذا تكرّرت هذه الممارسة الفعليّة مرّتين أو ثلاث مرّات أو أكثر ـ سيّما إذا كان بارعاً متمكّناً من استغلال إقبال الطلّاب

عليه بمجامع قلوبهم ـ فإن هذه القيم سوف تتغلغل في نفوسهم مع الزمن، فيحصل بهذا تماسك اجتماعي وتنتشر التربية الدينية التي يهدف من وراء محاضراته ودروسه إلى نشرها.

صلاة الجمعة مشاركة وجدانية

وبعد هذه المقدّمة نخلص إلى نتيجة هي أن صلاة الجمعة من هذا النوع تماماً، أي أنها مشاركة وجدانية بين المسلمين؛ فهي حالة جماعيّة تخلق داخلهم هذا الشعور، بل هي الحالة الأفضل لبلوغ ذلك فيما لو لم تستغلّ لأهداف بعيدة عن الهدف الذي رسمه الله تعالى لها أن تؤدّيه. فالإمام الذي يصعد المنبر لإلقاء خطبتي الجمعة سيطرح مسألة أو أكثر من المسائل التي تهمّ المجتمع الإسلامي وتعالج مشاكله، وبهذا فإن المصلّين سيتأثّرون بها؛ ممّا يؤدّي بها إلى أن تتطوّر إلى حالة من التماسك الاجتماعي، وتصبح همّاً من هموم الجماعة.

رسالة المسجد

ولو رجعنا إلى تاريخنا لوجدنا أن أغلب العمليّات الإصلاحيّة التي قام بها المسلمون في قضايا المجتمع والحياة قد انبثقت عن المسجد. وبهذا فإننا نعتبر أن المسجد الإسلامي عبارة عن مؤسّسة ثقافيّة وتربويّة كبرى، وشاملة لأصعدة الحياة كافّة، ومن ضمن وظائف هذه المؤسّسة الثقافيّة أن تخلق تماسكاً وجدانيّاً فيما بين المسلمين.

وهذا بطبيعة الحال لا يحصل ولا يكون عن فراغ أو عدم التزام برسالة المسجد ووظيفته، بل هو نتيجة حتميّة للمواظبة على صلاة الجمعة وتكرارها كلّ أُسبوع، حيث يقوم الخطيب الذي يحمل روح الإسلام، ويتصرّف على ضوء الوازع

الديني والرسالة السماويّة، بعيداً عن التشنّج، فيطرح آراء الدين الإسلامي في مشاكل الحياة وهموم المسلمين.. يطرح حلول السماء لها. ولا شك أن هذا الفعل الجماعي سيخلق بمرور الزمن روح المشاركة الوجدانية بين المسلمين، ممّا يؤدي إلى الوصول إلى مرحلة التماسك الاجتماعي. وبهذا نعرف أن للمسجد أكثر من وظيفة نذكر منها:

الأولى: علاج مشاكل المسلمين وهمومهم

فلو فرضنا أن خطيب الجمعة أراد أن يطرح مسألة التبكير في الزواج وفضله، فإنه لابدّ أن يذكر الأحاديث الواردة في الباب ممّا يؤكّد هذا المعنى ويحثّ عليه، من مثل حديث الإمام أبي عبد اللّه الصادق ﷺ: «**من سعادة المرء ألّا تطمث ابنته في بيته**»[1]، ويدعو الناس إلى تقليل المهور، وإلى إزالة العقبات عن طريق الزواج. لكن هذا الأمر ربما ـ بل لعلّه غالباً ـ لا يجدي نفعاً إذا لم يكرّره أكثر من مرّة؛ فإن راح يكرّره ويعزف على هذا الوتر لأكثر من جمعة، فإن الحضور حتماً سيتأثّرون بطرحه وما يدعو إليه؛ إن لم يكن على صعيد المصلّين كافّة، فعلى صعيد نسبة كبيرة منهم.

وعليه فالمجتمع ـ أي مجتمع ـ عندما يتعرّض إلى هذا اللون من الطرح الرسالي المتكرّر، والأداء الهادف المرتكز إلى الإحساس بمشاكل المسلمين وهمومهم، وضرورة وضع علاج وحلول لها على ضوء رسالة السماء، فإن الفكرة سوف تتعمّق في وجدانه، وتصبح عنده مبدأ ثابتاً يعمد إلى العمل على تطبيقه وتنفيذه. وهذا بدوره سوف يؤدّي إلى حصول حالة من التماسك الاجتماعي

---

(١) الكافي ٥: ٣٣٦ / ١.

والتربية الدينية عنده، والشعور بضرورة إيجادهما داخل المجتمع الإسلامي. وهذه أول أهداف هذه الفريضة المباركة، ألا وهي صلاة الجماعة، وهو علاج مشكلة ما من المشاكل التي تهم المسلمين.

الثانية: جمع كلمتهم

وفي الوقت نفسه فإن صلاة الجمعة تجمع المسلمين مع بعضهم على بساط واحد، فيلتقي أثناءها المسلم مع أخيه المسلم، ويتعرّف على آلامه وآماله، ويتحسّس مشاكله، وبالتالي سوف تتغيّر وجهات نظر بعضهم إلى البعض الآخر، وسيقول كلّ منهم: إن هذا المسلم متّجه مثلي إلى قبلة واحدة، ويقرأ كتاباً واحداً، ويعبد ربّاً واحداً؛ فيجب ألّا أُعاديه.

إن هناك أُناساً يعيشون في أقصى القارّات البعيدة وهم معروفون لبعض المسلمين، بل إنهم ربما كانوا يعرفونهم أكثر ممّا يعرفون غيرهم من المسلمين الذين يعيشون معهم في بلدهم. ومن هذا أن بعض المذاهب الإسلاميّة لا تعرف شيئاً عن عقائدنا، الأمر الذي يجعلهم يحملون عنّا صورة مخطوءة ومشوّهة؛ لأنهم غير مستعدّين لترويض أنفسهم على التعرّف على فكرنا وعقيدتنا وثقافتنا، ولأنهم يقرؤوننا من خلال ما يكتبه أعداؤنا عنا، مع أن الحقيقة تحتّم على المسلم أن يكون موضوعيّاً، كما أنها تفرض عليه كذلك أن يكون ذا تفكير علمي. كما أن عليه ألّا يكتفي بأن يقرأ المسلم من خلال كتاب أو فكرة مبثوثة على الهواء، بل لابدّ من المطالعة الميدانيّة في هذا الأمر.

وكذلك فإن الحقّ والحقيقة يوجّهان إلى أن أي مسلم إذا وجد نظرية فيها إنجاز لعالم مسلم من أي مذهب، وفي أي مجال يخدم الأُمّة، فإن عليه أن يرى أن هذا الإنجاز له هو، وأنه يصبّ في مصلحته أولاً وآخراً؛ لأن هذا الإنجاز يخدم

المجتمع الإسلامي، وهو أحد أفراده.

إذن فصلاة الجمعة تؤدّي هذا الدور الضخم، وهي عملية مملوءة خيراً وبركة وعطاء، وفيها قابلية لشحذ النفوس على الإيمان. وبهذا نرى أن لهذه الصلاة أكثر من فائدة.

دور صلاة الجماعة

كما أن صلاة الجماعة تؤدّي الدور نفسه كذلك؛ لاتحاد الهدف من وراء إقامتهما؛ ولهذا فإن النبي الأكرم ﷺ كان يدفع المسلمين دفعاً لصلاتي الجمعة والجماعة؛ لما فيهما من عطاء كبير [١].

المبحث الثالث: محراب الصلاة ومحراب الشارع

نرجع للآية الكريمة، فهي تقول: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ**﴾، أي بعد أن يفرغ المسلمون من أداء صلاة الجمعة عليهم أن يسيحوا في الأرض، فالآية الكريمة تأمرهم بالانتشار فيها؛ سعياً وراء الرزق. والانتشار هو التفرّق، لكن ما هو الهدف من هذا التفرّق؟ إن الإجابة على هذا التساؤل يستلزم تقديم مقدّمة، فنقول: إن اللّه تعالى جعل للإنسان نوعين من الكتب: الكتاب التدويني، والكتاب التكويني، ويمكن توضيحهما بالآتي:

الكتاب التدويني، وهو الكتاب المطبوع الذي نقرؤه ونستفيد ممّا فيه من معلومات.

---

(١) يتّضح ذلك من خلال الرجوع إلى الروايات الكثيرة الواردة عن رسولنا الأكرم ﷺ وعن أيمّتنا عليهم السلام في فضلهما، والأجر الذي أوجبه اللّه تعالى لمقيمهما، والتشنيع على تاركهما. انظر: وسائل الشيعة ٧: ٣٤٧ ـ ٣٤٩ / ب ٢٧، ٨٥ ـ ٨٦ / ب ٤٢، ٨: ٢٨٥ ـ ٢٩١ / ب ١، وغيرها من الأبواب، وهي كثيرة.

الكتاب التكويني، هو عبارة عن المشي في الأرض، والتعرّف على طبائع الناس وأخلاقهم وعاداتهم، وعلى حركة السوق، وعلى روابط المجتمع. فالانتشار في الأرض نوع من الدراسة.

والناس قسمان: قسم يمشي وهو غافل، والآخر يمشي وهو منتبه للظواهر الاجتماعية وغيرها؛ لأنه يرى أمامه كتاباً مفتوحاً، وهو الكون، فيقرأ منه عظمة الله جلّ وعلا. وهو هنا يجد الإبداع المتناهي عند الخالق تبارك وتعالى، فيرى آلاف الوجوه ولا وجه مشابهة بينها؛ فلا يرى وجهاً يشبه وجهاً آخر، مع أن الناس خلقوا من مادّة واحدة. وهذه من آيات اللّه تعالى، فيجد الإنسان التنوّع في الألوان [1] والأشكال والطباع والأخلاق والمعاملات.

فهذا الكتاب المفتوح يرسم لنا دروساً ضخمة وعظات كبيرة. ولذا فإن تعرّف المسلمين ببعضهم يجعلهم يندمجون معاً تحت عنوان شريف خالد هو عنوان الإسلام: **«من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم»** [2].

إذن يجب أن تكون لدى الجميع مشاركة وجدانيّة في حياتهم العامّة، وأن يتفاعلوا مع بعضهم. فالآية الكريمة بعد أن أمرت بالتوجّه إلى صلاة الجمعة أخرجت المسلم من محراب الصلاة إلى محراب آخر، هو محراب الشارع والسوق، وذلك فيما إذا قصد الإنسان به وجه الله تعالى. فإذا خرج المسلم لهدف من الأهداف المشروعة، ثم لم يحِد عن الطريق الحلال ولم يبتعد عن وجه اللّه جلّ وعلا كان في حالة عبادة. ذلك أن العبادة لا تقتصر على المحراب فقط، فكل نشاط يمارسه الإنسان وهو يراعي فيه وجه الله فهو عبادة.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ الروم: ٢٢.

(٢) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ١٦٤ / ٤ ـ ٥.

المبحث الرابع: العلاقات الاجتماعيّة في التشريع الإسلامي

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، يقول حبر الأُمّة عبد اللّه بن عبّاس ﷺ : ما أمرتهم هذه الآية في هذا المقطع بأمر من أُمور الدنيا، وإنما هو عيادة المرضى، وزيارة الإخوان في الله، وحضور الجنائز [١]. وسنرى من خلال هذا الأثر وغيره ممّا سيأتي أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّـهِ﴾ أُمور خمسة، هي:

الأمر الأول: حضور الجنائز

وبناء على هذا الأمر فإن المقصود بهذا المقطع الشريف هو حضور مجالس الذكر، أي أنه إذا أنهى المصلّي صلاته الواجبة، وكان عند أحد أقربائه أو أحد إخوانه من أبناء البلد الذي هو فيه أو الذي يليه جنازة، فإن المشرّع الإسلامي يدفعه إلى حضورها وتشييعها. ويترتّب على هذا الحضور أُمور:

الأول: المواساة

فالمسلم بهذه العلاقة يرى أنه يؤدّي أمراً مندوباً إليه، ويواسي عبره أخاه المسلم. فحينما يفقد الإنسان شخصاً عزيزاً فإنه يتأثّر وينفعل عاطفيّاً، وهذه الزيارة والمواساة تخفّفان عنه كثيراً، فالمواسي إنما يقوم بتطييب خاطره، وتعزيته في مصابه: **«من عزّى مصاباً، كان له مثل أجره من دون أن ينقص من أجر المصاب شيئاً»** [٢]. فهذه مشاركة وجدانية كذلك، وهي تبعث السلوى في نفس صاحب المصيبة، كمن كان عنده جنازة أو غيرها.

---

(١) تفسير البغوي ٤: ٣٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٠٩، تفسير الآلوسي ٢٨: ١٠٣.

(٢) قرب الأسناد: ٥١ / ١٦٦، ١٥٦ / ٥٧٤، الكافي ٣: ٢٠٥ / ٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١١ / ١٦٠٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٢: ٢٦٨ / ١٠٧٩، ولم يذكرا ذيل الحديث.

الثاني: الاتّعاظ بالموت

فالمواسي سيأخذ شحنة من العظات والعبر يستمدّ منها حالة التفكّر بمصيره واستذكار الآخرة، فهذا المحمول على نعشه ربما كان قبل أن يعتريه الموت ممّن يجلس على أسرّة الديباج، ويتناول أرقى الأطعمة وما لذّ وطاب منها، ويلبس أرقى أنواع اللباس، وبالنتيجة فإنه كان يحيا حياة راقية ممّا متّعه اللّه تعالى به في هذه الدنيا من وسائل النعم والراحة، وهو الآن بعد كلّ ذلك العزّ والنعيم ستكون الأرض مسكنه، وسيدفن في الرمل، ويهال عليه التراب. وهذه الصورة الواقعية عادة يكون لها تأثير كبير على الإنسان الذي يستشعر حقيقة الدنيا، ويرى صورتها البشعة. فهذا هو حال الحياة الدنيا، وهذا هو مصير الإنسان، وهذه هي النتيجة المتوقّعة التي يجب ألّا يتفاجأ بها أحد.

إن على الإنسان أن يعي ولا يتغافل عن حقيقة أن جميع ما عنده سوف يخلّفه وراء ظهره، وسيذهب إلى هذا التراب [١]. والوعي بهذه الحقيقة يترك في نفس الإنسان أثراً كبيراً، ولذلك فإنه في خضمّ هذا الحال، وبعد أن يوصل المتوفّى إلى قبره يرى نصب عينيه الحديث النبوي الشريف: **«كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها»** [٢].

إن رسول اللّه ﷺ لا يريد أن يجعلنا نعيش حالة كدر دائمة، أو أن ينزع

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الأنعام: ٩٤.

(٢) انظر: الموطّأ ٢: ٤٨٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣، المجموع شرح المهذب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، التلخيص الحبير ٥: ٢٤٧.

البسمة من شفاهنا، لكنه يريد أن يقول لنا: إنكم غافلون عن ذكر الله وعمّا تريد بكم الدنيا، وليس من شيء يهزّكم من أعماقكم مثل الموت، ذلك أنه يأخذ أثره من الإنسان لحظة وقوعه أو رؤيته، غير أن الإنسان ينسى ذلك بسرعة، يقول محمود الورّاق:

نُـراعُ لذِكـرِ المَـوتِ سـاعةَ ذِكـرِه ... وتــعترضُ الدنــيا فَـنَلْهُو ونَـلعَبُ

يـــقينٌ كأنَّ الشكَّ غـــالب أمــره ... عَلَيه وعرفانٌ إلى الجهل يُنسبُ[1]

إن الموت يبيّن للإنسان تفاهة الحياة، وأن الدنيا مهما طالت فهذه هي نتيجتها ونهايتها، كان أحد الصحابة عند تشييع جنازة فقال لمن معه: «إن أمراً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله»[2]. فلماذا إذن هذا التهالك على الدنيا؟

الثالث: الالتفات إلى خلود العبقريّة

إن الإنسان ـ أي إنسان ـ حينما يقف على القبر يتحرّك في داخله شعور بحقيقة الموقف، ويستشعر حالة تمييز لهذا الأمر؛ حيث إنه إذا رأى التراب قد أُهيل على الميّت فإنه يراه أحد اثنين:

---

(١) لم نعثر عليهما لمحمود الورّاق، ففي كنز الفوائد: ١٧، ذكر بيتاً واحداً ونسبه لأمير المؤمنين، وفي الأغاني ١٩: ١٠١، الوافي بالوفيات ٥: ١١٧، نسباه لابن وهب الشاعر، وزاد في الأغاني عليهما:

نُـفوسُ المَـنَايا بـالنفوس تَشـعَّبُ ... وكُلٌّ له من مَذْهَب المَوت مَذْهَبُ

وآجــالُنا فــي كـلِّ يَـوْم وليـلةٍ ... إليــنا عــلى غِـرّاتِـنا تـتقَرَّبُ

أأيـقَنَ أَن الشـيبَ يَـنْعَى حـياته ... مُـدِرٌّ لأَخْـلافِ الخَـطِيئةِ مُـذنِبُ

(٢) هو الحسن البصري. شرح نهج البلاغة ١١: ١٦٩، ١٩: ٢٣، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٢٢٤. وفي معاني الأخبار :٣٤٣ / ١، تحف العقول: ٤٠٨ - ٤٠٩ أن الإمام موسى بن جعفر قال وكان عند قبر أحدهم: «إن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله، وإن شيئاً هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره».

شخص يخرج من الدنيا ولم يترك فيها ما يخلّده، فهو كباقي الكائنات الحيّة؛ يأكل ويشرب وينام. فمثل هذا إذا وضع في التراب ختمت حياته وانتهت عند هذا الحدّ.

وشخص يخرج من الدنيا لكنه لو رمي عليه أطنان من التراب فإن صوته سيظلّ ينبعث من تحت الثرى، وسيبقى يتألّق في عالم الذكر الخالد، فهو نبع لا ينضب، وعطاء لاحدود له.

إن على كلّ إنسان أن يعي حقيقة أن الموت لا يمكن له أن يدفن العبقريّة، وإنما يدفن الدم واللحم، فالعطاء في الحياة يعيش ويبقى، وغذاء الفكر يبقى رافداً من الروافد التي تمدّ الحياة، يقول أحد الشعراء واصفاً الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

وللحقّ هذا مَربعٌ في تُرابِهِ — لحَيدَرَةٍ جِسمٌ وفي اُفقِهِ فِكرُ

ثَلاثٌ وعشرٌ من قُرونٍ تَصَرَّمت — وما زال منه فوقَ هذا الثّرىٰ عطرُ

وأزمنةٌ مَرَّت بكل صُروفِها — يشدّ بها زيدٌ ويدفعها عمْرُو

تمرُّ عليه وهي سوداءُ غيمةٌ — فيمشي إليها وهو منبلجٌ بدرُ

أجل تلك عُقبىٰ المُتَّقين خوالدٌ — من الذكر لا تَفنىٰ ولا ينتهي الذِّكرُ

ومن خلقِ الشطآنِ أن صخورَها — جلامدُ مهما استفحل المدّ والجزرُ

إلى أن يقول:

فإن قيل هذا قبرُه قلت أربعوا — أهذا الكيانُ الضخمُ يجمعُه قبرُ

ولكنه باب إلى معطياته — يمدّ غناه من بساحتِه فقرُ

فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يندبنا لحضور تشييع جنائز المؤمنين، لأن في وقفة كلّ مسلم عليها دروساً وعظات وعبراً له؛ فهو إذ يتذكّر بأنه قد وارى الميّت في حفرته، وأسلمه إلى الديدان فأصبح طعاماً لها سوف يستشعر حقيقة مآله

وما الذي سيصير إليه.

ثم إن هناك إصراراً من البعض على أن يكون تشييع الجنائز يوم الجمعة، حيث إنها تجمع بانتظار هذا اليوم، ونستنتج من هذا أن وراءه مشاركة وجدانية ومعنى إنسانيّاً، وأن فيه توادّاً وتراحماً. فالصديق عندما يرى أن صديقه صديق شدّة ورخاء، يشاركه في أفراحه و آلامه ويواسيه في مصائبه فإنه سيهون عليه ما هو فيه من مصيبة.

الأمر الثاني: عيادة المرضى

فقوله تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**﴾ يعني عيادة المرضى يوم الجمعة، وهذا من الأُمور المستحبّة في نفسه، وهل يوجد أكبر من هذا الفضل؟ فالزائر بزيارته المريض إنما يدخل السرور على قلبه والراحة على جسمه، فهو في حالة مرضيّة، وصحّته غير مستقيمة له، لكن هذه الزيارة تعيد إلى نفسه شيئاً من الراحة والشعور بالطمأنينة. وهذه هي الغاية من المواساة في مثل هذا المورد؛ حيث إن المريض يشعر بأنه ليس وحده في مصيبته هذه، أو في الحياة، فهناك يواسيه فيها، أو من يدعو له بالشفاء. وهذا عامل خلقي يغرسه الإسلام في النفوس، ويبيّن عبره أن الأُسرة الإسلامية ليست مجموعة معزولة داخل جدر منزل ما، وإنما هي ذات مفهوم أوسع من هذا.

وهذا هو السبب في أن الأرض تقسم إلى دار كفر ودار إيمان، فلا اعتراف في الإسلام بالحدود التي يرسمها الإنسان، فأهل «**لا إله إلّا الله**» أُسرة واحدة يحنو بعضهم على بعض.

الأمر الثالث: طلب العلم

وهناك من يذهب إلى أن المراد من قوله تعالى المشار إليه آنفاً هو طلب العلم،

كما هو مروي عن سعيد بن المسيب [١]. ومعنى هذا أن المصلّي إذا فرغ من أدائه صلاة الجمعة، وذهب إلى بيته، وأخذ قسطاً من الراحة، فعليه بسؤال أهل العلم ومدارستهم والاستفادة منهم.

الأمر الرابع: النوافل

وهناك رأي غيره يقول: إن المراد من هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة هو أن يأتي الإنسان بصلاة النوافل بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة [٢].

الأمر الخامس: التهيّؤ للكسب يوم السبت

وهذا هو الرأي الأخير في الباب، وهو الرأي المرويّ عن الإمام أبي عبد اللّه الصادقعليه السلام حيث إنهعليه السلام قال في خصوص هذا المورد: «**الصلاة يوم الجمعة، والانتشار يوم السبت**» [٣]. وهذا يعني أن على المرء التهيّؤ للكسب وأُمور الدنيا يوم السبت.

المفهوم الاتكالي وشرف العمل

وهذه التعبئة ربما يستغربها البعض ويقول: لماذا يحاول الإمامعليه السلام أن يعبّئ المصلي لعمله يوم السبت، ويأمره بأن يتهيّأ للعمل فيه؟ ونقول: ليس هناك من فكر أو منهج في مناهج الحياة يحرص على إصلاح الدين والدنيا كما تحرص عليها الشريعة الإسلامية، فالفرد يعتبر جزءاً من المجموعة البشريّة، وعليه أن يشارك في فعّاليّتها كافّة وإنعاشها اقتصاديّاً، وذلك بأن يعمل؛ لأن هذا العمل يحفظ ماء

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٨: ٢٥٠، تفسير الآلوسي ٢٨: ١٠٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٨: ٢٥٠.
(٣) المحاسن: ٣٤٦ / ٨، مجمع البيان ١٠: ١٤، تفسير الثعلبي ٩: ٣١٧: الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٨: ٢٥٠، عمدة القاري ٦: ٢٥١.

وجه الإنسان، ويجعله يشعر بأن لديه رسالة في الحياة عليه أن يؤدّيها.

ولهذا فإننا نرى أن الأعمّ الأغلب من الرجال الذين يحالون على التقاعد ـ المعاش ـ تحصل عندهم حالة من الانهيار؛ ذلك أنهم يظنّون أن مهمتهم في الحياة قد انتهت؛ ممّا يؤدّي إلى حصول نوع من الإرباك والارتباك في حياتهم. مع أن هؤلاء يشعرون بأنهم لا زالوا قادرين على العطاء وتأدية رسالتهم التي أُنيطت بهم في هذه الحياة.

قواعد جائرة

وهذا الإنسان إنما أُحيل على التقاعد وفق مجموعة من القواعد لا مصداقيّة لها في كثير من الأحيان، ولا يُعلم من أين جاء بها أصحابها، ومنها القاعدة التي تقول: «العقل السليم في الجسم السليم»، مع أننا نرى أحياناً أجساماً ضخمة ولكنها تملك عقولاً صغيرة[1]، وقد تجد أجساماً أمضّها المرض، ولا يقوى أصحابها على الحركة لكنهم كانوا قمّة في الكمال والعقل، بل إن عقولهم تسع الدنيا بحالها ورمّتها[2]. ومن هذا أن بعض الفقهاء كانت أيديهم ترتعش، ولا تستطيع أن تمسك قلماً لكنهم أنجزوا إنجازات رائعة وغاية في الفخامة، مع أنهم كانوا يربطون

---

(١) يقول حسّان بن ثابت:.

لابأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عرضٍ   جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

جمهرة الأمثال ١: ١٦٩. وقال ابن الرومي:

طولٌ وعرضٌ بلا عقلٍ ولا أدبٍ   فليس يحسنُ إلّا وهو مصلوبُ

المصدر نفسه. وقال:

جمالُ أخي النهى كرمٌ وخيرٌ   وليس جمالُه عرضٌ وطولُ

جمهرة الأمثال ١: ١٧٠

(٢) كالنبي أيّوب﵇ والإمام السجّاد﵇ وغيرهما من الأنبياء والأيمّة﵈.

الأقلام إلى أيديهم ليكتبوا، وكانت ظهورهم منحنية لكثرة ما أكبّوا على الكتابة. فهؤلاء قد بارك الله في أوقاتهم وعطائهم.

إذن فليس هناك من علاقة بين العقل والجسم، إننا نرى أو نسمع الآن عن مشاريع كتابة موسوعات علمية تتولّاها إحدى الجامعات، أو ثلّة من العلماء والأساتذة من ذوي الاختصاص، فيجتمعون لإنجازها؛ لضخامة تلك الموسوعات العلمية ولإتمام إنجازها، في حين أن هؤلاء العلماء على مرضهم كان البعض منهم وحده ينتج موسوعات متعدّدة وينجزها. وهنا لابدّ من الإيمان بأن البركة في الوقت تفعل فعلها.

ولذلك فإن المفهوم الاتّكالي كالتقاعد الذي ينهي حياة الإنسان يعدّ ممارسة مخطوءة غير صحيحة. وهذا هو الذي حدا بالإمام عليه السلام لأن يعبئ الأُمّة للعمل، ويأمرها بالاستعداد له يوم السبت. أي أن الإنسان إذا أنهى عمل الآخرة فعليه أن يتوجّه إلى عمل الدنيا. تروي الكتب الحديثيّة محاورة جرت بين الإمام زين العابدين عليه السلام، وبين أحد أصحابه حيث إنه سأله: كيف أصبحت يابن رسول اللّه؟ قال عليه السلام: «**أصبحت مطلوباً بثمانٍ**». قال: ماهي يابن رسول الله؟ قال عليه السلام: «**اللّه تعالى يطلبني بالفرائض، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسنة، والعيال بالقوت، والنفس بالشهوة، والشيطان باتّباعه، والحافظان بصدق العمل**»، أي رقيب وعتيد، وهما الملكان اللذان عن اليمين وعن الشمال، «**وملك الموت بالروح، والقبر بالجسد؛ فأنا بين هذه الخصال مطلوب**»[1].

والإنسان عند اللّه تعالى عظيم، صعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر، وقال

---

(١) الدعوات : ١٢٧ - ١٢٨ / ٣١٦، الأمالي (الطوسي): ٦٤١ / ١٣٣٠.

للمسلمين: **«يا أيها الناس، أي يوم هذا؟»**. قالوا: يوم حرام. ثم قال: **«يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟»**. قالوا: شهر حرام. ثم قال: **«أيها الناس، أي بلد هذا؟»**. قالوا: بلد حرام. قال: **«فإن اللّه عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه. ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم: لا نبيّ بعدي ولا أمّة بعدكم»**[1].

فالإنسان ضخم في كرامته وعطائه ووجوده، والأرض والشمس والقمر كلّها مسخّرات لخدمته[2]، فعليه أن يتحمّل المسؤولية[3]، وأن يعي أن «الغُنم بالغُرم». فالحياة تحتاج إلى من يعمرها، والآخرة كذلك.

المبحث الخامس: في معنى الذكر

ثم قالت الآية: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، وفي هذا الجزء من الآية الكريمة للمفسّرين رأيان:

الأوّل: أنه ذكره تعالى على كلّ حال

هناك شريحة من المفسّرين يذهبون إلى أن الإنسان يجب ألّا يغفل عن ذكر اللّه تعالى حتى وإن استغرقت الأعمال الأُخرى أغلب وقته، وشغلته في معظمه.

---

(١) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.

(٢) قال اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾. الحج: ٦٥، وقال عزّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان: ٢٠، وقال جلّ اسمه وتبارك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ الجاثية: ١٣.

(٣) التي تصدّى لحملها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ الأحزاب: ٧٢.

فهنا ينبغي عليه أن يحرّك لسانه بذكر اللّه جلّ وعلا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهذا معناه أن البعض من الناس عندما يعمل يغفل عن ذكره تعالى وعن تحريك لسانه أو شفته ببعض كلمات الطاعة، كالتسبيح أو التحميد أو التهليل أو التكبير أو الاستغفار وما إلى ذلك. فالآية الكريمة تشعر الإنسان بهذا، وتقول له: ابقَ على شعور دائم بأنك مفتقر إلى اللّه تعالى، فإذا ذكرته كنت حاضراً لديه بالرحمة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]. فإذا ألحف الإنسان في الطلب على اللّه تعالى فإن هذا الحضور سيجعله بعين اللّه.

وهنا مسألة يذكرها العلماء، وهي أن اللّه تعالى عندما خلق الإنسان لم يتركه، بل جعل له ما يقيم حياته، وهذا يعني أن الإنسان محتاج إلى اللّه تعالى حدوثاً وبقاءً، وهذا الاحتياج يحقّقه ارتباط الإنسان بربّه عن طريق الذكر والدعاء؛ فإذا انقطعت العناية الربّانيّة عن الإنسان لحظة واحدة فإنه سيتلاشى وينتهي. وعليه فذكر الله يجعل الإنسان تحت عين اللّه تعالى وظلّه ورعايته، فلا ينساه. وفوق هذا فإن الإنسان بهذا الذكر يرفع نفسه إلى مستوى التكامل؛ إذ أن معنى ذكره تعالى: الاعتراف من المثل والقيم والرحمة، فإذا ذكر الإنسان ربّه ذكر العدل، وذكر الرحمة واللطف والعفو.

إننا عندما نمرّ بسيرة أيمّتنا عليهم السلام نجد أنهم كانوا يعملون ويكسبون قوتهم، فالإمام الصادق والإمام الباقر عليهما السلام كانا لا يفارقان المسحاة، ولا يملّان العمل. وهو عمل بدني وإلى جانبه العمل الخلقي، فكانت ألسنتهم عامرة دائماً بذكر اللـه جلّ وعلا. والسرّ في ذلك أنه كما أن الجسم يحتاج إلى الغذاء ويطالب به، فإن

---

(١) البقرة: ١٥٢.

الروح تحتاج إلى الغذاء وتطالب به كذلك، وليس هناك غذاء أفضل للروح من غذاء الله عز وجل.

الرأي الثاني: أنه ذكر الله تعالى في التجارة

فبناءً على رأي الإمام الصادق ﷺ المارّ من أن المقصود بـ ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ العمل يوم السبت، فإن بعض الفقهاء يعقّب عليه بقوله: يعني اذكر الله في تجارتك. وهذه نظرية ضخمة؛ لأننا الآن نعيش في زمن يسود فيه نمطان من النظم الاقتصاديّة، هما الاقتصاد الاشتراكي والاقتصاد الرأسمالي، وهذان النظامان المعاصران كلاهما ـ سيّما النظام الرأسمالي [١] ـ يفترضان أن الإنسان حيوان منتج، أي أن عليه أن يعمل فقط ليجمع الأموال مهما كانت الوسائل. فهما لا يعيران العوامل الأخلاقية في الإنتاج أي أهمّية [٢].

وعليه فإن الإنسان عليه أن ينتج ويكسب الأموال؛ سواء كان ذلك من بيع الخمرة أو المخدرات أو السطو على حقوق الآخرين تحت غطاء القانون وسترته، فالمهم أن يحصل على الأموال بأي طريق كان. أمّا الاقتصاد الإسلامي فكل عملية من العمليات فيه يخضعها إلى الجانب الخلقي، فهو يشترط فيها هذا العامل، وإلّا فهي معاملة غير مشروعة، ويحرم أخذ المال إزاءها. فالغشّ حرام، والنجش حرام، واستغلال العامل بأن يقتطع من أجره وتعبه حرام، والربا حرام، فكلّ هذه العوامل التي لا تخضع للضوابط الشرعية حرام، ويحرم أخذ المال إزاءها.

والمقصود من هذا أن العامل الإنتاجي يجب أن يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً

---

(١) فالمبدأ الميكافيلّي يفرض وجوده هنا، ويقرّر أن الغاية تبرّر الوسيلة.

(٢) انظر هذا مفصّلاً في محاضرة (العامل الأخلاقي في الاقتصاد الإسلامي) من هذا المجلّد.

بالعامل الخلقي؛ لأن الإنسان إذا لم يكن عنده أخلاق تردعه، فإنه سيهدم كلّ شيء تطاله يده.

وربما يقول قائل: إن العلم كافٍ في تهذيبه، فإذا ثقّفنا الإنسان فإنه سوف لن يصبح مجرماً.

لكننا عند مراجعة سجل الإجرام نجد أن (٩٠٪) من المجرمين هم من المثقّفين. فالعلم ـ ببالغ الأسف ـ لم يعطهم أي مناعة ضدّ هذا المرض، ولم يتمكّن من أن يغيّر سلوكهم أبداً، أمّا الدين فإنه إذا استولى على الإنسان أصبح المجتمع منه في أمان وراحة.

إذن قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، يعني ذكره عند كلّ عملية بيع أو شراء، وهنا يصبح الإنسان أمام أمرين إيجابيّين:

الأول: أنه يفترض نفسه يتعامل مع مسلم داخل السوق، فيقنعها بكسب ربح معقول وليس فاحشاً.

الثاني: أنه لن يفكّر باغتيال المشتري. كان يونس بن عبيد يبيع ملابس جاهزة في سوق الخزّازين، فجاءه رجل، فقال له: عندك مطرف بأربعمئة؟ فقال يونس بن عبيد: عندنا بمئتين. فنادى المنادي بالصلاة، فانطلق يونس إلى صلاة الجمعة، وهو وقت لا يسوغ البيع فيه، وترك ابن أُخته مكانه، فلما صلّى الجمعة ورجع وأصبح قريباً من دكانه رأى الرجل يحمل المطرف الذي سأله عنه، فأمسكه وقال له: بكم اشتريت هذا؟ قال: لماذا؟ قال: أُحب أن أشتري مثله. قال: اشتريته بأربعمئة درهم. قال: هلمّ معي. قال: إلى أين؟ قال: إن الذي باعك قد غشّك. ثم جاء لابن أُخته وقال: ما هذه الدراهم؟ قال: ذاك المطرف بعناه لهذا الرجل. فقال له: أنا أقنع بهذا القدر من الربح وأرضى به، فلماذا تأخذ زيادة عليه؟ ولماذا فعلت

هذا؟ أما استحييت من الله؟ قال: إنه قد رضي به. قال: إذا كان قد رضي فأين الله منك؟ إن الله موجود، والدين والمروءة كذلك، فاذكر الله.

ثم التفت يونس إلى الرجل وقال له: يا عبد الله، هذا المطرف الذي عرضت عليك بمئتي درهم، فإن شئت فخذه وخذ مئتين، وإن شئت فدعه [١].

فالإنسان يجد رزقاً فيه بركة ورزقاً ليس فيه بركة؛ ذلك أن الله تعالى يطرح البركة فيه إذا كان الربح المأخوذ عليه ربحا معقولاً، وكذلك إذا ذُكر الله جلّ وعلا عند البيع والشراء: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فالسوق عبارة عن محراب كما ذكرنا في بداية المحاضرة، وذلك فيما إذا كان البيع نظيفاً وليس فيه غشّ، بل هو بيع كلّه مروءة، ويبتغي صاحبه من ورائه وجه الله تعالى لحظة ممارسته. فمحلّ العمل بهذه الصورة محراب، والعمل نفسه عبادة، بل من أحسن أنواع العبادة.

المبحث السادس: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فالإنسان إذا ذكر الله تعالى فإن الله جلّ وعلا يذكره، وإذا ذكر الله تعالى أحداً فلا ندري ما الذي يفعله له؟ ففي الحديث القدسي أن الله تعالى قال لنبيّه موسى بن عمران ﷺ: **«يابن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن عينك الدموع، ثم ادعني في ظلم الليالي تجدني قريباً أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني. إن لي عباداً أُحبهم ويحبونني، وأناجيهم ويناجونني، فإذا جن عليهم الليل افترشوا لي أكفهم وجباههم، وذكروني وناجَوني**

---

(١) تهذيب الكمال ٣٢: ٥٢١ - ٥٢٢، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٨٩، صفة الصفوة ٣: ٣٠١، طبقات فحول الشعراء ٢: ٣١٢.

بكلامي ؛ بين متأوّهٍ وباكٍ ، ومتضرّعٍ وشاكٍ، أولئك أقلّ ما أعطيهم ثلاثاً . قال: ماهي يارب؟ قال: الأولى : أُقبل عليهم بوجهي، أفترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أُريد أن أُعطيه؟ والثانية: لو كانت السماوات والأرض من مواريث أحدهم لاستقللتها له. والثالثة: كما ذكروني فإني أذكرهم»[1].

وهذا المعنى هو ما حقّقه الإمام الحسين‌عليه السلام وأُخته زينب‌عليها السلام امتداد الحركة الحسينيّة من بعده، وذلك يوم الطفّ؛ فقد كان‌عليه السلام في محراب شهادة وعطاء، وعندما مرّ بالضحايا رأى أشلاء الأنصار تتراقص على الأرض، وهناك بنو هاشم، وكذلك كان آخر نبلة في كنانته عبد الله الرضيع، فقد طرحه للفداء؛ فلم يبقَ معه شيء. فماذا كانت عبارته؟ كانت محض ذكر للّه تعالى، لقد رمق السماء بطرفه وقال: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»**[2].

فالإمام‌عليه السلام إنما قدّم هذه القرابين من أجل دين اللّه تعالى، فلابد أن تكون المكافأة على هذا الفعل بما هو أكبر منه. وبالفعل فإن اللّه جلّ وعلا لم ينسَ هذا الرجل العظيم بعد ذلك، حيث إنه تعالى وضع له عرشاً في قلب كلّ مسلم مخلص، ولم يجعل لأحد أن يمرّ بذكراه إلّا أن ينحني إجلالاً لذلك الدم الطاهر ولتلك الوقفة التي مازال صوتها مدوّياً على مرّ الزمن، فصوت عاشوراء وصوت الحسين‌عليه السلام لا يمكن أن ينساهما الناس، فهما ما زالا يملأان أرجاء الفضاء:

---

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٢٦ / ٢٨، شجرة طوبى ٢: ٤١٩، وفيهما عن النبي داود‌عليه السلام، ونقل طرفه الشيخ الصدوق في الأمالي: ٤٣٨ / ٥٧٨ عن النبي موسى‌عليه السلام.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين‌عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

فـإن كـانت الأبـدان لـلموت أُنشـئت ... فقتل أمرئ بالسيف في الله أفضلُ[(١)]

ثم ختمت مسيرته أُخته زينب الكبرى عليها السلام، فذكر الله تعالى لم يبارحها وهي في أحلك ساعاتها؛ حيث إنها عليها السلام خرجت إلى جسده المقطّع ليلاً، ثـم وضـعت كفّيها تحت ظهره، ورفعته إلى السماء وقالت: «اللهم تقبّل منّا هذا القتيل قـرباناً لوجهك الكريم». ثم جلست عند رأسه الشريف تتأمّل هـذا الوجـه الذي كـان رسول الله صلى الله عليه وآله يشبعه لثماً وتقبيلاً، وتتأمّل هذا الخدّ الذي طالما أشـبعته أُمّـها الزهراء عليها السلام لثماً، وتتأمّل الجبين الذي طالما سجد للّه تعالى في محرابه، فأخذت تمسح الدم والتراب عنه:

يناعي اشبعد تدري اشبگالي ... وشـخلّفت عـندي اللـيالي

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٤، البداية والنهاية ٨: ٢٢٨، مختصر تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٣٣، حماسة الظرفاء ١: ١٨١، الفتوح ٥: ٧٢، ينابيع المودّة ٣: ٨١.

﴿١٦٦﴾

نور القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأوّل: اختلاف الأمّة في الفتوى

القاعدة في موضوع العطف في اللغة العربية أن المعطوف غير المعطوف عليه، فإذا قلنا: «جاء محمد وعلي»، فهذا يعني أنهما اثنان، وبالنتيجة فإنهما متغايران. لكن العطف أحياناً لا يستلزم المغايرة، وهو ما يسمى حينئذٍ بالعطف البياني أو التفسيري، أي يأتي للبيان والتفسير، فيكون المعطوف عين المعطوف عليه، أي أنهما أمر واحد. والآية الكريمة من هذا الباب، فقوله تعالى: ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ﴾ فيه صفتان معطوفتان للقرآن، وهاتان الصفتان تقرّران أن القرآن الكريم نور وكتاب، ثم وصفته بأنه ﴿مُبِينٌ﴾.

---

(١) المائدة: ١٥ ـ ١٦.

ثم إننا نعرف أن النور وسيلة تقهر الظلام وتجلوه، فيساعد على إيجاد وسط ناقل للرؤية عند العين، فالعين لا يمكن لها أن ترى من دون هذا الوسط الناقل؛ ولهذا فإنها تحتاج إلى الضوء.

تشبيه الأشياء المعنوية بالحسّيّة

لقد درج القرآن الكريم دائماً على أن يشبّه الأُمور المعنويّة بالأُمور الحسّيّة، ليقرّبها إلى أذهان الناس. ومنه تشبيه آية المقام القرآن الكريم بالنور[1]؛ لأنه يضيء لنا ظلمات الروح وحوالكها، فروح الإنسان من دون الوحي ورعاية السماء لا يمكن أن تهتدي إلى طريقها أو أن ترى سبيلها الأفضل. وكما هو معلوم فإن الإنسان تؤثّر فيه مؤثّرات كثيرة، فلا يستطيع أن يميّز السبيل الصحيح والطريق المستقيم بسهولة؛ ولذا فإنه يحتاج إلى إرشاد وتوجيه يقيانه ممّا يحيط به من المؤثّرات والشهوات والمطامع والغرائز. فالإنسان يحتاج إلى دعم وتوجيه خارجي، وهو دور الرسالات السماوية التي تأتي لتقوّم به الإنسان، فتضيء له طريقه وفكره وروحه.

أسباب اختلاف الأحكام الشرعيّة

ونلفت النظر إلى أن الذي لا يملك عقيدة سماوية يعيش بروح مظلمة، فحياته تقبع في ظلام روحي دامس، فهي تسير بلا هدف ولا إلى هدف، وهو يشارك الحيوان وليس عنده أُفق روحي. فالقرآن هو ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾، أي مظهر.

وقد يسأل سائل فيقول: إذا كان القرآن كتاباً مبيناً كما يسمي نفسه، فلماذا هذا الاختلاف الذي نجده بين علماء المسلمين؟

---

(١) فهي هنا استعارة تصريحيّة.

والحقيقة أن الجواب على هذا لا يحتاج إلى كثير تأمّل، ونحن سنوجزه بإذن اللّه تعالى في أُمور خمسة:

الأوّل: اختلاف ذهنيّات الفقهاء

إن من المعلوم أن ذهـنيّات الفـقهاء مـختلفة بـاختلاف أصـحابها وأذواقـهم ومشاربهم ومذاهبهم، أي أن كلّ واحد منهم له نسبة معيّنة من الذكـاء والعـبقرية والفطنة، وعلى ضوء هذه النسبة من الفهم يفسّر الآية ويستنبط الحكم. وهذا الأمر ينسحب على أغلب جوانب الفكر والمعرفة سيّما فيما يتعلّق بفهم المتصدّي نفسه، ومن هذا أن الإنسان كما هو معلوم مخلوق من التراب، وأن الأرض التي نشأ منها ويمشي عليها عبارة عن عيون ووجوه وخدود، يقول أبو الطيب المتنبي:

يدفَن بـعضنا بـعضاً ويـمشي　　　أواخــرنا عــلى هــام الأوالي

فكـم عــين مــقبّلة الـنـواحـي　　　كحيل في الجنادل والرمـالِ[1]

فهذا الشاعر قد أعطى هذه المسألة صورة من مزاجه، ثـم يأتـي أبـو العـلاء المعرّي ليقول:

خــفّف الوطءَ مــا أظــنّ أديمَ الــ　　　أرضِ إلّا مـــن هـــذه الأجســادِ

ربّ لحــدٍ قــد صــار لحداً مـراراً　　　ضــاحكٍ مـن تـزاحـمِ الأضـدادِ[2]

ثم يعقبه الخيام فيرسم صورة أُخرى:

كــلّ ذرّات هــذه الأرض كــانت　　　أوجــهاً كــالشموس ذاتَ بــهاءِ

اجـلُ عــن خـدّك الـتـراب بـرفق　　　فــهو خــد لكــاعب حســناءِ

فمع أن الفكرة في الحالين واحدة، وهي أن جسد الإنسان يؤخذ ويوضع في

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ٢٦٥.　　　(٢) سقط الزند: ٧.

التراب، ثم يتحوّل بعده إلى تراب، لكن الأُدباء والشعراء يتفاوتون في تصوير هذا المشهد.

وهذا الأمر شأن الفقهاء فيه شأن غيرهم، فشأنهم أمام كلّ مدرك يعالجونه لاستنباط أي حكم شرعي الاختلاف في فهمه وفهم ما يتعلّق به من جزئيّات، ذلك أنهم ليسوا على مستوى واحد من الذهنية والذكاء، فالأفهام تتفاوت من فقيه إلى غيره.

الثاني: احتمال مدرك الحكم أكثر من وجه

إن النصّ الذي يعتبره الفقهاء والمجتهدون مدركاً لهم في عمليّة الاستنباط يحتمل أكثر من معنى ووجه، كالآية القرآنية مثلاً، أو السنّة الواردة عن النبي الأكرم ﷺ؛ سواء كانت قوليّة كالرواية أو فعليّة، فلابدّ أن يكون فيها احتمالات متعدّدة، كما هو شأن الكلام العربي وغيره. وبناء على اختلاف القابليّات والأفهام وأنها متفاوتة عند الفقهاء، فإن النتيجة حتماً ستكون حالة من نشوء الاختلاف بينهم في فهم هذا الدليل ثم اختلاف تحديد الحكم المراد منه. فكلّ فقيه من هؤلاء يفهم المسألة بشكل مغاير لما يفهمه الآخر.

وهذا واضح من وجود موارد اختلاف كثيرة بين الفقهاء في الفتوى، ولتقريب المعنى نذكر أن كلّ فقيه يفهم من لفظ ما بإضافة قرينة ما إليه معنى مغايراً لما يفهمه الآخر منه. فمثلاً قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[1] فـ«من» هنا ـ في قوله تعالى: ﴿**مِمَّا**﴾ ـ يفهم منها بعض الفقهاء التبعيض، أي أن على الإنسان ألّا ينفق كلّ ما لديه، بل يكفيه أن ينفق بعض أمواله.

---

(١) البقرة: ٣.

أمّا البعض الآخر فيفهم منها أنها لبيان الجنس، أي أن عليه ألّا يتصدّق من الأشياء الزائدة عن حاجته، بل إن عليه أن ينفق من المال الذي يحبّه ويأكل منه هو وأهله. وهذا معناه أن هناك اختلافاً في فهم الدليل الشرعي هو الذي أدّى إلى هذا الاختلاف في الحكم، وبعبارة أُخرى إن المنشأ هنا هو الاختلاف في فهم الدليل.

الثالث: اعتبار الطريق وعدمه

وكذلك فإن من الأسباب المؤدّية إلى هذا الاختلاف أن هناك اختلافاً بين الفقهاء في اعتبار الطريق الكذائي أو عدم اعتباره في عمليّة الاستنباط، فهناك طرق معتبرة وهناك أُخرى غير معتبرة في علم الدراية. ومن هذا ما يسمى باصطلاح علماء الدراية بـ«خبر المستور»[1]، أي الخبر الذي يرويه جماعة عن واحد لم يرد فيه مدح أو قدح. فحينما تجيء رواية بهذه الصفة فهل يصحّ أن نأخذ بها أم لا؟ إن البعض من العلماء يقولون: يصحّ أن نأخذ بمثل هذه الرواية، أمّا البعض الآخر فيرى أنه لابدّ من رفضها وعدم قبولها. وبهذا فإننا نرى أن الطائفة الأُولى تأخذ بها وترتّب عليها حكماً شرعياً، أمّا الطائفة الأُخرى فترفضها، ولا ترتّب عليها حكماً شرعياً، والنتيجة هي حصول اختلاف بين هؤلاء وأُولئك على صعيد الفتوى.

الرابع: اعتبار بعض القواعد الأصوليّة وعدمه

ومن موارد الاختلاف كذلك الاختلاف في قبول بعض القواعد الأُصوليّة وعدم القبول بها. إن عند علماء أُصول الفقه ما يسمّى بـ«مفهوم الموافقة»، فمثلاً في قوله

---

(١) انظر: المنخول ٣٤٨، أُصول السرخسي: ٣٧٠.

تعالى: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[١]، فإذا كان الله تعالى قد حرّم لفظة ﴿أُفٍّ﴾ بحقّ الأبوين، فالضرب حرام من باب أولى، فهذا مفهوم موافقة. وهناك ما يسمّى بـ«مفهوم المخالفة»، وهذا المفهوم له أقسام عدّة؛ فمثلاً حينما يردنا الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «مطل الغني ظلم»[٢]. أي أن الشخص الذي لا يعطي الدائن دينه الذي لغيره في ذمّته لهو مماطل وملتوٍ؛ لأنه غني ومع ذلك هو لا يدفع الحقوق المستحَقّة إلى أصحابها، ولا يردّ الدَّين إلى أهله؛ وبهذا يكون التواؤه ومماطلته ظلماً.

وهذا منطوق الحديث، أمّا مفهومه فهو أن المدين إذا كان لا يعطي الدائن حقّه لأنه معسر فإنه حينئذٍ لا يعدّ ظالماً، لكن بعض الفقهاء لا يعتبر المفهوم حجّة؛ فلا يأخذ به.

الخامس: اعتبار الشرط وعدمه

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[٣]، فهذه الآية الكريمة تقول: إن من لا يملك أموالاً يتزوّج بها امرأة حرّة، فليتزوّج أمة، فالشرط ألّا تكون لديه الأموال الكافية. وعلى هذا جمهور مذاهب أهل السنّة[٤]، لكن أبا حنيفة يخالفهم فيه؛ حيث يقول: لنا أن نعمل بإطلاق الآية الكريمة التي تقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) الفقيه ٤: ٣٨٠ / ٥٨١٩، تحف العقول: ٢٦٧، مسند أحمد ٢: ٧١، ٢٦٠، ٣٨٠، ٤٦٣، ٤٦٥، صحيح البخاري ٣: ٥٥، سنن الدارمي ٢: ٢٦١.

(٣) النساء: ٢٥.

(٤) تفسير ابن أبي السعود ٢: ١٦٦.

﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾[1]. أي أنه ألزم نفسه بمقدّمات فرضت عليه ألّا يأخذ بهذا المفهوم. وهنا يختلف الحكم كذلك.

وعليه فإن هناك أسباباً تؤدّي إلى وقوع الاختلاف بين الفقهاء ليست من القرآن ولا علاقة به. إن مصادر التشريع واضحة، لكن الأفهام هي التي تختلف، وهي ممّا لا يمكن أن نحجر عليه، فالفقهاء هم سادة الموقف هنا ولا نستطيع أن نحجر على عقولهم وتفكيرهم.

الرجعة

إن البعض من الكتّاب عندما يناقش الفكر الإمامي يعتقد بأنه قد أمسك عليه جملة مؤاخذات، منها الرجعة، فيقول متّهماً: إن الشيعة يقولون بالرجعة. وكأن هذا لم يقرأ القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[2]، وهي واضحة في يوم القيامة حيث إن المخلوقات جميعاً ستحشر دون أن يترك أحد، ثم إنه تعالى يقول في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[3]. وعند الجمع بين الآيتين نستنتج وجود حشر قبل يوم القيامة؛ ومن هذا يفهم بأن هناك رجعة. فإن كان هناك من لا يقول بها فلا ينبغي له أن يحمل على الآخرين ويتّهمهم بالكفر، فالمسألة لا تعدو الاختلاف في أُفق الفكر واتّساع الذهنيّة.

فالاختلاف إذن ناشئ هنا من أذواق الفقهاء وذهنيّاتهم ومشاربهم ومدى فهمهم للدليل.. الدليل الذي تارة يكون محفوفاً بقرائن مقامية وأُخرى بقرائن

---

(١) النساء: ٣.

(٢) الكهف: ٤٧.

(٣) النمل: ٨٣.

خارجيّة حسب نوع القرينة التي يقتضيها المقام. وهذا في واقع الأمر ليس عيباً، وإنما هو ثروة للإسلام.

المبحث الثاني: في أن القرآن من عند الله

وهنا نقطة هامّة ينبغي الإشارة إليها في هذا المبحث، وهي في خصوص قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾، فالتأكيد على مسألة كونه ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ يقصد بها التأكيد على أنه ليس من إبداع البشر. أي أنه يريد أن يطرد من أذهان الناس فكرة أن هذه الدعوة المباركة من غير اللّه تعالى. ولا زلنا حتى الآن نسمع من بعض الكتاب الغربيّين أنهم ينسبون القرآن الكريم للنبي الأكرم ﷺ، ويقولون: إن هذا الكتاب قد اخترعه محمد. وبالطبع فإن الأُسلوب الذي عليه القرآن يطرد كلّ دعوى في هذا الباب، ويكفي القرآن الكريم إعجازاً أن العرب قد أدركوا متانة أُسلوبه، ومدى إعجازه وشأوه.

المبحث الثالث: في وظيفة القرآن الكريم

إذن فالآية الكريمة تثبت أن هذا الكتاب المقدّس هو من عند اللّه تعالى، وأنه جلّ وعلا قد أنزله لنا نوراً وكتاباً مبيناً. ثم استطردت لتبيّن لنا وظيفة هذا الكتاب فقالت: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾، أي أن القرآن الكريم يوصل من يتّبعه إلى سبيل السلام. وللمفسّرين حول معنى سبيل السلام في هذا المقطع الشريف آراء عدّة نرصدها ونجملها بالآتي:

الرأي الأول: أنه تفسير الكتاب العزيز

فالمفسّر عندما يعمد إلى تفسير القرآن الكريم فإنه إنما يريد رضوان اللّه تعالى، فهو سيعيش في جوّ من السلام؛ لأنه يتّبع الدليل الصحيح، والقرآن الكريم

يقول: ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١]، فهو يخاطب هؤلاء الذين ينكرون الحشر ويقول لهم: نحن خلقناكم في أشكال وأدوار مختلفة؛ حيث كنتم تراباً، ثم نقلناكم من دنيا التراب إلى دنيا الإنسان عبر مراحل متعدّدة. وهذا تفسير لا إشكال عليه، ولا شائبة فيه.

لكن البعض من المفسّرين يذهب في تفسير هذا المقطع الشريف إلى أن الروح إذا خرجت من جسد الإنسان، فإنها إن كانت مطيعة فإن اللّه يضعها في حوصلة طير أخضر، فإذا مات نقلها إلى حوصلة طاووس أو طائر آخر، وتبقى تتنقّل هكذا من مكان إلى آخر. أما الشرّير فإن روحه تبقى تتنقّل من حيّة ثم إلى عقرب ثم إلى غيرهما من الحيوانات ثم إلى جمل ثم يظلّ هكذا، حتى إذا أذن اللّه تعالى في أن يدخله الجنّة بعد تمحيصه حوّل الجمل إلى شاة، والشاة إلى حيوان أصغر منها، وهكذا حتى يصل به إلى دودة تستطيع أن تدخل من ثقب الإبرة، فإذا دخلت فيه فإن الكافر حينئذٍ يدخل الجنة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[٢].

فالبارئ جلّ وعلا علّق دخول الجنة على دخول الجمل في سم الخياط، والجمل لا يمكن أن يدخل فيه؛ ولذا فإن اللّه تعالى ينقل روحه إلى حيوان أصغر منه فأصغر، حتى يجعلها في دودة صغيرة كما ذكرنا؛ كي تتمكّن من دخول سمّ الخياط، وعندها يمكن لهذا الكافر أن يدخل الجنّة. وهذا التفسير غير مقبول؛ لأنه خلاف التفسير الموضوعي، كما أنه تفسير يشتمل على بعض مواطن النزاع، بل يدعو إليه. ومثله من يفسّر ﴿النَّازِعَاتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾[٣]

---

(١) الواقعة: ٦١. (٢) الأعراف: ٤٠.

(٣) النازعات: ١.

بأنها الطائرات النفّاثة، وهذا تفسير غير موضوعي أيضاً، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن صاحبه يحمل مؤهّلات المفسّر المتمرّس.

أو أن يفتي أحد الفقهاء فيقول: لا يجوز التوضّؤ بماء البحر؛ لأن تحته ناراً[1]. فعلى فرض أننا نفسر النار بأنها عيون النفط أو البراكين، لكن أغلب الأرض معرّض لأن يكون هدفاً للبراكين، فهل يعني أنه لا يجوز أن نتيمّم بالتراب؛ لأن تحته ناراً؟ إن هذا الكلام غير منطقي وغير مقبول، ولماذا يريد مثل هؤلاء الفقهاء أن يحرموا الناس من الانتفاع بماء البحر؟ إن على الإنسان أن يعرف الصحيح من غيره بالسؤال، فلا يتفوّه بشيء يصطدم بالدين.

أما التفسير الموضوعي فهو النمط الذي يتتبّع فيه المفسّر اللفظ القرآني ليفسّره موضوعيّاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾[2]، أي أصبحت مسيّبة مهملة، لانشغال أهلها بنفوسهم، فلا طاقة لها حينئذٍ على أن تضع جنينها. والعشار هي النياق التي تحمل على عشرة أشهر أو أكثر.

الرأي الثاني: أنه السلام في الحياة الاجتماعيّة

إن الإنسان يعتبر فرداً من ضمن مجموعة أفراد تشكّل أُسرة واحدة هي المجتمع، و هذان الطرفان كلاهما (الإنسان والمجتمع) يحتاجان إلى توفّر عنصر السلام. وسلام المجتمع مترتّب على سلام الفرد، فحينما يتّبع الإنسان القرآن الكريم فإنه حتماً سيوصله إلى السلام، وهو الانسجام. أي أنه لا يشعر حينئذٍ بالتمزّق يُعمل معاوله في أعضاء الجسد الاجتماعي الواحد. والإنسان يحتاج إلى

---

(١) رواه مرفوعاً عن ابن عمر في نيل الأوطار ١: ٢٠، ولم يحتجّ به.

(٢) التكوير: ٤.

ألّا يمرّ بهذه الحالة من التشرذم والتمزّق، كما أنه بحكم خلقته وضعت عنده غريزة الجنس فاحتاج إلى المرأة، فإذا اتّبع الطريق المشروع لها عاش المجتمع حالة من السلام والاستقرار.

السلام الأسروي

إذن هنا عندنا نوعان من السلام كما مرّ، وكلاهما مطلوب؛ كي يعيش المجتمع عامّة في هذا السلام الذي ينشده الدين الحنيف، لكن حينما نجد أن عقيدة تفرض على أبنائها الابتعاد عن الزواج بذريعة أنه يبعد الإنسان عن اللّه تعالى، كما هو عند المسيحيّين، والحال أن عند الإنسان غريزة جنسية تطالبه بإشباعها ـ وهي في هذا حالها حال المعدة التي تحتاج إلى الطعام حينما تجوع، فتطالب صاحبها بإشباعها ـ فإنه يقع حينئذٍ فريسة صراع بين عقيدته وغريزته.

وقد وقع هذا المعنى لبعض أصحاب النبي الأكرمﷺ؛ حيث إنهﷺ كان قد وعظهم، وذكر لهم الآخرة، فقام عثمان بن مظعون فبايع في جماعة من أصحاب رسولﷺ وهم عشرة، فتعاهدوا وعزموا على أن يلبسوا المسوح، وأن يهيموا في الصحراء ولا يأووا البيوت، ولا يأكلوا اللحم، ولا يغشوا النساء. فبلغ ذلك الأمر الرسول الأكرمﷺ، فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده، فقال لامرأته: **«قولي لعثمان: أخلافٌ لسنتي، أم على غير ملّتي؟ إنـي أُصلّي وأنـام وأصوم وأُفطر، وأغشى النساء وآوي البيوت، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»**.

فرجع عثمان وأصحابه واستغفروا من ذلك، ورجعوا إلى أمرهم الأول عما كانوا فالنبي الأكرمﷺ يبيّن لهم أن الدين أمر توقيفي، ولابدّ أن ينزل فيه أمر من

السماء، ولذا فإنه ﷺ أخبرهم بأن الواجب أن يقتدوا به؛ فهو يأكل ويشرب ويتزوّج ويلبس، وليس في دينه رهبانية، وأن اللّه تعالى ماحرّم على الإنسان ما خلق له من لذائذ، لكن على ألّا تكون مكتسبة من حرام، وخلاف هذا فإن مثل هذه التصرّفات تعدّ أمراً بعيداً عن روح الإسلام.

إن الإنسان يحتاج للمرأة، ولكن التعاليم الدينيّة من غير الإسلام تمنع من أن تُشبع هذه الحاجة، فهي تخاطبه وتقول له: «إذا أعثرتك عينك فاقلعها» [1]، ولا تقرب ملذّات الدنيا؛ لأن هذا يولّد تمزّقاً داخل الإنسان. في حين أن الإسلام على العكس من هذا تماماً، فهو يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، أي من مشاعرك وأحاسيسك، فاللّه سبحانه وتعالى خلق مع الإنسان قرينته في الحياة، فهو يتوق إلى السكن إليها: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [2]، أي تعاطفاً وإلفة. وغاية ما في الأمر أنه يمنع من أن تُشبع هذه الحاجة عن طريق غير مشروع.

وهذه التعاليم تجعل من الإنسان كائناً ودّياً، يعيش جوّاً مملوءاً بالرضا، ويشعر بالسعادة النفسية تغمر وجوده. هذا على مستوى الفرد، أما على مستوى الأُسرة فإن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [3] لا يعني أن القوامة هي الاستبداد. فالإسلام لا يفرّق بين الرجل والمرأة، والقرآن عندما أعطى القوامة للرجل لم يكن في معرض تفضيل الرجل على المرأة. وبالجملة فإننا لا نستطيع أن نقول: إن الرجل أفضل من المرأة إلّا في حالات فردية، وهي حالات تتعاكس، فنرى مثلاً أن الخنساء تمثّل دنيا، وأن خديجة بنت خويلد (رضي اللّه تعالى عنها وأرضاها)

---

(١) إنجيل متّي ـ الإصحاح: ١٨ / الآية: ١٠.
(٢) الروم: ٢١. (٣) النساء: ٣٤.

أفضل بكثير من حفنات من الرجال، كما أن هناك العكس.

فالمسألة إذن ليست مسألة تفضيل أبداً، وإنما هي مسألة وحدة أُسرة؛ يرى الإسلام ويحرص على ألّا يحصل تمزّق داخلها. إن علماء الاجتماع يقسمون المجتمع إلى قسمين: أُمومي وأبوي، والمجتمع الأُمومي هو المجتمع الذي تتحكّم فيه المرأة، دون أن يكون للرجل أي دور فيه، والمجتمع الأبوي هو المجتمع الذي يتحكم فيه الأب فيستبدّ بالأُمور دون أن يقبل قول أي فرد من عائلته. والمجتمعان كلاهما على خطأ.

فليس من مجتمع على صواب سوى المجتمع المتوازن والمنسجم، وهو المجتمع الذي يقود الرجل فيه عائلته قيادة إرشاد؛ لأن الرجل يختلط بأغلب شرائح المجتمع، فيكتسب كميّة كبيرة من تجاربه؛ وبالتالي فإنه يكون ذا خبرة أوسع في مجالات الحياة كافّة. أمّا المرأة فبحكم كون وظيفتها داخل الأُسرة غالباً فإن تجاربها في الحياة تكون أقل.

ونحن مع كلّ هذا نجد أن الفخر الرازي وهو مفسّر كبير يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾[1]: «فان قيل: لم لم يقل: «وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء كثيراً»؟ ولم خصّص وصف الكثرة بالرجال دون النساء؟ قلنا: إن السبب فيه ـ والله أعلم ـ أن شهرة الرجال أتمّ، فكانت كثرتهم أظهر، فلا جرم أنهم خصّوا بوصف الكثرة، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز، وأن اللائق بحال النساء الاختفاء والخمول»[2].

ونقول: متى منع الإسلام المرأة من أن تنطلق؟ فالمرأة إذا كانت ضمن الحدود

---

(١) النساء: ١.
(٢) التفسير الكبير ٩: ١٦٢.

الشرعية، فإنها يحقّ لها أن تعمل عملاً في حدود فطرتها، وبما لا يتنافى مع أخلاقها وسترها. فالإسلام لم يمنعها من الخروج مطلقاً.

فالقوامة إذن إنما جعلت للرجل لأنه ـ كما قلنا ـ أكثر خبرة وتجربة في الحياة من المرأة، فالله تعالى إنما أعطاه إيّاها لحفظ الأُسرة من أن تتمزّق. فوجود السلام أمر ضروري جدّاً ومطلوب في جوّ الأُسرة.

السلام في المجتمع

والسلام في جوّ المجتمع هو الغاية من سنّ السلام للأفراد كما سبق أن نوّهنا، يقول النبي الأكرم ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[1]، أمّا الإنسان الذي يسبّب الصراع داخل المجتمع بيده، فيده إمّا يد معتدية تستغلّ أجر العامل، أو يد تمتدّ إلى لمس الحرام والبطش بالآخرين. أما على صعيد اللسان فهو أن تصدر منه الكلمة النابية الجارحة، أو كلمة الكفر أو كلمة الانحراف. فالمسلم هو الشخص الذي يتمكّن من أن يسيطر على يده ولسانه، فلا يشكّل بوجوده عنصر صراع أو سبباً له؛ لأن البارئ جلّ وعلا جعل لليد واللسان مساراً ينتهي بالإنسان إلى القضاء على أسباب الحروب.

لا يقال: إن الإسلام نفسه دين قتال، فكيف يكون وسيلة للقضاء على الحروب؟

لأن الإسلام الحنيف لم يقاتل لأجل أن يستولي على أرض أو ثروة، بل لأجل إعلاء كلمة **«لا إله إلّا الله، محمد رسول الله»**.

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٧، المحاسن ١: ٢٨٥ / ٤٢٦، الكافي ٢: ٢٣٤ / ١٢، مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٣، وغيرها كثير، صحيح البخاري ١: ٨ وغيرها كثير، صحيح مسلم ١: ٤٨ وغيرها كثير.

وقد يقول قائل: إن المسلمين غير الإسلام، فنحن كمجتمع مسلم عندما نعرض أنفسنا على مقاييس الإسلام فإننا نجد أنها لاتلتقي معها. وكلّ ما عندنا هو الشكليّات من دين الإسلام، وأننا في واقع أمرنا لازلنا نعيش المواريث الاجتماعية الجاهليّة والعادات القديمة. وهذا يعني أنه ليس عندنا تربية إسلامية، ومن هنا نجد أن اللّه تعالى يقول: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾[1]، فإن الإسلام يعبئ الأولاد تعبئة نفسيّة وروحية وتربويّة سليمة، ويقول لهم: إن الآباء إذا وصلوا إلى مرحلة الشيخوخة فيجب أن تعاملوهم برقّة ورحمة، كما أن على كلّ ابن أن يضع خدّه تحت تراب الجنة.. تحت أقدام الأمّهات[2].

هذه هي أخلاقيّات الإسلام وأوامره، في حين أننا نجد أن البعض من أبناء هذا المجتمع المسلم يرمي أبويه في دار رعاية المسنّين؛ ليتخلّص منهما، فيعاني الوحدة والألم، فلا يعيش إلاّ فترة قصيرة يموت بعدها ميتة حسرة وألم.

إذن فإن اللّه جلّ وعلا أنزل علينا القرآن يدعو إلى دار السلام، وهو السلام في الحياة الاجتماعيّة العامّة للفرد والأُسرة والمجتمع.

الرأي الثالث: اتّباع تعاليم القرآن الكريم

فقوله تعالى: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ**﴾، يراد به: المتّبع لتعاليم القرآن الكريم، فمثل هذا لا يكون مصيره إلاّ إلى الجنّة؛ ذلك أن الجنة هي

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) وهو قوله ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمّهات». مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

دار السلام. إن الإنسان عندما يعمل عمل خير، أو يقدّم خدمة إنسانيّة لإخوانه في الدنيا فإنه سيشعر كأنه يعيش في جنة؛ لما ينتابه من مشاعر راحة نفسيّة، وما يغمره من إحساس بالسعادة. وبعكس هذا فإنه إذا ظلم أحداً منهم، فإنه سيشعر كأنه في جحيم؛ لما يسبّبه له ضميره من ثورة عليه. فالضمير جبلّة اللّه للعبد، وقد جعله اللّه له جنّة أو ناراً حتىٰ في الدنيا.

المبحث الرابع: في الجهل ومناشئه

ثم انتقلت الآية الكريمة، فقالت: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، والمقصود بالظلمات: الجهل، والجهل له معنيان:

الأول: الأمّيّة الثقافيّة

وهو الجهل الذي يكون المتلبّس به غير قادر على أن يقرأ أو يكتب، فلا ينفتح على المعلومات المبثوثة في بطون الكتب وغيرها.

الثاني: الأمّيّة الحضارية

أمّا الأُمّيّة الحضارية فهي الأُمّيّة التي يتّصف صاحبها بكونه إنساناً متعلّماً واعياً وربما يمتلك شهادة جامعية، لكن سلوكه ليس سلوكاً حضارياً، بل هو سلوك وحشي؛ فتجده ينهش لحم أخيه بالربا أو بغيره.

قراءة تاريخيّة للرقّ

وهذا في واقع الأمر جهل وظلام يعيش فيهما الإنسان، وليس هذا فقط، بل إننا نجد إلى جانب ظلام الموروث الاجتماعي والتقاليد ظلام العصبيّة، فمثلاً أرسطو يعتبر عالماً ضخماً على صعيد الفكر الإنساني، لكننا مع هذا نقرأ له رأياً يقول فيه: «ليس من يشتري الرقيق مع الرقيق علىٰ حدّ سواء». أي أن اللّه منذ خلق البشر

خلق العبد وخلق معه سيّده. فإذا كان أرسطو الذي من المفترض بـه أن يكـون مصدر شعاع في الدنيا يهدي الإنسان للخير يقول: إن الإنسان الحرّ خـلق مـعه إنسان عبد له، فكيف بغيره من الجهلة؟

أمّا أوغسطين [١] فيقول: «من دعا إلى الخلاص من الرقّ، فقد تمرّد على إرادة الله». فاللّه تعالى على رأيه يريد الناس عبيداً وأحراراً. وهذا الفكر قد انـعكس على أوروبا كلّها؛ ولذلك فهي إلى الآن لا زالت تعامل الشعوب البدائية مـعاملة السيّد للعبد. فهذه الأفكار المتطرّفة قد انعكست على سلوكيّاتهم.

أمّا الإسلام فعلى العكس من هذا تماماً؛ فحينما بزغ نوره وأشرق على الدنيا، عبر عنهم بأنهم **«إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يـده فليطعمه مما يأكل، وليكسُه مما يلبس، ولا يكلّفه ما يغلبه، فإن كلّفه مـا يـغلبه فليُعِنه»** [٢].

فهذا الموقف هو نبع إنساني، وهو النبع الذي انبثق في جـزيرة العـرب قـبل الإسلام حيث كانوا يحتقرون الرجل الذي يعمل بالزراعة أو الصناعة، ويعتبرونه عبداً. لكن حينما جاء الإسلام سعى جاهداً وخطا خطى حثيثة لأن يخلّصهم من هذا الظلام.. ظلام التقاليد، فالإمام الباقر عليه السلام يـقول: **«الزارعـون كـنوز اللّـه فـي أرضه»** [٣]. ذلك أن الأُمّة كلّها ترجع لإنتاجه وقت الحاجة؛ فـهو الإنسـان الذي

---

(١) وهو أحد قدّيسي الكنيسة المسيحيّة.

(٢) بحار الأنوار ٧١: ١٤١ – ١٤٢، مسند أحمد ٥: ١٦١، صحيح البخاري ١: ١٣، ٣: ١٢٣، ٧: ٨٥، صحيح مسلم ٥: ٩٣. وقال صلى الله عليه وآله: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن ليـقل: فتاي وفتاتي». مسند أحمد ٢: ٣١٦.

(٣) عوالي اللآلي ٣: ٢٠٤ / ٤٠، وهو في تهذيب الأحكـام ٦: ٣٨٤ / ١١٣٨ عـن الإمـام الصادق عليه السلام.

يحوّل بلده من صحراء قاحلة إلى رقعة خضراء وبلد منتج، فيغني حاجة المسلمين.

كما أن الإسلام كرّم الأيدي العاملة، حيث نجد رسول الله يقبل يد عامل ويقول: «**انها يد يحبّها الله ورسوله**».

المبحث الخامس: دور القرآن الكريم في الحياة الإسلاميّة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**بِإِذْنِهِ**﴾، أي بأمره، حيث إن اللّه تعالى أنزل القرآن حياة للناس؛ لأنه مصدر حياتهم وحضارتهم وتوجيههم وتربيتهم؛ ولذا فإنه يأمرهم بأن يلتفّوا حوله، وخصوصاً في شهر رمضان المبارك؛ حيث إن من يقرأ القرآن وهو صائم له من الأجر أضعاف من يقرؤه وهو غير صائم. هناك نظرية عند علماء الأخلاق تقول: إن الإنسان كلّما كان جوفه خالياً فإنّ نفسه ستصفو أكثر، تقول الرواية: «**لا تدخل الحكمة جوفاً ملئ طعاماً**»[1]. فالجوع يساعد على صفاء الذهن، وعلى أن الحياة تافهة، والصوم يخلق له الأجواء الروحية، وعندما يقرأ القرآن فإنه حينئذٍ يتدبّر معانيه، وينتفع ببركته.

إن هذا الشهر المبارك هو شهر القرآن الكريم وربيعه[2]: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ**﴾[3]، فالقرآن إمامنا ومرشدنا وهادينا، والذي ينبغي أن نتّبع خطاه.

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٤٢٥.

(٢) قال أمير المؤمنين﵇: «تعلّموا القرآن؛ فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه؛ فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره؛ فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته؛ فإنه أحسن القصص». نهج البلاغة / الخطبة: ١١٠.

(٣) البقرة: ١٨٥.

ولأهمّية القرآن نرىٰ أن الإمام الحسينعليه السلام وهو في أحرج الساعات التي مرّت به لم يهمل قراءة القرآن، ومن ذلك ما يحدّثنا التاريخ عنه ليلة العاشر من المحرم الحرام، يقول الشيخ الصدوق: دخلت زينب ليلة العاشر من المحرم خيمة الإمام الحسينعليه السلام وهو منفرد فيها، فوجدته جالساً يقرأ القرآن، فلما رآها وضع القرآن في المحراب وقام إجلالاً لها، وأجلسها إلى جانبه، لكنها لم تكن ترغب في أن تقطع عليه خلوته، فأرادت أن تقوم فأمسكها، ثم أخبرها أن الصباح القادم صباح متعب، وأنها ستشاهد فيه المآسي والآلام. وحينما لاحظعليه السلام أنها تضطرب عزّاها، فندّت من عينيها دمعة، فمدّ الإمام الحسينعليه السلام يده إلى جيبه وأخرج منديلاً مسح به الدمع منهما.

يقول الإمام السجّادعليه السلام: «**فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسينعليه السلام وقال لها: يا أُخية، لايذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا لناما.**

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصابا؟ فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي. ثم خرّت مغشيّاً عليها، فقام إليها الحسينعليه السلام فصبّ على وجهها الماء وقال لها: يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كلّ شيء هالك إلّا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون، وهو فرد وحده. أبي خير منّي، وأُمّي خير منّي، وأخي خير منّي، ولي ولكلّ مسلم برسول اللهصلى الله عليه وآله أُسوة. فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أُخيّة إني أقسمت؛ فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي

عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[١].

فصاحت: والوعتاه ابن أُمّ، ثم اختنقت بعبرتها وقالت: أبا عبد الله، أتأمرني بالتجلّد وأنت راحل عنّي، فمن ذا يبقى لي[٢]؟

إن چـان تـريدني أنسى وابـطل النـوح وونـيني
إخـذ ذكـراك مـن گـلبي واخـذ صـورتك مـن عـيني
أيّـام الچـنت ويّـاك أنـاغيك وتـناغيني

* * *

مـنهو انـصدع يـا بين صدعي لهـدات تسعر تـحت ضـلعي
أخـبّي عـن الشـمّات دمـعي واضمّ ونّتي حتى على سمعي
واذكرك بنصّ الليل والعِـي

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الأمالي (الصدوق): ٢٢١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

﴿١٦٧﴾

أجر الصابرين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـابِرُونَ أَجْـرَهُمْ بِـغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الصيام طهارة روحيّة

الصابرون هنا هم الصائمون، فالقرآن الكريم يستخدم الصـبر أحـياناً بـمعنى الصيام: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[2]، فالمقصود بالصبر هنا: الصوم، ولهذه التسمية سببان:

الأول: أنها هو من باب تسمية الحالّ باسم المحلّ

فالصيام يقع في هذا الشهر، فالحالّ هو الصوم، والمحلّ هو الشهر، وهو يعبر عنه بشهر الصبر.

الثاني: أن من لوازمه الصبر

كما أن هناك مناسبة أُخرى لهذه التسمية، وهي أن من لوازم الصـيام الصـبر، فالصائم يصبر عن اللذائذ التي جعلها اللّه تعالى له؛ من طـعام وشـراب وبـاقي

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) البقرة: ٤٥.

اللذائذ الجسدية، فيلزم نفسه بالصبر والامتناع عنها.

ولهذا فإن جملة من الرواة والعلماء ومنهم سفيان بن عيينة وآخرون غيره يقولون: إن الصبر هنا بمعنى الصوم. وعليه فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يوحي بأن فريضة الصوم تتميّز بميزات كثيرة تختلف بها عن باقي العبادات الأُخرى.

إن الصوم يقع في هذا الشهر الكريم، والعرب أحياناً تسمي هذا الشهر بالصوم، يقول رسول الله ﷺ: «**من صامه احتساباً وإيماناً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه**»[1]. أي أنه كفّارة للذنوب السابقة. وتعضد هذه الرواية رواية أُخرى تقول: «**لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام**»[2].

ونحن نعرف أن لحم الإنسان ينبت من الطعام، والطعام يأتي من الكسب، وكسب الإنسان المسلم خاصّة على الأغلب لم يراعَ في تحصيله الجانب الشرعي، فعند النزول إلى الأسواق نجد أن الكثير من معاملات الناس تدخل في إطار المحظور، وأن هناك ألواناً كثيرة متعدّدة من الحرام. ومع أن «**الدين المعاملة**»[3] إلّا إننا نجد أن البعض يربح ربحاً غير معقول. بل إننا نجد أحياناً معاملة ربوية، أو فيها غشّ أو بخس حقّ بحيث يصبح ثمن البضاعة محرماً، وغير ذلك من أنواع المعاملات غير المشروعة، والحال أن هذا كلّه ممّا نهى الإسلام عنه أشدّ النهي. بل إننا نجد أنه حتى لو كان الشخص ملتزماً بأحكام الإسلام إلّا إنه لا

---

(١) فضائل الأشهر الثلاثة: ٥٣ / ٣١، تهذيب الأحكام ٤: ١٥٢ / ١٤٢ سنن ابن ماجة ١: ٤٢١ / ١٣٢٨.

(٢) منتهى المطلب ٢: ٦٠٨ (حجري).

(٣) نسب هذا الأثر في شرح رسالة الحقوق: ٥٨٦، وعجائب الآثار (الجبرتي) ٣: ١٠٣، إلى رسولنا الأكرم ﷺ دون إشارة إلى مصدره.

يخلو من الشبهات أو الوقوع فيها إلّا ماندر.

فاللحم الذي ينبت من درهم يكسبه الإنسان من الحرام، بل من الشبهة سوف يظلّ علامة بارزة في جسده، لكن الذي يطهّر هذا الجسد هو الصيام. وكما أن الزكاة تطهير للأموال [١]، بحيث إن الإنسان إذا أخرج الحقوق الشرعيّة من أمواله فقد طهرت، فإن الصيام كذلك حيث إنه يعتبر وسيلة تطهير للجسد وأداة تخليص له من الحرام؛ لأن اللّه تعالى أهبطنا إلى الأرض ونحن طاهرون، ويريد أن يسترجعنا منها طاهرين.

كان حال المسلمين أنهم إذا ولد لأحدهم طفل فإنه يأتي به إلى النبي الأكرمﷺ ليباركه وليبارك له فيه، فكان النبي الكريمﷺ يأخذه ويقبّله، ويقول: «**هذا حديث عهد باللّه**». أي أن هذا نظيف في مشاعره وأخلاقه.

لكنه إذا نشأ وترعرع فإن المجتمع يلوّثه: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ [٢]، أي لقد أعطيناكم إيّاه طاهراً، وأرجعتموه إلينا ملوّثاً.

فالصيام مهمّته تطهير الجسد وتطهير الروح كذلك؛ ذلك أنه لا يقتصر على الجانب الجسدي فقط؛ إذ أن الإنسان في نظر الإسلام ليس مجرّد غريزة بل هو أكبر منها؛ فالإنسان له عقل وعلم وأخلاق وقيم، فإذا أذلّته الغريزة كان مصداقاً للأثر القائل: «من كانت همته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها» [٣]. فالإنسان موقف

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة: ١٠٣.

(٢) التين: ٤ ـ ٥.

(٣) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٧٨، التفسير الكبير ١٨: ٢٢٠، تفسير

وثبات على مبدأ وعقيدة.

وتأمّل الجوانب الجمالية في هذا الأثر، بحيث إنه يريد أن يجعل منه كائناً متألّقاً لا كائناً ليس له من وظيفة سوى الأكل والشرب والنوم. ولهذا فإن الصوم لا يتناول الجوانب الجسديّة للإنسان فقط، وإنما يعمد إلى تطهير حتى الروح. يذكر صاحب كتاب (تحف العقول) أن النبي الأكرم ﷺ كان يقول للإمام علي ﷺ: **«احذر النميمة واحذر الغيبة؛ فإنّ الغيبة تفطر، والنميمة توجب عذاب القبر»** [1]؛ ذلك أن صاحب النميمة يحيل الدنيا ناراً، ويهدم العلاقات ويخربها، فلذلك يتلقّاه العذاب السريع.

سوء الخلق مع العيال

وكذلك سوء الخلق مع العيال فإنه يوجب عذاب القبر، فإذا أساء المرء إلى أهله وأطفاله كان ذلك موجباً لتعريضه لأشدّ أنواع العذاب. إن المرأة بصورة عامّة تنتظر من زوجها إذا جاء إلى بيته أن يحوّل بيته إلى جنّة ينعم فيها جميع أفراد الأُسرة، أمّا أن يحوّله إلى بؤرة عذاب فإنه سيستوجب به عذاب القبر [2].

إذن فالصوم لا يتناول أبعاد الجسم فقط، وإنما يتناول حتّى الروح، فيمنعها من كلّ قبيح؛ فالكذب على اللّه تعالى ورسوله ﷺ والأيمّة الطاهرين من آله ﷺ يبطل صوم الصائم ويفطره. وهذا بطبيعة الحال إذا كان الرجل عامداً قاصداً، فلو أن خطيباً صعد على المنبر وذكر رواية عن النبي ﷺ كان قد سمعها، وكانت غير صحيحة ولم يكن يعرف سندها، أو أنها معارضة بغيرها أم لا، فإن كان عارفاً بهذا

☚ الآلوسي ١٣: ٦٢، الفتوحات المكية ٤: ٥٤٥.

(١) تحف العقول: ١٤.

(٢) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

ومتعمّداً، كان عليه الوزر، وكان صومه باطلاً، وإن كان قد قرأها في كتاب من كتب الحديث، فلا بأس عليه وإن كانت الرواية كذلك؛ لأن صاحب الكتاب مسلم، والمسلم تحمل أقواله وأفعاله على الصحّة.

الصوم والأثر النفسي

وكذلك فإن الصوم يعالج حالات الانفعال النفسي عند الإنسان، يقول النبي الأكرمﷺ: **«ما من أحد منكم يصوم ويصبح وهو صائم، ثم يشتمه أحد فيقول له: سلام عليك إني صائم، حتى يقول اللّه عزّ وجلّ: يا ملائكتي، عبدي استجار من عبدي بالصوم؛ قرّبوه إلى جنّتي، وأبعدوه عن النار»** [1]. أي أن على المؤمن أن يجعل صومه وسيلة للرحمة، فلا يقابل الإساءة بمثلها.

فعلى الإنسان أن يصوم حتى عن الحالات الانفعاليّة، كما أنه يجب أن تصوم معه مشاعره ومنافذ جسده. وباختصار نقول: إن الصوم دورة تربوية تتناول الروح والجسد معاً لتربيهما وتطهّرهما، وهو في هذا المضمار يعتبر من أفضل أشكال العلاج.

يقول ويل ديورانت «Will Durant» صاحب كتاب (قصّة الحضارة) عندما يمر بالنبي الأكرمﷺ: «إذا أردنا أن نقيس العظماء بما لهم من تأثير على الناس، فإن محمداً يعتبر أول العظماء؛ لأنه أثرّ في النفوس تأثيراً لا حدود له».

لقد صدر مؤخّراً كتاب (أفضل مئة شخصيّة) لمايكل هارت، وهو مسيحي، وقد رتّب فيه هؤلاء المئة بتسلسل قائم على أساس الأفضليّة، فوضع النبي

---

(١) لم نعثر عليه بنصّه، لكنْ هناك طائفتان من الأحاديث تشتملان على ما فيه من مضامين، انظر: الكافي ٤: ٦٤ / ١٠، تهذيب الأحكام ٤: ١٩٠ / ٥٣٩، مسند أحمد ٢: ٤٦٢، السنن الكبرى (النسائي) ٢: ٣٤٠ـ ٣٤١ / ٣٢٥٧ـ ٣٢٥٨.

الأكرم ﷺ على رأسهم مع أنه رجل مسيحي، ووضع السيّد المسيح﵇ في الرتبة الثالثة، والنبي موسى﵇ في الرتبة السادسة. وليس هذا أمراً ناشئاً عن جهل صاحبه، ولا مبتنياً على أساس اعتباطيّ، بل إنه أمر يقوم على أساس استقراء الواقع وقراءة الأحداث قراءة ميدانيّة؛ فالجزيرة العربية كانت كياناً يصعب السيطرة عليه، وانتزاع البداوة منه وتهذيبه، لكن النبي الأكرم ﷺ استطاع بما له من قوّة شخصيّة وعزم وحزم وإرادة في فترة قصيرة أن يربّي هذا المجتمع البدوي الصعب، ويكسر شوكة البداوة عنده، ويحيله إلى مجتمع مرن يقوم على ميزان العطف والرحمة والودّ.

إن أصحاب المذهب الحنبلي لايقبلون شهادة القروي على الذين يسكنون في المدينة، ويقولون: إن هذا القروي عنده قيم تتحكّم به [١] أما نحن الإماميّة فإن قواعدنا الفقهيّة تقول: إن الشاهد إذا كان موثوقاً عادلاً قبلت شهادته. دون أن يكون هناك وجه فرق بين أي فرقة وأُخرى إذا كانتا من فرق الإسلام. وبيت القصيد هنا أن أصحاب المذهب الشافعي إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا ـ مع غضّ النظر عن صحّته وعدمها ـ لما للقيم البدوية من تأثير على الإنسان يجعل منه قطعة من الصخر يصعب إلانتها، أو كائناً شرساً يتعذّر ترويضه. في حين أن نبيّنا الأكرم ﷺ استطاع فعل هذا به.

يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ ـــحبّ في أُمّة من الجلمودِ

المبحث الثاني: حكمة جعل الصيام مختصّاً به تعالى

ففريضة الصيام إذن لها تأثير كبير في عمليّة تربية الروح والجسم على حدّ

---

(١) المغني ١٢: ٣١، سبل السلام ٤: ١٢٩، عن أحمد بن حنبل نفسه.

سواء؛ لما بينهما من ارتباط.

كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصوم

وهنا نقطة هامّة يثيرها فقهاء المسلمين حول الغاية من الحديث القدسي الذي يرويه النبي الأكرم ﷺ عن اللّه تعالى، وهو قوله ﷺ: **«إن اللّه يقول: كلّ عمل ابن آدم له غير الصيام؛ هو لي وأنا أجزي به»**[١].

وقد افترض الفقهاء والمفسّرون هنا عدّة فروض للإجابة على هذا التساؤل:

الفرض الأول: أن الصائم يهجر كلّ ملاذّ الدنيا

فالإنسان إذا صام ترك كلّ اللذائذ الدنيويّة؛ سواء ما تعلّق منها بالنفس والروح، أو بالجسد، ويترك العنان للصوم أن يسيطر على مشاعره كلّها. ومن هنا أصبح الصوم للّه تعالى.

الردّ على هذا الفرض

ويردّ الفقهاء على هذا الإشكال بقولهم: إن الإنسان في حال الجهاد يترك الحياة كلّها وليس ملذّاتها فقط؛ فقد يُقتل في ساحة الجهاد، وإذا قتل فقد انتهى كلّ شيء. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن في الإحرام تروكاً كثيرة، وعزوفاً عن ملذّات الدنيا. فلماذا إذن لم تقل الرواية: إلّا الإحرام فإنه لي، أو إلّا الجهاد فإنه لي، واكتفت بالقول عن الصوم فقط: **«إنه لي»**؟ إن هذا يعني أن العلة ليست مجرّد الترك.

---

(١) فضائل الأشهر الثلاثة: ١٣٤، المجازات النبويّة: ١٩٠، صحيح البخاري ٢: ٢٢٨، ٧: ٦١، صحيح مسلم ٣: ١٥٧، سنن ابن ماجة ١: ٥٢٥، ٢: ١٢٥٦، السنن الكبرى (النسائي) ٤: ١٦٣، ١٦٤.

الفرض الثاني: أن الصوم عبادة غير وجوديّة

فطبيعة الصوم تجعل منه عبادة لا يمكن لأحد أن يطّلع عليها سوى اللّه تعالى؛ لأن بوسع الإنسان أن يتظاهر بأنه غير صائم مع أنه صائم لأنه يستطيع أن يخفيه. وهو بهذا الاعتبار أمر خاصّ ينمّي الإخلاص في تصرّفات العبد؛ ولذلك قال اللّه تعالى: «**إلّا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به**».

الردّ على هذا الفرض

وقد أُجيب على هذا الإشكال بأن الإيمان هكذا، فيستطيع الإنسان أن يقول: أنا مؤمن. فإذا لم يمارس ما ينافي الإيمان فإن الناس حينئذٍ يعتبرونه مؤمناً فعلاً. فالإيمان أمر خفيّ، ومثله نقيضه ـ أي الإلحاد ـ فممّا هو بديهي ملاحظته أن الذين لا يؤمنون باللّه تعالى ولا بفرائضه لا يمكن لأحد أن يعرف كونهم ملحدين ما داموا يخفون هذا ولا يعلنونه، أما إذا حاولوا تحدّي المجتمع والدين فإن الناس سيعرفونهم.

الارتداد في التشريع الإسلامي

إننا نجد من يتساءل عن الإجراء الإسلامي ضدّ من يخرج عن الدين الإسلامي، واعتباره مرتدّاً؛ فيحكم عليه بالقتل، وتعدّ زوجته بائنة منه، وتصادر أمواله لصالح بيت المال، مصوّراً الأمر على أنه ضجّة تفتعل ضدّ هذا الذي ارتدّ عن دينه، ويصوّرها على أنه أمر غاية في القسوة.

ونقول: إن هذا الإجراء في الواقع ليس فيه أي شدّة تجاه المرتدّ، ولا ينطوي على أي لون من ألوان القسوة، ثم إن لنا أن نتساءل ونقول: ما الذي دفع هذا لإنكار عقيدة المسلمين وتحدّيها؟ إن هذا ليس أقلّ من إعلان الحرب على الأمّة، ومثل هذا أن من أيسر مايفعل تجاهه أنه يقتل. ولذا فإن قتل المرتدّ ليس من

القسوة في شيء، وكذلك ليس من القسوة مصادرة أمواله. فالواقع الذي تـعيشه دول العالم على مرّ التاريخ حتى اليوم أن من يخن وطنه يقتل، وكذلك هو حال من يخون أُمّته دينه.

الفرض الثالث: أن الصوم حال من أحوال الصمدية

إن في الصوم تشبيهاً بالصمديّة، ذلك أن اللّه تعالى صمد، أي أنه تعالى ليس له جوف يدخل فيه الطعام؛ فهو تعالى أسمىٰ من الطعام والشراب والغريزة. أما آثار الغريزة فهي تتمثّل عند الإنسان باحتياجه للماء والشراب والغرائز الأُخرىٰ، أما اللّه فإنه أكبر من كلّ هذه الحاجات، ولا يحتاج لشيء منها مطلقاً، ولذا فإنه تعالى لم يكن له صاحبة ولم يكن له ولد. ولكل ما مرّ فإنه تعالى صمد.

وبناء على هذا فإن الصوم فيه محاولة للتشبّه باللّه تعالى: «**تـخلّقوا بـأخلاق اللّـه**»[1]. كما ورد في الرواية الشريفة. فالصوم إذن فيه معنىٰ الصمديّة والتشـبّه بأخلاق اللّه عزّ وجلّ.

إذن لأن الصوم يقود إلى التشبّه بأخلاق اللّه تعالى قال جلّ وعلا: «**إلّا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» بناء على هذا الرأي.

الردّ على هذا الفرض

وقد أُجيب في الردّ على هذا الفرض بأن كلّ العبادات التي أمرنا اللّه بـها إذا داوم عليها الإنسان بالكيفيّة التي أُمر بها فإنها تربّي عنده حالة التشبّه بالصمدية؛ فالصلاة كذلك إذا كان المصلّي حلس المحراب؛ لأنها حينئذٍ ستمثّل له حالة أهمّ من الطعام والشراب. كان عند الإمام علي عليه السلام جراب صغير يضع فيه طعامه، وكان

---

(١) بحار الأنوار ٥٨: ١٢٩، التفسير الكبير ٧: ٧٢، ٩: ٦٤، ١٦: ١٠١، ٢٣: ١٨٠.

إذا جاع أخرج منه السويق أو الشعير ويأكله، ثم يقول: **«من أدخله بطنه النار فأبعده الله»**[1]. ثم يقوم إلى محرابه ويداوم على الصلاة والأدعية، والعبادات الأُخرىٰ.

ولذلك فإن الإنسان حينما يداوم عليها، ويبتعد عن الغرائز سيصعد إلى ما هو أسمىٰ، وهو أمر بحدّ نفسه محاولة لاقتفاء الصمديّة المشار إليهاوالتشبّه بها. إذن هي أمر موجود في العبادات الأُخرى، وهي ـ هذه العبادات ـ مع الصوم في هذا على حدّ سواء.

الفرض الرابع: أن الصوم عبادة خالصة لله وحده

إن كلّ العبادات من الممكن أن يتوجّه فيها العابدون إلى غير اللّه تعالى إلّا الصوم فإنه لم يكن في وقت من الأوقات ممّا عبد به غير اللّه. فعند الرجوع إلى تاريخ البشريّة نجد أن الناس كانوا يسجدون للأصنام والأوثان، ونجد بروفيسوراً يعبد صنماً ويسجد له، ومع أنه منتدب لقضيّة علميّة مهمّة وممثّل لها، لكنه ليس لديه أي استعداد لأن يتخلّى عن عبادته هذه؛ ذلك أن مسألة الأديان مسألة حسّاسة جدّاً؛ فليس من السهل تغيير تصرّفات أصحابها.

وهنا نقطة هامّة أودّ أن أُشير إليها من باب أن الشيء بالشيء يذكر، فأقول: إن على المسلمين أن يحاولوا لأن يتفهّموا أحوال بعضهم البعض وأوضاعهم، وأن يحلّوا مشاكلهم فيما بينهم على مائدة الحوار والنقاش الموضوعي بصورة علميّة، لا أن يجنحوا إلى شتم بعضهم وسبّهم؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ

---

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

وموضع الشاهد من الآية الكريمة أن على المسلم ألّا يستثير عند أخيه المسلم عوامل ردود الفعل، فإذا كانت دوافع المسلم صحيحة فعليه معالجتها معالجة علميّة؛ فيبيّن لأخيه وجهة نظره والخطأ الذي هو عليه من وجهة نظر الطرف المقابل بصورة علمية. فلماذا كلّ هذا الخصام والجدال؟ إننا نضع قطعة تراب نسجد عليها؛ لأن النبي الأكرم ﷺ قال: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**(٢).

لكن البعض مع كلّ هذه الأدلّة ينعتون هذا الفعل بأنه كفر وشرك. فهل من الممكن أن تصل عقليّاتهم إلى هذه المستويات من النقد غير الموضوعي وغير المبتني على دليل؟ إنها مجرد قطعة أرض نسجد عليها ليس إلّا، فهي ليست مخصوصة بالعبادة. ونحن نعرف جميعاً أن الأراضي تتفاوت في منزلتها وكرامتها، فأرض الكعبة المقدّسة أشرف من الأراضي الأُخرى، وكذلك المدينة المنوّرة ومثلهما تربة كربلاء المقدسة (٣). إذن فإننا إنما نأخذ قطعة أرض من مكان مشرّف للسجود عليها بعد أمر الرسول الأكرم ﷺ بهذا.

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

(٢) الخصال: ٢٩٢ / ٥٦، وسائل الشيعة ٣: ٢٥٠ / ٢٨٣٩.

(٣) قال المحاضر ﷺ: يرى المسلمون أن تربة كربلاء عامل من عوامل مضاعفة الثواب مثل مكّة والمدينة والنجف. ويمكن الاستدلال له بأن تراب المدينة أفضل من الكعبة؛ لأنه لامسَ جسد النبي ﷺ، وهذا له علّة وهي أن النبي ﷺ أشرف الموجودات، والملامس للأشرف أشرف؛ فعليه هي أشرف من الكعبة. فالحسين عليه السلام جزء من النبي ﷺ روحاً وجسداً: «حسين منّي وأنا من حسين» [المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥]؛ فالتراب الذي يلامس جسد الحسين عليه السلام يأخذ حكم الملامس لجسد الرسول ﷺ. انظر ج ١ ص ٩٥ من كتابنا هذا.

على أية حال فإن هذا الفرض يقول: إن الصوم يختلف عن العبادات الأُخرى؛ لأنها قد تُقُرِّب بها لغير اللّه تعالى، فالسجود والنذور وغيرها أُمور كانت تـؤدّى للأصنام والنُّصب، والحجّ كان كذلك وليس للّه تعالى أو إلى بيته الطاهر؛ فقد كان على ظهر الكعبة (٣٦٠) صنماً يحجّون إليها. وهذه الأصنام لم تقع إلّا بعد أن دوّى في الأرجاء قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُـو الْـعِلْمِ قَـائِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١].

كما أن بعض الناس قد اعتقدوا بأُلوهيّة السيّد المسيح ﷺ. وهـناك ألوان مـن العبادات الغريبة؛ حيث إننا نجد من يقدّم للماء قرباناً، ففي التاريخ المصري أن النيل كان إذا غاض ماؤه فإن الفراعنة يقدّمون له بنتاً قد لبست أحلى ما عندها من الحليّ والحلل، ثم يغرقونها فيه. وهم يسمونها «عـروس النـيل»؛ وذلك حـتىٰ يرتفع الماء، ويزداد الخصب والنماء. فكل هذه العبادات كانت يتوجه فيها لغـير اللّه تعالى إلّا الصوم.

الردّ على هذا الفرض

وقد وقع الجواب على هذا الفرض بأن هناك جملة من عبدة الكواكب، وكانوا يتقرّبون إلى كواكبهم هذه بجميع أنواع العبادات حتى بعبادة الصوم. ومعنى هذا أن الصوم كذلك قد قصد به غير وجه اللّه تعالى.

الفرض الخامس: أن في الصوم صفاء للنفس والعقل

إن أصحاب هذا الرأي يرون أن اللّه تعالى إنما مـيّز الصـوم عـن غـيره مـن العبادات؛ لأن فيه صفاء للنفس والعقل، فالإنسان إذا قلّل من الطعام والشـراب

---

(١) آل عمران: ١٨.

صفت روحه، يقول النبي ﷺ: «**لا تدخل الحكمة جوفاً ملئ طعاماً**»[١]، لأن صاحبه يفقد حالة صفاء الذهن ونقائه، وبعكسه الجوع فإنه يساعد على حصول تلك الحالة عنده. ولأجل هذا كان الأنبياء عليهم السلام يشدّون حجر المجاعة على بطونهم ويؤكّدون على أن الجوع له دخل في هذه العمليّة التربويّة الضروريّة للنفس؛ لما فيه من حالة الابتعاد عن التخمة والتوجّه لما هو أسمىٰ. وعليه فإن الإنسان كلّما ابتعد عن إشباع غرائزه ازداد ذهنه صفاء وقدرة على التأمّل والتفكّر.

الردّ على هذا الفرض

وقد أُجيب على هذا الفرض بأن الذي يساعد الإنسان على صفاء الذهن أكثر، ويوصله إلى مرحلة النقاء والطهارة النفسيّين اللذين ينشدهما هو جملة العبادات

---

(١) عوالي اللآلي ١ : ٤٢٥. وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها:
«لا تشبعوا فيطفأ نور المعرفة من قلوبكم».
«البطنة تمنع الفطنة».
«البطنة تحجب الفطنة».
«البعد من الله الذي قوي به على المعاصي: الشبع؛ فلا تشبعوا بطونكم فيطفأ نور الحكمة من صدوركم».
«القلب يمجّ الحكمة عند امتلاء البطن».
«التخمة تفسد الحكمة».
«إذا ملئ البطن من المباح عمي القلب عن الصلاح».
«لا فطنة مع بطنة».
«لا تجتمع الفطنة والبطنة».
«من زاد شبعه كظّته البطنة، ومن كظته البطنة حجبته عن الفطنة».
«من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يُلقى الغطاء على قلبه، والنعاس على عينه، والكسل على بدنه».
موسوعة العقائد الإسلامية (محمد الريشهري) ٢: ١٨٨ ـ ١٩٩ / ١٩٩٨ ـ ٢٠٠٩.

كلّها فيما إذا داوم الإنسان عليها. فالعبادات كافّة تسمو بالإنسان وتجعل منه مخلوقاً طاهراً نقيّاً [١].

الفرض السادس: أنه كلّ هذه الفروض مجتمعة

قال الشهيد الثاني﵀: اعلم أنه لا توجد عبادة تجمع هذه الخمسة الفروض إلّا الصوم. وهذا الرأي هو الصحيح؛ وعليه فلأن الإنسان مع الصوم يصبر على ترك اللذائذ، كما أن الصوم أمر باطني، وفيه تشبّه بالصمدية، ولأن فيه تميّزاً وصفاء للنفس، ولأنه عبادة خالصة للّه تعالى قال جلّ وعلا: «**كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به**».

وتقترن هذه الفريضة في هذا الشهر بالمساهمة الاجتماعية، حيث إن الإنسان لو أفطر صائماً فإنه سيحصل على أجره من عند اللّه مضاعفاً، يقول النبي الأكرم ﷺ: «**اتقو النار ولو بشق تمرة، اتقو النار ولو بشربة ماء**» [٢].

كما أن هذا الفعل سيقوي السلاسل الاجتماعية والروابط الأُسريّة بين الناس؛ لأن «**جُبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها**» [٣]. فالذي يشرك الآخرين في طعامه سوف يقوّي العلاقات الاجتماعية بينه وبين الناس، يقول حاتم الطائي لزوجته:

---

(١) فاللّه تعالى مثلاً يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥.

(٢) الأمالي (الصدوق): ١٥٤ / ١٤٩، مسند أحمد ١: ٣٨٨، ٤٦٦، وغيرها.

(٣) تحف العقول: ٣٧، ٥٣، الجامع الصغير ١: ٥٥٤ / ٣٥٨٠، الفقيه ٤: ٤١٩ / ٥٩١٧، ٣٨١ / ٥٨٢٦، سبل الهدى والرشاد ١١: ٤٣٢ ـ ٤٣٣، إمتاع الأسماع ١٣: ١٨٠ ـ ١٨١، الشفا بتعريف حقوق آل المصطفى (القاضي عياض) ٢: ٣٠، كنز العمال ١٦: ١١٥ / ٤٤١٠٢.

أيـــا ابـــنة عـــبد اللّـــه يـــا أمّ مـــالك ... ويـــا ابـــنة ذي البـردين والأسـد الوردِ
إذا مـــاصنعتِ الزاد فـــالتمسي لنـــا ... أكـــيلاً فـــإني لست آكـــله وحـــدي
وحســـــبك داءً أن تـــبيت بـــبطنة ... وحـــولك أكـــباد تـــحنّ إلى القـــدِّ
وإنـــي لعـــبد الضـــيف مـــا دام نـــازلاً ... وما من خلالي غـيرها شـيمة العبدِ [1]

فهذا اللون من الإحساس بالآخرين والشعور بـجوعهم ليـهزّ الإنسـان مـن أعماقه، ولهذا كان الإمام السجّاد عليه السلام يأمر كلّ يوم بنحيرة أو ذبيحة تذبح وتطبخ؛ لتوزّع على الفقراء والمحتاجين. وكان عليه السلام يشرف بنفسه الكريمة على القدور في شهر رمضان، ويقول: «**اغرفوا لآل فلان، وابعثوا لآل فلان**»[2] إلى أن يوزّع الطعام كلّه، ثم يأتونه بقطعة من الخبز وتميرات يأكلها، وأحياناً معها شيء من اللبن، فإذا فرغ من الطعام وجاؤوه بالماء، أطال النظر اليه وقال: «**أأشرب الماء وابن رسول الله مات ظمآناً؟ أأشرب الماء وابن رسول الله مات عطشاناً؟**».

وكان عليه السلام يأتي إلى سوق الجزّارين، فيرى أن كلّ جزّار يسقي الذبيحة ماء قبل أن يأخذها إلى الذبح، أو يقول لغلامه: أعرضتها على المـاء؟ اسقِها المـاء قـبل ذبحها. وهذه من مستحبات التذكية، فيخرج عليه السلام وعيناه تغرورقان بـالدمع، ثـم يتوجّه إلى كربلاء ويقول: «**أبه يا أبه، الكبش لا يذبح حتى يسقىٰ المـاء، وقـد سقطت إلى جانب الفرات ظمآناً**».

وهذا المنظر لم يكن يبرح ذهن الإمام السجّاد عليه السلام، فكان دائم استذكار تـلك الأيّام، وكذلك كان شأن عمّته زينب عليها السلام؛ فقد كانت لا تهدأ الليل والنـهار، ذلك

---

(١) الأمالي (المرتضى) ٤: ٦٩، شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٨٨، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٤٢١، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٣١٧.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

أن الذكرىٰ كانت تلاحقها، فتمرّ بالديار وهي خالية من أهلها وسكّانها، فـتبعث هذا المنظر في نفسها الكريمة الحسرة والشجا:

أشـــــرب لذيـــذ المـــاي حـــاشا   واهــــلي كــــظوا كـــلّهم عـــطاشى

﴿١٦٨﴾

البخل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: حول متعلّق البخل

تتناول هذه الآية الكريمة موضوعاً حيويّاً يرتبط ارتباطاً مباشراً بالحياة الاجتماعيّة، ذلك أن اللّه تعالى خلق الإنسان كعضو في المجتمع الذي يعيش فيه، وجزء منه. وعليه فلابدّ أن يتفاعل مع المجتمع على أكثر من صعيد، كتبادل الخبرات والمنافع والأخلاق، سمع الإمام الصادق عليه السلام شخصاً يقول: اللهم اغنني عن خلقك. فردّ عليه الإمام عليه السلام مبيّناً له أن هذا الدعاء غير صحيح، حيث قال له: **«لا تقل هكذا، وإنما قل: اللهم اغننا عن شرار خلقك؛ فإن المؤمن لا يستغني عن أخيه المؤمن»**[2]. وفي رواية: **«سل اللّه أن يغنيك عن الحاجة**

---

(١) الحديد: ٢٤.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٥: ٢٦٣ / ٥٨٣١.

التي تضطرّك إلى لئام خلقه»[(١)].

ذلك أن الإنسان مرتبط بمجتمعه ارتباطاً وثيقاً، فهو يعيش في هذا المجتمع، والمفترض به أن يوجد حالة من تبادل الخير بينه وبينهم، أما إذا بخل عليهم فإنه يكون حينئذٍ خلاف الوضع الصحيح الذي ينتظره الشارع منه.

والبخل وإن كان معناه الشحّ بالمال، لكن نطاقه أوسع، وتتوزّع آراء المفسّرين حول متعلّقه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، أي بالشيء الذي يبخلون به، على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه العلم

فالعلم هو أشرف ما في الدنيا، وهو من عطاء اللّه جلّ وعلا، وقد جعل اللّه تعالى زكاة العلم أن يعلّمه حامله من لا يعلم، وجعل ذلك صدقة؛ ولذا عاب الذين يبخلون به خصوصاً إذا ارتبط العلم بقضية من قضايا المجتمع. فالمجتمع كما هو معلوم بحاجة إلى طبيب؛ فإذا لم يكن فيه طبيب، فإنه يصبح من الواجب وجوباً كفائياً عليهم أن يتعلّموا ليصبحوا أطبّاء ويخدموا مجتمعاتهم.

مسوّغات البخل بالعلم

لكن ينبغي الإشارة هنا إلى أنه ليس كلّ بخل بالعلم مذموماً؛ فهذا يتبع الدوافع التي تحتّم ذلك البخل؛ فهي تختلف باختلاف أصحابها، ومن هذه الدوافع:

١ـ عدم اتساع ذهنيّة المتلقّي

فهناك نمط من الناس يبخل بعلمه بدافع مشروع؛ لأنه يرى أن ذهنيّة هذا الإنسان لا تتحمّل الموضوع الكذائي، كما لو كان موضوعاً فلسفيّاً من قبيل مسألة

---

(١) وسائل الشيعة ٧: ١٣٨ ـ ١٣٩ / ٨٩٤٣.

الوجود أو نظرية الأزل، فمن المعروف أن علم الفلسفة علم عسير هضمه على أغلب الناس، بل إن هذا ربما سبّب لبعضهم الهلوسة، أو أن ينتهي بهم الأمر إلى الإلحاد. فهنا يجب ملاحظة القابليّات الذهنيّة لطالب هذه المادة العلميّة قبل عرضها عليه، إذن فالبخل هنا من هذه الجهة غرض مشروع.

٢ـ سوء استخدام العلم

وكذلك من الدوافع المشروعة للبخل بالعلم أن يعمد بعض طلّابه إلى استخدامه لتدمير الإنسانية وفي إهلاك البشريّة. كما هو الحال عند اسرائيل؛ فإنها ككلب الهراش تريد أن ترعب الآخرين بأن تلوّح لهم بمخالبها الذرّيّة. فمثل هؤلاء لا يدرّسون، وحينما يُعرض العالم عن تدريسهم بعد إحراز أنهم كذلك فإنه سوف لن يلام على هذا.

أما إذا كانت الغاية من التعلّم أو الدراسة خدمة الإنسانيّة، كأن يقصد الطالب بها تيسير الطاقة وتسخيرها لخدمة الناس لا إلى إهلاكهم، أو أن يطوّر وسائل الزراعة والصناعة ووسائل الإنتاج، أو أن يرفع مستوى الفرد ذهنياً فهذه خدمة للمجتمع. وهذا اللون من العلم والتعلّم هو الذي يحثّ الإسلام على طلبه، ويدفع إلى تحصيله، ثم على نشر ما أودع اللّه تعالى عندنا من العلم بخصوصه.

الإطلاق في روايات طلب العلم

لقد وردت جملة من الروايات المطلقة التي تحثّ على طلب العلم، غير أن البعض يصرفها إلى طلب العلوم الدينيّة. ومن هذه الروايات قول الرسول الأكرم ﷺ: **«من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك اللّه به طريقاً إلىٰ الجنة، وإن**

الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتىٰ الحوت في البحر، وفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء»[1]، فإن البعض يدّعي أن هذه الرواية منصرفة لطلب العلوم الدينية. وهذا وهم، وادّعاء عارٍ من الصحّة؛ لسببين:

الأول: أن هذه الرواية مطلقة ـ كما ذكرنا ـ ولا تخصّ العلوم الدينيّة فقط، والإطلاق لا يمكن تقييده بهذه الكيفيّة.

الثاني: أن من الثابت أنه ليس كلّ من سلك طريق العلوم الدينيّة **«سلك به اللّه طريقاً إلى الجنّة»**، فهناك من طلب العلوم الدينيّة لينشر الفساد والحقد والموت في الأرض، فحوّلوا الحياة إلى جحيم، ومزّقوا المجتمع وفتّتوا وحدة الصف.

فالرواية إذن عامّة في كلّ مجالات العلوم المشروعة؛ لأن فيها إطلاقاً؛ ولذا فإن أي علم ـ مهما كان ـ يخدم المجتمع، وينتفع به الناس يُسلِك صاحبه طريقاً إلى الجنة. فإن الذي استطاع أن يضع علاجاً لوباء الطاعون بتطعيم بسيط؛ ومن ثَمّ حفظ الإنسانية من الموت والهلاك، هل يمكن أن يقال: إن هذا لا يحظى على أجر من عند اللّه تعالى؟

وعليه فإن أي علم يخدم المجتمع ويراعي فيه الإنسان وجه اللّه، فلا شكّ أنه من أفضل أنواع العبادة.

الأسباب الشخصيّة للبخل بالعلم

إن البعض من الناس يحجب العلم عن الآخرين لهدف شخصي ولأغراض

---

(١) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥ : ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

فرديّة، ومن هذه الأهداف:

الأول: الأنانيّة والاستئثار

فمثلاً هناك من يظن أن نشر العلوم بين الناس يصيّر منه مخلوقاً عاديّاً بينهم، ويجعله مثلهم، ولا فرق حينئذٍ بينه وبينهم من هذه الجهة. فبعد أن كان يتميّز عنهم بهذا الأمر، سيُصبح وليس هناك من ميزة له عليهم، وبعد أن كانت له مكانة مرموقة بين أظهرهم فإذا به يُصبح من عامّتهم، وهذا بسبب نشر العلوم بين العامّة في نظره. وعليه فنشر العلوم بينهم ينزله من منزل التميّز عنهم إلى منزل مساوٍ لمنازلهم؛ وعندها سوف لن يحظى بما كان يحظى به منهم من قبل من مظاهر الإجلال والاحترام، لأنه سيُصبح إنساناً مفتقراً إلى ما كان يتميّز به عنهم. إذن لابد من أن يحجب هذا العلم عنهم.

الثاني: تضرّر مصالحه الاقتصاديّة

كما أن البعض الآخر يظن أن نشر العلم بين الناس سيؤدّي إلى أن تتضرّر مصالحه الاقتصاديّة؛ لأنه يريد سوقاً تجاريّة لتصريف بضاعته العلميّة، فإذا علّمهم أُصول هذا الفن وهذه البضاعة فسوف يستغنون عنه بما عندهم من معرفة، أي أنهم سيكتفون ذاتيّاً عنه، وحينئذٍ سوف لن يجد سوقاً لتصريف هذه البضاعة. وهذه نظرية غريبة في بابها، لكنها في حقيقة الأمر ما زالت تعيش حتى الآن. كان الاستعمار في العراق يبثّ بين الناس وعبر ما يدرّسهم به من مناهج أو وسائل إعلام أن العراق لا يصلح لأن يكون بلداً صناعياً، وإنما هو بلد مستهلك صناعيّاً، ولا يصلح إلّا أن يكون بلداً زراعيّاً؛ لانه ليس فيه طاقات ولاخبرات، كما أنه غير مؤهّل لتبنّي مشاريع الصناعة والتنمية.

وهذا طبعاً يهدف من ورائه إلى أن يجعل البلاد الإسلاميّة سوقاً دائميّة لتسويق منتجاته وبضائعه.

الثالث: دعوى أن العلم يوصل إلى الإلحاد

وهناك قسم آخر من الناس من يُلبس هذه الحالة ثوباً آخر، فيدّعي أن العلم يعلم الإنسان الإلحاد. وهذا الوتر ضرب عليه الأوروبيّون في العصور الماضية، سيّما أن الكنيسة قتلت الكثير من العلماء أو خنقت عطاءهم بسبب نظريّاتهم العلميّة [١].

أمّا علماء المسلمين فقد نشروا العلم بين الناس في كلّ مكان، وتاريخ هذه الأُمم نفسها يشهد بذلك؛ لأنهم يرون أن على العلم صدقة واجبة هي نشره [٢]، فهم لا يحظرون العلم حتىٰ عن غير أبناء دينهم، بل ويعطون لمن يطلبه الأموال في سبيل تحصيله. ومن هذا ـ أنهم لا يحظرون العلم حتىٰ عن غير أبناء دينهم، وأنهم يعطون الأموال في سبيل تحصيله ـ على سبيل المثال لا الحصر أن مدرسة الشريف المرتضىٰ في بغداد كان من جملة تلاميذها يهود، فقد كان هؤلاء يدرسون فيها، ويتقاضون منها رواتب ومخصّصات شهرية.

وقد حمل علماء المسلمين العلم في مختلف المجالات، ونشروه في كلّ مكان، فلم يحتفظوا به لأنفسهم ولم يحتكروه، أمّا أوروبا الكنسيّة آنذاك فقد كانت

---

(١) كما حصل مع غاليليو غاليلي وغيره.

(٢) قال أمير المؤمنين﵇: «زكاة العلم نشره». غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٤.
وقد حثّ الإسلام على طلب العلم، فقال أمير المؤمنين﵇: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا». نهج البلاغة / الحكمة: ٤٧٨.
وقال الإمام الباقر﵇: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله». الكافي ١: ٤١ / ٣.

على العكس من هذا، فكانت تصوّر للناس السذّج أن هذا العلم يعلم الإلحاد ويقود إليه. فاغتالوا العشرات من العلماء وقتلوهم، وأحرقوا أجسادهم بدعوى أنهم ملاحدة . وكلّ ذلك لأنهم نادوا بنظريّات علميّة غير تلك التي تذكرها كتبهم المقدّسة، بل تصطدم معها، فمثلاً نادى البعض منهم بأن الأرض كرويّة، وأنها تدور حول الشمس، وليست هي مركز الكون. وهي نظرية تفنّد نظريّة خرافيّة عندهم تقول: إن الأرض مسطّحة، وإنها مركز الكون.

إذن فإن من يقل: إنها كروية فهو كافر وملحد في دينه.

ولو تتبّعنا هذا الأمر لوجدنا أن له جذوراً حتىٰ عند العوامّ، ويمكن معرفة ذلك بأن تشرح له نظرية علميّة ترتبط بموروثاته، فمثلاً نحن نعرف أن الكثير من هؤلاء قبل فترة من الزمن كانوا إذا ذكر لهم أحد ما أن المطر متكوّن من بخار الماء المتصاعد من البحار والمحيطات، فإنهم سيثورون عليه، ويثيرون ضجّة ضدّه ويؤجّجون الرأي العام؛ لأنهم يرون أن هذا التفسير يعني إسناد المطر إلى السبب الطبيعي المباشر دون اللّه تعالى، في حين أننا لو أفهمناهم أن البخار يحرّكه اللّه عزّ وجلّ لربما أقرّوا به.

يروى عن عبد اللّه بن عباس ﵁ في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾[1]، أنه كان يقول: إن ﴿**السَّمَاءِ**﴾ هي السحاب التي تسمو على رأس الإنسان، و﴿**ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾، أي التي تأخذ الماء من البحر بعد أن يتبخر، ثم ترجعه إلى البحر والأرض مرّة أُخرى[2].

---

(١) الطارق: ١١.

(٢) قد ذكر المحاضر أن هذا الرأي الذي يرويه عن عبد اللّه بن عباس ﵁ موجود في تفسير (المقباس) المنسوب إليه، وذكرنا هناك أن في تفسير أبي السعود ٩: ١٤٢ نسبته للعرب. انظر

وهي النظرية نفسها التي يقول بها الشاعر:

كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه[1]

وهذه النظرية التي تفسّر نشوء المطر، ونظرية كروية الأرض وحركتها وعدم ثباتها، وغيرها من النظريّات الحديثة نجد لها كلّها في الإسلام نصيباً. فمثلاً قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾[2] نجد أنه ينصّ على حركة الأرض وعدم سكونها. وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**﴾[3] الذي ينصّ على أن الأرض فيها أكثر من مشرق ومغرب، أي أنها كرويّة. إذن فهذه النظرية موجودة منذ جاء الإسلام.

الثالث: الاعتياش على الخرافة

ثم إن هناك من يرتبط وجوده وحياته وكيانه بدثر العلم وطمسه، فبالعلم يصبح وجوده نفسه عرضة للضرر والخطر؛ لأنه مخلوق يعيش على الخرافات، وعند نشر العلم بين الناس فإن كيانه سيتزعزع، ووجوده الحقيقي سيتلاشى من أساسه بين الناس. فهو أبداً يعتاش على الشعوذة والسحر والأساطير، ويعيش بها، ثم يجد أن هذا الوافد الجديد (العلم) يهاجم هذا الكيان وهذا الوجود ويحاربه؛ ليقضي على الخرافة بالقضاء عليه، ويرى أن هذه النظرية العلمية تواجهه وتواجه مصالحه الشخصيّة، ولذا فإنه حتماً سوف لن يقبلها، بل هو يعمد إلى اتهام صاحبها أو حاملها بالكفر كوسيلة دفاعيّة.

☚ محاضرة (فضل العلم والعلماء) في ج ٤ من كتابنا هذا.

(١) البيت لهبة الله الإصطرلابي. معجم الأُدباء ٧: ٢٤١، وفيات الأعيان ٥: ١٠١.

(٢) النمل: ٨٨. (٣) المعارج: ٤٠.

بخل بالعلم أم بالحياة؟

فالبخل بالعلم بخل على الإنسانيّة بالحياة والوجود؛ لأن الإنسان من غير علم كالميّت أو المعدوم، والأُمّة لاتكون حيّة إلّا بعلمائها[1]. فالعلم هو حياة الأُمم، والعلم وسيلة بعث اليقظة والنهضة والوعي في الأُمّة، وفي مستوياتها الذهنيّة والمادّيّة.

والإسلام أكثر من رفع راية العلم، ونادىٰ بضرورة نشره، ودعا العلماء إلى إعطاء الضريبة عليه، وهي ضريبة نشره بمختلف أنواعه وفروعه، وتعليمها للجاهل ولطالبه.

إذن فالبعض لا ينشر العلم؛ إما لأنه يتعارض مع مصلحته المادّيّة والاقتصاديّة ويتسبّب في الإضرار بها، أو لأنه يتعارض مع مكانته الاجتماعية، أو لأن وجوده نفسه يتضرّر؛ لأنه مخلوق يعيش على الخرافات، وعند نشر العلم بين الناس فإن خرافاته ستتلاشى وتخبو، وبالتالي فإن وجوده سيتزعزع من أساسه.

الرأي الثاني: أنه البخل بنشر الحقائق

ويضرب المفسرون للبخل بنشر الحقائق مثلاً من أحبار بني إسرائيل؛ فقد كانت لديهم معلومات كافية عن النبي المبعوث أو الذي سيبعث، وعن صفاته وعلاماته وعلامات ظهوره وبعثته، وعندهم قناعة تامّة بأن اللّه تعالى سيبعثه، لكنهم حينما يسألون عن كلّ ذلك لا يجيبون السائل، ولا يعطون أدنى فكرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا كميل، هلك خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر». نهج البلاغة / الكلام: ١٤٧ .

المبحث الثاني: الشيعة وظلم التاريخ

وليس هذا الأمر من مختصّات أحبار اليهود، بل إنه شامل لعلماء المسلمين كذلك؛ فعليهم أن يتّبعوا الدليل الصحيح ولا يحيدوا عنه، بمعنى أنه عند وجود دليل ناهض، أو عند حصول نظرية صالحة من أي مسلم كان وعلى مذهب يتعبّد ـ فهم في هذا سواء ـ فالواجب الأخذ بها؛ اتّباعاً للدليل، وبغية الوصول إلى الحقيقة. لكن الذي نراه والذي حصل في تاريخنا ويحصل في حاضرنا غير هذا، وهذا ممّا تدمئ له القلوب.

فمثلاً حينما يكون هناك دليل يقود إلى صحّة أحد المذاهب الإسلامية، فالمسلم إذا كان عنده مثقال ذرّة من وجدان فإنه سوف يتّبع الدليل، بل إن الواجب الشرعي يملي عليه ذلك، وأن يكون كذلك بغض النظر عن كلّ الاعتبارات، لكن البعض بما عهد عنه من تعنّت وعزّة بالرأي لا يفعل ذلك، ويتذرّع بأنه إن اتّبع هذا الرأي فسوف يقطع حبله من الحياة؛ إذ سيُقطع مصدر رزقه، وحينئذٍ فإنه سوف لن يجد من يعيله وعائلته.

قضيّة ابن العلقمي واتّهام الشيعة بالخيانة

ولإثبات صحّة هذا الكلام نضرب بعض الأمثلة؛ ولنأخذ البعد التاريخي مثلاً، فإننا نرى أن أحد المؤرّخين يقول: إن المغول لما جاؤوا إلى بغداد واقتحموها ساعدهم الشيعة الخونة على ذلك، حيث إن ابن العلقمي هو الذي كاتبهم وأغراهم وجاء بهم وأدخلهم إليها.

ونحن بدورنا حينما نريد أن نذكر هذه الواقعة فيجب علينا أن نناقشها نقاشاً جدّيّاً وعلميّاً مبتنياً على الدليل والاستنتاج السليم، ثم نسأل هذا المؤرّخ ونقول

له: هل أنت واثق من هذا الادّعاء (خيانة الشيعة) الذي تفتريه على طائفة بكاملها. وهل تستطيع إثبات هذا بما لا يقبل الردّ أو النقض؟ إن مثل هذا الادّعاء يمكن أن يردّ عليه بجملة ردود منها:

الأول: أن هذا الرجل لم يأتِ بهم؛ لأنهم فتحوا كلّ البلدان وليست بغداد فقط، فهل إن شعوب كلّ شعوب هذه البلاد المحتلة خونة.

الثاني: أنه لم يجاملهم إطلاقاً كما ادّعاه هذا المؤرّخ، بل إن الدويدار هو الذي حثّهم على ذلك وجاء بهم [١].

الثالث: أنه على فرض أن ابن العلقمي هو الذي جاء بهم، وأنه خائن، فلماذا تُرمى اُمّة عدّها (٢٥٠) مليون نسمة كلّها بالخيانة؟ ألأجل أن أحد أبنائها قد خان؟ إن الشوافع في مصر مثلاً حينما جاء التتار إلى مصر، قصدوهم وطلبوا من حاكمهم أن يخلصهم من الأحناف؛ لأنهم كانوا لا يعتبرونهم مسلمين. وهكذا أغروا التتار بالأحناف، فهل سُمع أحد المؤرّخين يصفهم بأنهم خونة؟ وهذه الرواية موجودة في أكثر من مصدر [٢].

تهمة الغلوّ

ونضرب مثلاً آخر في مجال العقيدة، فهؤلاء يدّعون أن الشيعة مغالون بأيمّتهم،

---

(١) قال السيّد حسن الأمين: «أما عن اتّهام ابن العلقمي مع المغول، فنقول: إن الأصل في إرسال هذه التهمة هو عدوّ ابن العلقمي الدويدار، فقد قال المؤرّخ رشيد الدين فضل اللّه الهمداني ما نصّه: «ولمّا كان الدويدار خصماً للوزير، فإن أتباعه من سفلة المدينة وأوباشها كانوا يذيعون بين الناس أن الوزير متّفق مع هولاكو»... وإذا كان سفلة المدينة وأوباشها هم أصل التّهمة، فإن سفلة التاريخ وأوباشه هم من تبنّاها ونشرها».
الإسماعيليّون والمغول ونصير الدين الطوسي: ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) نقل المصنف قريباً منه في فقه الجنس: ٢١ ـ ٢٢، عن كتاب ما لا يجوز الخلاف فيه: ٩٤.

ويعتبرونهم أحد مصادر التشريع، بمعنى أن أحد أيمّتهم ﵈ إذا أفتى بحكم فإنهم يتّبعون هذا الحكم.

مع أننا حينما نتّبع قول الإمام فإنما نتّبعه باعتباره مبلّغاً عن القرآن، وهذا الإمام هو عينه الذي يأمرنا بأن نعرض الرواية إذا جاءتنا عنه على كتاب اللّه تعالى فإن وافقته فعلينا بالأخذ بها وإلّا فلا، يقول ﵇: **«اعرضوها على كتاب اللّه؛ فما وافى كتاب اللّه عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب اللّه فردّوه»** [1]. فالرواية إذا لم توافق كتاب اللّه يضرب بها عرض الجدار. وهذاما تنص عليه الكثير من المصادر. فهل من مانع من الأخذ بالرأي الذي يوافق الكتاب المجيد وقول النبي الكريم ﷺ.

المغالي غيرنا

وفي مقابل مذهبنا الذي يقول: **«وما خالف كتاب اللّه فردّوه»** هناك رأي آخر يتبنّاه علماء غيرنا، يقول الكرمي ـ وهو من علماء الأحناف ـ: «كلّ آية أو حديث يخالف آراء علمائنا فهو إمّا أن يكون منسوخاً أو مؤوّلاً». أي أن رأي علماء المذهب الحنفي مقدّم على غيره، فهو قبل الآية، وأن آراءهم قبل القرآن، وقبل قول النبي الأكرم ﷺ. فأينا المغالي؟

وكذلك يتّهموننا بأننا نقول بعصمة الإمام، مع أنه ليس هناك من معصوم إلّا اللّه من وجهة نظرهم التي تعدّ نظرية العصمة نظريّة خرافية. يذكر مؤلّف كتاب (الفكر الإسلامي) في كتابه هذا موضوعاً عن العصمة يقول فيه: «إن نظرية العصمة تخالف الفكر الإسلامي على طول الخط». أي أنه ليس هناك شخص معصوم.

---

(١) الكافي ١: ٨ ـ المقدّمة.

ونقول لهذا وللذاهبين مذهبه: إذا كان الأمر بهذه الصورة، فهل تتقبّلون فكرة نقد أحد من الصحابة، أو نسبة الخطأ إليه، أم أن فاعل هذا سيعدّ كافراً من وجهة نظركم؟ أن يكون هناك (٦) آلاف من الصحابة الذين لا يجوز التطرّق إليهم وإلى سيرتهم ولا نقد تصرّفاتهم أمر طبيعي لا ضير فيه ولا مغالاة، لكن أن نقول نحن بعصمة اثني عشر إماماً فإنه يعدّ مغالاة وكفراً، ومروقاً عن تعاليم الدين الحنيف.

إن هذا يعني أن هذا اللون من المحاكمة والتفكير ليس فيه موضوعية أبداً، وليس مبتنياً على أساس علمي أو طلب الحقّ والسعي خلفه. فأن ينتقد الطرف المقابل ويقول: «إن فكرة العصمة خرافية» في كلّ مكان وزمان، ثم يناقضها فيقول بعدم جواز التطرّق إلى (٦) آلاف صحابي لهو المغالي وليس نحن، بل هو مغالٍ ومغالط؛ وإلّا لماذا يجوّزها في مكان وعند عدد هائل من الناس، ثم يعود ويرفضها في مكان آخر وفي رقم صغير؟

إن هذا النمط من عدم الموضوعية يضرّ بتاريخنا ومقاييسنا، وإن أبناء المسلمين إنما هربوا من دينهم؛ لأنهم اطّلعوا على هذه الثغرات الموجودة عندهم.

إن العصمة هي لون من الأدب العالي والتربية السامية، والمعصوم هو من يستطيع أن يرتكب المعصية أو القبح، لكنه لا يرتكب من ذلك شيئاً؛ لأنه مؤدّب بآداب اللّه، وهو يستطيع ألّا يفعل الحسن لكنه لا يستطيع إلّا أن يفعله؛ لأنه مؤدّب بآداب اللّه كذلك. فقابليّاته تدعوه لفعل الحسن وترك القبيح.

فإذا كان هناك من يقول: لا وجود لموضوع العصمة من الأساس، فعليه أن يفتح باب النقد على مصراعيه، لا أن يكفّر من يتوجّه بالنقد العلمي إلى بعض من يسمون بالصحابة، كما يفعل البعض فيذهب إلى كفر من يلعن مستحقّ اللعن منهم

ويفتي بقتلهم، مع أن هؤلاء يفترضون أنه لا وجود لموضوع العصمة. فمادام الفرض كذلك فإن الإنسان يجوز عليه الخطأ، وبالنتيجة يجوز عليه النقد واللعن فيما لو خالف كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه الأكرم ﷺ.

موقف القرآن الكريم من بعض الصحابة

والقرآن الكريم نفسه انتقد المخطئين وسبّهم، كما أن الله تعالى أنزل سورة (المنافقين) في ذمّ الكثير ممّن كانوا مع نبيّنا الأكرم ﷺ. ونحن لانريد أن ندعو إلى الشتم وعدم احترام الصحابة، بل العكس هو الصحيح؛ فإنهم سلفنا الذي نأخذ منه أخلاقنا وديننا، لكن لا نغفل ـ كما يفعل غيرنا ـ أن هناك أخطاء كثيرة وكبيرة ارتكبت، وأن هناك مقاييس معوجّة تقول بعصمة (٦) آلاف شخص، ولا تقول بعصمة (١٢) إماماً.

فرية الغزالي

والغريب فيها أنها أحياناً تصدر من عالم مشهور كالغزالي الذي يعدّ أحد مراكز الثقل في الفكر الإسلامي، والذي يقول: «إن الشيعة يقولون باثني عشر إماماً، وإن آخرهم صاحب الزمان قد دخل للسرداب وسيخرج من السرداب وسيحكم العالم». إنه لممّا يؤسف له أن يصدر هذا من محقّق وعالم؛ فالسرداب ليس أكثر من مكان يجلس فيه الناس صيفاً؛ اتّقاء من حرّه، فكان الإمام عليه السلام يجلس فيه ليلوذ به من الحرّ الخانق. وباعتبار أنه من مجالس الإمام عليه السلام فإنّ الناس يحترمونه ويقدّسونه كأي مقام من مقامات الصالحين.

فمن أين يجاء بمثل هذا الكلام؟ إن (٩٩٪) من روايات الإمام المهدي عليه السلام مستقاة من كتب المذاهب الأربعة، فهل تريد أن تضرب بكلّ هذه الروايات عرض

الجدار؟ فمثلاً حديث: **«الأيمّة من بعدي اثنا عشر إماماً كلّهم من قريش»**، ترويه كلّ الصحاح [1] والمذاهب. ومع ذلك يرجع ليقول بعد ذلك: إن الشيعة ينتظرون الإمام عند المغرب، ثم لايخرج فيرجعون خائبين. فهل هذه لغة عالم؟ وكيف نستطيع أن ننظّف هذا التراث لنحفظ وحدة المسلمين؟

سيوف شحذناها لقتل عدوّنا لماذا تشظّي لحمنا وتقطّعُ

أعيدوا لهذا الليل فجر محمد لتبزغ تلك النيّرات وتطلع

فرية الآلوسي

فمن العيب أن يكون السيف الذي شحذناه لقتل أعدائنا وسيلة يستخدمه البعض لتقطيع أجسام المسلمين ولحومهم. فهذه ثغرة في تاريخنا، وهذا بخل بالحقائق. إن هناك عبارات بيّنة الكذب، فالآلوسي مثلاً وهو مفسر جليل يقول: إن الشيعة يأخذون خمسهم ويضعونه في هذا السرداب، حتىٰ إذا خرج صاحب الزمان أخذها.

إن عدد الشيعة (٢٥٠) مليون نسمة، ولا أقلّ من أن عشرهم يدفع الخمس، فهل إن هذه الأموال الطائلة على امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان لم تتمكّن من ملء هذا السرداب الصغير حتى الساعة؟ وهل يقول بهذا امرؤ عاقل عنده موضوعية ووجدان. ولماذا يبخل الإنسان بالحقيقة؟ إنّ كلّ شيء سيذهب، أمّا اللّه تعالى فهو باقٍ، والإنسان مسؤول عن كلّ موقف يقفه، وحرف يكتبه، إننا نعتزّ بأي نظرية

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥٤ / ١٢، الخصال: ٤٦٩ ـ ٤٧٣ / ١٢ ـ ٣٠، روضة الواعظين: ٢٦٢، وغيرها، صحيح البخاري ٨: ١٢٧، صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩ ـ ٤٢٨٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٠ / ٢٢٣، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٦١٧ ـ ٦١٨.

لأحد المسلمين إذا كانت نظرية ناهضة، بغضّ النظر عن مذهب صاحبها وتوجّهاته.

العقّاد.. قلم شريف وموقف حرّ

كما أننا نعتزّ بالمواقف الشريفة والأقلام النظيفة، فالعقاد مثلاً حينما يتناول موقف الشيعة من صلاح الدين يقول: لقد ناصروه في مجموعة من المواقف مع أنه وقف منهم موقفاً سلبيّاً، لكنهم حينما رأوه ينزل للجهاد ولمقاتلة العدو المشترك للمسلمين وقفوا إلى جانبه وساندوه في حربه. فنحن نبحث عن الحقيقة؛ لأن إخفاءها خيانة للّه تعالى ولرسوله الكريم ﷺ.

الرأي الثالث: أنه البخل بالحقوق الماليّة للمجتمع

إن متعلّق البخل على هذا الرأي هو الأموال، أي أن هؤلاء يبخلون بما افترض اللّه عليهم من حقوق للمجتمع. حيث إن البعض من أصحاب الأموال يمكن أن يعترض على تشريع نظام الضرائب في الإسلام، فيقول: إن من غير المعقول أن أُنفق هذه المبالغ الطائلة في سبيل أن أُؤدّي هذا الحقّ الشرعي منها. فهذا يعيش وهم الفقر، بظنّه فيما لو أخرج الحقّ الشرعي؛ ممّا يدفعه للتمسّك بأمواله. مع أن المفروض أن على كلّ فرد مسلم أن يؤدّي ما عليه من حقّ شرعي، وأن يعمد إلى أي ثغرة في المجتمع يراها فيسدّها ممّا أعطاه اللّه تعالى، فيفتح مدرسة أو مستشفىً أو يقوم بعمل صالح يعود نفعه على المجتمع؛ لأن هذا المال إنما أخذه من المجتمع، فعليه أن يعيده إليه.

أي أن على كلّ فرد يعيش ضمن إطار مجتمع ما أن يدفع ما عليه من حقوق مترتّبة لهم.

فحقّ المجتمع على كلّ فرد من أفراده هو صيانة أموال الفرد نفسه عبر ما أسماه الدين بالزكاة؛ لأن الزكاة هي تنمية للمال وتنظيف للشعور عن القصور بتأدية الواجب. وهذا ما يجده المتأمّل في كلمة الزهراءعليها السلام حيث تقول: **«جعل اللّه الزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق»**[1]. فلو أدّى الإنسان ما بذمّته من الحقّ فإنه يكون قد نمّى أمواله، وزكّى نفسه من الشعور بالإثم. فالزكاة تنمي الأموال؛ لأن اللّه تعالى تعهّد بمباركة أموال المزكّي. يقول الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله : **«خصلتان لاتجتمعان في مؤمن: سوء الخلق والبخل»**[2].

السخاء يعتق أسيراً من القتل

يقول المؤرّخون: جاء أمير المؤمنينعليه السلام بأسيرين لرسول اللّهصلى الله عليه وآله كانا قد خرجا لقتلهصلى الله عليه وآله ، فقال لهصلى الله عليه وآله : **«قدّم إلي أحد الرجلين»**. فقدّمه، فقالصلى الله عليه وآله : **«قل: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنك رسول اللّه»**. فقال: لنقل جبل أبي قبيس أحبّ إليّ من أن أقول هذه الكلمة. فقالصلى الله عليه وآله : **«يا علي، أخّره واضرب عنقه»**. ثم قالصلى الله عليه وآله : **«قدم الآخر»**. فقدّمه، فقالصلى الله عليه وآله : **«قل: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنك رسول اللّه»**. فقال: ألحقني بصاحبي. فقالصلى الله عليه وآله : **«يا علي، أخّره واضرب عنقه»**.

فأخّرهعليه السلام ليضرب عنقه، فهبط جبرئيلعليه السلام على النبي الأكرمصلى الله عليه وآله ، فقال: **«يا محمد، إن ربّك يقرئك السلام، ويقول لك: لا تقتله؛ فإنه حسن الخلق سخيّ في قومه»**. فقال النبي الأكرمصلى الله عليه وآله : **«يا علي، أمسك؛ فإن هذا رسول ربّي عزّ وجلّ**

---

(١) الاحتجاج ١: ١٣٤.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٢٤٢، التمهيد ١٦: ٢٥٤، لسان الميزان ١: ٣٧٦.

يخبرني أنه حسن الخلق سخي في قومه». فقال المشرك هذا رسول ربّك يخبرك؟ فقال: **«نعم»**. قال: واللّه ما ملكت درهماً مع أخ لي قطّ، ولا قطّبت وجهي في الحرّب، فإني دائماً حسن الخلق مع الناس، وأنا **«أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنك رسول اللّه»**.

فقال رسول اللّه: **«هذا ممن جرّه حسن خلقه وسخاؤه إلى جنّات النعيم»**[1]. وأسلم فكان من خيرة المسلمين.

وموضع الشاهد هنا أن البخل ليس بالأمر الحسن، وأن السخاء ممّا يقرّب إلى اللّه تعالى وإلى الجنّة؛ لأن هذا المال الذي وهبه اللّه للناس فإنما وهبه لهم على أنه حقّ للإنسانية جمعاء؛ لأن اللّه تعالى عندما منح الإنسان ما منحه بهذا اللون من العطاء وهو جزء من المجتمع أوجب عليه أن يعطي منه، ورحم اللّه أبا العلاء المعرّي إذ يقول:

فلا نزلت عليّ ولا بأرضي ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

ولو أنّي حُبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفرادا

الأكبر وصفتا السخاء وحسن الخلق

فالإنسان فرد من أفراد المجتمع؛ فإن أصاب المجتمع خير أصابه، والعكس كذلك، أي أن هذا العطاء ينعكس على المجتمع.

وهاتان الخصلتان كانتا عند شبيه الرسول الأكرم علي الأكبر، فهو فرع من دوحة الرسول الأكرم:

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٦٦ - ١٦٨ / ١٦٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٧٦، ورواه السيوطي في الدرّ المنثور ٦: ١٩٨ عن أسيرين روميّين.

الأولى: صفة السخاء

أمّا السخاء فهو فيه أشهر من نار على علم، يقول المؤرّخون: إن العرب كان عندهم أربعة عشر ناراً، منها: نار للحرب، ونار لجمع الناس، ونار للحلف، ونار للقرى، فقد كانوا إذا جنهم الليل، سيّما في الليالي الشاتية الباردة المظلمة، سارعوا لإيقاد نار على مرتفع، فإذا رأىٰ الضيف النار أتى على ضوئها فيحسنون ضيافته؛ فلم يكن عند الناس سابقاً أماكن مخصّصة يلوذ بها المسافر؛ ولذا فإنه كان يلجأ إلى بيوت الناس ليضيفوه. وهذه الحالة يشير إليها حاتم الطائي وهو يخاطب غلامه:

أوقد فإنّ الليل ليل قَرُّ ... والريح يا موقد ريح صِرُّ

علّ يَرىٰ نارك من يمرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ[1]

وكان هذا الأمر عند علي الأكبر، فكان إذا جنّه الليل أوقد نار القرى، وأنضج اللحم، ووقف على الأضياف ليقريهم، يقول الشاعر:

يغلي نئيّ اللحم حتى إذا ... أنضج لم يغلَ على الآكلِ

كان إذا شبّت له ناره ... أوقدها بالشرف القابلِ

كيما يراها بائس مرمل ... أو فرد حي ليس بالآهلِ

أعني ابن ليلى ذا السدى الندى ... أعني ابن بنت الحسب الفاضلِ

لا يؤثر الدنيا على دينه ... ولا يبيع الحقّ بالباطلِ[2]

---

(١) تفسير السمعاني ١: ٣٥٠، الوافي بالوفيات ١٠: ٥١، أضواء البيان ٧: ١٦.

(٢) الأبيات للنجاشي الشاعر. مقاتل الطالبيّين: ٥٣، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٦١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٨.

الثانية: صفة حسن الخلق

وأمّا حسن الخلق والبشاشة، فقد عُرف بهما كذلك، وقد شهد له الإمام الحسين عليه السلام بذلك عندما برز لقتال القوم، حيث إنه عليه السلام رفع رأسه إلى السماء وقال: **«اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»**[1].

لقد اتّخذ له منزلاً غير عاديّ عند أبيه الإمام الحسين عليه السلام، وكانت له مكانة خاصّة في قلبه، ولهذا فإن مصرعه أخذ من الإمام الحسين عليه السلام مأخذاً كبيراً وأثراً واضحاً، وذلك حينما سقط على الأرض صريعاً، فقد رمى عليه السلام بنفسه عليه من على ظهر الفرس ـ أي أنه عليه السلام لم ينتظر حتى ينزل ـ فاحتضنه واعتنقه، ووضع خدّه على فمه وصاح: **«بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهمها وغمها. وما أسرع اللحاق بك»**[2]. ثم عاود احتضانه وانحنى عليه ليشبعه لثماً وتقبيلاً:

ومحا الردىٰ يا قاتل اللّه الردى ... منه هلال دجىٰ وغرّة فرقدِ

ماء الصبا ودم الوريد تجاريا ... فيه ولاهب قلبه لم يخمدِ[3]

وقام عليه السلام مكفكفاً دموعه، ثم قال للهاشميّين: **«احملوا أخاكم، فوالله لا طاقة لي علىٰ حمله»**. فلمّا حملوه وجاؤوا به إلىٰ المخيم طرحوه إلىٰ جانب النساء،

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢. (٢) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

(٣) من قصيدة للشيخ عبد الحسين صادق العاملي. رياض المدح والرثاء: ١٢١.

فوقعت عليه أُمه تحتضنه:

أنه الوالده وتعبت برباك اسهرت طول الليل ويـاك

احنه المثل هاليوم ردناك

* * *

يا كوكباً ما كـان أقـصر عـمره وكـذا تكـون كـواكب الأسـحارِ

﴿١٦٩﴾

الجبر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: تحديد مفهوم الجبر

تقول الآية الكريمة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾، وهي كلمة يوحي ظاهرها بشيء من الجبر، فهل يمكن أن نفهم منها هذا المعنى، أي أن اللّه تعالى لا يترك له قابلية فهم الدليل؟ وإن كان كذلك، فكيف يصحّ أن يعذّبه اللّه تعالى؟ ثم هل إن اللّه تعالى يختم على قلب الإنسان ويجبره على فعل ما ثم يعاقبه؟ إن هذا ظلم وخلاف العدل.

إننا لا نقول بالجبر، لأنه يسقط الثواب والعقاب، والقوانين السماوية، بل كلّ الشرائع الإلهيّة لا تقول به. ذلك أن الفرد المجبور تصادر حرّيّته ومن تصادر حرّيّته لا يمكن أن يكون إنساناً. فإذا امتلك الإنسان حرّيّته امتلك إنسانيّته.

والغريب أن النظم المعاصرة تدّعي أن الإسلام أداة قمع وعقيدة تقيّد حريّات

---

(١) البقرة: ٧.

الناس، ويحوّلونه في نظرهم إلى دين جبر ومصادرة لهذه الحرّيّات، وأنها (النظم المعاصرة) راعية الحرية. مع أن الواقع المعاش، والحقيقة التي نقرؤها بين طيات هذه الأنظمة يقولان خلاف هذا:

فالنظام الشيوعي مثلاً يسلب كيان الفرد، ويجعله ذرّة تائهة في فضاء المجتمع، دون أن تكون له قيمة شخصيّة أو كرامة.

فالإنسان وفق هذا النظام يشتغل في موقع للعمل، كالمزرعة أو المصنع أو غيرهما، وهو في هذا يعمل مع خمسمئة فرد أو أكثر، وحينما يأتي دور توزيع الأُجور تؤخذ الضرائب من الانتاج أولاً، ثم توزّع عليهم بالتساوي. وفي هذا الإجراء ظلم للعامل؛ لأن كفاءات هؤلاء العمّال تختلف من شخص لآخر باختلاف ذهنياتهم وتفاوت قابليّاتهم البدنيّة والنفسيّة والعقليّة؛ وبالتالي فإن عطاء العمّال وإنتاجهم سيختلف من عامل لآخر. وعليه فإنّ توزيع الأُجور بهذا الشكل ليس عدلاً.

فهؤلاء الذين يدّعون الحرّيّة قد سلبوها من هؤلاء دون أن يعطوهم مقابلها شيئاً.

والنظام الرأسمالي يدّعي أنه يعطي الفرد حرّيّته، لكن أين هي تلك الحرّيّة؟ وهل يستطيع هذا النظام أن يضمن فرص عمل متكافئة للجميع على حدّ سواء؟ فحينما يوجد هذا النظام مثل هذا التفاوت العظيم في فرص العمل والحياة، فإنه يكون قد صادر الحرّيّة الشخصيّة للأفراد.

أما الإسلام فإنه يعطي جميع الأفراد فرصاً متكافئة، ولذا فإن الثروة في ظل نظام الإسلام لا تتضخّم تضخّماً مزعجاً، ولا توجد فيه مثل هذه المفارقات.

وربما استدلّ هذا القائل عن الإسلام بأنه يصادر حرّيّة الفرد بقوله تعالى:

﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[١]، وكأن هذا المستدلّ لم يلتفت إلى الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**﴾[٢]. فإنّ هؤلاء كانوا يعبدون الأصنام، فقال لهم: إن اللّه قد ﴿**خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ أي وخلق لكم المادّة التي تصنعون منها ما تعبدونه من هذه الأصنام كالخشب وغيره. وبالنتيجة فإن اللّه تعالى خلقكم وخلق الأصنام كذلك بخلقه المادّة التي صنعت منها.

فالآية الكريمة إذن ليس لها علاقة بعمل الإنسان، وإلّا فإن اللّه تعالى لا يمكن أن يخلق فعل السرقة ثم يعاقب مرتكبه عليه. يروي المحدّثون عن أبي هريرة عن النبي الأكرمﷺ أنه قال: «**إن الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه**». فلمّا بلغ السيدة عائشة خبر الرواية قالت: غلط الراوي إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات ومرّ أهله يحملونه ويبكون عليه، فقالﷺ: «**إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذّب**»[٣].

وإلّا فما هو ذنب المسلم حتى يعذّب بالبكاء عليه: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[٤].

إذن فاللّه تعالى لا يمكن أن يجبر أحداً على فعل شيء؛ لأنه خلاف عدله، فهو تعالى يعطيه حريته في اختيار عقيدته وحياته: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[٥].

معنى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾

وللمفسّرين في معنى قوله تعالى: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ**﴾ رأيان:

---

(١) الصافات: ٩٦. (٢) الصافات: ٩٥.
(٣) منتهىٰ المطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٦: ٥٧، ١٠٧.
(٤) الأنعام: ١٦٤. (٥) الإنسان: ٣.

الرأي الأول: أنه سبق العلم الإلهي

فاللّه تعالى يعلم أحوال عباده عبداً عبداً؛ من يؤمن منهم ويموت على ذلك، ومن يضلّ منهم ويموت على ذلك. فهو تعالى سبق في علمه أن البعض من هؤلاء العباد سوف لن يهتدوا، بل سيعيشون في ضلال إلى أن يموتوا، وإذا كان الأمر بهذه الصورة فإن هذا الضالّ يُوضع ختم على قلبه بأن نتيجته الخسران.

الرأي الثاني: أنه النتيجة الحتميّة لكفرهم

لقد اعتاد الناس على أن يقولوا مثلاً: إن فلاناً أهلكته أمواله. مع أن الأموال لا تُهلك، بل إن هذا الإنسان إنما مات بسبب الأموال وحرصه عليها. وعليه فإن الختم في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ يكون بسبب الضلال الذي يعيشون به، فهؤلاء بأعمالهم واعتقاداتهم وصلوا إلى مرحلة ختم القلوب، وليس اللّه تعالى هو الذي ختم عليها. فالمسألة ليس فيها جبر أبداً.

المبحث الثاني: أن المادّة لا تهب الحياة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي أن هؤلاء وصلوا إلى مرحلة بعيدة جدّاً من مراحل عدم الإفادة من العقول التي منحهم اللّه إياها؛ لأن المقصود بالقلب هنا العقل، أي أن هذا الإنسان لا يفكر بعقله. ولتوضيح هذا المطلب أكثر نضرب مثلاً من الحياة، فالعلماء يقولون: إن الإنسان له حياة، وكذلك الحيوان والشجر؛ وهذه الحياة إمّا أن تتكوّن من المادّة بصورة عشوائيّة، وهي أشبه شيء بالحشرات المتولّدة من العفونة، وإما أن تكون بتركيب معيّن، أي أن الأجزاء التقت مصادفة فتركّبت مع بعضها، وأصبح فيها حركة وحياة. هذا كلام غير تامّ وغير معقول، وهو مصداق واضح لعدم الإفادة من العقل.

والدليل على فساد هذا المذهب أُمور منها:

الأول: أن الحياة لا تأتي إلّا من حياة مثلها

فقد أثبت العلماء أن كلّ كائن حيّ جاء من الحياة، ففاقد الشيء لا يعطيه، فلويس باستور فمثلاً ـ وهو عالم معروف ـ يقول: إن الجراثيم الحيّة قد جاءت من كائن حيّ أدق، وليس عندنا كائن حيّ جاء من المادّة الميّتة.

وهذا المعنى يلخّصه الفلاسفة بكلمة صغيرة هي «فاقد الشيء لا يهبه لغيره»، فالذي لا يقرأ ولا يكتب لا يمكن أن يعلّم غيره القراءة والكتابة، وكذلك فإن من لم يملك الحياة لا يمكن أن يوفّرها لنفسه، فكيف يمكن له أن يعطيها لغيره؟ إذن فالكائن الحيّ لابد أن يكون متولّداً من كائن حيّ قبله.

الثاني: أن الحياة لا تلازم المادّة

بمعنى أنه ليس كلّما وجدت المادّة وجدت الحياة، فوجود الحياة لا ربط له بوجود المادّة ولا يعني ذلك، ولو كانت الحياة ملازمة للمادة لما مات الإنسان، لأن «علّة الحدوث عين علّة البقاء»، والحال أن الإنسان عندما يموت لا ينقص من مادّته شيء، فالذي فارقه هو الروح. إذن فالحياة لا تلازم المادّة.

الثالث: أن المادّة لها أثر واحد

فالمادّة ليست لها القابليّة على أن تعطي أكثر من أثر واحد هو الأثر الذي صنعت من أجله، فكل ما يمكن أن تعطيه هو هذا الأثر فقط، فجهاز الراديو مثلاً وظيفته أنه يتكلّم، والمصباح وظيفته أنه يعطينا الضوء؛ فلا يمكن أن نجعل المصباح يتكلّم ويعطي ضوءاً ويتحرّك، فدوره لا يتعدّى الوظيفة الواحدة. فالمادة إذن لها وظيفة واحدة، أمّا الإنسان الذي يعبّر عنه بأنه مادّة، فله وظائف

متعدّدة؛ فهو يعقل ويسمع ويبصر، فلو كان من مادّة لما أعطى هذه الآثار المتعدّدة. غير أن هذا لا يقتنع به الملحد عند محاجّته به.

إذن ففكرة أن الحياة تكوّنت من مادّة هي فكرة غير صائبة، ونحن نعتقد يقيناً أن المادة لا تهب الحياة؛ ولذلك فإن واجب الوجود والحياة هو اللّه عزّ وجلّ، فحياة كلّ شيء صادرة عنه تعالى.

وهذا الأمر معروف حتى على مستوى جزئيّات الحياة البسيطة، فالمهندس عندما يسأل عن مصدر الجهاز الذي عنده فسيقول: إنه مصدره المعمل، والمعمل عندما يسأل عن مصدره فسيقول: إنه من عمل الشخص الذي ركّبه، ولو سألنا الشخص الذي ركّبه لقال: إنه من إبداع وتصميم المهندس الأوّل؛ لأنه لو أخذ كلّ واحد من غيره دون نهاية، للزم التسلسل، وهو باطل، فالأعداد لا تتناهى. إذن لابدّ من أن نصل إلى موجد أول وهب الحياة والوجود ولم يأخذ من غيره، وهو اللّه سبحانه وتعالى.

إذن فالمتحصّل من قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أن هؤلاء لم يتركوا لعقولهم القدرة على الوصول إلى الدليل؛ لأنها عقول جامدة.

المبحث الثالث: المحدِّثون والعلم بالغيب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، ولتقديم السمع على البصر علّة يريد اللّه سبحانه وتعالى أن يلفت انتباهنا إليها، وهي أن السمع أهمّ من البصر، فإذا حلّلنا عملية الإبصار فإننا نرى أن الإنسان لا يرى إلّا من جهة واحدة، وهذا يعني أنه يرى الأشياء التي تقع أمامه فقط. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن العين لا يمكن أن ترى الأشياء ما لم يكن هناك ضوء، فالإنسان بحاجة إلى وسط

ناقل ليتمكّن من أن يرى، وهذا الوسط هو الضوء الذي ينقل صور الأشياء إلى العين. أما السمع فإنه يمكن أن يقع من كلّ الجهات [١]، فهو لا يحتاج إلى وسائط أُخرى.

ثم إن الإنسان إذا فقد سمعه ابتلي بداء آخر هو سوء الظنّ بالآخرين [٢]، فيصبح كلّما رأى شخصين يتكلمان يظن بهما سوءاً أنهما يعنيانه أو يغتابانه. ولذا فإنه قد ورد في الدعاء الشريف: **«اللهم... ومتّعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارثين مني»** [٣].

فالإنسان لا يقدّر نعمة اللّه تعالى عليه إلّا إذا افتقدها، ففي أيام الكبر يفقد سمعه تدريجيّاً، يقول أحد الشعراء:

إن الثمانين وبُلّغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمانْ [٤]

أي أن عمر الإنسان إذا بلغ الثمانين فإنه يصاب بداء في سمعه، ويضعف ويصبح ثقيلاً، وسيشعر أن فيه طنيناً؛ لأن السمع حاله حال كلّ الأجهزة الأُخرى

---

(١) فائدة: قال العلماء: إن العلّة في مجيء لفظ البصر في القرآن مفرداً، والسمع مجموعاً، كما في آية المقام، وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ النحل: ٧٨، السجدة: ٩، الملك: ٢٣، و﴿أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ المؤمنون: ٧٨، و﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ يونس: ٣١، هو أن الإنسان لا يستطيع أن يسمع متعقّلاً في آن واحد إلّا من جهة واحدة أو إنسان واحد، أمّا الرؤية فهو يستطيع أن يرى أكثر من صورة في آن واحد ويتعقّلها.

(٢) بل إنه إذا كان من الولادة فإنه يؤدّي إلى البكم؛ لعدم تمكن الطفل من سماع اللغة.

(٣) مصباح المتهجّد: ٢٧٠، ٤٤٧، الدعوات: ٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٤٢ / ٣٦٨٠.

(٤) اختلف في نسبته. شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٥، التفسير الكبير ١٠: ١٥٦، ٢٥: ٩٠، ٢٩: ٢٣١، أضواء البيان ٩: ٧، فوات الوفيات ٢: ٢٠٠.

الموجودة في الجسم. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن فقد السمع يتبعه مشكلة أُخرى يصوّرها أحد شعرائنا في قوله:

إذا ما المرء صُمَّ فلم يُكَلَّمْ وأودى سمعه إلّا ندايا

أي أنه إذا أصابه الصمم فلن يكلّمه أحد إلّا بصوت مرتفع، ثم يتابع:

وداعب بالعشيّ بني بنيه كفعل الهرّ يحترش العضايا

أي إذا جنّه ليله، فإنه يعمد إلى مداعبة أحفاده الصغار، ثم يتابع:

فلا ذاق النعيم ولا شراباً ولا يسقى من المرض الشفايا[1]

فالسمع أهم من البصر؛ ولذلك فإن اللّه تعالى قدّمه عليه حيث قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. فالختم على السمع هنا: هو أن يسخّر الإنسان أُذنيه لسماع الضلال ويصيخ بهما إليه، دون أن يكون للهدى فيهما نصيب أبداً، وسأضرب بعض الأمثلة على هذا:

إنكار علم الأيمّة ﷺ الغيبَ والردّ عليه

رأيت كتاباً يُدرَّس في جامعة الأزهر، اسمه (التشريع الإسلامي)، وهو لثلاثة من المؤلّفين، وهذا الكتاب حينما يمرّ بالشيعة يتناولهم بقوله: إن من عقائدهم أنهم يقولون بأن أيمّتهم يعلمون الغيب، وأنهم لا يموتون إلّا في الوقت الذي يريدونه.

والردّ على هذا الكلام من ثلاث جهات:

الأولى: أن علم الغيب علمان

فعلم الغيب كما هو معلوم قسمان:

---

(١) الأبيات للأفوه الأبيوردي. الأمالي (المرتضى) ١: ١٧٠، بحار الأنوار ٥١: ٢٦٤، تاريخ مدينة دمشق ٣٥: ٢٥٠، الإصابة ٥: ٩٨، لسان العرب ١٤: ٢٠٠.

الأول: قسم يعلمه صاحبه بذاته. وهذا يمثّل له بالضوء، فنحن نحتاج الضوء ليرينا لاحب الطريق، لكن الضوء نفسه هل يحتاج إلى ضوء؟ طبعاً لا؛ لأنه مضيء بذاته. وكذلك علم الله تعالى، فعلمه قائم بذاته.

الثاني: علم غيره من مخلوقاته، كالأنبياء والأيمّة‌عليهم‌السلام، فهؤلاء علمهم ليس قائماً بذاتهم، وإنما هو علم الله تعالى ومنه، فهو الذي يُعلِم أنبياءه‌عليهم‌السلام، وهم بدورهم يعلمون أوصياءهم. وهذا ممّا لا إشكال في وقوعه وصحّته.

الثانية: قول علماء السنّة بالمحدثين

إن هذه المسألة لم يتفرّد بها الشيعة فقط، فالسنّة يقولون: إن هناك مجموعة من الصحابة يعلّمهم الله، وتحدّثهم الملائكة والأولياء الصالحون، ومن هؤلاء عمران بن حصين، فهم يروون أنه كانت تحدّثه الملائكة[1].

ويروون كذلك أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي وإلى يمينه الخضر، وهو يحدّثه[2].

وفوق هذا أن بعض علماء المسلمين ـ من الطرفين ـ يقرؤون قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾[3] بالشكل التالي: «وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدَّث»، بزيادة كلمة «محدث»[4]، مع أنها غير موجودة في الآية الكريمة كما في هذا المصحف المعروف.

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥. (٢) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

(٣) الحج: ٥٢.

(٤) تفسير القمي ٢: ٨٦، بصائر الدرجات: ٣٤٣، الاختصاص: ٢٨٧، فتح الباري ٧: ٤٢، عمدة القاري ١٦: ١٩٩، تغليق التعليق (ابن حجر) ٤: ٦٥، تفسير السمعاني ٣: ٤٤٧، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٧٩، دقائق التفسير (ابن تيمية) ٢: ٢٢٢.

ويروي أهل السنة كذلك أن النبي الأكرم أشار إلى مـجموعة مُـحدَّثين وملهمين، منهم الخليفة الثاني عمر [١].

فإذا كانت كتبهم تروي مثل هذه الروايات، وتنصّ على أن هناك جـملة مـن الصحابة محدّثون، ويعلمون الغيب، فكيف لا يجوّزون على أهل بيت محمد ذلك وهم عدل الكتاب؟ [٢].

الجهة الثالثة: روايتهم أن الأنبياء يعلمون آجالهم

وحول قول أصحاب الكتاب المذكور من أن الأيمّة لم يموتوا إلّا إذا أرادوا أن يموتوا أو اشتهوا ذلك. نقول: إننا نقرأ في (صحيح البـخاري) أنـه لمـا نـزل عزرائيل على النبي موسى ليقبض روحه، قال له: **«ماذا تريد؟»**. قال: **«أُريد أن أقبض روحك»**. فلطمه ففقأ عينه، فرجع إلى ربّه وهو أعور، وقال له: **«أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت»** [٣].

ثم يحاول القرطبي أن يعتذر عن هذا الفعل المنسوب إلى النـبي مـوسى، فيقول: «إن موسى عرف ملك الموت، وأنه جاء ليقبض روحـه، لكـنه جـاء مجيء الجازم بأنه قد أُمر بقبض روحه من غير تخيير، وعند موسى ما قد نصّ عليه نبيّنا محمد: أن اللّه تعالى لا يقبض روح نبي حتى يخيّره. فلما جاءه

---

(١) فهم يروون أن النبي الأكرم قال: «قد كان في الأُمم السابقة قبلكم مـحدّثون، فـإن يكن في أُمّتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». صحيح البخاري ٤: ١٤٩، صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٣١٧..

(٢) ورد في الحديث الشريف عن الرسول الأكرم: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي... ». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٣) صحيح البخاري ٢: ٩٢ - ٩٣، ٤: ١٣٠ - ١٣١، وانظر صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

على غير الوجه الذي علم بادر بشهامته وقوّة نفسه إلى أدبه، فلطمه ففقأ عينه امتحاناً لملك الموت، إذ لم يصرّح له بالتخيير »[١].

ونقول: مادام هذا ممكناً على الأنبياء عليهم السلام فهو ممكن كذلك على الإمام عليه السلام، فله أن يختار الموت أو الحياة، لأن الإمام عليه السلام امتداد للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن جهة أُخرى أن الذي يضرب ملك الموت، ويرجعه أعور يستطيع ألّا يموت، ونحن عندنا روايات تنصّ على أن الأيمّة يعرض الله عليهم البقاء في الدنيا أو لقاءه تعالى، فيختارون لقاءه، لكن ليس بهذا اللون من التهريج، ذلك أننا نلاحظ أوّلاً سند الرواية من حيث إنها مقبولة[٢] أم لا، ومن حيث حصول نقاش حولها أم لا.

إنكار فكرة الإمام المهدي عليه السلام

إن الذي نريد قوله هنا: إنه من العيب على علماء المسلمين أن يصل الخلاف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦: ١٣٢ - ١٣٣. وقال قبل ذلك ما محصّله: واختلف العلماء في تأويل لطم موسى عليه السلام عين ملك الموت وفقئها على أقوال:
١ـ أنها كانت عيناً متخيّلة لا حقيقة.
٢ـ أنها كانت عيناً معنويّة، وإنما فقأها بالحجّة، وهذا مجاز لا حقيقة.
٣ـ أنه عليه السلام لم يعرف أنه ملك الموت. وقد اعترض عليه بما في الحديث، وهو أن ملك الموت لما رجع إلى الله تعالى قال: « يا رب، أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ». فلو لم يعرفه موسى عليه السلام لما صدّق القول من ملك الموت.
٤ـ أن موسى عليه السلام كان سريع الغضب، إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته، ورفع شعر بدنه جبّته، وسرعة غضبه كانت سبباً لصكّه ملك الموت. قال ابن العربي: وهذا كما ترى، فإن الأنبياء معصومون أن يقع منهم ابتداء مثل هذا في الرضا والغضب.
ثم ردّ كلّ هذه الأقوال، وصحّح الرأي الذي ذكره المحاضر عنه في المتن.

(٢) ليس المراد بالمقبولة هنا المعنى الاصطلاحي، بل ما هو أعمّ من الصحيح والموثّق والحسن والمقبول وغيرها.

بينهم إلى حدّ التهاتر، وللأسف الشديد فإن في تاريخنا اُناساً لا يوجّهون أسماعهم إلّا للكلمة النابية، ولا يرضون أن يسمعوا الكلمة الطيبة ولا يرضيهم سماعها. بل أكثر من هذا أنهم يبحثون عمّا فيه شرّ وفتنة ليسمعوه وينشروه مصحوباً بالإساءة والسبّ والتهكّم، فيحدّث أحدهم قائلاً: أخبرني فلان بن فلان بان الشيعة يملكون سرداباً في سامرّاء، يضعون فيه أخماسهم، ويحفظونها إلى زمان ظهور صاحب الزمان. وكذلك فإنهم يدّعون أن عندنا فرساً ننتظره بها، حتى إذا ما آن زمان خروجه أمسك بها وذهب يقاتل. وغير هذا من التهريج والادّعاءات الكاذبة التي تحزّ في النفس وتؤلمها.

إن مثل هذا المدّعي ألا يمكنه الرجوع إلى كتب الأحاديث النبويّة الواردة في خصوص خروج الإمام المهدي ﷺ؟ وألا يمكنه الرجوع إلى كتب الفقه التي توضّح أن الخمس يصرف في المصالح العامّة، وأن العلوي المحتاج أحد بنود قانون الخمس [1]. وأن سهم الإمام يصرف في المصالح العامّة كبناء مستشفى او مدرسة أو أي عمل فيه خير للمجموعة البشريّة. وطبعاً هو لا يسمع هذا؛ لأنه قد أصمّ سمعه، عن سماع الخير، مع أن اللّه تعالى قد تفضّل علينا بنعمة السمع لنسمع بها الخير ونصمّها عن الخنا، يقول الشاعر:

أصم عن فعل الخنا سمعه ... وما عن الخير به من صممْ [2]

فعلى الإنسان ألّا يسمع سوى الخير وما ينفعه دون ما يضرّه أو يضرّ غيره.

---

(١) انظر: البحر الرائق ٢: ٤٣١، الشرح الكبير ٢: ٧١١.

(٢) البيت لداود بن سليم من جملة أبيات يمدح بها قثم بن العبّاس. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ١٥٢، الاستيعاب ٣: ١٣٠٥، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٤١، الوافي بالوفيات ٢٤: ١٥٠، عيون الأثر ٢: ٣٧٨.

المبحث الرابع: الختم على الأبصار

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، والختم على الأبصار هو نظير الختم على الأسماع، أي أن هؤلاء لا يوجّهون عيونهم وأبصارهم إلى الطريق الذي فيه صلاحهم وصلاح أمرهم، بل إنهم يوجّهونها للبحث عن مواطن النقص والعيب عند الناس ليستغلّوه ضدّهم. وهو خلاف ما نقرؤه في الدعاء: **«اللهمّ إنّي أعوذ بك من مال يكون عليّ فتنة، ومن ولد يكون عليّ كلاًّ، ومن حليلة تقرّب إليّ الشيب، ومن جار سوء تراني عيناه وترعاني أُذناه؛ إن رأىٰ شرّاً طار به، وإن رأىٰ خيراً كتمه»**[1]. أي أن عينيه لا تتّجهان نحو الخير، وإنما هما تجاه الشر أبداً، وكذلك الحال مع أُذنيه.

إن هذه الحالة وصلت بالبعض إلى حدّ أنهم لم يستفيدوا من عقولهم وسمعهم وأبصارهم، مع أن المفروض بهم أن ينفقوها في طاعة اللّه.

إذن فقوله تعالى: ﴿غِشَاوَةٌ﴾ يعني أن اللّه تعالى قد ابتلاهم بها بمحض إرادتهم واختيارهم، وبعد سبق علم منه تعالى بأنهم سوف لن ينتفعوا بهذه الجوارح في فعل الخير.

المبحث الخامس: فلسفة العذاب

ثم ختمت الآية الكريمة عطاءها بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، والعذاب مشتق من المنع [2]، يقال: فلان عذّب فلاناً أي منعه من الملائمات لجسده، والملائم للجسد هو الطعام والشراب واللباس والراحة وغيرها، فإذا أراد أن يعذبه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٧: ٨، ونسبه للرسول ﷺ في المعجم الأوسط ٦: ١٩٩، وفيه: «وبالاً»، بدل: «كلاًّ».

(٢) تاج العروس ٢: ٢١٢ ـ عذب.

منع عنه كلّ ذلك، أي أنه يمنع جسمه عن كلّ ما يلائمه من ملذّات الحياة، ويعرّضه إلى كلّ ما لا يلائمه. ولذلك فإن أمير المؤمنين كان عندما يخرج أصحابه للغزو يقول لهم: «**اعذبوا عن ذكر النساء ما استطعتم**»[١].

أي اصدفوا أنفسكم وامنعوها عن نسائكم وعوائلكم وأفكاركم بهم؛ لأنه إذا بقي ذهن المقاتل مشغولاً بأهله فإنه لن يستطيع أن يحصل على النصر.

حديث «الولد مجبنة ومحزنة ومبخلة»

ولذلك فإن أغلب الجنود المسلمين الذين يخرجونهم للفتح لم يكونوا متزوّجين، سيّما في المعسكرات، كمعسكر الكوفة وسامرّاء والمدينة؛ لأن المتزوّج ثقيل ظهره، ومن الصعب عليه أن يخرج للحرب. ولهذا فإننا نلاحظ أن الجندي يؤخذ في سنّ مبكّرة للجهاد، لأنه لم يرتبط بعدُ بعلائق الحياة.

وقد ورد في الحديث الشريف: «**إن الولد مجبنة محزنة مبخلة**»[٢].

شرح ألفاظ الحديث

و«**مبخلة**»: أي سبب لكثرة بخل الأب، فالأب إذا كان عنده أولاد فإنه يبخل على غيرهم، ولا ينفق إلّا عليهم. فالولد بهذا اللحاظ يعلّم أباه البخل.

أمّا «**محزنة**»، فمعناه أنه إذا مات أحد الأولاد فإن الوالدين سوف يبقيان يعيشان الحزن والألم بكلّ تفاصيلهما. ورحم اللّه أبا العلاء المعرّي حيث يقول في رثائه الفلسفي:

إن حزناً في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ساعة الميلادِ[٣]

---

(١) نهج البلاغة / الحديث: ٧.

(٢) كنز العمّال ١٦: ٢٨٨ / ٤٤٥١٢، تفسير الآلوسي ١٩: ١٦٨، ينابيع المودّة ٢: ٣٩.

(٣) التفسير الكبير ١٧: ١١٨، تفسير الآلوسي ١٣: ٦٣، تاريخ بغداد ٤: ٤٦٤.

وفعلاً فإن بعض ساعة حزن عند نزول الموت بالإنسان تعدل أضعاف انفعالات الفرح والزغاريد والتباشير التي تطلق عند ميلاد الإنسان، ففي تلك اللحظة تتلاشى ساعات كثيرة من الفرح.

وأمّا «**مجبنة**»، فتعني أن الولد يجبّن أباه عن الحرب فلا يخرج إليها، وكلّ ذلك لأجل ألّا يصيب اليتم أولاده.

لكن الحقّ أن يقال: إن بعض الأفراد يستثنون من هذا، ومنهم عمرو بن الجموح وزوجته هند بنت عمرو بن حزام، فإن عمرو بن الجموح ـ وكان شديد العرج، وكان فرض الجهاد ساقط عنه ـ أبىٰ إلّا أن يجاهد، وكان له أربعة بنون، فلم يجبّنوه عن الغزو مع رسول اللّه ﷺ، فلما أراد ﷺ أن يتوجّه إلى أُحد مع رسولنا الأكرم ﷺ قال له بنوه: إن اللّه عزّ وجلّ قد وضع عنك فرض الجهاد، وجعل لك رخصة؛ فلو قعدت، ونحن نكفيك.

فأبى ذلك وأتى رسول اللّه ﷺ وقال له: يا رسول اللّه، إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أُستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنّة. فقال له رسول الله ﷺ: «**أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد**». وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه؛ لعلّ الله يرزقه الشهادة؟**».

ثم أذن له النبي الأكرم ﷺ في أن يجاهد، وقال له: «**ابرز بارك اللّه فيك**». فقاتل إلى أن قُتل شهيداً، وقُتل معه أحد أولاده، ثم قُتل خال أولاده عبد الله بن عمرو بن حزام[1].

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٢٤، الاستيعاب ٣: ١١٦٨ - ١١٦٩ / ١٩٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٦ - ٢٢٧، وفي (الاستيعاب) أن رسولنا الأكرم ﷺ قال: «لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته».

أمّا موقف زوجته فقد جاءت إلى أرض المعركة ورفعت أخاها وابنها وزوجها ووضعتهم على ناقة، وجاءت بهم إلى أن أطلّت على المدينة، فلما رأت النبي ﷺ تركت خطام ناقتها وجاءت مهرولة نحوه، وقالت: وإنك لحيٌّ يا رسول الله؟ كلّ مصيبة بعدك جَلَل. ولمّا دخلت المدينة وسألتها النساء عن القتال. قالت: إن رسول الله ﷺ بخير (١).

فواقعاً إن هذا النمط من التضحية يهزّ الإنسان من أعماقه؛ فقد احتسبت هذه المرأة المجاهدة أهلها هؤلاء عند الله، وقالت: إن الله تعالى قد اختارهم إليه.

كان عبد الملك بن مروان قد خرج لقتال معصب بن الزبير في خروج أخيه عبد الله عليه، فلمّا أُدني له فرسه وأراد الصعود عليه، وقفت له زوجته عاتكة ـ وكانت معروفة بالجمال ـ وقالت له: أمتعنا بنفسك. فقال لها: لا سبيل إلى ذلك. ثم تمثّل بهذين البيتين:

إذا ما أراد الغزوَ لم تثنِ عزمَهُ ... حَصانٌ عليها نَظمُ دُرٍّ يَزينُها

نَهَتهُ فَلمَّا لم ترَ النَّهيَ عاقَهُ ... بكت فَبَكىٰ ممَّا شَجَاهَا قَرينُها (٢)

ثم تركها وأخذ فرسه وذهب. وهذا الموقف يعتبر من مفاخره.

تضحية سيّد الشهداء والأحرار

وليس من تضحية تذكر في هذا المضمار إلّا وتذكر معها تضحية أكبر منها وأعظم، وليس من موقف يشاد به إلّا ويذكر إلى جانبه موقف أجلّ منه، إن الإمام الحسين ﷺ قد مرّ بأعظم من كلّ هذه التجارب التي ذكرناها؛ فقد وقف له العديد من الهاشميّين وطلبوا منه ألا يفجعهم بنفسه، فكان جوابه ﷺ: **«إني رأيت جدّي**

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢١٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٢، مواهب الجليل ٥: ٢٩٢.

(٢) البداية والنهاية ٩: ٢٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٨٩، ٦٩: ٢٤٥ ـ ٢٤٦، والبيتان لكثير.

رسول اللّه وقد أمرني بأمر، وأنا ماضٍ لأمره».

وكذلك وقف لهﷺ بعض الهاشميّات كعمّته أُم هانئ[١]. فلم يلتفت إلى دموع الحرائر من حرم النبيﷺ وأُسرته، بل حتى دموع ابنته فاطمة العليلة التي تعلّقت بثيابه وقالت: أبه، خذوني معكم. فإنه ردّها بجميل القول، وأخبرها بأنهم مقبلون على سفر طويل مرهق، وهي عليلة لا طاقة لها عليه، وأنه سيتركها عند أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة (رضي اللّه تعالى عنها وأرضاها). فقالت: أبه أو عزمت على تركي؟ قال: «بلى». قالت: إذن أعطني أخي الرضيع لأتسلّى به في غيابكم، لأن فيه ذكراكم. فقال لها: «بنيّة إنه صغير ولا يستغني عن ثدي أمّه». ثمّ سلّاها وودّعها وتركها في بيت أُم سلمة (رضي الله عنها).

فبقيت تنتظر وتتسمّع الأخبار إلىٰ أن جاء النعيُّ ينعى الحسينﷺ، وكان بشر ابن حذلم، فخرجت من الدار واستوقفته وتعلّقت بأذياله تسأله عمّا جرى وهل عنده علم من أهلها، فقد قالت له: يا هذا أنت الناعي ريحانة رسول اللّهﷺ؟ قال: بلىٰ. قالت: باللّه عليك أخبرني بالذي جرىٰ. فلمّا أخبرها، رجعت صارخة مولولة، ودخلت دار أبيها واللوعة تملؤها:

يـا دار نـاغيني ونـاغيج چانت بدور وتزهر عليج

والسا غراب البين ناعيج

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا[٢]

---

(١) معالي السبطين ١: ٢١٤.

(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.



﴿١٧٠﴾

الفقه الاقتصادي للأُسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدّمة في أقسام العلاقات الأسرويّة

تعتبر هذه الآية الشريفة من آيات الأحكام، أي الآيات التي تشتمل على التكاليف الشرعية. وهي تصنّف من ضمن آيات الفقه الاقتصادي للأُسرة.

إن الزوج بطبيعة الحال هو المسؤول عن عمليّة الإنفاق في الأُسرة، كما أن الروابط الأُسرويّة تكون على قسمين: فهي إمّا أن تكون عبر العلاقة الزوجية، أو عبر علاقة القرابة التي تربط بين الابن والاخ والبنت وغيرهم. والآية الكريمة تتعلّق بخصوص العلاقة الزوجية.

ثم إن العلاقة الزوجية تتناول نوعين من عناصر الأُسرة المنضوية تحت هذا القسم:

---

(١) الطلاق: ٧.

الأوّل: المرأة الفعلية أي الزوجة الموجودة فعلاً في عصمة الرجل.

الثاني: المرأة المطلّقة طلاقاً رجعيّاً، وهي لا تزال في عدّتها، فهي شرعاً تعتبر في عصمته، لأنه قد يرجع إليها؛ إذ أن له ذلك متى شاء مادامت في العدّة.

فالآية تأمر الزوج بالانفاق عليهما.

المبحث الأوّل: الإنفاق وآثاره الوضعيّة

تقول الآية الكريمة: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ**﴾، المعروف أن غرض الإنسان من جمع الثروة أنها لإعالة أُسرته، فإن اللّه تعالى يأمر الإنسان بالتوسعة على عياله ما دام اللّه قد وسّع عليه رزقه من الطعام وغيره. وللإنفاق آثار إيجابيّة كثيرة نذكر منها:

الأوّل: أنه حصن من الانحراف

إن على الأب الموسر ألّا يقتّر على عياله؛ لأن التقتير عليهم ربما يقودهم أحياناً إلى الانحراف. فمثلاً في هذا العصر قد استجدّت فيه كماليات متنوّعة، فإذا تخلّف الأب عن توفيرها لعائلته أو أبنائه، فإن ذلك قد يوردهم مورد الانحراف؛ لأنهم يرون أترابهم وأقرانهم يحصلون على كلّ ذلك دونهم. فالأب في بعض الحالات يساعد على الانحراف فيما إذا قتّر على أهله وعياله. إذن فالإنفاق حصن يمنع الأبناء من الانحراف.

الثاني: أنه مجلبة للرزق

وليعلم الآباء أن في التوسعة على العيال مجلبة للرزق وأنها موجبة له، تقول الرواية الشريفة: «**تنزل المعونة على قدر المؤونة**»[١] فاللّه ينزل الرزق على

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٩.

الإنسان بقدر إنفاقه على أهله وعياله.

الثالث: أنه يدفع عذاب القبر

إن الإنفاق على العيال ـ بالإضافة إلى كلّ ما مرّ ـ يعتبر من أبرز مصاديق التوسعة عليهم. والتوسعة هنا داخلة في إطار المعاملة الحسنة مع الأُسرة، وهي المعاملة التي أُمرنا بها، ذلك أن هذه المعاملة الحسنة تدفع عذاب القبر، تقول الرواية الشريفة: «**أكثر عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال**»[١].

على أية حال فإن الآية الكريمة تأمر بالتوسعة على العيال، والإنسان لو أنه يعي حقيقة أنه إذا حلّ به الموت فإن ملكيّته ستصبح متزلزلة، وأن وصيّته لا يؤخذ بها إلّا بمقدار الثلث، ولا يصبح ما زاد عليه نافذاً إلّا بإجازة الورثة الذين ربما تنازعوا على أمواله وهو لا يزال في النزع وليس بعد موته، فإنه سيلتفت إلى أنه يجب أن يجعل تعبه لنفسه ولعياله؛ بأداء ما عليه، وبالتوسعة عليهم. إذن فجميع ما عند الإنسان يعود بالنتيجة إلى عياله، ومع وعي المرء هذه الحقيقةَ فإنه سوف لن يبخل عليهم بشيء من ماله، ولن يبخل في أمر التوسعة عليهم.

وعلى هذا تفسّر الرواية الشريفة الواردة: «**لعن اللّه والداً حمل ولده على العقوق**»[٢].

تربية الأبناء بين الإفراط والتفريط

لكن ينبغي التنويه إلى أنه ليس معنى ذلك أن نلبّي كلّ رغبات الصبي أو الصبيّة

---

(١) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

(٢) لم نعثر عليه بهذه الصياغة والذي عثرنا عليه هو: «رحم اللّه والداً أعان ولده على برّه». انظر: الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

ومطالبهما، بل إن بعض المطالب التي يستجاب فيها للطفل تُفسده. وهذا ما يطلق عليه الإنكليزيّون لفظ «Spoil»، أي التدليل الذي يترتّب عليه فساد الطفل، فهم يذهبون إلى أن أعظم أنواع الفساد هو هذا. فالتدليل ما لم يكن على أُصوله يعطي نتيجة سلبيّة؛ لأنه يجعل الولد يعيش أجواء غير طبيعية، ويرتاد أماكن غير طبيعية، ويلهو ويلعب كما يحلو له، وكلّ هذا يؤدّي إلى الفساد.

فالدين الحنيف لا يسمح بهذ اللون من التربية أو التعامل، لكن هناك مطالب مشروعة للولد يجب ألّا تترك بذريعة حالة الـ«Spoil». فمن مطالبه المشروعة أن يكون لباسه محترماً، وكذا طعامه وحاجاته المعقولة، فكلّ هذه يجب أن تلبّىٰ له. والأُسرة من وظيفتها معرفة هذه الخطوط العامّة الصحيحة وتحديدها، فهي التي تتصدّى لذلك ولتلبيتها وفق المنظور القرآني: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾.

فما دام المرء في سعة من المال والرزق الحلال، فعليه أن ينفق منها قبل أن تخرج من يديه؛ لأن هذا من مسبّبات حسن الخلق مع الأولاد، فهم إذا شعروا بأن نتيجة كدّ الأب وتعبه يوجّه لرعايتهم فسوف يستشعرون الاهتمام والرعاية اللتين يوليانهم إيّاهما أهلهم.

المبحث الثاني: نظام النفقة وحدوده في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللّه﴾، إن الأحكام تتغيّر بتغيّر موضوعاتها كما تنصّ عليه عبارة فقهاء الشريعة، فالحكم يأخذ صفة التحرّك تبعاً للموضوع، لأنه وإن كان ثابتاً بالعنوان الأولي لكنه يتغيّر حسب الموضوع له. إن مظاهر الحياة في تغيّر مستمرّ، والحكم يتغيّر تبعاً لها، ومن هذه المظاهر الإنفاق، فإذا كان الرجل غنياً فالآية تقول له: «أنفق من سعتك»، أما

إذا كان رزقه محدوداً، فالآية تقول له: «أنفق بقدر استطاعتك، ولا تعمد إلى الاستدانة؛ لأجل أن تظهر للآخرين أنك في وضع مالي جيّد؛ لأن الدين ذلّ بالنهار وهم بالليل، يقول النبي الأكرمﷺ: **«إياكم والدَّين؛ فإنه ذلّ بالنهار، ومهمّة بالليل»**[(١)].

فالإنسان تذلّه الحاجة، وهو همّ بالليل لأن الإنسان إذا أوى إلى فراشه بدأ بالتفكير بما عليه من ديون، وبالكيفيّة التي سيسدّدها بها. فالإنسان مرتهن بدينه، كان نبيّنا الأكرمﷺ لا يصلّي على أحد عليه دَين؛ لأنه مرتهن بدينه، إلى أن يأتي من يكفله ويحمل عنه دينه، فعند ذلك يصلّي عليه، جيء لهﷺ بميّت ليُصلّي عليه فسأل أهله: **«هل علىٰ صاحبكم دَين؟»**. قالوا: نعم، عليه ديناران. فتنحّىٰ عنه وقال: **«صلّوا علىٰ صاحبكم»**. فقال أحد الأصحاب: أنا أقضيها عنه يا رسول اللّه. فقالﷺ: **«أمّا الآن فنعم»**[(٢)].

فالآية تقول لهذا المعسر: لا تخرج عن الحدود الطبيعيّة للإنفاق عندما تريد أن تنفق على أحد؛ سواء كان واجب النفقة أو مستحبّها، وتحذّره بأنه إن استدان لأجل ذلك فسوف يُذل، ويجعل نفسه عرضة للحاجة للآخرين.

الإنفاق على الزوجة

إن في الإنفاق على الزوجة آراء متقابلة، بمعنى أن الزوج المسؤول عن

---

(١) الكافي ٥: ٩٥ / ١١، وتمامه فيه: وقضاء في الدنيا وقضاء في الآخرة، مسند الشهاب ٢: ٩٦ / ٩٥٨.

(٢) الكافي ٥: ٩٢ / ٢، مسند أحمد ٣: ٢٩٦، وفيه بعد ذكر الحديث: فلما فتح اللّه تعالىٰ علىٰ رسولهﷺ قال: «أنا أولىٰ بكل مؤمن من نفسه؛ فمن ترك ديناً فعليّ، ومن ترك مالاً فلورثته».

الإنفاق هل ينفق عليها بما يناسب مكانتها، أو ما يناسب حالته المـادّيّة. وهـذا يبتلى به من يتزوّج من طبقة اجتماعيّة رفيعة على المستوى المالي، كأن تكون زوجته بنت تاجر أو رجل أعمال كبير، وهؤلاء تكون نفقاتهم عادة ضخمة قياساً إلى غيرهم، كما أن بناتهم قد اعتدن على الترف وكثرة الإنفاق عـلى المـلابس والمشتريات، فكيف يتعامل الزوج في مثل هذه الحالات مع مـوضوع الإنـفاق على الزوجة؟ هل ينفق بما يناسب حالها التي كانت عليها عند أبيها، أم بما يناسب حاله هو؟ إن آراء الفقهاء في هذه المسألة تتوزّع على قسمين:

الأول: ويذهب أصحابه والقائلون به إلى أن الآية الكريمة صريحة في تحديد أن النفقة تكون على قدر استطاعة الزوج، فـ﴿**مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ**﴾.

الثاني: ويذهب أصحابه والقائلون به إلىأن هذا خلاف العدل؛ لأن العدل يعرّفه العلماء على أنه وضع الشيء موضعه [1]، فهذه الزوجة لمّا كانت ابنة رجل أعمال ثري وموسر، وكانت مرفّهة عنده، فالعدل يقضي بأن عليه أن يسدّ حاجتها بـما يناسب حالتها التي كانت عليها، فإذا استطاع ذلك فلا مشكلة في البـين، وإن لم يستطع فلينفق من عنده، والمتبقّي يظلّ ديناً في رقبته؛ لأن نفقة الزوجة لا تسقط بالإعسار، بخلاف نفقة الأقارب فإنها تسقط.

وهذا الأمر ناشئ من كون المرأة أجنبيّة عن الزوج في الأصل، وعلى الزوج أن يكرمها مثلما أكرمه أهلها بالموافقة عـلى الزواج مـنها، كـما أنـها ليست سـلعة أو غريزة، وإنما هي الحصن الذي يحصّن الزوج عن الوقوع في الخطيئة، والذي

---

(١) شرح أُصول الكافي (المازندراني) ٩: ١٤٩، الملل والنحل ١: ٤٢.

يربّي الأبناء، والواجب أن يكون هذا الحصن على درجة من الاستقامة والاحترام والعناية.

السيدة فاطمة الزهراء مثل أعلى

وفي المقابل يجب أن يكون موقف الزوجة متسامحاً، فهي إذا رأت التوقير والاحترام من زوجها تجاهها، فالواجب عليها أن تكون بالمستوىٰ المطلوب منها، فلا تكلّف الرجل بما هو فوق طاقته؛ كي تتمكّن من أن تتعايش مع زوجها وبيتها، ومع الحالة التي هي فيها. لقد مرّت علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام فترات لم يكن يجد فيها طعاماً يرجع به إلى بيته، وحينما يدخل بيته لا يجد عنده ما يغتذي به أطفالُه.

وكان هذا حال الأعمّ الأغلب من المسلمين؛ فقد كانوا كلّهم يعيشون في حالة ضيق، سيّما في أول سنوات الهجرة الشريفة؛ فقد كان الحصار مفروضاً على المسلمين عامّة.

وقد رجع أمير المؤمنين عليه السلام مرّة إلى بيته دون أن يحمل معه طعاماً، فشعرت الزهراء عليها السلام بذلك، فقرّرت أن تطرق باب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتجلب منه الطعام لها ولبعلها وبنيها، وكان في البيت أُمّ المؤمنين أُمّ أيمن (رضي اللّه تعالى عنها) فقالت للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: هذه طرقة فاطمة، فما الذي جاء بها؟ ففتحت الباب، ودخلت فاطمة وسلّمت على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: **«ما وراءك يا فاطمة؟ لقد جئتنا في وقت ما كنت تأتينا في مثله»**. قالت: **«يارسول اللّه، روحي فداك، ما طعام الملائكة عند ربنا؟»**. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«التحميد؟»**. فقالت عليها السلام: **«ما طعامنا؟»**. قال: **«والذي نفسي بيده ما اقتُبس في آل محمد شهراً ناراً»**.

أي أنهم لم يطبخوا منذ (٣٠) يوماً، وكانوا يقتاتون على التمر والماء، ثم قال ﷺ لها: **«اليوم وصل لي قطيع من الأعنز، فإن أحببت أعطيتك منها خمساً، أو أعلّمك خمس كلمات علمنيها جبرئيل آنفاً»**. قالت: **«لا والله يا رسول الله، أحبّ إليّ أن تعلمني هذه الكلمات الخمس»**. قال ﷺ: **«قولي: اللهم يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، أسألك رحمتك»**. فخرجت ووجهها يتهلّل بشراً، فلما أبصرها أمير المؤمنين ؟: **«بأبي أنت وأمي، ما وراءك يا فاطمة؟»**. قالت: **«ذهبت للدنيا وجئت للآخرة»**. فقال ؟ **«خير أمامك، خير أمامك»**[1].

فالزوجة يجب أن تكون عوناً لزوجها على شدائد الدهر ومصائبه، وفي نوازله، وعليها ألّا تكلّف زوجها ما لا يستطيع، فالحياة تعاون، وعليها أن تؤدّي الواجب المناط بها تجاه الزوج، كما أن على الزوج أن يؤدي الواجب المناط به تجاه زوجته.

إذن فوفق الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أن الزوج مأمور بالاقتصاد في النفقة دون أن يرهق نفسه سيّما إذا حاولت المرأة استنزاف قدراته وكرامته بكثرة الطلبات. والمرأة التي لاتقدّر حالة البيت ليس لها أي خطر في الدنيا، تقول الرواية: **«ليس لامرأة خطر»**، أي قيمة، **«لا لصالحتهن ولا لطالحتهن؛ أمّا صالحتهن فليس لها خطر الذهب ولا الفضة»**، أي إن كانت صالحة فإن قيمتها أكبر من الدنيا، **«وأما طالحتهن فليس لها خطر التراب، والتراب خير منها»**[2]. وهذا ممّا حرص عليه الإسلام أشدّ الحرص.

---

(١) كتاب الدعاء (الطبراني) ٣١٩ / ١٠٤٨، وقريب منه في الدعوات (الراوندي): ٤٨، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٣ / ١٠، ٩٠: ٢٧٢ / ٣. (٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٥ / ٧٠٧.

دور المرأة في بناء الأسرة

فالمرأة إذا كانت منسجمة مع الزوج والأولاد داخل الأُسرة فإنها حينئذٍ تلعب دوراً لا حدود له، ولإثبات هذا نضرب مثلين:

الأول: زوجة صخر بن عمرو

وصخر هذا هو أخو الخنساء، وقد طعنه في إحدى المعارك ربيعة بن ثور الأسدي، فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه، فامتدّ به المرض مدّة حول، وكانت أُمّه وزوجته تمرّضانه، ولم تكن زوجته بالتي تقدّر المسؤولية، أو أن تتكيف مع الوضع الجديد من أمر مراعاته؛ كونها زوجة. وحدث أن مرّت بها امرأة فسألتها: كيف أصبح صخر؟ قالت: لاهو حي فيرجىٰ ولا هو ميّت فيبكىٰ. وقد مللنا منه. فسمعها صخر وشعر أنها تتألّم من تمريضه، فاختنق وأنشد أبياته الشهيرة:

أرىٰ أم صخر لاتملّ عيادتي	وملّت سُليمىٰ مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة	عليك ومن يغترّ بالحدثانِ
لعمري لقد نبّهتِ من كان نائماً	وأسمعتِ من كانت له أُذنانِ
وأي امرئ ساوى بأُمٍّ حليلةً	فلا عاش إلّا في شقا وهوانِ
أهمّ بأمر الحزم لا استطيعه	وقد حيل بين العير والنزوانِ

إلى أن يقول:

أرى الموت خيراً من حياة كأنها	معرّس يعسوب برأس سنانِ [١]

واليعسوب: ذكر النحل، وضرب به المثل؛ لأنه يبني عشّه في الأماكن العالية،

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٨٤، الوافي بالوفيات ١٠ : ٢٤١، خزانة الأدب ١ : ٤١٦.

فتسقطه الريح ولو كانت ضعيفة. فهو يصوّر الحال التي وصل إليها على أنها مثل حال اليعسوب الواقف على طرف الرمح ويرى أن الموت خير له من الحياة. وهذا أُنموذج من الأُسرة المنهدمة.

الثاني: غزالة زوجة شبيب

لقد كانت غزالة موصوفة بالشجاعة والإقدام، وهي زوجة شبيب الشيباني الخارجي الذي ظهر على الحجّاج في الموصل، وهو من الخوارج المعروفين بالصلابة، وكان قد خرج على جيش عبد الملك بن مروان فهزمه، ووصل إلى الحجاج في الكوفة، وقاتله وهزم جيشه، ففرّ الحجاج منه واختبأ في قصر الإمارة، فضرب شبيب القصر بعمد كان في يده، فثقب الباب وبقي الثقب إلى أن انهدم قصر الإمارة.

وفي أحد الأيّام جاء الحجّاج بأحد عبيده وألبسه ملابسه ودرعه وقلّده سيفه وأخرجه، فلمّا رآه شبيب ظن أنه الحجّاج، فقال: سأقتله وسأُريح المسلمين منه. ثم انقضّ عليه وضربه ضربة، فسمعه يصرخ بكلمة: «آخ»، وهذه الكلمة لا تقولها العرب، فعرف أنه ليس عربيّاً، وإنما هو غلام، فقال: قاتل اللّه ابن أُم الحجّاج، أيفرّ من الموت بالعبيد؟

وغزالة هذه كانت تشدّ أزر زوجها، وكانت معه في كل حالاته، وكان الحجاج يخاف منها أشدّ خوف [1]، حتى قال فيه عمران بن حطّان:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فدخاء تفزع من صغير الصافرِ
هلّا برزت إلى غزالةَ بالوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائرِ [2]

---

(١) البداية والنهاية ٩: ٢٦.

(٢) المعارف: ٤١١، بلاغات النساء: ١٢٩، كتاب المتوارين: ٧٣، وفيات الأعيان ٢: ٤٥٥،

وكانت قد نذرت إن هي ظفرت بالكوفة وبالحجّاج أن تصلّي ركعتين، تقرأ في إحداهما سورة (البقرة) وفي الثانية سورة (آل عمران)، فلمّا انتصرت وفّت بنذرها [١]، كما ينقله لنا التاريخ [٢]. فكانت مثال الزوجة التي وقفت إلى جانب الزوج.

موقف أمير المؤمنين عليه السلام من الخوارج

وكان الخوارج على درجة كبيرة من العبادة، بل على عبادة لا حدود لها، ولكن للأسف كانوا على ضلال؛ ولذا فإن الإمام علياً عليه السلام أوصى بهم قائلاً: **«لا تقتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»** [٣]. أي لا تقاتلوهم من بعدي فإنهم يبحثون عن الحقّ وإن أخطؤوا السبيل إليه.

إذن فقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ**﴾ يعني أن الإنسان إذا كان معسراً تماماً فإن النفقة تسقط عنه، أما إذا كان الإعسار نسبيّاً فإنه ينفق بقدر ماعنده، وما تبقّى يظلّ ديناً عليه، ولا يكلّفه اللّه أن يستدين.

المبحث الثالث: متعلّق ﴿يُكَلِّفُ﴾ في الآية

ثم انتقلت الآية الكريمة، فقالت: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾، وهذا

☚ تاريخ الإسلام ٥: ٤١٧، الوافي بالوفيات ١٦: ٦٠، البداية والنهاية ٩: ٢٦.

(١) فقيل فيها:

وفت الغزالة نذرها ... ياربّ لا تغفر لها

وفيات الأعيان ٢: ٤٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٩٧، شرح نهج البلاغة ٤: ٢٦٩، الكامل في التاريخ ٤: ٤٢٩، وفيات الأعيان ٢: ٤٥٤، الوافي بالوفيات ١٦: ٦٠، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٥٨، الفتوح ٧: ٦٠.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٦١.

المقطع الشريف من الآية لا يقتصر على الجانب المادّي فقط، بحيث إنه إذا كان عند المرء مال فإن اللّه يكلّفه بالإنفاق، وإن لم يكن عنده فلا يكلّفه. أبداً إنه ليس مختصّاً بالأموال فقط، بل هناك أُمور أُخرى معنويّة يتناولها. ومن هذه الأُمور الجاه، فإن من يملك جاهاً فإن اللّه تعالى يكلّفه بدفع ضريبة على جاهه، ومن يملك علماً فإن اللّه تعالى يكلّفه كذلك بدفع ضريبة على علمه أو على أخلاقه؛ لأن الرزق لا يقتصر على الأموال فقط، فقد يرزق شخص خلقاً حسناً، وهو في حقيقة الحال أفضل من الأموال.

يروى أن أوساً ـ وكان أحد الصحابة الأثرياء، وكانت أُسرته من الأُسر المحترمة، ـ كان يتحرّى المكان الأقرب من المكان الذي يجلس فيه النبي الأكرم ﷺ حتىٰ يجلس قربه ويسمع منه. وفي أحد الأيّام سبقه أحد فقراء الصحابة ـ وكان أصمّ ـ وجلس قرب الرسول الأكرم ﷺ، فلمّا حضر أوس مجلس الرسول الأكرم ﷺ، ورآه جالساً مكانه جاء حتى وقف على رأسه ظانّاً أنه سيقوم ويتزحزح له عن مكانه عندما يراه، فلمّا رأى أنه لم يقم له ولم يتحرك له عن مكانه، قال له: يابن فلانة، أقف علىٰ رأسك ولا تقوم.

فصكّت هذه الكلمة «ابن فلانة» سمع النبي الكريم ﷺ، وهي كلمة يعدّ التفوّه بها خلاف الآداب والأخلاق، فالتفت إليه النبي ﷺ، وقال له: **«انظر، ماذا ترىٰ في المجلس؟»**. وكان فيه أجناس متنوّعة، فقال: أرىٰ الأحمر والأبيض والأسود. قال النبي ﷺ: **«إنك لا تفضل علىٰ أحد منهم إلّا بالتقوىٰ والعمل الصالح»**.

ذلك أن الناس كلّهم **«لآدم، وآدم من تراب»**[1]، وهم **«سواسية كأسنان**

---

(١) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

المشط »[1]، فعلى الإنسان ألّا يظن من نفسه أنها أفضل من غيره بفضل ما يملكه من أموال، فهذه الكلمة نابية، وهي ليست من أخلاق المسلمين. فانكسر الرجل وتخاذل، وقال: يا رسول اللّه، إن الذي دفعني إلى هذا حبّ الجلوس قربك، وألّا أُحرم من الجلوس إلى جانبك. وإني قد أخطأت، وسأُعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادىٰ النبيﷺ الرجل الأوّل وقال له: **«سمعت ما قال أخوك، هل ترضىٰ عنه ويعطيك نصف أمواله؟»**. فرفض عرضه قائلاً: روحي فداك، بل أرضىٰ عنه من غير هذا. فقال النبيﷺ: **«لماذا؟»**. قال: أخشىٰ أن يدخلني ما دخله. أي أن يتغيّر نحو الأسوأ. وهكذا أثبت هذا الصحابي الفقير أن عنده رزقاً من الخلق والإنسانيّة، فبارك له الرسول الأكرمﷺ هذا التوجّه[2].

إذن فقوله تعالى: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾** ـ وما آتى اللّه تعالى الإنسان شيء كثير ـ ليس هو المال فقط، بل ينضوي تحتها العلم والأخلاق والمحبّة في قلوب الناس، والعقل. وهنا ينبغي التأكيد على أن اللّه تعالى لا يحاسب الناس إلّا على قدر ما آتاهم من عقل، فمن يملك عقليّة جبّارة فإن اللّه يحاسبه بموجب عقله، أما إذا كان عقله محدوداً فإنه تعالى سيحاسبه كذلك لكن على قدر طاقته العقلية. تقول الرواية الشريفة: **«كان النبي موسى بن عمرانؑ يرى رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته، وكان ظاهره يدلّ على أنه ذو وقار وهيبة، وكان مظهره الخارجي يوحي بذلك، فكانؑ لا يكاد يذهب إلى موضع إلّا وهو معه»**.

---

(١) تحف العقول: ٢٦٨.

(٢) الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨.

إن الساكت قد ستر الله تعالى عليه حقيقته؛ لأن الكلام يفضح صاحبه، فهو وسيلة معبّرة عمّا في داخل الإنسان؛ ولذلك فإن الإنسان لا يقدم على السكوت دائماً، بل إنه يفضّل الكلام.

ثم تتابع الرواية الشريفة: **«وبينما كان﴿عليه السلام﴾ يوماً في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتزّ، فتأوّه الرجل، فقال له النبي موسى﴿عليه السلام﴾: على ماذا تأوّهت؟ قال: تمنّيت أن يكون لربّي حمار أرعاه ها هنا. فأكبّ النبي موسى﴿عليه السلام﴾ طويلاً ببصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحطّ عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أؤاخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل»**[1].

وكذلك كان حال أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ فإنه قد عاش مع أمثال هذا.. مع ذوي أفهام محدودة، وقد آذوه وأبلغوا. وقد استغلّ الدجّالون على مرّ التاريخ هؤلاء البسطاء بسبب محدوديّة أفهامهم وقلّة عقولهم.

إذن فإن الله تعالى يكلّف الإنسان ويحاسبه بقدر ما آتاه من عقل، كما أن الحساب يقع على الإنسان وفق ما عنده من عقل ومال وجاه.

المبحث الرابع: الإنسان ومعطيات العسر واليسر في الحياة

ثم قالت الآية: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾، وفي هذا طمأنة للأسرة بأنها سوف لن تبقى على حال واحدة من الفقر؛ فالدنيا فيها شدّة ثم رخاء، وفيها حالة فرح وحالة حزن، وعلى الإنسان أن يتكيّف مع هذه المعطيات التي تشكّل مسيرة حياته. إن الإنسان لا يستطيع أن يغيّر من الحياة شيئاً؛ لأنها أمر خارج عن إرادته، ولو أن الإنسان يُخيّر لحظة تكوينه وولادته لما اختار

---

(١) المحاسن ١: ١٩٣ / ١٠، شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٧.

المجيء إلى الدنيا، لكن للّه حكمة في إخراجه إليها. فالدنيا وعاء يحمل للإنسان المآسي الكثيرة، والمشاكلّ المتعدّدة، وهي دار فقد الأحبّة، يقول أبو فراس الحمداني:

المرء رهن مصائب لا تنقضي ... حتى يواري جسمه في رمسِهِ

فمؤجّل يلقى الردى في أهله ... ومعجّل يلقى الردى في نفسِهِ [١]

فالحياة فيها الخير وفيها الشرّ، وفيها الراحة وفيها الألم، ونحن ملزمون بالتكيّف معها؛ كي نتمكّن من أن نمضي فيها إلى ما يختاره عملنا لنا، كما أن علينا التسليم لقضاء اللّه تعالى وقدره، والايمان بحكمته. فالإنسان يتألّم ويستشعر الأذى بين طيات هذه الحياة، فقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشكو علل الدنيا، وذلك عندما يخرج إلى البقيع حيث قبر السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ويبثّ آلامه وحزنه عند قبرها، فيقرأ القرآن، ثم يتذكّر الفترة التي عاشها معها، في كنف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والفترة التي أعقبت التحاقه صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى، لقد كانت فترة قصيرة جدّاً لا تتجاوز التسع سنوات، فكان عليه السلام يقف عند قبرها ويستعبر ثم ينشد:

أرى علل الدنيا عليَّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليلُ

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على ألّا يدوم خليلُ [٢]

وهذا الأُسلوب عينه استعملته الرباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام عندما قامت على قبره الشريف، حيث أنشأت خباءها سنة كاملة تندب الإمام عليه السلام آناء الليل وأطراف النهار، فقد أرسلت إليَ البَنَّاء وأمرته بأن يقلع سقف البيت، وقالت: واللّه

---

(١) يتيمة الدهر ١: ٨٤، تاريخ الإسلام ٢٦: ٣٠٥، وفيات الأعيان ٢: ٦٣، الوافي بالوفيات ١١: ٢٠٢.

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.

لا يظلّني سقف بيت بعد أبي عبد الله ﷺ[١]. وأخذت تجول في الدار وهي تقول:

إنَّ الَّذي كانَ نُوراً يُستَضَاءُ بـه ... بِكَـربلاءَ قَـتِيلٌ غـير مَـدفونِ

سِبطَ النَّبي جَـزاكَ اللّـهُ صَـالِحَةً ... عنا وجُـنِّبتَ خُسـرانَ المَـوازِيـنِ

واللّـهِ لا أبـتَغِي صِـهراً لِـصِهرِكُمُ ... حَتَّىٰ أُغَيَّبَ بَينَ الرَّملِ والطِّينِ[٢]

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤١٤.

(٢) أعلام النساء ١: ٣٧٨.

﴿ ١٧١ ﴾

خلق الإنسان من طين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مجموعة من الجوانب الحيويّة في حياة كلّ أُمة وفرد، ولأهمّيتها سنمرّ بها جانباً جانباً كلاًّ في مبحث مستقلّ إن شاء اللّه تعالى.

المبحث الأوّل: السبب الطبيعي ودوره في عملية الخلق

تقول الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، وقبل أن أدخل في تفاصيل هذا المقطع الشريف أودّ أن أُبيّن أن الخطاب القرآني وأُسلوبه في التعبير متميّزان، ومن جملة هذه المميّزات: الإيجاز، فهو يلخّص معنى كبيراً في مقطع صغير مركّز. فعبارة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ جملة قصيرة لكنها مركزة بشكل كبير؛ ذلك أن القرآن الكريم يحاول أن يطرد من أذهان الناس فكرة أن السبب الطبيعي له يد مستقلّة أو

---

(١) الأنعام: ٢.

تأثير في حصول عملية الخلق. فالبعض من ذوي المستويات العلمية الضحلة قد يمرّ بذهنه خاطر هو أن السبب الطبيعي له هذه المدخليّة.

والأمر خلاف هذا؛ فهؤلاء مثلاً يرون أن الزرع يتكوّن من الأسباب الطبيعية ظاهراً، ويعمّمون هذا الاعتقاد في حالة خلق الإنسانِ كذلك، فيرى أن الأبـوين لهما دخل في عمليّة خلق الولد حينما يلتقيان. وهذا يفضي إلى الاعتقاد بأن هذا السبب هو العلّة في الإيجاد.

الأثر الحقيقي للأسباب الطبيعية

إن الواقع هو أن اللّه تعالى لا ينفي أثر السبب في عمليّة حصول الخلق؛ لأنه هو من وضع فيه قابلية التأثير، لكنه في المقابل أيضاً لا يوكله إليه مطلقاً. فالأمّ والأب لا يعدوان أن يكونا واسطة للفيض على حدّ تعبير بعض الفلاسفة، ومعنى (واسطة للفيض) أن اللّه تعالى لا يخرق الأسباب الطبيعيّة بل يخلق بها. ولو أن اللّه تعالى أراد أن يخلق بغير الأسباب الطبيعية لفعل، أي من غير رحـم ولا مـقاربة الزوج زوجه، فبمجرّد أن يقول له: كن، فإنه يكون: **﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[1].

الغاية من الخلق بالسبب الطبيعي

ثم إن اللّه تعالى إنما يجعل عملية الخلق خاضعة للسبب الطبيعي؛ لأن هـناك مصالح اجتماعية وأُخرى غيرها تترتّب على هذا النحو من الخلق؛ فزواج الرجل من المرأة يترتّب عليه نشوء عاطفة طبيعية بينهما، وهذه العاطفة ستنسكب بالتالي على الولد الذي يكون النتاج الطبيعي للزواج، والذي يتوقّف عليه نظام المجتمع؛

---

(١) البقرة: ١١٧.

إذ أن الطفل الذي ينشأ ويترعرع بين أبوين يعطفان عليه ويكنفانه بحنانهما ورعايتهما ويحوطانه باهتمامهما فإنه ينشأ سليماً من الأمراض والعقد النفسية. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه لولا الأمّ فمن الذي يستطيع أن يتحمّل رعاية الطفل والقيام على شؤون نظافته؟ ومن يقدر على السهر معه ليلاً للاهتمام به وملاحظة حالته الصحيّة، وما يحتاج إليه من فراش نظيف وملابس نظيفة وطعام وغيره؟ والطفل كما هو بديهي يحتاج إلى ذلك كلّه.

إذن لو لا أن الخلق بهذا الشكل الطبيعي لما وجد الطفل من يوفّر له أُمور رضاعته والعناية والاهتمام به، والحال أننا نلاحظ أن الأُمّ تتلذّذ بتوفير ذلك لطفلها وليس فقط من باب أداء حقّ الطفل.

إذن فالشفقة المودعة عند الأبوين، وعند الأُمّ خاصة، والتي بها يحصل الأطفال على غاية الاهتمام منهما مع ما به من أذى لهما، هي نواة كلّ أُسرة؛ لأنها الأساس في خلق حالة الترابط والتآصر بين الأفراد داخلها، فالأُسرة هي العشّ الذي سوف تترعرع فيه الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة، وهي التي توفّر اللبن النظيف للطفل وتغذّيه روحيّاً وجسديّاً وعاطفيّاً. ومن هنا نرى ضرورة وجود السبب الطبيعي، وإلّا فإن اللّه تعالى قادر على أن يخلق الإنسان بمنأى عن السبب الطبيعي كما هو الحال في بعض الكائنات التي تتكاثر بشكل غير جنسي، فتُخلق وتدبّ مباشرة، لكن حيث إن الإنسان أكرم المخلوقات على اللّه تعالى أراد له هذه الطريقة الكريمة في الخلق.

وبهذا نجد أن القرآن الكريم يحاول طرد هذا الوهم الذي ربما اعترى أذهان البعض، وهو أن الخالق هو السبب الطبيعي لا غير؛ لتصحيح أفكارهم وليبيّن لهم أن السبب الطبيعي لا يعدو كونه واسطة للفيض، فإن الخالق هو اللّه جلّ وعلا،

فهو العلّة التامّة للخلق وهو الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[١]، والمسألة برمّتها بيده وإرادته وتخطيطه. كما أن القرآن الكريم يريد أن يحصر العلّة به تعالى ولذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فكل ما عداه سبب طبيعي اكتسب تأثيره من اللّه تعالى فهو الذي أعطاه قابلية التأثير، فالنتيجة أن اللّه تعالى هو المؤثّر الحقيقي؛ لأن كلّ مؤثّر غيره منه استمدّ قابلية تأثيره.

المبحث الثاني: المراد من الطين في الآية الكريمة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿مِنْ طِينٍ﴾، و﴿مِنْ﴾ هنا بيانيّة، بمعنى أنها لبيان الجنس فقط، وليست لابتداء الغاية، أي أنها تخاطب الناس وتقول لهم: إنكم قد تكوّنتم من طين، وإن أصلكم الطين.

لكن هنا يبرز سؤال هو: ما المقصود بالطين في الآية الكريمة؟ للعلماء والمفسّرين نظريّتان للإجابة على هذا السؤال:

الأولى: أنه آدم ﷺ

فالمقصود من الطين على رأي أصحاب هذه النظريّة هو جدّنا آدم ﷺ؛ فهو جذرنا وأصلنا، وبما أنه ﷺ مخلوق من الطين، فنحن مخلوقون من الطين بالتبع. تقول الرواية الشريفة: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والحزن والسهل، والخبيث والطيّب**»[٢].

وقال ابن جريج: يقولون: إن الروح أول ما نفخ في يافوخ آدم، وفي

---

(١) الشورى: ٤٩.

(٢) التمهيد ١٨: ١٧٤ - ١٧٥.

قوله ﷺ: «**وفيه يركّب**»[(١)] إيمان بالبعث والنشأة الأُخرى[(٢)]. وهناك رواية أُخرى غيرها عنه ﷺ تقول: «**إن الله لما أراد أن يخلق آدم بعث ملكاً والأرض يومئذ وافرة، فقال: اقبض لي منها قبضة آتني بها أخلق منها خلقاً. فلما أتاها قالت: إني أعوذ بأسماء الله أن تقبض اليوم مني قبضة يخلق الله منها خلقاً يكون لجهنم منه نصيب. فعرج الملك ولم يقبض منها شيئاً، فقال له: ما لك؟ قال: عاذت بأسمائك أن أقبض منها خلقاً يكون لجهنم منه نصيب، فلم أجد عليها مجازاً، فبعث ملكاً آخر، فلما أتاها قالت له مثل ما قالت للأول، ثم بعث الثالث فقالت له مثل ما قالت لهما، فعرج ولم يقبض منها شيئاً، فقال له الرب تعالى مثل ما قال للّذين قبله.**

ثم دعا إبليس ـ واسمه يومئذ في الملائكة حباب ـ فقال له: اذهب فاقبض لي من الأرض قبضة. فذهب حتى أتاها، فقالت له مثل ما قالت للذِين من قبله من الملائكة، فقبض منها قبضة ولم يسمع لحرجها، فلما أتاه قال الله تعالى: أما عاذت بأسمائي منك؟ قال: بلى. قال: فما كان في أسمائي ما يعيذها منك؟ قال بلى، ولكن أمرتني فأطعتك. فقال الله: لأخلقن منها خلقاً يسوء وجهك»[(٣)].

لكن هذه الرواية تبدو على سيماها ملامح الأُسطورة؛ ولذا فإننا لا يمكن أن نأخذ بها، لكن يبقى الجانب المهمّ والمسلّم به، وهو أن اللّه تعالى أمر أحد ملائكته فأخذ من تراب الأرض ومزجه بالماء فكوّن منه هيكل أبينا آدم ﷺ، قال جلّ من قائل: ﴿**خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**﴾[(٤)].

---

(١) هو قوله ﷺ الذي ذكره في (التمهيد) قبل هذا الكلام، وهو: «كلّ ابن آدم تأكله الأرض إلّا عجب الذنب؛ منه خلق وفيه يركّب». التمهيد ١٨ : ١٧٣.

(٢) التمهيد ١٨ : ١٧٥.

(٣) الدرّ المنثور ١ : ٤٨ - ٤٩.

(٤) الرحمن: ١٤ ـ ١٥.

نوع الألف واللام في ﴿الإنسَانَ﴾

وعلى هذا الرأي يكون الألف واللام في (الإنسان) للعهد، أي ولقد خلقنا الإنسان الأوّل ـ وهو آدم ﷺ ـ من صلصال. والصلصال: الخزف [1]، أي الطين المفخور. تقول الرواية: **«إن اللّه تعالى بعد أن خلق آدم طرحه على باب الجنة أربعين عاماً، فكانت الملائكة تطؤه بأرجلها»**.

وهي رواية فيها جوانب إيحائية تربويّة؛ إذ أنها تحاول أن توعّي الإنسان بحقيقته، فتخاطبه وتقول له: أيها الإنسان المغرور الذي لا يقف غروره عند حدّ، لقد كنت في أوّل أمرك وبداية خلقك توطأ بالأرجل، وكذلك هي نهايتك؛ حيث إنك ستوطأ وأنت في قبرك بالأرجل؛ إذ ستمرّ من فوقك الأجيال جيلاً بعد جيل دون أن تشعر بك. وهذا المعنى قد تعرّض له الشاعر أبو العلاء المعرّي في رثائه الفلسفي حيث يقول:

سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العبادِ

خفّف الوطء ما أظنّ أديم الـ ... أرض إلّا من هذه الأجسادِ

ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ

ودفين على بقايا دفين ... من طويل الأزمان والآبادِ [2]

وهي نتيجة حتمية لكلّ إنسان.

وفد عبيد بن شرية الجرهمي على معاوية كما ذكر الحريري في كتاب (درة الغوّاص في أوهام الخواصّ)، وكان قد عاش ثلاثمئة سنة، وأدرك الإسلام فأسلم، فدخل على معاوية بن أبي سفيان بالشام وهو خليفة، فقال: حدثني

---

(١) التبيان ٦: ٣٣٠، تفسير السمعاني ٣: ١٣٧، ٥: ١٧٤.

(٢) سقط الزند: ٩٧٤ ـ ١٩٧٥، شرح نهج البلاغة ١١: ١٤٨ ـ ١٤٩.

بأعجب ما رأيت، فقال: مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميتاً لهم، فلما انتهيت إليهم اغرورقت عيناي بالدموع، فتمثّلت بقول الشاعر:

يا قلب إنك من أسماء مغرورُ	فاذكر وهل ينفعنك اليوم تذكيرُ
قد بحت بالحبّ ما تخفيه من أحد	حتى جرت لك اطلاقاً محاضيرُ
فلست تدري وما تدري أعاجلها	أدنى لرشدك أم ما فيه تأخيرُ
فاستقدر الله خيراً وارضين به	فبينما العسر إذ دارت مياسيرُ
وبينما المرء في الأحياء مغتبط	إذا هو الرمس تعفوه الأعاصيرُ
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه	وذو قرابته في الحيّ مسرورُ

فقال لي رجل: أتعرف من يقول هذا الشعر؟ فقلت: لا. فقال: إن قائله هو الذي دفنّاه الساعة، وأنت الغريب تبكي عليه، وهذا الذي خرج من قبره أمسّ الناس رحماً به وأسرّهم بموته. فقال له معاوية: لقد رأيت عجباً، فمن الميّت؟ قال: عشير بن لبيد العذري [1].

وهذه الحادثة تذكّر بأُخت لها؛ يروي ابن خلّكان في تاريخه يقول: اجتاز بعض الأُدباء بدار الشريف الرضي ببغداد وهو لا يعرفها، وقد أخنى عليها الزمان، وذهبت بهجتها، وخلُقت ديباجتها، وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة وحسن الشارة، فوقف عليها متعجّباً من صروف الزمان وطوارق الحدثان، وتمثّل بقول الشريف الرضي:

ولقد وقفت على ربوعهمُ	وطلولها بيد البلا نهبُ
فوقفت حتى ضجّ من لغب	نضوي ولجّ بعذلي الركبُ

(١) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر: الدرجات الرفيعة: ٤٧٤ – ٤٧٥، وفيات الأعيان ٤: ٤١٧ ـ ٤١٨.

وتلفّتت عـيني فـمذ خـفيت عني الطـلول تـلفّت القـلبُ

فمر به شخص وهو ينشد هذه الأبيات، فقال له: هل تعرف هذه الدار لمن؟ قال: لا. قال: هذه الدار لصاحب الأبيات، الشريف الرضي [1].

وعلى العموم فإن اللّه تعالى يشعرنا في هذه الآية الكريمة بأنـه هـو الخـالق وحده، وأنا قد خلقنا من الطين. وقد بينّا أن المراد من الطين على هذا الرأي هو جدّنا آدم ﷺ.

الثانية: أنه هذا الطين المعهود

وبناء على هذا الرأي فإن أصحابه يذهبون إلى أن المقصود من الطين في الآية الكريمة هو التراب الممزوج بالماء. لكن يرد هنا سؤال هو: إذا كان قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، خطاباً للجميع، فكيف يكون الجميع قد خلقوا من طين مع أن النـبي آدم ﷺ هو الذي خلق من طين فقط، ونحن خلقنا بواسطته؟ والجواب على هذا التساؤل هو أن المادّة الحيويّة التي يتكوّن منها الإنسان، وهي البرتوبلازم متكوّن من الطعام الذي هو إمّا حيواني أو نباتي، والحيواني كما هو واضح يغتذي على النبات والنباتات تتكوّن في التراب ومنه، وتغتذي عبره ومن عناصره وأملاحه وما فيه من موادّ ذات نفع لنموّ النبات وإثماره. وبهذا فإننا نكون قد خـلقنا مـن التراب، صحيح أنه ليس خلقاً مباشراً لكن عبر سلسلة مترابطة محكمة.

المبحث الثالث: الهدف من خلق الإنسان من طين

وهنا تستوقفنا جملة من الأهداف التربويّة التي يريد اللّه تعالى أن يبيّنها لنا من وراء خلق الإنسان من الطين، نذكر منها:

---

(١) المصدر نفسه.

الهدف الأوّل: الحثّ على التواضع

فالقرآن الكريم يريد أن يحثّ الإنسان على التواضع عبر تذكيره بالأصل والمنشأ والمادّة التي خلق منها. فمن كان أصله من تراب يوطأ بالأقدام كلّ يوم وعلى مرّ العصور والدهور لهو أولى بأن يتواضع للّه أمام غيره من المخلوقات الأُخرى. وفي هذا نهي للإنسان عن الاغترار بنفسه وحاله بالدنيا [١]، فهو تعالى يخاطبه بألّا يعتزّ بما عنده وما أُوتيه من حول وطول وقوّة ومال؛ لأنه ليس أكثر من قبضة من تراب كانت ولا زالت موطئ أقدام المخلوقات.

ومن هنا فإنه ينبغي على الإنسان أن يخفّف من غلوائه؛ لأنه ليس أفضل من غيره، بل هو وغيره على حدّ سواء، [٢] وذلك أن الغرور والغلواء لا يناسبان المخلوق الضعيف [٣]. وعلى الرغم من كلّ هذا نجد هناك شرائح من الناس لا يمكن أن يطاقوا ولو لفترة قصيرة لما يحملونه من تكبّر وغطرسة بما يملكون من مال زائل أوجاه إلى النهاية آيل، أو سلطان متزلزل أو علم لم ينتفع به، وكلّ ذلك من فيوضات اللّه تعالى عليه وليس له هو أي دخل فيه أو فضل.

إن من الجميل بالإنسان أن يتواضع وأن يلتصق بالتراب؛ لأن التواضع هو

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لقمان: ١٨.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهُمُ آدم والأمّ حـواءُ

فإن يكن لهُمُ في أصلهم شرفٌ ... يفاخرون به فالطين والماءُ

ديوان الإمام علي عليه السلام: ١٥.

(٣) قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام واصفاً الإنسان: «تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة» نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩.

الذي يليق به، أمّا التكبّر فليس من شأنه وليس من مقدوراته؛ لأنه لا يستطيع أن يمنع عن نفسه ضرّاً إن أراد اللّه أن يصيبه به[1]. إن التاريخ يحدّثنا بإسهاب عن تكبّر أبناء المهلّب مع أن أباهم كان يختلف عنهم في هذا، كان مالك بن دينار من الصلحاء المعروفين المتديّنين، فرأى أحد أبناء المهلب بن أبي صفرة ـ وبيت المهلّب بيت من بيوت المجد ـ يمشي مشية ويختلج في مشيته ـ أي يمشي مشية غير طبيعيّة ـ فقال له: يا هذا على رسلك، لو تركت هذه المشية لكان أليق بك. قال له: أو لست تعرف من أنا؟ قال: بلىٰ. قال: كيف تعرفني؟ قال: أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت ما بينها تحمل العذرة[2].

أما أبوهم المهلّب فقد كان على خلاف ذلك كما ذكرنا؛ فقد عرف عنه التواضع والكرم، وكان قد أُصيب بإحدى عينيه في الحرب، يروي المؤرّخون أنه مرّ في أحد الأيّام على جماعة، فرآه أحدهم والتفت إلى أنه أعور، فقال: من هذا؟ فقيل له: هذا المهلّب. فقال: إنه لا يعدل خمسمئة دينار. فسمعه المهلّب، وما هي إلّا هنيئة حتى عاد بعدها يحمل الخمسمئة الدينار وأعطاها إيّاه، فقال له: ما هذا؟ قال: هذا ثمن المهلّب الذي رصدته إزاءه، وآمل أن تعدّها صلة بيني وبينك. فخجل منه الرجل واعتذر، ثم قال: حقّ على قوم أن يسوّدوك.

وعليه فإن على الإنسان أن يبتعد عن الغرور بألوانه؛ لأن الغرور لا يناسبه بحال من الأحوال، ولا يلتقي مع ما هو عليه من ضعف واحتياج؛ ذلك أن مِلاك

---

(١) قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً﴾ الفتح: ١١.
(٢) قد مرّ أن هذا كلام مقتبس من حِكم أمير المؤمنين ﷺ، يقول فيه: «ما لابن آدم والعجب؛ وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة؟». عيون الحكم والمواعظ (علي بن محمد الليثي الواسطي): ٤٧٩.

الإنسان الضعف والضعة وقابلية التأثّر بمختلف المؤثّرات البيئية والحياتية. وهذا الأمر لا يتّفق بحال مع التكبّر، وإن لبسه فإنه يكون قد لبس رداءً ليس له وليس من حقّه أن يلبسه. وبهذا يتّضح أن التواضع أولى به.

الهدف الثاني: التذكير بالآخرة

إن الخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة ينصبّ على تذكيرنا بالنشأة الأُخرى، فهو يقرّر أن الذي خلقكم من طين قادر على أن يبعثكم من الطين ثانية، فلا توسوس لكم نفوسكم حول إعادة الأرواح إلى أبدانها بعد بعثها ونشورها، ولا تلهثوا وراء ما يطلقه الكتّاب ويثيرونه حول هذه النقطة.

فالقرآن الكريم يريد أن يعوّد أذهاننا على التفكير العلمي والأُسلوب المنطقي في معالجة الأفكار ومناقشتها، فيقول لنا: إن الذي يقدر أن يخلق من الطين بشراً يستطيع أن يعيده ثانية، أي أن من يقدر على الابتداء يقدر على الإعادة التي لا عجب في أن تتكرر؛ لأن العجب إن كان يقع ففي الحالة الأُولى، أمّا مع تكرّر الحدث فينتفي العجب؛ لأنه قد استُوفي في الحالة الأُولى. كان أُميّة بن خلف يحاول أن يثير هذه النقطة ليحتجّ بها على الرسول الأكرمﷺ، وأُميّة هذا هو الذي عذب المؤمنين الأوائل ومنهم بلالﷺ، حيث كان يخرجهم إلى الصحراء ويسلّط عليهم السياط حتى تتهرّأ جلودهم[1].

على أية حال جاء أُميّة يوماً إلى الرسولﷺ وهو يحمل عظماً بالياً متفتّتاً، وقال له: يا محمد، أتزعم أن اللّه يبعث هذا؟ فقالﷺ: **«نعم، ويبعثك ويدخلك في النار»**. فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ**

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، أُسد الغابة ١: ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٨.

﴿الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[١]...[٢].

فالآية ترتكز على قوله تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، ولذا يحتجّ عليه القرآن الكريم بقوله: أنت إنما خلقت من تراب، فمن أخرجك من التراب وأفاض عليك الحياة؟ أهو الأب أم هي الأُم؟ إنهما لا يستطيعان منح الحياة لمن يحبّان، ولا دفع الموت عنه. إذن فالقرآن الكريم يريد أن يطرد عن أذهاننا فكرة العجز عن إعادة الخلق وأن يعوّدها على التفكير العلمي القائم على مبدأ أن القادر على الخلق أوّلاً قادر على الخلق ثانياً. فلا يظن الإنسان أنه بمجرد أن يموت ينتهي أمره حيث يعود إلى التراب، وليس هناك من يسأله أو يسائله، فمن خلق من التراب أوّلاً قادر على أن يعيده إلى الحياة ثانياً.

الهدف الثالث: شدّ الإنسان إلى التراب الذي خلق منه

إن اللّه تعالى يريد أن يؤكّد على ضرورة ارتباط الإنسان بالمادّة الأُم التي خلق منها، وهي الأرض أو التراب. وهذا هو السبب الذي من أجله يعدّ الوطن عزيزاً على الإنسان الذي لا يمكن أن ينسى وطنه ولو ذهب إلى أجمل البقاع وأروع الأمكنة في الدنيا. فهو يبقى مشدوداً إلى وطنه ومسقط رأسه، ويظلّ يحنّ إلى التراب الذي خلق منه ولو كان صحراء عارية من أسباب النعيم والخيرات. فهذه الأرض لا يستبدلها ابنها بأجمل بلاد الدنيا. فحنينه أبداً لأوّل منزل [٣]، حيث

---

(١) يس: ٧٩.

(٢) مجمع البيان ٨: ٢٩٠، أسباب نزول الآيات: ٢٤٦.

(٣) قال الشاعر:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّلِ
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأوّل منزلِ

إعانة الطالبين ٣: ٣١٤.

أهله وصحبه وأترابه ولداته، والتراب الذي تكوّن منه كيانه.

إذن فالوطن يشدّ الإنسان إليه، لما له من مكانة في عنقه، فمن ترابه يأكل ومن مائه يشرب ومن هوائه يستنشق الحياة. ثم هو الوعاء الذي يكفته ويستره بعد موته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[1]. فالوطن إذن هو الأُم وترابه هو الحجر الذي نأوي إليه بعد موتنا.

والإنسان لا يعدّ بلداً ما وطنه إلّا إذا ولد فيه وامتزج بترابه، ولذا فإن الدول المتحضّرة إذا ولد مولود في طائرة ما في سماء بلادها فإنها تمنحه الجنسية، وهو قانون إنساني. والوطن له ضرائب في الأعناق يجب على الإنسان أن يقدّرها ويحترمها، وأن يحترم جانب الوطن ويكرّمه ولا يخونه، وأن يضحّي من أجله إذا لزم الأمر واستوجب. وكلّ هذه الأُمور ضرائب يدفعها الإنسان لوطنه.

والإنسان الذي لا يعير هذه الضرائب المخصّصة للوطن أي اهتمام لا يمكن أن نسميه إنساناً، ومن ينتظر السماء أن تغيّر له فهو على خطأ؛ لأن السماء ليست هي التي تغيّر، بل إن الناس هم المسؤولون عن ذلك[2]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3]. فهذه هي ضريبة الوطن التي يريد القرآن أن يذكّرنا بها، يقول أحد الأدباء:

وكـنّا ألفـناها ولم تك مألفاً ... وقد يُؤلف الشيء الذي ليس بالحسنْ

كما تؤلف الأرض التي لم يطبْ بها ... هواء ولا ماء ولكنّها وطنْ[4]

---

(١) طه: ٥٥.

(٢) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١.

(٣) الحج: ٤٠.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٩١.

المبحث الرابع: الأجلان المذكوران في الآية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾، وهي تذكر هنا أجلين، فما المقصود بهما؟ إن للمفسرين هنا أربعة آراء:

الأوّل: أنهما أجلا النوم واليقظة

فكأن الآية الكريمة تريد أن تنبّه إلى حقيقة أن الإنسان عندما ينام فإن الروح العاقلة تخرج منه، وحينما يستيقظ من نومه ويلج الحياة ثانية فإنه يكون قد دخل في أجله الثاني.

موضع الروح من الجسد

وهنا نقطة أخذت مساحة لا بأس بها من تفكير العلماء، أودّ أن أُشير إليها وهي موضع نزاع بين العلماء، ومفادها أن الروح هل هي خارج جسم الإنسان وتحرّكه عن بعد، أو أنها داخله؟ وهل هي حلقة من حلقات التطور المادي، أم أنها كيان متميّز له خصائصه التي تُميّزه عن المادة وتجعله يعمل خارج حدودها؟ ويمكن تمثيل حالة كون الروح خارج البدن في هذه الأزمنة بالأجهزة الإلكترونيّة التي تشغّل عن بعد بأجهزة السيطرة المختصّة بها، والمسمّاة بـ«الريموت كونترول»، كما يفعل العلماء بالسيطرة على الأجهزة التي تعمل في الفضاء، أو تشغيل أجهزة التلفاز. كما يمكن تمثيل الروح بكونها داخل الجسم بالكهرباء التي تسري داخل أسلاك المحرّك الكهربائي.

وكلتا النظريّتين مطروحتان للنقاش ولهما أتباعهما من العلماء، ومن أتباع النظرية الأُولى الملا محسن الملقّب بـ«الفيض الكاشاني»، فهو يذهب في كتابه (حقّ اليقين) إلى أن الروح حلقة من حلقات التكامل المادي. وتبعه على ذلك

كثير من المتأخّرين. أمّا رأي الأعمّ الأغلب من العلماء فهو أن الروح تتّصل بالبدن اتّصال تدبير، بمعنى أنها ليست داخل البدن، بل إنها خارجه، لكنها توجهه وتسيّره من حيث هي، وأمثلة هذا ـ كما ذكرنا ـ كثيرة في عصرنا الحاضر متمثّلة بـ«الريموت كونترول».

الثاني: أنهما الأجل المسمّى وأجل البداء

فالأجل الأوّل هو الأجل المسمّى، وهو الأجل المقدّر للإنسان عند اللّه تعالى، أي أنه مكتوب عنده، أمّا الأجل الثاني فهو الأجل الخاضع للبداء. والبداء عبارة عن الزيادة والنقصان، أي أنه يبدو للّه جلّ وعلا أن يزيد في عمر إنسان ما أو ينقص منه. والبداء هو نسخ تكوين [1]، وليس معناه أن اللّه لم يكن يعلم ثم علم، بل إنه تعالى يعلم ذلك من أوّل أمره لكنه جعل له الزيادة مشروطة بشيء، كما لو أنه جلّ وعلا قد قدّر لشخص عمراً وجعله خمسين سنة، لكنه اشترط تحقّق ذلك بصلة الرحم، فإن لم يصل رحمه فإنه سيجعله أقل من ذلك.

ولذا فإن الذي ورد في الروايات أن الرحم تطيل العمر [2] سيّما إذا كان الرحم محتاجاً إلى الصلة؛ سواءً كانت صلة ماديّة أو معنويّة. فالصلة ربما تصدق حتى على الرأي والمشورة، فحينما يزور الإنسان رحمه، ويوجهه بكلمة، ويرشده إلى الطريق الصواب، أو إلى السلوك الطيّب، ويعطيه من تجاربه في الحياة فإن كلّ ذلك يعدّ صلة وصدقة.

---

(١) أي أنه يقابل النسخ في عالم التشريع.

(٢) قال نبيّنا الأكرم ﷺ: «صلة الرحم تزيد في العمر» الكافي ٢: ١٥٧ / ٣٢، دعائم الإسلام ٢: ٣٣١ / ١٢٥١، المقنع: ٢٩٧، الدعوات: ١٢٥ / ٣٠٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٢٣٧ / ٢٠٤٥، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢١٣.

وممّا يطيل الأعمار إماطة الأذى عن طريق المسلمين خاصّة والناس عامّة، والإحسان إلى الناس عامّة والجار خاصّة، وغيرهما كثير من موارد البرّ والإحسان وعمل الخير. فاللّه تعالى يجعل في كلّ ذلك البداء، وهو الأجل الثاني للإنسان.

الثالث: أنهما أجلا الدنيا والآخرة

وينصّ هذا الرأي على أن الأجل الأوّل هو عمر الدنيا، والأجل الثاني هو عمر الآخرة. لكن هل إن للآخرة عمراً؟ إن المفروض أن الآخرة ليس لها عمر محدّد، بل إنها عبارة عن خلود دائم لا أمد له ولا انتهاء. ثم إن عمر الدنيا كم هو؟ وما مقداره؟ وما قيمة أعمارنا كأفراد بالنسبة للدنيا؟ إن لكلّ إنسان حصّة معيّنة من عمر هذه الدنيا يعيشها، لكن مجموع هذه الأعمار يبقى لا قيمة له أمام عمر الدنيا الذي هو في حقيقته عمر محدود مهما قدّر لها أن تبقى وأن تعمّر، وهذا ما اللّه أعلم به، فكيف به أمام عمر الآخرة؟إذن فاللّه تعالى أعلم بعمر الآخرة؛ فهو العالم بالحقائق والآجال.

أمّا عمر الدنيا فهو مرتبط بعمر الأرض، والأرض تبقى ما دامت الشمس تمدّها بالطاقة والضوء والدفء، فإذا تكوّرت الشمس ماتت الحياة على وجه الأرض. لكن كم بقي من عمر الشمس؟ إن للعلماء تقديرات عدّة لتحديد عمر الشمس يسترسل البعض فيها نزولاً ليصل إلى مليوني سنة. وهي كنجم طاقتها ذاتيّة، وتستهلك من كتلتها كلّ ساعة الشيء الكثير[1]. وإن كلّ هذا في حقيقة

---

(١) يقدّر العلماء أن الشمس تقوم بتحويل ما يعادل $(٦\times١٠)^{٨}$ طن من الهيدروجين البسيط (H) إلى الديتريوم (H_2) ثم إلى التريتيوم (H_3)، ثم إلى الهيليوم (He) كل ثانية، يصاحبه فقد كتلة مقداره $(٥\times١٠)^{٦}$ طن/ثانية، أي ١٥٧×١٠^{١٤} طن / السنة. الإنسان بين العلم والدين: ٦٢.

الأمر تقديرات ونظريّات، أمّا علمها الواقعي فعند اللّه جلّ وعلا.

إذن فهذا هو أجل الدنيا الذي سيأتي من بعده أجل الآخرة الذي لا يعلم مداه إلّا اللّه تعالى كذلك، ولا يعلم الإنسان ما الذي قدر له فيه، وما هو مكان خلوده؛ أهو في الجنّة أم في النار.

الرابع: أنهما أجلا الحياة والبرزخ

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن معنى قوله تعالى هنا هو أن الأجل الأوّل هو أجل الإنسان في الحياة الدنيا، والأجل الثاني هو أجله في القبر، بمعنى أن الأجل الثاني هو الفترة التي يحاسب فيها الإنسان وهو في قبره، وهي المسمّاة بعالم البرزخ. لكن يرد هنا سؤال هو: هل إن الذي يحاسب في القبر هو الجسد أم الجسد والروح معاً؟ الشيء المؤكّد أن الروح ليست في القبر ولا تبقى فيه، بل إن الجسد هو الذي يظلّ موجوداً فيه. وهذا الشقّ (الرأي الرابع) لا يصمد أمام النقاش العلمي مطلقاً.

شبهة الآكل والمأكول

وهناك شبهة يُثيرها البعض، وهي أن جسم الإنسان هو عبارة عن مجموعة من الأطعمة النباتيّة والحيوانيّة، وهذه النباتات هي في حقيقتها قد اغتذت على أجساد بشريّة أو على كائنات مثلها كانت هي بدورها قد تغذّت على أجساد بشريّة. وربما كانت هذه الأجساد تعود لأُناس كفّار؛ إمّا إن يكونوا قد دفنوا قرب النباتات مثلاً، فتغذّت على أجسادهم التي أصبحت سماداً لها، أو أنهم غرقت بهم سفينة في البحر فأكلتهم أسماكه وحيتانه، فامتزجت أجسادهم بأجساد المسلمين الذين أكلوا من هذه الأسماك.

وهكذا تختلط آلاف الأجساد مع بعضها، أي أن الجسم الخيّر يمكن أن يحمل بين أجزائه جزءاً من جسم كافر، فكيف تنعّم أجزاء الجسم الكافر مع أجزاء الجسم المؤمن؟ وكيف تعذّب أجزاء الجسم المؤمن مع أجزاء الجسم الكافر؟ وأيّهما الذي سوف يُحشر لينعّم أو يعاقب؟ فمن كان ذا روح طيّبة فهل يُحشر بهذه الروح وهذا الجسد المزيج من ذرات المؤمنين والكافرين؟ وكيف سينعم؟ وكذلك الحال مع أصحاب الأرواح غير الطيبة.

مناقشة الشبهة

نظريّة الإمام الصادق‌ؑ الإقناعيّة

إن هذا الإشكال غير وارد أساساً، ولتوضيح هذه الفكرة نذكر أنه دخل ابن أبي العوجاء على أبي عبد اللّه الصادق‌ؑ فسأله عن قوله تعالى: **﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾**[1]، فما ذنب الغير؟ قال‌ؑ: **«ويحك، هي هي وهي غيرها»**. قال: فمثل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا. فقال‌ؑ: **«نعم، أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثم ردها في ملبنها؛ فهي هي، وهي غيرها»**[2].

فالإمام‌ؑ إنما أجابه على قدر عقله[3]، وإلّا فإن الجواب غير هذا؛ ذلك أن الألم لا يصيب الجسد أبداً، فمهما مزّقت الجلود فإن الألم لا يقع على الأجساد، بل إن الألم يقع على الروح فالروح هي التي تتألم لكن بواسطة الجسد. ويمكن

---

(١) النساء: ٥٦.

(٢) الاحتجاج ٢: ١٠٤، التفسير الصافي ١: ٤٦٠ - ٤٦١ / ٥٦.

(٣) وهو ما يسمى بالجواب الإقناعي.

تمثيل هذا بالسلك الكهربائي الذي يقوم بنقل الكهرباء من المنبع إلى وحدة الاستهلاك.

إن الروح شيء مجرّد، والأشياء المجرّدة لا تقع ضمن دائرة الإحساس، فلا يمكن أن تعذّب بالنار، لكن يمكن أن تتعذّب بالشعور بالألم من خلال الجسد.

نظريّات أُخرى

إذن فهذا الإشكال غير وارد؛ لأن الجسد ليس هو الذي ينعّم أو يعذب بل، إنها الروح لكن بواسطته؛ لأن الجسد من غير روح لا يمكن أن يشعر بالألم أو غيره من المؤثّرات والانفعالات. وهنالك الكثير من النظريات التي تفسّر هذه الحالة؛ منها:

الأولى: أنه إنما تعاد الأجزاء الأصليّة وتُحشر.

الثانية: أنه إنما تعاد الأجزاء الفضليّة.

الثالثة: أن اللّه عزّ وجلّ هو الذي يباشر عمليّة التمييز بين الذرّات، وفصلها بعضها عن بعض.

وهذا في حقيقة الأمر يُثير الاستغراب؛ لأن هؤلاء لم يلتفتوا إلى حقيقة أن الجسد لا يعذّب، بل إن الروح هو الذي يكون كذلك.

وهكذا نكون قد تطرّقنا إلى هذه الآراء المختلفة في تفسير معنى الأجلين في الآية الكرية، وعرفنا أن الإنسان تجمع ذرات جسده لتُعاد روحه إليها. أمّا مقدار الفترة التي تمرُّ على الإنسان وهو في قبره، والتي يبقى روحه يرفرف فيها فوق غيره، فهذا ما لا يعلمه إلّا اللّه وحده، ولا يمكن للإنسان أن يحيط به علماً أو أن يهتدي إليه.

زيارة القبور

والغريب أن بعض السذّج حينما يرى أحداً يقف على قبر، يسارع إلى استنكار وقوفه ذلك، ونهيه عنه؛ بذريعة أن من في القبر قد أصبح تراباً لا يضرّ ولا ينفع. والغريب أن هذا الفكر بدأ يغزو ثقافتنا وأجواءنا، مع أننا حينما نقف على القبر فإنما نقف لنقرأ القرآن، ونحن لا نقرأ القرآن للتراب بل لروح صاحب القبر الذي نعتقد يقيناً أنه يرفرف فوقه ينتظر برّ أهله. وكلُّ ذلك لإدخال السرور عليه قال رسولنا الأكرم ﷺ: **«كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها»**[(١)].

وقال ﷺ: **«من زار أخاه المؤمن وقرأ على قبره شيئاً من القرآن، نفعه اللّه ببركة القرآن، ونفع صاحب القبر بالهديّة»**.

يقول حبّة العرني: كان أمير المؤمنين ؏ يذهب إلىٰ المقبرة ويطيل الوقوف فيها، فخرجت معه مرّة إليها، فوقف يخاطب أهلها ويقول: **«يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»**[(٢)].

وقال في رواية ثانية: ذهبت معه ؏ إلىٰ المقبرة، فجلس عند القبور، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أتحبّ أن أضع لك شيئاً تحتك تجلس عليه؟ فقال: **«إن هي إلّا مزاحمة مؤمن»**. فقلت: وكيف تزاحمه، وأنا لا أرى أحداً؟ فقال ؏ لي: **«لو كشف**

---

(١) مسند أحمد ١: ١٤٥، ٤٥٢، ٣: ٣٨: ٢٣٧، ٢٥٠، ٥: ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، صحيح مسلم ٣: ٦٥، ٦: ٨٢، تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٠.

لك عن بصرك لرأيتهم حلقاً حلقاً يتحدثون حول القبور». فقلت: أرواح أم أجساد؟ قال: **«بل أرواح»**[1].

وهذا الوادي هو الذي يخاطبه الشاعر بقوله:

تحيةً أيّها الوادي الحبيبُ أيا ... ربى إليها النجوم الزهر تنجذبُ

يلوح في لابتيها من أبي حسن ... وجه ومن وجنات فيه تختصبُ

ثوت ملايين أبشار بتربتها الـ ... ـسمراء فهي على أبعادها كثبُ

فهذه الأرواح تجتمع حلقاً حلقاً يتحدّثون حول القبور، وينتظرون أن يبعث إليهم أحد بهدية تنفعهم؛ من صلاة، أو صدقة، أو بِرّ، أو قراءة شيء من القرآن الكريم، وما إلى ذلك؛ لأنهم يأنسون بها كما يأنس بها الحي، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«إن الميّت ليفرح بالترحّم عليه والاستغفار له كما يفرح الحيّ بالهديّة تُهدى إليه»**[2].

الأجل المحتوم

وهنا ترد بعض التساؤلات حول من يموت قتلاً، فهل إنه مات في أجله أم قبله؟ وهل إن هذه الفترة التي قضّاها وأمضاها تسمى أجلاً؟ لأن هذا ربما يكون قد كُتب له عمر غير هذا الذي عاشه، وأجلاً بعد هذا الذي وصله. يرى البعض أن هذه الفترة لا يمكن أن تسمى أجلاً؛ لأنه ربما يقول قائل: إذا كان هذا المقتول قد قتل بعلم اللّه وتقديره، فالقاتل لا يمكن أن يكون قد ارتكب ذنباً أو جرماً؛ لأنه حينئذٍ لم يكن قد فعل بحقّه غير ما هو غير مقدّر له، فهذا المقتول قد قدّر له

---

(١) قريب منه في الكافي ٣: ٢٤٣ / ١، بحار الأنوار ٦: ٢٦٨.

(٢) الفقيه ١: ١٨٣ – ١٨٤ / ٥٥٤، عوالي اللآلي ٢: ٥٣ – ٥٤ / ١٤١.

أن يموت في هذا الوقت، وغاية ما في الأمر أنه تحقّق على يد القاتل. فهو لم يكن أكثر من أداة تنفيذيّة، والأداة التنفيذيّة لا مؤاخذة عليها، كما أنه لا مؤاخذة على سلاح الجريمة.

أي أن هذا ليس معناه أن المقتول قد اختُرِم أجله، بل إن معناه أنه مقدّر له أن يعيش هذا المقدار، وحينما حان أجله جاء هذا وقتله في الوقت نفسه دون تقديم أو تغيير.

والواقع أن الأمر ليس بهذا الشكل؛ لأن اللّه تعالى قد قرّر لهذا الإنسان أن يعيش هذا المقدار بشرط ألّا يعتدي عليه أحد، لكن سبق في علم اللّه تعالى أن هذا سيعتدي عليه فلان من الناس. والقاتل يعامل هنا على أنه قطع على المقتول حبل الحياة، فهل من العدل فعل ذلك؟ **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[1].

إذن فهذا لا يسمى أجلاً، لأن عمره قد اخترم، والأجل هو الذي يختم به حياة الإنسان، ولذلك يعاقب القاتل إذا خرق هذا الأجل، فيؤخذ بشخصه.

نظرية التكافؤ في القصاص

وهنا قد يعترض معترض فيقول: هل من المعقول أن يؤخذ القاتل بشخصه مع أنه ربما لا يعدل عضواً من أعضاء المقتول، كأن يقتل مجرم جاهل عالماً عبقرياً؟ فهل يمكن في مثل هذا الحال أن يعدل ذاك المجرمُ الجاهلُ هذا العبقريَّ العالمَ فيقتل يه؟ وهل يعدل ابن ملجم ذرّة من كيان علي بن أبي طالب حتى يقتل به ويؤخذ بحقّه له منه؟ أو أنّ لصّاً قاطعاً للطريق يقتل المتنبي.. ذلك الكتلة المتوهّجة

---

(١) البقرة: ١٧٩.

من الأدب، فهل يعدل به؟ إن هذا ليس بعدل.

وهذا الإشكال غير صحيح؛ لأن العدل وتمامه، ونظام الإنسانية يقتضيان هذا، صحيح أن الإنسانية فقدت عظماء بسبب هؤلاء المجرمين القتلة، لكن الجرم لا يمكن أن يتعدّى القاتل إلى غيره، فالقرآن الكريم حدّ لنا حدوداً يجب ألّا نتعدّاها فقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [1].

والجاني حينما يجني لا يجني إلّا على نفسه وإن كانت الإنسانيّة قد فقدت ذلك العظيم بسببه. وهكذا يؤاخذ الجاني على جنايته. وهذه هي المشكلة التي واجهت المختار ﷺ، حينما قتل عمر بن سعد، فقد أخذ رأسه وقال لابنه حفص: أتعرف رأس من هذا؟ قال: هذا رأس أبي، ولا خير في الحياة بعده. فقال له: سألحقك بأبيك. ثم أمر به فضربت عنقه، ثم أخذ الرأسين وقال: أهذا برأس الحسين ﷺ وهذا برأس عليّ الأكبر؟ فهل هذان يمكن أن يكونا عدلاً لسيّد شباب أهل الجنّة وابنه علي الأكبر شبيه الرسول الأكرم ﷺ خَلقاً وخُلُقاً؟ إن هذه المقابلة لا يمكن أن تكون وأن تصحّ.

ثم قال المختار: واللّه، لو قتلت ثلاثة أرباع هؤلاء لما وفوا بأنملة من أنامل الحسين ﷺ [2]. والأمر بالفعل هكذا، فدم كلّ هؤلاء لا يمكن أن يفي بلحظة ألم من اللحظات التي مرّ بها الإمام الحسين ﷺ وهو يرى ولده الأكبر يسقط صريعاً على الأرض أمامه. فالحالة التي مرّ بها (سلام اللّه عليه) عندما سمع صوت ابنه الأكبر وقد عانق التراب لا يمكن أن يعدلها إعمال السيف في رقاب هؤلاء جميعاً. يقول المؤرخون: عندما سمع الحسين ﷺ صوته أقبل إليه على جواده، وقد أرخى له

---

(١) الأنعام: ١٦٤.   (٢) الأمالي (الطوسي): ٢٤٣.

العنان حتى وقف عنده، وألقى بنفسه عليه بعد أن أفلتت يداه عنان الجواد وقد رمى ركابه، فاحتضنه، ووضع فمه على فمه، ثم صاح: **«بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهمها وغمها. وما أسرع اللحاق بك»**[1]:

فجثا وأقنع للسماء بشيبة مغمورة بمدامعٍ ودماءِ

يا عَدلُ قد قتلوا شبيه محمد أَنزلْ بساحتهم عظيمَ بلاءِ

ثم قام يكفكف عينيه بمنديل كان في يده، والتفت إلى الهاشميّين: **«احملوا أخاكم، والله لا طاقة لي علىٰ حمله»**. فحملوه إلىٰ المخيم ورجلاه تخطّان الأرض.

ثم أقبلت إليه أمّه التي تروي بعض الكتب أنها كانت موجودة يوم الطفّ، وتبيّن الحسين عليه السلام حزن النساء في وجوههن، فقدّر لهن ذلك، وخرج من خيمة القتلى ليفسح لهن المجال للدخول إليها، فجلست أمّه عنده وراحت تشمّه وتضمّه وتمسح الدم والتراب عن وجهه:

طبّت الخيمه الغريبه تبچي وعلى ابنيها بريبه

وتوسّلت للّه بحبيبه بالحسين وشمابيه مصيبه

يا راد يوسف من مغيبه ليعگوب ومسچّن نحيبه

أريدك علي سالم تجيبه

شالفايده وياك يبني أنا الوالده وهيّن تذبني

ردتك عليه البيت تبني

يقول أعرابي: مررت على حيّ تتجاوب جدرانه بالأنين والبكاء، فلمّا سألت

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

عنه قيل لي: هذا حي بني هاشم. وسمعت أنين امرأة سمّر قدميّ إلى الأرض، فسألت عنها وعن الدار، فقالوا: هذه دار الحسين بن علي عليه السلام، وهذه الباكية ليلى أمّ عليّ الأكبر:

يــبني لو تشــوف الليـل عگب عينك اشلون اگضّيه
نــص بـالدمع والحســره ونـص احـلم وشـوفك بـيه
أگـــول تـــرد ليـــالينا وزمــان الراح نـرجـع ليـه

* * *

ياكوكباً مـا كـان أقـصر عـمره وكـذا تكـون كـواكب الأسـحار

﴿١٧٢﴾

العامل الأخلاقي في الاقتصاد الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

تشتمل هذه الآية الكريمة على مجموعة من المباحث الهامّة، سأعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى:

المبحث الأوّل: نداء الفطرة

إن قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ له مدلول خاصّ، فالقرآن الكريم حينما يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله، فإنما يأمرهم بالاستجابة لنداء الفطرة ومقتضيات العقل. ونداء الفطرة هو النداء الذي يولد مع الإنسان، حيث تولد معه أسئلة حائرة يعيها ويلحّ في الحصول على إجابة عنها بمجرّد أن يترعرع ويبدأ بإدراك الوجوه التي حوله، فيسأل: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ وكيف هي بدايتي ونهايتي؟ ومن الذي خلقني؟ فهذه الأسئلة وغيرها من هذا

(١) الحديد: ٧.

القبيل تظل تدور في ذهن هذا الكائن المتعطّش للمعرفة، وتلحّ عليه في تحصيل الإجابة عنها، لكن بفارق بسيط هو أن هناك من يحسن التعبير عنها، وهناك من لا يحسن ذلك، وهناك من يجرؤ على طرحها وهناك من لا يجرؤ؛ ظانّاً أن فيه نوع إثم، ثم ينطوي على نفسه.

من هو الخالق؟

وهنا يأتي علاج القرآن الكريم ناجعاً، فحينما يقول: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنما يريد أن يلفت أنظارنا إلى ضرورة الإيمان بالله ووجوب الانقياد له؛ لأنه تعالى هو الذي بدأنا. والدليل على هذا أن القرآن الكريم حينما يأمرنا بالإيمان فهو يأمرنا بشيء ممكن، ويدعونا إلى الإيمان بموجود، وأعطانا العقل ليعيننا على ذلك، ومنحنا القدرة على التفكير والتمييز لنبحث عن الذي بدأنا أوّل مرة نحن ونظائرنا. فهناك موجود هو الذي أفاض الوجود على جميع هذه الموجودات.

وحول هذا المفيض تعترضنا احتمالات ثلاثة:

الأوّل: أنه الأبوان

وهو احتمال ينصّ على أن كلّ إنسان كوّنه أبواه وأفاضا عليه الوجود، فبالتقاء الأبوين تكوّن الجنين وولد. وهذا الاحتمال أوّل ما يتبادر إلى أذهان البعض؛ باعتبار أن القادر على الإنجاب قادر على صنع الحياة.

الثاني: أنه الطبيعة

فالطبيعة وفق هذا الاحتمال هي التي أفاضت الوجود على المخلوقات، وهذا التعبير نجده مألوفاً عند الكثير من العلماء والكتّاب وجارياً على ألسنتهم وأقلامهم.

الثالث: أنه الله تعالى

فاللّه جلّ وعلا بما يملك من أسباب القدرة والعلم والحكمة خلق الممكنات وأفاض عليها الوجود.

مناقشة الاحتمالات

ونحن هنا سوف نخضع الاحتمالين الأوّلين لمناقشة علميّة؛ لنرى الصائب منها من غيره:

مناقشة الاحتمال الأوّل

أما احتمال أن الأبوين هما الموجِدان، وهو احتمال «إن قدرة الإنجاب تعني قدرة صنع الحياة»، فيقال فيه: إن من يملك القدرة على صنع الحياة فلابدّ من أن يملك القدرة على إدامتها وحفظها من أن يطرأ الموت على صاحبها، لكن الذي نلاحظه خلاف هذا، فمع أن الأبوين يكرهان الموت، لكنها لا يستطيعان دفعه عن أبنائهم، أو أن يفعلا شيئاً إزاءه إذا حلّ بهم. إن كلّ إنسان خلال مسيرته في الحياة يتنقّل من قوّة إلى ضعف، فتقلّ قابليته على مزاولة الأعمال، ثم يصل إلى حدّ يتمنّى فيه الموت مع أنه لا يزال يتشبّث بالحياة، وهو لا يتمنّى الموت زهداً فيها ورغبة فيه، بل إنه لما يعاني من ألم، فالحياة في كلّ الأحوال تبقى عزيزة. وفي هذا المعنى يقول أبو الطيّب المتنبّي:

ولذيذُ الحياةِ أوقع بالنفـ ـسِ وأشهى من أن يُمَلّ وأحلى

وإذا الشيخُ قال أُفٍّ فما مَـ ـلَّ حياةً لكنما الضعفَ ملّا[١]

فهذا الذي يتأفّف من الحياة لم يفعل ذلك عن ملل من تلك الحياة، لكن ملّ

---

(١) ديوان المتنبّي ٢: ٤٠٥.

الضعف والألم والتجارب المرّة التي أحالت له حياته لوناً حالكاً.

إذن فلو كان الأبوان يملكان القدرة على صنع الحياة، فلماذا لم يمنعا عن نفسيهما المرض والوهن اللذين يطرأان عليهما فيها؟ ولماذا لم يمنعا الموت عنهما بعد أن يحلّ بساحتيهما؟ فإن لم يتمكّنا من فعل ذلك لأنفسهما، فهما من «باب أولى» لا يستطيعان أن يمنحاها لغيرهما أو يوفّراه له. وعليه فإننا ننحّي هذا الفرض عن حساباتنا.

مناقشة الاحتمال الثاني

إن لفظ طبيعة على زنة «فعيلة»، وهذا الاشتقاق (فعيل) يكون غالباً بمعنى «مفعول»، فـ«طبيعة» معناها مخلوق، أي أن الطبيعة يكون اشتقاقها: «المطبوعة»، والمطبوع يعني المخلوق. وبهذا فلنا أن نتساءل ما هو هذا الشيء المطبوع حتى يتدخّل في تكويننا وإيجادنا؟ هل هو التراب، أم الماء، أم الهواء؟ وطبعاً نحن نقصد الطبيعة الماديّة كدرجة الحرارة والماء والهواء وجميع العناصر التي نعيش الحياة ضمنها.

إن هذه الطبيعة بحدّ ذاتها هي شيء موجود مخلوق، وبغضّ النظر عن هذه الاعتبارات نسأل: هل تستطيع الطبيعة أن تخلق شيئاً منظّماً؟ ولتوضيح هذا الأمر نقول: إن الخليّة تتكوّن أساساً من البروتينات التي تتركّب بدورها من خمسة عناصر هي: الهيدروجين والأوكسجين والكاربون و الكبريت والآزوت (النتروجين)[1]، وكلّ جزيء بروتيني يتكوّن من أربعين ألف ذرّة عنصر، وفي الطبيعة (٩٢) عنصراً طبيعيّاً، فإذا أرادت هذه الطبيعة التي نسميها «طبيعة عمياء»

---

(١) الإنسان بين العلم والدين: ٢١٧.

أن تخلق خليّة واحدة فكم يلزمها من الوقت ومن المادّة لصنعها واستخراج هذه العناصر الخمسة من الـ(٩٢) عنصراً تلك بعد تعيينها؟ وما مقدار الفرصة التي توفّر إمكان تخليق جزيء بروتيني واحد عن طريق المصادفة؟إن الوقت الذي تحتاجه الصدفة لفعل ذلك هو $\frac{١}{١٠^{١٦٠}}$[1].

وليعلم أنه كلّما ابتعدنا عن المرتبة العاشرة كانت الأرقام مروّعة ومهولة.

أما المادّة التي تحتاجها هذه الطبيعة العمياء لتصنيع هذه الخلية الصغيرة فهي بما يعادل الأرض بمليون مرّة، فكيف إذا كان الأمر مع نسيج أو عضو أو جهاز في الجسم؟ بل كيف هو الأمر مع كلّ هذه الألوان التي لا حصر لها من المخلوقات المعقّدة والراقية؟ وكم يلزمها من المادّة والوقت لصنع كلّ ذلك؟ هذا عدا المخلوقات غير الحيّة ممّا تحفل بها السماء والأرض.

إننا نستنتج من هذا أن الطبيعة العمياء لا يمكن أن تخلق شيئاً منظّماً؛ فكلّ ما في الوجود حيّاً كان أو غير حيّ يخضع لنظام دقيق جدّاً لا يتجاوزه ولا يحيد عنه، بل إلى سلسلة متكاملة من النظم تحكم علاقاتها ووجودها وحركتها وسيرها في الحياة. وهذه النظم طبعاً كلّها خاضعة لنواميس علميّة دقيقة تحكم العلاقة بينها وبين من وضعت له. وهذا ما لا تستطيع الطبيعة أن تفعله أو أن تقوم به.

يقول أحد العلماء: حينما أرى ساعة على الحائط أحكم بأن هناك مهندساً وراءها قام بتصميمها وبنائها ومنحها القدرة على العمل بهذا الشكل، وهذا ينطبق على الكون الذي يتحرّك بدقّة أكبر من دقّة الساعة، وهو أمر يدلّ على أن هناك موجِداً وضع فيه هذه الدقّة، ومنحه القابليّة على الحركة وفقها. ولو أن شخصاً قال

---

(١) أي واحد وإلى يمينه (١٦٠) صفراً، وقد أثبت ذلك العالم البيولوجي السويسري «تشارلز يوجين جاي». انظر الإنسان بين العلم والدين: ٢٣٣.

بأن هذه الساعة وجدت صدفة دون أن تتدخّل يد في صنعها لما اعتبرناه عاقلاً، أو إنساناً ذا تفكير منطقي وسليم، فكيف بمن يقول هذا عن الكون كلّه.. الكون الهائل الدقيق المعقّد؟

نعم، إن هذه الطبيعة إذا كانت ذات عقل وقدرة وتفكير، وكانت تتّصف بالإرداة والحكمة والتوجيه والتخطيط فهي اللّه تعالى، وكان النزاع حينئذ لفظيّاً. فاللّه تعالى قوّته وعلمه محيطان بالكون وتصرّفانه كما يشاء. وهكذا لا يبقى إلّا الاحتمال الثالث، وهو أن اللّه جلّ وعلا هو الخالق والموجِد لهذا الكون كلّه.

والآية الكريمة إذ تقول: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فهي إنما تأمر الناس بالرجوع إلى فطرتهم السليمة التي فطرهم اللّه تعالى عليها ليستنطقوها ويسألوها؛ فإنها شاهدة على وجود اللّه تعالى ووحدانيّته[1]، وعلى أنه هو الخالق البارئ المتصرّف بالكون لا غيره. والفطرة هي التي نبيّن للإنسان أن هذا العالم المنطوي فيه[2] دليل على أنه لم يتكوّن بنفسه، ولم تكوّنه الصدفة أو الطبيعة العمياء، بل إن الذي كوّنه هو اللّه تعالى.

المبحث الثاني: وظيفة الأنبياء

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَرَسُولِهِ﴾، وسوف نرى هنا في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة نظماً بين المعطوف عليه ﴿بِاللَّهِ﴾، وبين المعطوف ﴿وَرَسُولِهِ﴾،

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف: ١٧٢.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام:

أتحسبُ أنك جِرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبرُ

جواهر المطالب ٢: ١٣٦، تفسير الآلوسي ١: ٧٩، ١٨،٢٢٥: ١٤، ٢٣: ٢٤٠، ٢٨: ١٢١، ٣٠: ١٠٤، ١٧٥.

ووجه النظم أن الآية الكريمة بعد أن أثبتت أن اللّه تعالى هو الخالق لهذا الكون والإنسان من ضمنه، أرادت أن تقرّر حالة هي أنه تعالى لم يخلق الخلق ثم تركهم سدى دون تقنين أو تدبير لشؤونهم، وترتيب لحاجاتهم ومستلزمات حياتهم، ولم يرمِهم دون أن يسنّ لهم سنناً تنظّم علاقاتهم وتحرّكاتهم وسكناتهم. فهو تعالى يخلق الخلق ويوضّح لهم منهج الحياة الصحيح الذي ينبغي لهم أن يسيروا عليه، وسبل الاستمرار المثمر فيها؛ ولذا فإنه في كلّ حال يعبّر عن ذاته المقدّس بأنه ربّ العالمين، بمعنى أنه المربّي لهم. ولازم هذا وضع قوانين لهم تنظم شؤون حياتهم كما ذكرنا.

وهذا لا يتمّ إلّا عن طريق إنزال كتاب، وهذا كذلك لا يتمّ إلّا عن طريق بعثة نبي يبيّن لنا أسرار هذا الكتاب، ويوضّح لنا غامضه، ويخطّط لنا قواعد حياتنا وينظّمها بأمر السماء.

إن هذا عين ما يفعله الأب المثقّف الواعي حينما يريد أن يربّي أبناءه؛ فإنه يعمد إلى وضع مجموعة من القواعد والنظم التي يسير عليها في عملية التربية هذه، وتشمل هذه القواعد منهجاً علميّاً وثقافياً ليخلق من أبنائه شباباً مثقّفين واعين ما يدور حولهم وما يراد بهم. وعليه فإن من المستحيل أن يخلق اللّه تعالىٰ الإنسان ويتركه سدى، فلابدّ من وجود وسيط بين السماء والأرض يحمل رسالة السماء إليها وينظّم حياة أبنائها بوضع القواعد والقوانين لها على أصعدتها كافّة.

والإنسان المسلم الملتزم يستحيل أن تجد عنده سلوكاً لم ينظّمه اللّه تعالى له، وهذا الأمر سيّال؛ فيشمل كلّ سلوكيّاته كالزواج والطلاق والبيع وغير ذلك. فمن المستحيل أن اللّه يأمر الإنسان بالتجارة ثم يتركه هكذا يتاجر كما

يشاء فيبيع ما يشاء وبأي ثمن يرتئيه، ويشتري ما يشاء ويضع الربح كما يريد ويحتكر. طبعاً لا؛ فإن اللّه تعالى بعد أن أمر الإنسان أو سوّغ له ممارسة التجارة وضع له قوانينها وشروطها، وبيّن حلالها وحرامها، ومباحاتها ومكروهاتها كافّة، وما إلى غير ذلك ممّا يتعلّق بمهنة التجارة. فالسماء تأتي لتتدخّل في كلّ دقائق عمل الإنسان؛ سواء كان تجارة أو غيره، وتضع له قوانينه وقواعده وضوابطه التي تلزمه بالسير عليها والعمل بها كمعقولية نسبة الربح، وألّا يكون فيه إجحاف بحقّ الناس، وما هي طبيعة الشيء المباع، والامتناع عن الغشّ والحلف والكذب في المعاملة، والإخلاص في العمل، وعدم بخس أجر الأجير والعامل، وما إلى ذلك.

وربما يستغرب البعض حينما يعرف أن الفقه الإسلامي ينظّم حتى الحياة الشخصيّة والخاصّة للإنسان، فيدخل معه الحمام ليعلّمه ما يقول، وكيف يعمل، وكيف يتطهّر وينظّف نفسه، وكيف ينام ومتى، وماذا يقول عند النوم. ونجد هناك باباً خاصّاً معقوداً في كتب الفقه حول الآداب الشرعية المختصّة بذلك. وهو بهذا لا يريد أن يترك فراغاً في حياة الإنسان، بل يريد أن يلج كلّ حيثيّاتها وحذافيرها، ويقنّن له كلّ صغيرة وكبيرة فيها.

إذن فالقرآن الكريم بقوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يريد أن يشعر الإنسان بأنه متابع في كلّ حركاته، وأنه لم يخلق ولم يرمَ دون أن يكون هناك من يربّيه وما يربّيه، فهو لم يخلق ليترك سدى، وإنما خلق لأجل هدف ورسالة عليه أن يؤدّيهما. وهذا لا يتمّ إلّا ببعثة رسول مهمّته إيصال أحكام السماء، ويأمرنا بالاقتداء به، فيشرح لنا أهداف السماء و يبيّن أوامرها وقواعدها، وبالنتيجة فإنه سوف يربّينا تربية كما تريد السماء لها أن تكون.

الإسلام وقضايانا المعاصرة

وهنا يورد البعض إشكالاً هو أن الإسلام قد شُرّع قبل ألف وأربعمئة سنة، ونحن الآن نعيش عصراً جدّت فيه أُمور كثيرة، بل وعلى مدّ العصور السابقة حصلت مثل هذه المستجدّات التي تعدّ خارقة لقدرة الإنسان.

فهناك أشياء كثيرة جدّاً وهائلة لم تكن موجودة من قبلُ وقد وجدت الآن، وهي حديثة بوجودها وطرق التعامل معها، بحيث إن الإسلام لا يستطيع أن يتماشى معها. وعليه فوصفة الإسلام لا تنفع إذن مع مستلزمات الحياة الحديثة. فحجم الرسالة أصغر من حجم عصر العلم؛ لأن مجتمع الرسول ﷺ كان مجتمعاً ضيّقاً من حيث فكره ومجال ثقافته وعلمه، ذلك أنه مجتمع بدوي.

ثم إن المجتمعات الآن تنوّعت وازدادت وامتدّت على رقعة واسعة من الكرة الأرضية، فهل تستطيع هذه الرسالة التي نزلت في ذلك المجتمع البدوي الضيّق أن تسع كلّ هذه الدنيا البشريّة والعلميّة والتكنولوجيّة وغيرها؟ وهل تستطيع أن تدّعي بأنها قادرة على وضع قواعد وقوانين تحكم سير ذلك كلّه؟

هذه جملة من الإشكالات والتساؤلات التي يثيرها البعض في هذا المجال، وهي إشكالات يهدف من ورائها بثّ عنصر التشكيك بين المؤمنين وإحياء فكرة إبعادهم عن روح الدين. وهم يعتمدون على ضابط واحد هو أن الدين الإسلامي محدود جاء لثلّة من البدو تتماشى أفكارهم مع مستوى تعليماته وحلوله؛ وبذا استطاع أن يحلّ مشاكلهم، لكن أن يحلّ مشاكل الدنيا المتطوّرة على صعيد العلوم والأفكار والمعتقد و الأطياف والمذاهب والأديان فهذا أمر غير ممكن، بل إنه مستبعد غاية الاستبعاد.

إننا نقول: إن الدين عنده القابلية على تنظيم هذا كلّه واستيعابه، وله القدرة على

على أن يربّي المجتمع بما وضعه من مفاهيم عامّة سيّالة. وهذه الإجابة مبتنية على أمر بسيط هو أن اللّه تعالى ختم الأديان كلّها بهذا الدين، ولو كان هذا الدين لا يستطيع استيعاب المجتمع كلّه، ولو أنه لم تكن له هذه القابلية على استيعاب كلّ جيل بما يتجدّد معه من علوم ومعارف لما صحّ أن يختم اللّه تعالى به أديانه التي ارتضاها لعباده.

ولو أردنا أن نسأل هذا المعترض عن الجهة التي لا يستطيع الإسلام أن يضع لها حلّاً أو علاجاً، وعن المشاكل التي لا يستطيع أن يتعامل معها أو يتّسع لها لما استطاع أن يحدّد شيئاً بعينه. فالإسلام يتطوّر مع تطوّر الزمن، وهو ينطوي على قواعد صرفة تنطبق على كلّ مشكلة فتضع الحلول المناسبة لها.

وليعلم أن ليس هناك من مشكلة ليس لها حلّ في قانون الإسلام، لكن لا على النحو الذي يتصوّره بعض السذّج الذين إن قال لهم أحد: إن الدين قادر على حلّ كلّ مشاكل الدنيا، طالبوه بأن يتدخّل الدين ويخترع لهم مصباحاً كهربائياً أو سيّارة أو غيرهما. وهذا التفكير سطحي وبعيد عن الموضوعيّة؛ لأنّ هذا ليس من شأن الدين، بل إن وظيفته تهيئة الأجواء التي تساعد على تصنيع ذلك، والإشارة إلى قانون ما موجود في الكون، وعلى الإنسان أن يستثمره، فهو من يقوم بهذه الاختراعات لا الدين؛ لأنها ليست مهمّته.

فالدين يأمرنا بتنمية عقولنا واستثمار الطاقات المودعة عندنا من أجل الوصول إلى هذا التقدّم، ويقول لنا: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾**[1]. ويقول: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ**

(١) آل عمران: ١٩٠.

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. فاللّه تعالى منحنا عقولاً وطاقات، وأمرنا باستثمارها وأن نبدع ونستنتج. فهو تعالى إذن يضع لنا منهجاً تجريبيّاً ومنهجاً نظريّاً خالصاً مرفقة بمناهج للتفكير دون أن يتدخّل في الجزئيّات. ومثاله الأمر بتربية الأبناء، فهو يضع قواعد عامّة لهذه العمليّة، ويترك اختيار الجزئيات لنا، فنحن من يحدّدها؛ كي نصل إلى عمليّة تربويّة سليمة نحفظ بها هذا النشء من الفساد.

ولو أن العلم الحديث ابتكر وسائل تربوية حديثة تهدف إلى بناء الإنسان السليم وإبعاده عن الفساد، فإن الدين الحنيف لن يمانع في تطبيق هذه النظريات الحديثة. وهذا الأمر ينسحب على موارد الحياة كافّة؛ ولذا فإننا نجد أن الدين لا يمانع ولا يحظر استعمال الأسمدة في الزراعة لزيادة الناتج أو النموّ، بل يشجّع على هذا لِما فيه من حلول لمشاكل التغذية التي يُعاني منها الإنسان، وبهذا فإن دونماً من الأرض أصبح يعطي أضعاف ما كان يعطيه قبل استعمال وسائل التقنية الحديثة في مجال الزراعة.

فالإسلام يمتدح هذا ويعتبره نوعاً من أنواع البرّ؛ لأنه استعمال للعلم فيما فيه خدمة للإنسان، وهو يمدح العلم وأهله القائمين عليه.

إذن فالدين هو مجموعة القواعد الكفيلة التي تغطّي حياة المجتمع وحاجاته ما دامت الدنيا، وسيستمر نظامه وقانونه قائمين حتى تنتهي الدنيا ومن عليها ويرثها

---

(١) البقرة: ١٦٤.

الله. فالدنيا كلّها إلى زوال كما تثبته قوانين الديناميكا الحرارية التي تقول بأن الأرض لها بداية ولها نهاية؛ لأنها تعتمد في وجودها على الطاقة، وهي آيلة إلى الزوال والنفاد، فإن نفدت فعندها تكون النهاية. وحتى ذلك الزمن تبقى قوانين السماء كفيلة بحلّ جميع مشاكل الناس على شتّى الأصعدة.

المبحث الثالث: سمات النظام الاقتصادي الإسلامي

إن الاقتصاد الإسلامي يتّسم بسمات ثلاث، عالجت هذه الآية الكريمة إحداها، وهذه السمات هي:

الأولى: سمة التوازن بين الربح ورأس المال

في نظام المال والاقتصاد في الإسلام تسود قاعدة «لا إفراط ولا تفريط». ولتوضيح هذه الفكرة لابدّ من عرض نبذة عن حالة الاقتصاد العالمي والمذاهب التي تسوده، فنقول:

النظام الاقتصادي الرأسمالي

إن ممّا هو معلوم أن الاقتصاد الرأسمالي يفتح الباب على مصراعيه أمام أصحاب رؤوس الأموال دون رقابة من القانون، وهذا ما يسمى بمبدأ الباب المفتوح، فمن يملك مالاً له أن يلج السوق ويعمل بالشكل الذي يريده والوسيلة التي يرتئيها.

ولتوضيح هذا نضرب المثال التالي: لنفرض أن إجمالي رأسمال هؤلاء الذين يعملون في السوق مليونا دينار، وكان لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار يعمل بها في مجاله، فهو يخرج منها أُجور العمّال، وفواتير الضرائب والخدمات الاجتماعية، ومبلغ إيجار المحلّ، وما إلى ذلك.

ورجل الأعمال هذا حتى يستطيع أن يسدّد هذه المستحقّات الماليّة، ويخرج بربح ينفعه ويثمر وينمي به تجارته فإنه لابدّ مثلاً من أن يربح ما لا يقل عن (١٠٪) من رأس ماله، لكن حينما يأتي رجل أعمال آخر رأس ماله لوحده مليونا دينار وينزل إلى السوق، وأراد الحصول على مقدار الربح نفسه الذي يحقّقه رجل الأعمال الصغير، فإنه سيكفيه من الربح ما هو أقل من (٥٪)؛ لضخامة رأس المال ـ في حين أن رجل الأعمال الصغير لا يسدّ حاجته إلّا بـ(١٠٪) كما قلنا ـ وهنا فإن صاحب رأس المال الكبير حتى لو باع بنسبة أرباح تبلغ الـ(٤٪) ـ لفترة معينة طبعاً كما سيأتي ـ فإنه سيحصل على كفايته، وبالتالي يكون قد أثّر سلباً على صاحب رأس المال الصغير؛ لأن هذا الأخير سيكون بين خيارين لا ثالث لهما، وكلاهما ليس في صالحه بأي حال من الأحوال:

الأول: أن يبيع بنسبة ربح مقدارها (٤٪)، وهي نسبة لا تفي لتجارته، ولا تسدّ حاجاته؛ إذ أنه كما مرّ لا يكفيه لكلّ ذلك إلّا الـ(١٠٪). وهذا يعني بطبيعة الحال خسارة تجارته.

الثاني: ألّا يبيع بنسبة ربح مقدارها (٤٪)، بل يبقى يعرض منتوجاته بالنسبة التي تسدّ احتياجاته، وهي الـ(١٠٪)، لكن هنا سوف لن يشتري منه أحد؛ ممّا يؤدّي إلى كساد تجارته وخسارتها كذلك.

وفي الحقيقة إن هذه مشكلة أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة مع أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة الذين يلتهمون السوق بهذه الوسيلة، حتى إذا احتكروه وقضوا على كلّ منافس لهم فيه وضعوا حينها الأسعار التي يريدونها فيحقّقون أرباحاً خياليّة فيه. وكلّ هذا يتم تحت نظر النظام الاقتصادي الرأسمالي بذريعة أنه يكفل حرّيّة الاقتصاد.

وهذا الذي يحصل في الدول الرأسماليّة، ومثله في الوصول إلى هذا ما تفعله بعض الدول أو أصحاب رؤوس الأموال من حرق وإتلاف للكثير من المحاصيل الزراعية حينما تفيض؛ كي يبقى السعر محافظاً على توازنه؛ لأن طرح الكمّيّات الكبيرة والفائضة في سوق يؤدّي إلى خفض الأسعار [١]. فهؤلاء كي يحافظوا على امتلاكهم السوق واحتكارهم له يعمدون إلى فعل ذلك.

وهذا التصرّف وسابقه وغيرهما مما هو على شاكلتهما لا يقرّه المشرّع الإسلامي أبداً؛ فهو لا يسمح للثروة بأن تتضخّم وتتحكّم في المجتمع، ولا بأن يخدم المجتمعُ الثروةَ، بل إنه إنما خلق الثروة ليتحكّم بها المجتمع وليستمتع بها، فوضع لها ضوابط الملكيّة الفرديّة والملكيّة الاجتماعيّة لتنقيتها بعيداً عن الإفراط والتفريط، وبعيداً عن الاستغلال والاحتكار، واستعمال الوسائل غير المشروعة وغير النظيفة في عمليّة الممارسة الاقتصادية والتبادل التجاري، وهو الذي نسميه إفراطاً؛ كي يجعلها في إطار نظيف.

النظام الاقتصادي الاشتراكي

أمّا جانب التفريط فهو استعمال المبادئ المتطرّفة القائمة على أساس إلغاء الملكيّة الفرديّة إلغاءً كاملاً، وتذويب الفرد في بوتقة المجتمع وصهره بها، وهو أهمّ المبادئ التي تقوم عليها الاشتراكية. وهذا المبدأ يعني سلب الملكيّة الشخصية للأفراد، بل سلبهم كلّ ما هو حيوي في عملية الإنتاج وإعطاءه للدولة، ومن ثم تحويل الأفراد إلى أدوات عاملة عند الدولة. وهذا النمط من التعامل الاقتصادي له سلبيّاته ومحاذيره؛ فنحن حينما نتجاهل الملكيّة الشخصيّة فإنما نقوم بشلّ

---

(١) وفق قاعدة العرض والطلب.

حركة الاقتصاد وإصابته بحالة من الركود.

ولذلك فإن الدول التي تتبنّى هذا النظام عمدت إلى معالجة هذا الوضع عبر تقنين مسألة الحوافز؛ فالعامل وفق هذا القانون[1] مكفول المعيشة، وإذا أحسّ أنه كذلك فإنه سيتقاعس عن عمله ولن يؤدّيه بإتقان وإخلاص. فهو يشعر بأن العمل ليس له بل للدولة، وهو لم يصل إلى مرحلة القناعة التامّة بالذوبان في بوتقة الدولة. وهكذا كان نظام الحوافز الذي أُريد له أن يحثّ العامل على الإبداع والإسراع؛ فإذا تمّ العمل بسرعة أكبر وإبداع أكثر كان له مقابله المقدار الكذائي من المال مكافأة. وبهذا فإن الدولة الاشتراكيّة تضمن عدم تقاعس العامل عن العمل والإبداع فيه.

وهذا الأمر في حقيقته خروج من الباب ودخول من الشّباك، فالحوافز لا تؤدّي إلى الوصول إلى النتيجة المطلوبة وإن التقت مع المصلحة الشخصيّة؛ لأن الفرد إذا لم يكن له مصلحة في العمل لا يبدع، وبالتالي فإن ملكة الإبداع تموت عنده، وكذلك يموت عنده عامل الحماس إلى العمل.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن في هذا حيفاً وظلماً للعمّال؛ لأن السلطة حينما تطلب من العمّال أن يبدعوا، وتعدهم بأنها ستوزّع عليهم جزءاً من الأرباح بالتساوي كحوافز، فإنها ستظلم بعض العمّال؛ ذلك أننا يجب ألّا نغفل عن حقيقة أن بعض العمّال عنده طاقة للعمل مدّة ثماني ساعات أو أكثر، وهناك من لا طاقة عنده للعمل أكثر من ثلاث ساعات، فهل يساوى هذا بذاك في توزيع الحوافز؟ إن هذا إلّا ظلم.

---

(١) وهو قانون «من كلّ حسب عمله، ولكل حسب حاجته».

فإن قيل: إن في هذا مساعدة له.

فإنه يمكن أن يقال: إن مساعدته يمكن أن تتمّ عن طريق صندوق إعانة الفقراء، لا من كدّ غيره من العمّال الذين ربما كانوا بأمسّ الحاجة لهذا المال الذي يؤخذ منهم. فالفقراء تخصّص لهم مساعدات ومعونات من صندوق الدولة، وليس من جهد الفرد وأمواله؛ فهي عملية سرقة بعنوان إنساني.

سلبية إلغاء الملكية

ثم إن إلغاء الملكيّة الفرديّة سوف يضع ثلاث قوى بيد الدولة: القوة الاقتصاديّة والتشريعيّة والتنفيذيّة. وهذا سيحوّل الدولة إلى ديكتاتور شاء أم أبى. ولذا كان موقف الإسلام وسطاً؛ فلا إفراط ولا تفريط؛ فهو لم يسمح بإلغاء الملكيّة الفردية إلغاءً كاملاً، ولم يسمح لها بالتعملق والتنامي الخارق الذي يبسط سيطرة جماعة معيّنة من الناس على السوق، فتتحكّم به كيف تشاء. فهو أباح الملكيّة الفرديّة، لكنه حدّدها، ووضع لها قوانين تحكمها وتحكم عملية الإنتاج والسوق؛ كيلا تستفحل وتسيطر على السوق.

طبيعة الملكية الفردية في الإسلام

إن الملكية الفردية مقيّدة في الإسلام، بل هي تولد مقيّدة فيه، فأي فرد له الحقّ في أن يملك، لكن من طريق مشروع؛ فإن كانت من طريق غير شرعي كالربا لم تكن ثروة ولا مالاً، وكذلك إن كانت عن طريق الاحتكار أو الغش أو المكاسب المحرّمة. فالثروة تأتي مخنوقة ومقيّدة بضوابط وضعها الإسلام لها مسبقاً. والإسلام كذلك حينما سمح بالملكيّة فإنه سمح بها بعد أن أعطاها صفة جماعية؛ ففرض عليها الضرائب الشرعيّة؛ مما يؤدّي إلى تفتيت الملكيّة وعدم تمركزها

وتكدّسها في جانب واحد، الأمر الذي يؤدّي إلى احتكار السوق.

إذن فالنظريّة الإسلاميّة حلّ وسط بين الإفراط والتفريط. وأودّ أن أُنبّه إلى أن هذا الطرح تناول العناوين العامّة لهذا الموضوع؛ إذ لا يمكن أن تستوفيه هذه العجالة وهذا الوقت المحدود؛ فالإفاضة فيه تستغرق مساحة زمنيّة كبيرة.

السمة الثانية: أخذ العامل الخلقي في الاقتصاد

فالإسلام حينما شرع قوانين الاقتصاد المؤسِّسة لنظام اقتصادي خاصّ به لم يهمل العامل الخلقي، بل إنه أخذ هذا العامل بعين الاعتبار حينما شرع تلك القوانين؛ لأنه لا يريد أن يجرّد تشريعاته عن هذا العامل الهامّ وإلّا لأصبحت الحياة غابة كما لاحظنا من التهام أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة للسوق.

فالاقتصاد الرأسمالي والشيوعي لا يَربطهما بالعامل الأخلاقي أي رابط، فسواء باع خمراً أو أدوات قمار أو غير ذلك فإنه لا يتدخّل ولا يحاسب البائع، ومثله ما لو باع أسلحة للقتل وغيره. أمّا المشرّع الإسلامي فكل هذه الجوانب لا يسمح بها؛ لأنه يلاحظ العامل الأخلاقي فيها كلّها. وأخذ كلّ ذلك بعيداً عن العامل الأخلاقي معناه اعتبار الإنسان حيواناً منتجاً، وهو مسخ لهوية الإنسان وتدمير للمجتمع.

إن المجتمع لا يحتاج إلى رغيف خبز فقط، بل إنه يحتاج معه إلى القيم والأخلاق، والإنسان ليس معدة وثوباً، بل هو روح ونفس تحتاجان لعلاج وتغذية وتهذيب. فالإنسان أخلاق وقيم وعقل، وترك العنان مطلقاً للإنسان والباب مفتوحاً على مصراعيه له يعمل له ما يشاء وما يشتهي، وأمْره بالعمل دون مراعاة الجوانب الأخلاقية معناه إصلاح المجتمع من جهة ـ وهي الجهة الاقتصاديّة ـ وإفساده من جهة أُخرى، هي الجهة الأخلاقيّة.

وهذا مثله مثل ما لو أُصيب أحد في أحد أعضاء جسمه، فذهب إلى الطبيب الذي يصف له دواء يسكّن ألم هذا العضو ويشفيه، لكنه في المقابل ذو مضاعفات سلبيّة على أعضاء أُخرى. فالطبيب هنا أصلح جهة وأفسد وأضرّ بجهة أُخرى غيرها.

فأن يأمر القانون إنساناً بفتح محلّ له يبيع فيه الخمر أو يسمح له بذلك، فإنه يكون قد أصلح حاله وحال عياله معيشيّاً، لكنه أفسد المجتمع بنشر هذا الوباء والمرض الأخلاقيّين والجسميّين فيه؛ لأن هذا هو النتيجة الطبيعية لشرب الخمرة، فحينما يسكر الإنسان فإنه يفقد تصرّفاته المتّزنة؛ ممّا يؤدّي إلى الإضرار بالمجتمع. ولا أقلّ من أن هذا الضرّر يلحق به هو، إذ أنه بتناوله الخمرة يكون قد تناول سمّاً قاتلاً.

وكذلك الحال مع محلّات القمار التي تستنزف عمل الناس وأرزاقهم، فهؤلاء بدلاً من أن يعودوا إلى عوائلهم بما حصلوا عليه من عملهم، يذهبون إلى صالات القمار لينفقوا ما كدّوا لأجله فيها، وبدلاً من أن يرجعوا إلى عوائلهم برغيف خبز يعودون خاليْ الوفاض، صفِري الكفّين، يتطلّع إليهم صغارهم بعين يمتزج فيها الرجاء باليأس؛ مما يضطرّ أحدهم لأن يخرج شيئاً من متاع بيته ليبيعه ويشتري لهم به طعاماً، وربما ليعاود اللعب به ثانية.

وفي هذه الحالة يبدأ هذا المرض ينخر في جسد هذه الأُسرة، ويروح الدمار يعيث فيها؛ ولذا فإن اللّه تعالى إذا حرّم شيئاً حرّم ثمنه. وهنا تستوقفنا نظرة ضروريّة للفقه الإسلامي، وكم هي نظرة شاملة لأبعد ما يمكن أن ننظر إليه نحن، فمثلاً حينما يريد صاحب أرض أن يعقد صفقة مزارعة مع شخص آخر على أرضه، ثم عرف أن هذا الشخص سيزرعها نخلاً أو كرماً فإنه حينئذٍ ينبغي عليه من

وجهة نظر الفقه أن يستوثق من هذا الإنسان ألّا يستثمرها لصناعة الخمر. وهذا فيما لو لم يكن هذا الشخص من أهل التقوى والصلاح. فالخمر هنا يحرم استئجار الأرض له وزراعتها وسقيها وعصره وما إلى ذلك من محطّاتٍ في طريق تحويل هذه النعمة إلى هذا السمّ(١).

وإنما حرّم على صاحب الأرض ذلك؛ لأنه وإن كان من وجهة نظر اقتصاديّة يُعتبر منتجاً، لكنه من وجهة نظرٍ أخلاقيّة يُعتبر مستهلكاً، فالعامل الأخلاقي يجب أن يربط بالعامل الاقتصادي دائماً كما هي وجهة نظر الاقتصاد الإسلامي، وهو أمر غير معمول به في النظامين الرأسمالي والاشتراكي. ففي الوقت الذي يحرّم الإسلام صناعة الموت وتجارته، نجد أن النظام الرأسمالي يسمح بإنشاء معامل ومصانع نشر الموت بينهم، أو أن يُسرق حقّ عامل ومجهوده ويُعطى لغيره بعنوان الحوافز. فمثل هذين الأمرين لا يقرّهما المشرّع الإسلامي أبداً، بل يرفضها أشدّ الرفض؛ لأن فيهما فساداً وإفساداً وإن كانا في أحد وجهيهما يشكّلان عامل إنتاج أو كسب مادّي، لكنه كسب غير مشروع كما قلنا.

وهكذا نخلص إلى القول بأن المشرّع الإسلامي كما مرّ يشترط في أي معاملة اقتصاديّة كانت أو غيرها، وتجاريّة أو غيرها وجود العامل الأخلاقي، ويجعله عاملاً مهمّاً لإجراء أي صفقة. وعليه فلا يحقّ لأي أحد أن يدّعي أن المال ماله، والنقود ملك له؛ وبالتالي فإن له أن يتصرّف بها كيف يشاء؛ لأن الشارع المقدّس نفسه يعترضه ويقول له: أنا أمنعك من أي تصرّف غير مشروع، فيجب عليك أن

---

(١) لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: «غارسها وحارسها وبائعها ومشتريها وشاربها والآكل ثمنها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها». الكافي ٦: ٤٢٩ - ٤٣٠ / ٤، سنن ابن ماجة ٢: ١١٢٢ / ٣٣٨١.

تضع أموالك في مواضعها التي شرع الله لك استعمالها فيها، فلا تأكل طعاماً محرّماً؛ لأنك لا تعلم أي ضرر يمكن أن يلحقك جرّاء ذلك.

تحريم بعض الأطعمة بين الإسلام والطبّ

إني أرى وأسمع من خلال متابعتي لبعض شبابنا أنه يعترض على تدخّل الإسلام في حرّيّته الشخصيّة، فيمنعه من أكل بعض ما حرّم أكله من الحيوانات أو من أجزاء الحيوانات المحلّلة بحجّة أن الطبّ يحبّذ أكل هذا[1]. ولنا أن نتساءل عن مبلغ علم الإنسان وعقله إزاء علم الله تعالى حتى يستطيع أن يدرك الضرر الذي يمكن أن يلحقه هذا العضو المحرّم أكله بآكله. ثم هل إن الطب إلّا نتاج عقل الإنسان وعلمه؟ هذا الإنسان الذي كلّما تقدم في مجال من مجالات العلم فنّد نظريات من سبقوه في أي مجال كان، فما من نظرية تعيش ردحاً من الزمن إلّا وجاء بعد ذلك من ينقضها وينسخها. وفي هذا دلالة كبيرة على أن الإنسان محدود في علمه وعقله، فمثلاً قبل خمسة عشر عاماً كان المصاب بمرض في القلب يُمنع من تناول الخلّ، وهذه النظرية نسخت بعد ذلك؛ إذ جاءت نظريّة جديدة تقول: إن الخلّ علاج ناجع لمرض القلب.

ومثلها كذلك أن المريض بمرض في القلب كان ينصح بعدم الحركة، أمّا الآن فإن النظريّات الحديثة في العلاج تنصحه بالحركة والمشي.

فأين هذه النظريات ممّن يحاول أن يأخذ بها ـ بل بأول نظرية تصادفه ـ أخذ المسلّمات؟ فالطبّ إذن هو ذلك الإنسان الذي يخطئ ويصيب.. الإنسان الذي ما

---

(١) قد مرّ أنّ الإسلام حرّم بعض المأكولات مراعاةً للصحة والذوق. انظر محاضرة (من مسائل فقه الصيد) في ج ٨ من كتابنا هذا.

إن يأتِ بنظرية في يوم من الأيام حتى يأتي من ينسخها بعد ذلك، بل ربما نسخها هو على ضوء فرضيّات تستجدّ له في مجال بحثه. فالإنسان لا تفارقه صفة محدوديّة الإدراك والمعرفة، ومن كان كذلك لا يمكن أن يؤخذ كلامه أخذ المسلّمات مقابل تشريعات اللّه جلّ وعلا وأحكامه.

إن من العيب على مسلم أن تقول له: إن اللّه تعالى حرّم هذا، فيعصي ويقول: إن الطب يقول: هذا نافع. وهذا حتى وإن كان الطبّ على حقّ، فكيف وهو ليس على حق؟ ثم إن الطبّ قد يلحظ جانباً واحداً مجرّداً عن بقيّة الجوانب الأُخرى، أمّا التشريع الإلهي فيلحظ في تطبيق الحكم الجوانب كلّها، ثم يخلص إلى الحرمة أو الحلّيّة. فالمشرع المقدّس هو خالق الكون الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة فيهما [1]. وعليه فيجب احترام رأي الشارع المقدّس فيما حرّم وحلّل؛ لأنه هو المحيط بهذا الكون وما فيه؛ فإن أمرنا بشيء كان في المأمور به عين المصلحة، وإن نهانا عن شيء كان في المنهيّ عنه عين المفسدة.

إذن فاللّه تعالى دائماً يحرص على جعل العامل الأخلاقي موجوداً في كلّ لون من ألوان العمليّة الاقتصادية، بل في كلّ لون من ألوان التشريع. فهو تعالى يأمر باستئجار العامل أو يبيح ذلك لكن يشترط على صاحب العمل ألّا يسرق جهد العامل وتعبه، كما يشترط على العامل كذلك ألّا يسرق من وقت صاحب العمل. وأباح التجارة والصناعة، لكنه اشترط على صاحب العمل والتاجر ألّا يغشّا في البضاعة. وأباح خلق حركة اقتصادية في السوق، لكنه اشترط ألّا يؤدّي ذلك إلى

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يونس: ٦١.

التهام ثلّة من أصحاب رؤوس الأموال الكبار السوق والقضاء على أصحاب رؤوس الأموال الصغار، واشترط كذلك ألّا يكون الربح ناشئاً عن الاحتكار والربا وما شاكل.

فكل هذه المعاملات يتدخّل بها المشرّع الإسلامي ويحدّدها ويكسر من شوكتها بوضع عنصر مراقب لها هو العامل الأخلاقي. والإنسان من وجهة نظر الإسلام ليس حيواناً يأكل وينام ويتناسل، بل هو عبارة عن مؤسّسة خلقيّة تتّصف بالكرامة والرحمة والشفقة والعاطفة؛ ولذا فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون الإنسان في وضع لا تهمّه فيه إلّا نفسه في جميع ممارساته وتصرّفاته، بل لابدّ من الأخذ بعين الاعتبار وجوده ضمن إطار المجتمع والعلاقات، وبناء تصرّفاته وأعماله على ضوء هذا.

وهذا هو العامل الخلقي الذي نتكلم عنه، كان يونس بن عبيد يبيع الحلل في سوق الخزّازين، فجاءه رجل، فقال له: عندك مطرف بأربعمئة؟ فقال يونس بن عبيد: عندنا بمئتين. فنادى المنادي بالصلاة، فانطلق يونس إلى صلاة الجمعة، وهو وقت لا يسوغ البيع فيه، فلما صلّى الجمعة ورجع وأصبح قريباً من دكانه رأى الرجل يحمل المطرف الذي سأله عنه، فأمسكه وقال له: بكم اشتريت هذا؟ قال: لماذا؟ ولم يعرف أنه الشخص الذي سأله قبل قليل عن ثمن هذا المطرف، قال: أُحب أن أشتري مثله. قال: اشتريته بأربعمئة درهم. قال: هلمّ معي. قال: إلى أين؟ قال: إن الذي باعك قد غشّك.

ثم جاء لابن أُخته وقال: ما هذه الدراهم؟ قال: ذاك المطرف بعناه من ذا الرجل. فقال له: أنا أقنع بهذا القدر من الربح وأرضى به، فلماذا تأخذ زيادة عليه؟ ولماذا فعلت هذا؟ أما استحييت من اللّه؟ قال: إنه قد رضي به. قال: إذا كان قد

رضي فأين اللّه منك؟ إن اللّه موجود، والدين والمروءة كذلك، فاذكر الله.

ثم التفت يونس إلى الرجل وقال له: يا عبد الله، هذا المطرف الذي عرضت عليك بمئتي درهم، فإن شئت فخذه وخذ مئتين، وإن شئت فدعه [(١)].

فانظر إلى هذه الكلمة من أين تنبع.. إنها تنبع من أعماق نفسه: «أما استحييت من اللّه؟». إنه العامل الخلقي الذي يحكم هذه العمليّة الاقتصاديّة عند يونس بن عبيد هذا، وإلّا فما الموجب لأن لا يصرّ على إرجاع الثمن الزائد للمشتري حتى بعد أن قال له: إنها تباع عندنا بثمن أكثر من هذا؟

فالدين ليس مجرّد شعارات يُتفوّه بها، والمروءة ليست ادّعاء دون أن تطبّق في معاملات الإنسان، والتطبيق الصحيح لهما (الدين والمروءة) يستدعي أن يبتعد الإنسان عن جعل الدين مجرّد ممارسات بلهاء، بل إنه روح وحياة وأخلاق، كما أراد يونس أن يبيّن لغلامه بأن بإمكانه أن يأخذ مقدار ربح معقول، لا أن يأخذ ربحاً فاحشاً يكون الإنسان بمقتضاه بعيداً عن الرحمة والأخلاق؛ لأن هذا الربح الزائد كان من الممكن أن ينفع المشتري به أهله لو أنّه أدّخره لهم.

إذن فكلّ أنماط التعامل الاقتصادي يريدها الإسلام أن تكون تحت رقابة العامل الخلقي، وأنه مأخوذ فيها.

السمة الثالثة: أن الملكية عبارة عن توظيف اجتماعي

وهي السمة التي أشرنا إليها في أول هذا المبحث على أنها عالجتها هذه الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، فالملكيّة في

---

(١) تهذيب الكمال ٣٢: ٥٢١ - ٥٢٢، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٨٩، صفة الصفوة ٣: ٣٠١، طبقات فحول الشعراء ٢: ٣١٢.

الاقتصاد الإسلامي ليست ملكيّة حقيقيّة، بل هي عبارة عن توظيف اجتماعي. وهي السمة التي أشارت إليها الآية الكريمة كما ذكرنا.

والملكيّة الاجتماعيّة تعني أن الملكية الحقيقيّة ليست إلّا للّه تعالى، وأن الإنسان لا يملك الأشياء ملكيّة حقيقيّة أبداً؛ لأنه بمقتضى الملكيّة الحقيقية فإن الملك لا يفارق مالكه، ولا ينفكّ عنه أبداً، وهذا كما هو معلوم غير حاصل مع الإنسان الذي سرعان ما يفارقه ملكه بخسارة أو سلب أحد إيّاه، أو يفارق هو ملكه بالموت. وعليه فإن اللّه وظّفنا للعمل في هذه الأموال والثروات، وقال لنا: هذه الأموال قد أوجدتها لكم وخلقتها، فأنا الذي أنبتّ لكم الزرع، وأخرجت لكم الحبّ، وفلقت لكم النوى، وجعلتكم تعملون في كلّ ذلك.

فكلّ ذلك ليس ملكاً للإنسان، بل هو ملك لمالك الملك المطلق [1]. فهو الذي أنبت له القطن وعلّمه كيف ينسج الملابس، وهو الذي خلق له المعادن والذهب، وعلّمه كيف يستفيد منها ويصنع منها نقوداً وحليّاً، وهوا الذي يُيسّر له سبل الرزق، ويخطّط له القواعد التي تنير له سبله، والتي تنقذه من الظلمات إلى النور. وبهذا فإن اللّه سبحانه وتعالى يُوظّف الإنسان اجتماعياً ليعمل في هذه الأموال التي استودعها عنده، والتي تعود ملكيّتها أساساً له تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ﴾.

إذن فالإنسان خليفة في الأرض، ولاستخلافه أيّام ثم يعطي هذا الحقّ لغيره.. يعطي مكانه إلى غيره، وكذا الأموال التي في حيازته، ورحم اللّه أبا الطيب المتنبي حيث يقول:

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ غافر: ١٦.

وقد فارق الناس الأحبّة قبلنا ... وأعيا دواء الموت كلّ طبيبِ

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... منعنا بها من جيئة وذهوبِ

تملّكها الآتي تملّك سالب ... وفارقها الماضي فراق سليبِ[(١)]

فهو هنا يقرّر حالة الإنسان في هذه الدنيا، فلو أن الذين ماتوا لم يموتوا لمنعونا من أن نملك شيئاً، ولكان كلّ شبر من الأرض يتنازع عليه العشرات من الناس، ولما حصلنا على موطئ قدم واحد فيها، لكن حكمة اللّه تعالى اقتضت أن يكون لكلّ واحد عمر محدود. ثم يقرّر أن الآتي الذي يتملّك من بعد غيره إنما يتملّك تملّك سالب، فهو حينما يأخذها من غيره دون كدّ أو تعب فكأنما يأخذها عن طريق الاستلاب، وكذلك فإن من يفارقها يفارقْها راغماً على ذهابه عنها وعلى تحوّلها عنه إلى غيره. يقول الرسول الأكرمﷺ: **«يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت، وما عدا ذلك فهو مال الوارث؟»**[(٢)].

وحينما نزل قوله تعالى: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**[(٣)]، جاء أبو الدحداح إلى النبيﷺ فقال: يا رسول اللّه، اللّه يطلب منا القرض؟ قال: **«نعم، يطلبه منكم ليدخلكم به الجنة»**. قال أبو الدحداح: يا رسول اللّه، إذا أقرضت اللّه أتضمن لي ولأولادي ولابنتي الدحداحة من اللّه العطاء؟ قال النبيﷺ: **«نعم»**.

---

(١) أعيان الشيعة ٢: ٥٥٨، يتيمة الدهر ١، ٢٦٣، وتمامها:

علينا لك الإسعاد إن كان نافعاً ... بشقّ قلوب لا بشقّ جيوبِ

فربّ كئيب ليس تندى جفونه ... وربّ كثير الدمع غير كئيبِ

وللواجد المكروب من زفراته ... سكون عزاء أو سكون لغوبِ

(٢) الأمالي (الطوسي): ٥١٩ / ١١٤١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٤: ٦١.

(٣) آل عمران: ٩٢.

قال: يا رسول اللّه اشهد عليَّ وأعطني يدك.

فوضع يده بيد النبي ﷺ وقال: اشهد عليَّ يا رسول اللّه أن عندي حديقتين لا أملك غيرهما وقد وضعتهما في سبيل اللّه. فقال النبي ﷺ: **«أمسك عليك واحدة لك ولأطفالك، وضع الثانية في سبيل اللّه»**. فقال: أُشهدك يا رسول اللّه، أني أُعطي أفضلهما وهي حديقة بها ستمئة نخلة. فقال النبي ﷺ: **«جزاك اللّه خيراً»**.

فرجع أبو الدحداح إلىٰ الحديقة، فوجد فيها امرأته أمّ الدحداح وأولادها وقد وضعوا في جيوبهم تمراً جمعوه ليأخذوه معهم، فقال لها: يا أُمّ الدحداح، أنا وهبت هذه الحديقة للّه. فقالت: شكر اللّه سعيك، ونعم البيع بيعك، وانتظرْ عطاء اللّه؛ فتلك تجارة رابحة. ثم راحت تستخرج التمر من جيوب الأطفال وتضعه في الحديقة إلىٰ جانب التمر الذي كانوا جمعوه[1].

فالإنسان مستخلف بما عنده، ومع أنه مقتنع بأنه مستخلف، وأنه مخلّف ما أعطاه اللّه وراءه نجده يعاند ولا ينفق، وهذا الحال الذي هو عليه يصوّره القرآن الكريم فيقول: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[2]، أي أن اللّه تعالى هو الذي خلقه، وهو الذي يطعمه، وليس نحن، فنحن لم نكسب هذا المال لننفقه على غيرنا من بني البشر.

وكأن هؤلاء يتناسون بأن اللّه تعالى حينما خلقهم، خلقهم أُناساً يفترض بهم أن يكونوا متحلّين بالمشاعر والأحاسيس والرّقة والرحمة، ولم يخلقهم ذئاباً كاسرة

---

(١) مجمع البيان ٢: ١٣٧، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٣٧، ٢٣٨، وفي هذه الواقعة قال النبي ﷺ: «كم من عذق رداح ـ أي ثقيل ـ ودار فياح ـ أي واسعة ـ لأبي الدحداح».

(٢) يس: ٤٧.

لا رحمة عندها ولا شفقة. فصحيح أن الله خلق هؤلاء الذين أمر بإطعامهم والإنفاق عليهم ممّا قيّض للناس من ثروة، وخوّلهم التصرّف فيه من مال، لكن خلق الأغنياء وأصحاب السلطة والأمر كذلك.. خلقهم وأراد لهم أن يكونوا بشراً يتّصفون بالإحساس والمشاعر بآلام الآخرين، لا كائنات بهيميّة ليس لها من همّ إلّا التقمّم [١] دون وعي منهم بما يكون عليه الآخرون، ودون أن يملكوا الإحساس بهم وبمشاكلهم واحتياجاتهم.

فالإنسان أخو الإنسان، وما يُعطيه إياه مخلوق لهما كليهما، غاية ما في الأمر أن الظروف جاءت لصالح البعض فملك، ولم تخدم آخرين فعاشوا الفقر. وهذا الردّ من هؤلاء على أمر الإطعام والإنفاق يعدّ في غاية الوقاحة والتغطرس، والوقوف في وجه الله تعالى. كما أنه حالة معاكسة تماماً ومضادّة لذوي النفوس الكبيرة الذين لا يألفون إلّا الإنفاق، ولا يضعون نصب أعينهم غيره، فلو مرّ عليهم يوم لم ينفقوا فيه ما احتسبوه من حياتهم.

كان أمير المؤمنين عليه السلام يستصلح الأرض ويفجّرها عيوناً ثم يوقفها لفقراء المسلمين [٢]، أو يبيع واردها ليشتري به مماليك ثم يعتقهم لوجه الله تعالى. وكان

---

(١) وقد ترفّع أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا المستوى من الانحدار، فقال: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أُشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها؟». نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) يقول أبو نيزر: كان للإمام علي عليه السلام قطعة أرض يملكها، فجاء يوماً وأخذ المعول وانحدر إلى العين فأقبل يضرب فيها وجعل يهمهم، حتى انثالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعاً فقال: «الله أكبر، سيخيب الوارث، أُشهد الله أنها صدقة. عليّ بدواة وصحيفة». فعجّلت بها إليه، فكتب عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تصدّق به عبد الله علي أمير المؤمنين تصدّق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل

هذا ديدنه حتى أعتق من كدّ يده ألف مملوك، ولم يبقِ خادماً في بيته إلّا ما ألجأته إليه الضرورة، كفضّة (رضي اللّه عنها) خادمة الزهـراء عليها السلام. وسـبب إبـقاء أمـير المؤمنين عليه السلام على فضّة هو وفاؤها للزهراء عليها السلام، فبعد أن لحقت الزهراء عليها السلام بأبـيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فضّلت فضة بدافع وفائها أن تبقى مع الحوراء زينب عليها السلام، حتى إنها خرجت معها إلى الطفّ، وأبت أن تفارقها.

وقصة التحاق فضة (رضي اللّه عنها) بالزهراء معروفة، ذلك أن الإمام علياً عليه السلام قصد يوماً رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن رأى تعب الزهراء عليها السلام في أعمال البيت حتى بان المجل في يديها الكريمتين، فجاء رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه جـارية تـخدمها. وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله وسلم زارها، فلمّا دخل عليها ذكرت حالها له صلى الله عليه وآله وسلم وسألته جارية، فبكى صلى الله عليه وآله وسلم، ثم علّمها التسبيح. وفي رواية أنها عليها السلام قصدت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تسأله ذلك، فلما رجعت سألها أمير المؤمنين عليه السلام عـما حـصل مـعها، فأخـبرته، فقال عليه السلام: **«ذهبت للدنيا وجئت للآخرة»**[1].

ودخل صلى الله عليه وآله وسلم عليها مرّة فرآها وعليها كساء من أجـلّة الإبـل، وهـي تـطحن بيديها، وترضع ولدها، فدمعت عـيناه صلى الله عليه وآله وسلم وقـال: **«يـا بـنتاه، تـعجّلي مـرارة**

☚ ليقيَ الله وجهي حرّ النار يوم القيامة، ولا تباعا ولا توهبا حتى يـرثهما اللـه وهـو خـير الوارثين، إلّا أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق لهما ليس لأحد غيرهما». مـناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٨١ - ٨٣ / ٣٦٥، جامع أحاديث الشيعة ١٩: ١١٠ - ١١١، معجم ما استعجم ٢: ٦٥٧ ، ٦٦٠.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٠، وتتمّتها: فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عندها أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾، يعني عن قرابتك وابنتك فاطمة ﴿ابْتِغَاءَ﴾، يعني طلب ﴿رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾، يعني رزقا من ربك ﴿تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ الإسراء: ٢٨. يعني قولاً حسناً. فلمّا نزلت هذه الآية أنفذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جارية إليها للخدمة، وسمّاها فضّة.

الدنيا بحلاوة الآخرة»[١].

وكان أن تحمّلت فضة مع زينب كلّ مآسي الطفّ، وكان لها موقف مشرّف ليلة الحادي عشر من المحرم، وكانت أشدّ الليالي وأتعسها فيما مرّ بالحوراء زينب عليها السلام وبعائلة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان أن وقفت فضة مع زينب عليها السلام تلك الليلة ترعى معها العائلة والأطفال. وكان أشدّ المواقف التي آلمتها وأهاجت الألم في صدرها موقف طفلة للحسين عليه السلام كانت تراقبه كلّما قام إلى صلاته في محرابه، فتهيّئ له مصلّاه، وفي اللية الحادية عشرة افتقدت والدها؛ لأنها أرادت أن تهيّئ له مصلّاه، فلم تجده، فراحت تسأل عنه عمّتها زينب؛ ممّا أثار الألم في قلب الحوراء عليها السلام:

اتمرمرت واللّه بيتاماك ... مالي حيل يحسين فرگاك

* * *

واعيونك يبو السجّاد ... لون يمك يخلّوني

أحط راسي علىٰ گبرك ... وارشّه بدمعة عيوني

واگضي العمر كلّه اهناك ... واگلهم لليلوموني

شلّي بالعمر بعدك ... شنهو عيشتي بلياك

(١) المصدر نفسه، وفيه أنه صلى الله عليه وآله لمّا قال لها ذلك قالت عليها السلام: «يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه والشكر لله على آلائه». فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الضحى: ٥. وانظر الإصابة ٨: ٢٨١ – ٢٨٢.

﴿١٧٣﴾

منزلة العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَمَّا دَخَلُوْا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوْهُمْ مَا كَانَ يُغْنِيَ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

في هذه الآية الكريمة مجموعةٌ من المضامين والأبحاث سوف أعرض لها إن شاء الله تباعاً:

المبحث الأوّل: لماذا ﴿مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾؟

فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوْا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوْهُمْ﴾ يتناول واقعةً حصلت لنبي اللّه يعقوب عليه السلام وأبنائه الذين عزموا على الرواح إلى مصر للامتيار، وكان عددهم أحد عشر رجلاً، وكانوا فارعي القامة، جميلي المنظر، تلفت رؤيتهم الأنظار. ممّا حدا بنبي اللّه يعقوب عليه السلام أن يوصيهم بأنهم إذا أرادوا أن يدخلوا مصر، فليدخلوها من أبواب متفرّقة، أي أنهم يتوزّعون على أبواب مصر جميعها.

---

(١) يوسف: ٦٨.

واتّباعاً لأمره ﷺ توزّعوا على هذه الأبواب، ودخلوا منها متفرّقين لا مجتمعين؛ حتى لا يلفتوا إليهم أنظار الناس.

إن المفسّرين عندما يمرّون بهذا الموضوع يتوقّفون عنده ويتساءلون حول السبب أو الداعي الذي دفع النبيّ يعقوب ﷺ إلى أن يوصي أبناءه بما أوصاهم به [1]، فينقسمون على ثلاثة آراء:

الأوّل: أنه تخوّف من أن يُظن أنه تحدٍّ للسلطان

إن هذا القسم من المفسّرين يرى أن السبب في هذا الأمر هو أن في دخولهم بهذا المنظر على شكل عصبة مجتمعة إيحاءً بأن فيه نوعاً من التحدّي، وهذا ما لا يريده ﷺ لهم؛ ولذا فإنه ﷺ من باب التواضع أمرهم بأن يدخلوا بهذه الطريقة؛ إذ أن دخولهم بهذا الشكل لا يشكّل أية علامة تحدٍّ أو ما إلى ذلك.

ثم إن الوضع هنالك (في مصر) قد يدفع إلى مثل هذا الشعور بالتحدّي، وهذا ما يشكّل ظاهرةً نفسيّة موجودة عند بعض ولاة الأُمور، إذ أن البعض منهم يرون بأنهم يجب أن يكونوا الوحيدين المتّصفين بمظاهر العزّة والكمال والقوة، وأنهم يجب أن يكونوا منفردين فيها. فليس من السهل على شخص في مجتمع إن كان ذا كرامة أو مكانة اجتماعيّة أو سياسيّة، ولا يكون له هذا التفرّد، وليس من السهل عليه أن يكون هنالك من يضاهيه بهذا؛ لأنه يرى فيه نوعاً من التحدّي الذي لا ينبغي أن يكون وهو موجود.

فمثل هذا يرى أن المكانة يجب أن تكون له وحده دون غيره من بني جنسه؛

---

(١) وهو قال عزّ من قائل: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يوسف: ٦٧.

وأن الآخرين في منظاره هم عبارة عن كسور أرقام، بل هم كسور رجال، وليسوا رجالاً كاملين.

وهذه الروحية وهذه النظرة أمران موجودان عند بعض الولاة، فهذا البعض يظن أنه لن يتمّ له أمر، ولن يكتمل نصاب سلطانه أو كرسي ولايته إلّا إذا كان قائماً على على أنقاض حرّيات الناس الشخصيّة في أن يلبسوا ما يريدون أو يتصرّفوا كما يريدون، وإن كان ما يريدونه ضمن الإطار الاجتماعي أو الديني.

وهؤلاء الفتات من البشر هم الذين يُطلق عليهم هذه التسمية (كسور رجال)؛ لأنه لا يريد لهم أن يظهروا بمظهر ينافسونه فيه أو ينازعونه فيه مكانته أو كرامته أو رجولته أو سلطانه أبداً.

المنصور وعمارة بن حمزة

وهذه المظاهر كانت واضحةً عند الحجّاج الذي كان يظنّ أن الإنسان الذي يمتلك كرامة واعتزازاً بالنفس وسلطاناً في قومه يجب أن يطأطئ الجميع له. وكانت هذه الظاهرة موجودةً كذلك عند المنصور، ومما يروى في هذا المجال أنه كان من جملة روّاد مجلس المنصور شخص يقال له عمارة بن حمزة، وكان عالي الهمّة كريم النفس من بيت رفيع وأُسرة معروفة، وكان له كرسي مخصوص في مجلس المنصور. وفي أحد الأيّام قال المنصور لندمائه وجلسائه: لقد أتعبني عمارة هذا بما هو عليه من عُجب.

وهو أمر يثير العجب، فهذا بدلاً من أن يحترم هذا الشخص ويكرمه وينمّي رجولته تجده تتملّكه نزعته الساديّة في التلذّذ بتعذيبه وتعذيب الآخرين معه، بالقضاء على مظاهر الرجولة عنده وعندهم.

على أية حال فإنه قال لهم: لقد أتعبني عمارة هذا. فقال له أحد ندمائه: إذا

أردت أن تذلّه، فوجّه من يدّعي عليه في مجلسك أنه قد اغتصب منه ضيعته، وحينذاك تستطيع أن تمرّغ كرامته بالأرض.

فاستحسن المنصور الفكرة واتّفق مع أحد الأُجراء على أن يقوم بهذا الدور، فلمّا دخل عمارة مجلس المنصور قام إليه هذا الشخص وقال: رجل مظلوم يا أمير المؤمنين. قال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة؛ فقد غصبني ضيعتي. فقال المنصور: يا عمارة، قم فاقعد مع خصمك. فسكت عمارة ولم يقم، فقال له المنصور: لِم لَم تقم من مجلسك، وتجلس معه، وإنه لخصمك؟ فقال: ما هو لي بخصم؛ إن كانت الضيعة له فلست أُنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام وضعني فيه الخليفة، ورفعني وأقعدني به لأجل ضيعة [1].

وهكذا نجد أنه قد أراد أن يذلّ هذا لكنه بادر وردّ الذلّ إلى المنصور نفسه؛ فكأنه أراد أن يقول: أنا أتخلّى عن كلّ شيء لي ولا أقف موقفاً مع إنسان أعدّه أصغر من أن أقف إلى جانبه. وبهذه نجده قد برهن على عزّة نفسه وكرامته.

فهناك نمط من الناس من ولاة الأُمور من لا يستطيع أن يظنّ أو يتصوّر مجرّد تصوّر بأنه ربما يكون هناك إنسان مثله ذو كرامة أو منزلةٍ ثم يُنازعه ما عنده من مكانةٍ أو عزٍّ أو سلطان، وهو بهذا يسعى إلى إذلاله وإلى إبعاده عنه.

فالنبي يعقوب ﷺ إنما قال لأولاده هذا؛ لأنه أراد لهم ألّا يظهروا أمام الناس بمظهر احترام وعزّة، فلربما يعتبر هذا مظهر تحدٍّ للملك أو للسلطان، وبالنتيجة فإنه يعود عليهم بالضرر. أي أن عليهم أن يدخلوا مثل سائر الناس وغمارهم؛ حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم؛ لأنه كما هو معلوم أن اجتماع الناس في عصابة

---

(١) المستطرف من كلّ فن مستظرف ١: ٢٩٨، ولم يذكر مشاورة المنصور ندماءه.

واحدةٍ، أو في جماعةٍ واحدةٍ يلفت النظر إليهم، ويجعل أبصار الناس تتوجه إلى ركبهم؛ لتستقرئهم، ولتعرف ما هو السرّ الكامن وراء تجمّعهم، وهل إنهم عصابة أم لا، وهل إنهم أمير أو قائد مثلاً وحوله جماعته أو أتباعه أو جنده أم لا، وما إلى ذلك من تخرّصات.

الرأي الثاني: أنه تخوّف من الحسد

وهذا القسم منهم يقول: إنه ﷺ إنما أمرهم بذلك؛ لأنه كان يخشى عليهم إن هم دخلوا كلّهم دُفعةً واحدةً من باب واحد من الحسد الذي ربما يصيبهم من نظر الناس إليهم؛ لما هم عليه من حُسن مظهرٍ وجمال منظر، وما إلى ذلك مما يمتدح في العصبة المجتمعة من الرجال. فهو ﷺ كان يخشى عليهم من حسد الناس؛ لأن الناس سيحسدونهم على ما آتاهم اللّه من نعَمِه وفضله، فجعلهم ذوي قامةٍ مديدة، وأجسام عريضة، وزادهم بسطة في المال والقوّة، وما إلى ذلك ممّا يترتب عليه من انشداد الناس إليهم بأبصارهم.

وبالنتيجة فإنهم ربما يصيبهم مكروه من هذا الحسد الذي ربما يكون قد اتّصف به أحد هؤلاء الناظرين. وهذا أمرٌ ممكن جدّاً لأن كثيراً من الناس يعمد إلى أن ينفس الآخرين ما عندهم من منزلةٍ أو كرامةٍ أو مالٍ أو جاه أو سلطان، وما إلى ذلك ممّا اختصّه اللّه به ولم يختصّ به الحاسد، ويتمنّى زوال هذه الأشياء التي حسده فيها عنه؛ لأن الحاسد يرى أن المحسود قد تفرّد عنه بخصلة من خصال الكمال؛ فمثلاً يحسد الغبيّ الذكيّ أو المتفوّق والعبقريّ على ما آتاه اللّه من نبوغ وعلم ومعرفةٍ.

وفي مثل هذا يعمد الحاسد إلى أن يعوّض ما عنده من إحساس بالنقص في هذه المسألة. فكأنه ـ كما يقال ـ يريد أن يوجد معادلاً موضوعيّاً ينفذ من خلاله

إلى سدّ هذه الثغرة الموجودة في نفسه، بحيث إنه حينما يقوم بهذا الفعل فكأنه يتمنّى أن تزول صفة التفرّد هذه من الطرف الآخر (المحسود) كي يتساويا في الذي حسده هو فيه، من الغباء أو الفقر أو الجهل وما إلى ذلك في النهاية، وهذا التعويض هو المعبّر عنه بالحسد.

والحسد في واقع الحال والأمر من أرذل الخصال التي يمكن أن يتّصف بها الإنسان.

الرأي الثالث: أنه تخوّف من العين

ويذهب هؤلاء المفسّرون إلى أن النبي يعقوبﷺ حينما نهى أبناءه عن الدخول دفعة واحدة، ومن باب واحد؛ لأنهﷺ كان يخشى عليهم أن يُزلقوا بالعين. ومعلوم أن العين تختلف عن الحسد فهو شيء وهي شيء آخر؛ فالعين هي عبارة عن ضرر يصيب الإنسان من الشخص الذي ينظر إليه، أمّا الحسد فهو عبارة عن ضرر يصيبه بتمنّي زوال نعمته، وما إلى ذلك.

فالعين لا تسبّب ضرراً إلّا إلى من تنظر إليه، أما الحسد فقد يكون مع النظر إلى الشخص، وقد يكون بغيره.

موقف العلم والدين من مسألة العين

إن في حضارتنا وتاريخنا وجوداً كبيراً لمسألة العين، واعتقاداً واسعاً بها، وهي مسألة متسالم عليها عندنا؛ سواء كان في تاريخنا الماضي، أو الحاضر. فمثلاً يقع اعتقاد بين الناس بأن فلاناً مات بالعين، وأن فلاناً تضرّر الضرر الكذائي من عين فلان، وهذه الحالة كما قلنا موجودة يتوارثها أبناء حضارتنا جيلاً بعد جيل، فهي تعيش مع الأجيال باختلاف طبقاتهم الزمانيّة، ومن حيث المكان.

ثم إننا قد نرى هذا الأمر واقعاً، فهناك أشخاص عندما ينظرون إلى شيء فإنهم

يؤثرون به مباشرة. وهذه تجربة حيّة موجودة على صعيد الواقع، غير أن العلم حتى الآن لا زال عاجزاً عن تعليل هذه الظاهرة، وربما تحت تأثير عدم إيمانه بها يتأوّلها فيقول: إن هذا الأمر قد حدث صدفة، وإن هذا قد تضرّر اتفاقاً. فيحاول أن يجعل الناس يربطون بين حالي النظر والضرر الحاصل منه بالمصادفة والاتّفاق؛ لأنه لم يصل إلى علّتها.

إن هذا يعني أن العلم حتى الآن لم يتمكّن من أن يُعطي رأياً جازماً في تفسير هذه الظاهرة، أو لحل ألغازها، فهو لا يعتبر أن هناك تأثيراً ملموساً بين حالي النظر والضرر؛ لأن العلم يقوم على مبدأ التجربة والمشاهدة اللتين تقعان في المعمل، أي كلّ ما يمكن إخضاعه إلى أجهزة المختبر وقوانينه الطبيعيّة. والعين بطبيعة الحال خارجة عن هذا الأمر.

كما أن هناك أشياء كثيرة لم يجد العلم لها أي تفسير وفق الضوابط والقوانين النظريّة، لكن التجربة تثبتها، وحينما تُطرح أمام العلماء فإنهم لا يستطيعون أن يجدوا لها أيّ تفسير نظريّ أو علميّ، مع أن التجربة واضحة وظاهرة في إثباتها، أما الدين فهو الذي يملك زمام المبادرة في إيجاد الحلول المناسبة لمثل هذه المفارقات العلميّة، ووضعها أمام التفسير الصحيح الذي عجزت عنه الفرضيات والنظريّات العلميّة.

ومن هذا مسألة العين، فهناك أحاديث واردة في هذا الصدد عن الرسول الأكرم ﷺ تثبت هذه الظاهرة وتفسّرها، كقوله (صلوات الله تعالى عليه وعلى آله): **«العين حقّ، العين تستنزل الحالق»**[1] أي أنها تهدم ذروة الجبل. وهناك

---

(١) المجازات النبوية: ٣٦٧ / ٢٨٥، مجمع البيان ٥: ٤٢٨، مسند أحمد ١: ٢٧٤، ٢٩٤، المعجم الكبير ١٢: ١٤٢، تفسير القرآن العظيم ٤: ٤٣٧.

رواية أُخرى تذكر أنه لو سئل أهل القبور عن سبب موتهم لأجاب بعضهم: العين. وهناك روايات كثيرة غيرهما في هذا المجال، روي أن بني جعفر بن أبي طالب﴿عليه السلام﴾ كانوا غلماناً بيضاً طوالاً، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول اللّه، إن العين إليهم سريعة، أفأسترقي لهم من العين؟ فقال﴿صلى الله عليه وآله﴾: **«نعم»**[1]، وغيرها من الروايات الواردة في هذا الصدد[2].

وإن كانت هذه الرواية لا تصلح أن يُستدل بها على موضوع العين؛ لعدم تماميّتها؛ لأن الرسول الأكرم﴿صلى الله عليه وآله﴾ ربما أراد أن يشبع هذا الشعور النفسي عند أسماء، بمعنى أنها معالجة نفسية، فالرسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ لم يأمر بشيء فيه ضرر، وليس هناك من ضرر في أن تضع رقية أو حرزاً أو غير ذلك مما فيه ذكر اللّه جلّ وعلا على هؤلاء الصغار. فأن يقال: إن المفهوم من الرواية وجود العين، هو أمر غير صحيح؛ لأن السؤال كان: أفأسترقي؟ ولم يكن: هل هناك وجود للعين أم لا؟ حتى يصحّ الاستدلال بها على ذلك. أمّا حينما يقول﴿صلى الله عليه وآله﴾: **«العين حقّ»**، فهذا إثبات صريح لها، وتقرير واضح بيّن في وجودها. ومثله قوله﴿صلى الله عليه وآله﴾: **«العين تستنزل الحالق»**.

---

(١) مجمع البيان ٥: ٤٢٨، التفسير الكبير ١٨: ١٧٣.

(٢) منها ما روي من أن النبي الأكرم﴿صلى الله عليه وآله﴾ كان يعوّذ الحسنين﴿عليهما السلام﴾ بقوله: «أُعيذكما بكلمات اللّه التامّة من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة».
وما روي من أن النبي إبراهيم﴿عليه السلام﴾ عوّذ ابنيه بهذه العوذة، وأن النبي موسى﴿عليه السلام﴾ عوّذ ابني هارون﴿عليه السلام﴾ بها.
وما روي من أن جبرئيل﴿عليه السلام﴾ رقى رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ وعلّمه هذه الرقية، وهي: «بسم اللّه أرقيك من كلّ عين حاسد، اللّه يشفيك».
وما روي عن النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ من أنه قال: «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين».
بحار الأنوار ٦٠: ٦ – ٨.

التفسير الفلسفي لهذه الظاهرة

إن التعليل الواقعي لهذه الظاهرة هو ما يصرّح به بعض الفلاسفة من أنها ناتجة عن شعاع ينفصل من عين الرائي، ويتوجّه إلى عين المرئي، فيحدث فيه أسوأ الأثر والضرر[1]. لكن لابدّ من الاعتراف بأننا لا نعلم عن حقيقة هذا الأمر فيما إذا كان مجرّد إيحاء نفسيّ صرف أو لا، وأمثلة الإيحاء كثيرة، ولعلّ أقربها إلى أذهاننا وأوضحها لنا هي أن بعض المجالسين إذا تثاءب فإن مجالسيه حينما يرونه يفعلون هذا الفعل ويتثاءبون كذلك، وكأن الأمر أشبه بالعدوى التي سرعان ما تنتقل إلى الآخرين.

وهذه الظاهرة طبعاً بفعل الإيحاء النفسي، وهي عدوى نفسية، وليس لها أي علاقة بالأشياء المادّيّة أو الظاهريّة، ولذا فإن العلم يقف عاجزاً دون إيجاد حلّ لها، أو أنّ يعطي التفسيرات الصحيحة والعلميّة والتبريرات المنطقيّة لحصولها. ومجاهل النفس كثيرة لا يمكن العوم فيها أو الغوص داخلها، فالمرء قد يخرج من المسجد مثلاً قاصداً بيته، ثم يغيّر رأيه فيبدو له أن يزور صديقه، فيتوجّه إليه، ثم يبدو له أن يغيّر وجهته، وهكذا دون أن يعرف السبب. وقد يتكرّر هذا في المرّة الواحدة عشرات المرّات سيّما مع مواطن التردّد. فقضايا النفس عجيبة، وعالمها مستغلق مجهول. والعين من قضايا النفس، وهي ثابتة بحكم الروايات الواردة عن النبي الأكرم ﷺ، وأن لها القدرة على استنزال «**الحالق**» ثابت أيضاً.

إذن فالعين إنما تؤذي في هذا المورد، فالمفسّرون يقولون: إن النبي يعقوب عليه السلام إنما نهى أولاده عن أن يدخلوا مجتمعين؛ خوفاً عليهم من العين. وهذا الأمر كما

---

(١) انظر بحار الأنوار ٦٠: ٦.

أسلفنا واقع، لكنْ هناك أُناس لا يعيرون هذه الظواهر أيّ اهتمام ولا يقرّونها مع أنّ الدين لم يأمر بشيء أو ينهى عن شيء إلّا وقد اخضع ـ في ذلك ـ أوامره ونواهيه إلى حكمة أو مصلحة نجهلها. إننا نجهل الكثير الكثير من الأُمور التي لا يمكن أن تقع تحت متناول حواسّنا الظاهرة؛ ولذا فإن علينا أن نخضع لحقيقة أن كلّ ما نهى عنه الدين أو أمر به فمِلاكه الحكمة والمصلحة.

المبحث الثاني: نظام الكون والإرادة الإلهيّة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾، إن ظاهر الآية يفيد أن اللّه تعالى لو أراد أن يحول بين العين وبين الإنسان أن يلحقه ضررها، لحال ومنع ذلك الضرر من الوصول إلى الإنسان، لكنه تعالى أبى إلّا أن يترك الأُمور تسير وفق نواميسها الطبيعية. وهناك الكثير من الأشياء التي تركها اللّه عزوجل دون أن يحول فيها بين السبب والمسبّب؛ لأن الكون لابدّ أن يسير وفق النظام الذي حدّده اللّه تعالى له، وهذا يعني أن اللّه تعالى لا يتدخل ويقسر هذا النظام على أن يسير على غير الخط الذي وضعه تعالى له في مسيرته، وهو خط مبتنٍ على تلك المعادلات والقوى التي نعرف أنها تحكم الكون، وأنه يسير عبرها بهذه الصورة المنتظمة، وبهذا النظم الرائع.

ومن هنا نفهم أن بعض الناس يخطئ حينما يطلب من اللّه جلّ وعلا أن يغيّر شيئاً من هذا النظام؛ لأن هذا التدخّل ليس إلّا قسراً للكون أن يسير على غير النظام الذي أودعه اللّه تعالى فيه، كما لو أن أحداً يطلب من اللّه تعالى أن ينتقم من الحاكم الظالم أو من المتوكّل على الحسبه؛ لتلاعبه بالحقوق الشرعيّة، أو أن يُفقر غنيّاً طغى واستبدّ بما عنده من أموال.

إذن هذه النظرة التي ينطلق منها معظم الناس هي نظرة تنمّ عن أُفق ضيّق؛ لأنهم

يظنّون أن المصلحة فيما يرون، وليس فيما تخطّط له السماء. وهذا بطبيعة الحال نابع من محدوديّة الإنسان وضيق تفكيره على المستويات والأصعدة كافّة، فهي محدوديّة في الفكر، ومحدودية في الأُفق، ومحدوديّة في عمليّة الربط، ومحدوديّة في المدارك، ومحدوديّة في وضع التعليلات لمسبّبات الأشياء دون أن يفهم العلّة الحقيقيّة الصحيحة من وراء ذلك.

إن الذي تريده السماء أكبر من أن تتّسع له مداركنا وأفكارنا؛ لأن اللّه عزّ وجل إذا أراد شيئاً فإنه لا يخضع إرادته للتعسّف؛ إذ أن إرادته قائمة على تخطيطٍ واعٍ وعلى مصلحة عامّةٍ شاملةٍ لكلّ أبناء الإنسان. وعليه فإننا بالرجوع إلى مثالنا سنجد أن الذي نراه ظالماً ربما كان اللّه جلّ وعلا قد دفع به من هو أكثر ظلماً منه، أو أنه ربما وُجد ليؤدّب أُمة على ما اقترفت من معاصٍ وآثام وابتعادٍ عن اللّه جلّ وعلا، وعدم إطاعتها أوامره، وعدم إنتهائها عن نواهيه. أي أنه تعالى يؤدّب بهذا الظالم من يستحقّ التأديب في هذه الدنيا.

وكذلك الحال في مثل من ينفق ثروته سواءً على نفسه أو أن ثروته هذه قادته إلى عالم الاستبداد والطغيان [١]، فربما يكون هذا الإعطاء من اللّه جلّ وعلا، وهذه المنحة السماويّة قد اقتضتهما مصلحة المجتمع، وصلاح أبنائه؛ لأن اللّه تبارك وتعالى هو الأعلم بالمصالح والمفاسد، وهو الذي لا يُسأل عمّا يفعل.

إذن فاللّه تبارك وتعالى لا يصنع شيئاً إلّا وهو خاضع لمحض الحكمة. وعلىٰ هذا يبتني ظاهر الآية الشريفة في المقام. ومعنى هذا أنه تعالى إذا أراد أن يتدخّل في منع العين من إحداثها الضرر المترتّب عليها فإنه قادرٌ على ذلك،

---

(١) قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ العلق: ٦ ـ ٧.

لكنه جلّ وعلا أبت حكمته إلّا أن يدع الأُمور تسير وفق نظمها وقوانينها التي سنّها لها.

تقول الآية الشريفة: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، فالنبي يعقوب﵇ كان عنده هذا الهدف، وكان خائفاً على أولاده من العين التي يمكن أن تضرّهم، وهذا ربما كان يسبّب له﵇ ارتياحاً، أي أنه﵇ حينما أمرهم بأن يدخلوا مصر من أبواب متفرّقة فإن هذا كان فيه إيحاء نفسي وارتياح مثله يدخل على نفسه الشريفة لأنه كان يخشى عليهم من أثر العين.

المبحث الثالث: دور العلم ووظيفة العالم

ثم انتقلت الآية الشريفة فقالت: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾، وهنا نجد أن الآية الكريمة تمدح النبي يعقوب﵇ بوصفها إيّاه بأنه ذو علم، وأنّ تصرفه هذا لم يعدُ التصرّفات العلميّة، أي أن هذا التصرّف ـ وهو أمره﵇ أبناءه بالدخول من أبواب متفرّقة ـ كان خاضعاً لقوانين علميّة لا مجال لتخطئتها؛ بدليل تعقيب القرآن الكريم طلبه﵇ ذلك من أولاده بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾.

والآن ما الذي نفهمه من منطوق الآية الكريمة؟ الذي توحي به الآية الكريمة أنّ كلّ تصرّف إذا كان خارجاً عن المألوف العلمي فإنه يُصبح تصرّفاً غير واعٍ، بل إنه لا يعدو أن يكون «خبط عشواء»؛ ولهذا فإنني أودّ أن أُلفت النظر إلى أن الإنسان إما أن يكون عالماً أو أنه يستند في أحكام دينه إلى عالم، وبالتالي فإنه لا يمكن لجاهل أن يأخذ حكم الدين ويتصرف به كما يريد وكما يشاء، وكما يملي عليه هواه؛ لأن ذلك ليس من تخصّصه، وليس داخلاً في دائرة اهتمامه، أو في مجال تحرّكه الفكري إذ أنه جاهل لا يمكن أن يتّصف بأمثال هذه الأُمور.

الوظيفة الدينيّة لا تعدو الوظيفة الاجتماعيّة

وهذا الأمر يشمل الجميع؛ لأن كلّ إنسان يدرك حتى على مستوى أُموره الاعتياديّة أنه برجوعه إلى مقتضى القواعد العقليّة والاجتماعية يشعر بأنه لابدّ أن يخضع لهذا القانون، وهو إما أن يكون عالماً حتى يستنبط أحكام دينه، أو أنه غير عالم فيرجع إلى أهل العلم والمعرفة لأخذ أحكامه منهم[1]. وهذا كما قلنا ما يشعر به كلّ إنسان بمقتضى القواعد العقليّة والاجتماعيّة؛ فما من إنسان يمرض إلّا ويبادر بالذهاب إلى الطبيب ليقوم بمعالجته، وليشخِّص له مرضه، وليصف له الدواء المناسب لذلك المرض. وهذا أمر بديهي؛ لأن الطبيب يمثل جهة الاختصاص في مثل هذه الحالة، وعليه فإن الإنسان يبادر إلى أن يعرض نفسه عليه، وأن يشرح له أعراض مرضه.

ومثله من أراد أن يتعلّم، فإنه يذهب إلى معلّم؛ كي يحصل منه على ما يُريد من موارد العلم والمعرفة، وكذلك من يُرد أن يبني بيتاً فإنه حتماً يذهب إلى مهندس ليضع له خريطة المنزل ثم إلى بنّاء ليحوّل هذه الخريطة إلى واقع عبر بنائها وتحويلها إلى بيت. وبهذا يكون قد قصد الجهة ذات الاختصاص في مجال حاجته؛ حتى يُلبّي هذه الرغبة التي عنده، أو يسدّ هذه الحاجة التي تتملّكه.

وبهذا فإننا عندما نطرق باب أهل الدين لا نعدو مقتضيات القواعد العقليّة والاجتماعية، لأن الإنسان كما ذكرنا إما أن يكون متخصّصاً في مجال الدين، أو غير متخصّص به؛ فإن كان متخصّصاً عمل بما يعلم، وإن لم يكن كذلك وجب عليه أن يقصد أرباب العلم كي يعرف منهم تكليفه الشرعي الذي أوجبه اللّه عليه.

---

(١) قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣.

والمتمعّن في الأمر يجد أن موضوع الدين من أخطر المواضيع التي يُقصد ذأن الاختصاص فيها، كالطبيب والمعلم والمهندس والبنّاء وغيرهم من ذوي الاختصاص الدنيوي، أو الجهات المسؤولة عن الكثير من النشاطات التي ينبغي على الإنسان أن ينخرط فيها، أو أن تكون من ضمن من يلجأ إليها فيما لو ألجأته إليها ظروفه الخاصّة. ذلك أن موضوع الدين في حدّ ذاته موضوع خطر وخطير في آن، فليس من السهولة أن يتوصل أي إنسان إلى أن يفهم أحكام اللّه فهماً كاملاً أو صحيحاً.

من هو المفتي؟

وهنا مكمن الخطر لأن الكثير ممّن تصدّوا لهذه المهمّة الشريفة لم يتعبوا أنفسهم في تحصيلها، بل إنهم لم يدرسوا سوى أربع سنوات ثم حصلوا بعدها على شهادة يحسبونها عالميّة وتؤهّلهم ـ من وجهة نظرهم ـ لأن يجلسوا خلف الميكروفونات أو فوق المنابر ليفتوا بأحكام شرعيّة غريبة في بابها. وهذا في الحقيقة بلاء ابتلينا به، مع أن المفروض أن العالِم سيما ذلك الذي يستخرج الحكم من القرآن عليه أن يتقن مجموعة من العلوم يعدّها بعضهم ستة عشر علما، بل يتقنها إتقاناً كافياً كاملاً مع ممارسة فعلية كافية. وزيادة على ذلك ينبغي أن يكون موهوباً بها، حتى يستطيع أن يستخرج أو يستنبط الحكم الشرعي باستنطاق القرآن الكريم، أو الأحاديث الشريفة، أو المدارك الشرعية المعتبرة في استنباط الحكم الشرعي.

وعليه فإن عملية استنباط الأحكام الشرعيّة ليست بالأمر السهل أبداً، فأن يدرس إنسان أربع سنوات ثم يُعطي لنفسه صفة المفتي والمشرّع، أو يمنحها أهليّة الجلوس فوق المنابر والتصريح والتلويح بفتاوى عجيبة غريبة لهو في الحقيقة لا يملك أدنى مقدار من التقوى والورع والكفّ عن محارم اللّه جلّ وعلا، فمثلاً

يُسأل عن حكم شرعي فيجيب مباشرة بالإيجاب أو النفي، أو بتحديد الوظيفة الشرعيّة بدعوى أن الرواية الفلانيّة تنصّ على هذا.

وهذا في واقع الأمر تطاول على مقام أهل العلم، بل وتجرّؤ على اللّه جلّ وعلا؛ لأنه أفتى وفق رواية لا يعلم سندها ولا دلالتها؛ فهل إن سندها صحيح، وهل إن دلالتها تخصّ هذا المورد أو لا تخصه، وهل إنها يصحّ الحكم بها في هذا المجال أو لا يصحّ، وهل إنها ممّا يمكن أن يُستدلّ بها في هذا المورد أو لا يمكن، كلّ هذا لم يأخذه بعين الاعتبار، ولم يحسب له حساباً، فهذا المفتي أفتى على ضوء رواية وجدها في أحد الكتب الحديثيّة دون أن يعرف مناسبتها للمورد من عدمه أو يعرف خصوصيّاتها.

طبيعة الرواية

إن الذي ينبغي أن يكون عليه الحال أن من يُفتِ يجب أن يكون عالماً كما قلنا بكثير من العلوم، ومنها معرفة علم الرواية والدراية، فهناك الكثير من الروايات المخصَّصة والمخصِّصة، وهنالك روايات عامّة وهنالك روايات خاصّة، وهنالك روايات مطلقة وهنالك روايات مقيَّدة، وهنالك روايات مجملة وهنالك روايات مبيِّنة، وهنالك روايات معارضة برواية أُخرى، فيجب معرفة المتقدّم منهما من المتأخّر حتى يمكن العمل بالمتأخّر منهما وفق الضابطة الشرعيّة الصحيحة التي وضعها العلماء.

وهذا لا يمكن أن يحدّده إلّا ذوو الاختصاص؛ لأنهم الوحيدون الذين أتقنوا هذه العلوم التي تضع الإنسان في مصافّ من له أهلية الإفتاء وفي مصافّ المجتهدين الجامعين لشرائط الفتوى، حتى إذا أفتى بشيء فإنها تكون فتوى عن علم لا عن ادّعاء بهذا الحكم، وبالتالي فإنه سيعصي اللّه جلّ وعلا من

حيث يريد أن يطيع.

ومثل هذا لا ينبغي له إلّا أن يرجع إلى ذوي الاختصاص من أجل تحصيل المسائل الشرعية، لا أن يتصدّى هو للافتاء؛ لأنه حين ذاك يكون قد تجرّأ على اللّه جلّ وعلا، وتطاول على مقام الأنبياء وعلى مقام أهل العلم؛ لأنه إنما أفتى بما لا يعلم[١].

إن من المستحيل والمستبعد أنّ الإنسان ـ أي إنسان ـ يتمكّن من يصل إلى مرحلة الإفتاء خلال فترة أربع سنوات يدرس فيها جملة من الأحكام الشرعية، ومن المستحيل أن يصبح عالماً يمتلك أهليّة الإفتاء لغيره، لأن الفتوى يجب أن يُرجع بها إلى من له أهليّة الفتوى بما يُعرف عنه من إتقانٍ للعلوم التي تجعله من الذين يستطيعون أن يجتهدوا ليستنبطوا الحكم الشرعي من مداركه ومن مظانّه، إضافة إلى خبرته العمليّة وممارسته الفعليّة في هذا المجال؛ حتى تُصبح عنده هذه الملكة حاضرة، وحتى يتّسم بالمهارة الكافية في استنباط الفروع.

تأكيد الإسلام على طلب العلم

فالقرآن الكريم يُلفت أنظارنا إلى ضرورة اتّباع الأُسلوب العلمي الصحيح، فالأُمّة التي لا تنتهج الأُسلوب العلمي الصحيح لا يمكن أن تكون أُمّة واعية، بل إنها أُمّة جاهلة. ومعنى كونها أُمّة جاهلة أنها تتخبّط في مسالك الحياة فتُصبح كالأعمى الذي لا يُبصر من طريقه شيئاً، وبالتالي فإنها لا يمكن لها أن تصل إلى

(١) قال رسول اللّه ﷺ: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض». دعائم الإسلام ١: ٩٦، الجامع الصغير ٢: ٥٧٧ / ٨٤٩١.

مكان يمكن أن يحترمها غيرها به. ومن هذا المنطلق كرم اللّه جلّ شأنه العلم والعلماء [١]؛ ولم يقتصر الأمر على هذا الحدّ، بل إن اللّه جعل تعلّم العلم فريضة فقال ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة**» [٢].

فإذا كان التعلّم عند غيرنا شيئاً كماليّاً، فإنه عندنا وظيفة مفروضة فرضاً، ذلك أنه ﷺ قد أوجبها على كلّ شخص منّا. نعم، هو قد يُصبح مستحبّاً لكن فيما إذا كان هنالك الكثير ممّن يطلبه، وفيهم الكفاية لسدّ حاجات المجتمع، وفيما عدا هذا فإنه يصبح واجباً، أي فيما إذا انحصر بمجموعة ليس فيها الكفاية، أو أن الآخرين لم يتعلّموا. فلو أن هنالك مدينة ليس فيها طبيب، وكان فيها أربعة أو خمسة من الناس مهيّؤون لأن يكونوا كذلك بما أعطاهم اللّه من قابليات ذهنيّة، ففي هذه الحالة يُصبح تعلّم الطبّ واجباً عليهم؛ لأنهم قد انحصر هذا الأمر بهم. وهذا الوجوب ناشئ من أن المجتمع بحاجة إليهم.

إذن فالإسلام يُعطي اهتماماً كبيراً للعلم وطلبه وطلّابه، ولا يعتبره نفسَه مجرّد أمر كمالي، بل إنه يعتبره فريضة، ويُلزم المسلمين وأبناءهم بالتعلّم وبطلب المعرفة. كما أنه ـ الإسلام ـ يضمن هذا الحقّ ويمنحه لسائر الناس، فأي شخص يريد أن يطلب العلم له ذلك الحقّ بل ويكرّمه الإسلام ويرفعه بهذا العلم إلى مستويات عالية.

---

(١) فقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩.

ويقول الحديث النبوي الشريف: «إذا مشى طالب العلم بسطت له الملائكة أجنحتها». الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

(٢) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

النظرة العنصريّة على مرّ التاريخ

وهذا الأمر يتّضح بشكل كبير إذا استعرضنا ما كان عليه العالم قبل الإسلام أو في الزمن الموازي للإسلام؛ فمعلوم أن العالم قبل الإسلام كانت تسود فيه حضارات مثل حضارة الفرس وحضارة اليونانيّين وحضارة الرومانيّين الذين أثروا العالم في ذلك الوقت بالأفكار والنظريّات الفلسفيّة والعلميّة، لكن مع هذا كانت النظرة العنصريّة تتحكّم في قوانينهم وحياتهم ومشاعرهم كما سيتّضح من الأمثلة التالية:

النظرة العنصريّة عند اليونانيّين

حينما نأتي إلى سقراط وهو عالم يوناني وفيلسوف معروف نجده يقرّر أن طلب العلم ليس من حقّ أحد إلّا الرجال اليونانيّين؛ فلا المرأة اليونانيّة، ولا الرجل أو المرأة غير اليونانيّين لهم حقّ التعلّم وحقّ طلب العلم، فالرجل اليوناني وحده هو من يملك هذه الخاصّيّة، وهو من يملك هذا الحقّ، وعليه فإن أيّ شخص ليس يونانيّاً أو أيّ إمرأة ليس من حقّهم أن يطلبوا العلم.

ويعلّل سقراط هذا الحظر على المرأة بأن مخّ الرجل جهاز متكامل بخلاف مخّها الذي يفتقر إلى هذا التكامل.

إذن فرأي سقراط أن طلب العلم يجب أن ينحصر بالرجال دون النساء؛ فلا النساء وإن كنّ يونانيّات مهيآت لطلب العلم؛ لأن دماغهن غير متكامل كدماغ الرجل، ولا الرجال غير اليونانيّين مهيؤون أيضاً لهذا الواجب أو لهذا الفرض، لأنهم يتوفرون على أدمغة غير متكاملة كتلك الأدمغة التي يتوفّر عليها اليونانيون.

ونحن نستغرب جدّاً مثل هذه الروح العنصريّة والميول غير المبتنية على عنصر

المساواة بين الناس من مثل هذا الفيلسوف والعالم الكبير، وهو بحقّ يعدّ عملاقاً في مجال تخصّصه.

النظرة العنصريّة عند الفرس

أما حضارة الفرس فكانت تحصر العلم في طبقات دون طبقات، فمثلاً طبقة الصنّاع لا تعطيهم حقّ طلب العلم؛ لأنهم من وجهة نظرها إنما خلقوا لأجل الصناعة، وعليه فلا يجوز لهم أن يتعلّموا. كما أنها حضارة تقسم الناس إلى أقسام على أساس جبري؛ فهذا ولد ليتعلّم، وذاك ولد ليعمل دون أن يكون له حقّ التعلم وهكذا.

ولذا فإننا نجد في هذه الحضارات أنهم يقسمون الناس حسب مراتبهم وشرفهم إلى طبقات من الذهب والنحاس والحديد والطين وغير ذلك، فمن كان من طبقة الحديد فإنه لا يصلح إلّا للعلم والسلطان، وأما من كان من طبقة الطين فإنه لا يصلح إلّا لحراثة الأرض وزراعتها، وممارسة أعمال الفلاحة عامّة. ومن أحبّ أن يطلع على هذا فليرجع إلى الكتب المختصّة بتاريخ الحضارات القديمة، وبدراسة عادات أهلها ونظرتهم الفلسفيّة إلى الحياة.

النظرة العنصريّة في العصر الحديث

ولو أننا اقتربنا أكثر حتى نصل إلى عصرنا الحاضر لوجدنا أن مثل هذا النَفَس موجود عند بعض العلماء والمشرّعين المعاصرين، أو من هم سبقوا هذا العصر بسنوات قليلة، فمثلاً (يوري مير) وهو أحد مشرعي القانون الدولي لا يرتضي إعطاء بعض الشعوب قانوناً، أو منحهم قانوناً؛ لأنه يقول: إنها شعوب بدائيّة، والشعب البدائي ليس أهلاً لأن يحتضن القانون أو يطبّقه، أو أن يمتلك الأهليّة لأن

يوضع له قانون من الأساس.

إذن فهو لا يُعطي هذه الشعوب حقّ العيش تحت ظلّ القانون وإنما يعطيها ما يمكن أن يسمى بالمواضعات العرفيّة التي يمكن لها أن تسير على ضوئه. ومثله هتلر الذي صنّف الناس إلى طبقات، ووضع العرب في الطبقة الرابعة عشرة. وهي روح تنمّ عن توجّه عنصري شديد عند هؤلاء القائلين بها، كما أنها روح موجودة عند الكثير من الناس ولا زالت إلى الآن تعيش في أذهانهم. أمّا الإسلام فحينما جاء سحق هذه الغطرسة التافهة، وجعلها تحت أقدام تقدّميّته وروحيّته الحيويّة العالية المتجدّدة، وقضى على كلّ مظاهر هذه الروحية الجوفاء التي لا تستند إلى أيّ أساس علمي.

ومسألة النظرية العنصريّة التي سادت ولا زالت ـ وإن كانت بمراتب متفاوتة بين الشدّة والضعف وفق خطّ بيانيّ متباين ـ قد أصبحت نظرية عالميةً تدعّمها بعض الحركات والجهات بأفكارها. ونحن لا ننكر أن هناك خصائص لبعض الشعوب أو الأجناس ليست موجودة عند أجناس أُخرى، لكن هذا لا يعني أنه تدعيم لهذه النظريّة العنصريّة كما يتوهّم أصحابها والداعون إليها.

وكانت هذه النظريات التي سادت أيّام اليونانيّين والفرس قد استمرّت حتى عاصرت النبي الأكرم‏ﷺ الذي جاء ليقول: **«أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلّمها فأحسن تعليمها، وأدّبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران»**[١].

وبهذا نلاحظ أن الإسلام ينزل إلى أدنى الطبقات في المجتمع وفق تقسيم

---

(١) صحيح البخاري ٦: ١٢٠ - ١٢١، تغليق التعليق ٤: ٣٩٧، إمتاع الأسماع ١٠: ٢٤٨، نيل الأوطار ٦: ٢٩٥.

اجتماعي وضعي ليعطيها (هذه الطبقة) قيمة اجتماعية، ولبحثّ الآخرين على رفع درجتها. ولعل الداعي إلى هذا أنّ العرب كانوا يُسمون المتولّد من أب عربيّ وأُمّ غير عربية هجيناً، ولا يعتبرونه أصيلاً، ولا يعدّون هذه الحالة صفة حسنة عند الإنسان؛ لأن أُمّه أمَة.

زيد بن علي وهشام بن عبد الملك

دخل زيد بن علي عليه السلام على هشام بن عبد الملك ـ وكان هشام خليفة يفترض به أن يطبّق الإسلام في كلّ ممارساته! ـ على أيّة حال فلم يجد موضعاً يقعد فيه، فعلم أن ذلك فعل به على عمد، فلما رآه هشام واقفاً قال له: بلغني أنك تحدّث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها؛ لأنك ابن أمة. فقال زيد: أمّا قولك: إني أُحدّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلّا اللّه. وأمّا قولك: إني ابن أمة، فإن لك جواباً. قال هاته. قال: أيهما أفضل النبي أم الخليفة؟ قال: النبي. فقال: هناك أنبياء أُمّهاتهم إماء، وهذا إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليهما السلام ابن أمة، من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإسحاق ابن حرّة أخرج من صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوت. فقال له: قم. قال: إذن لا تراني إلّا حيث تكره.

فلما خرج من عنده، قال: ما أحبّ أحد قطّ الحياة إلّا ذلّ. فسمعه حاجب هشام فنقله له، فقال له: لا يسمع هذا الكلام منك أحد.

فهو يقول له: إن بعض الأنبياء أُمّهاتهم إماء، لكنهن لم يقعدن بهم عن نيل النبوّة، كما أنني لا يضيرني أن أُمّي أمة وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسين بن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم. وقد تنبّه زيد إلى أن هذه اللغة التي يكلّمه بها ليست هي اللغة التي يفهمها، وفعلاً خرج ووضع يده على قائم سيفه، وهو ينشد هذه الأبيات:

شرّده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد

ومحتفي الرجلين يشكو الوجى تقرعه أطراف مرو حداد

قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد

ثم خرج عليه وقتل (١).

إذن أتى النبي ﷺ إلى هذه الروح التي كانت سائدة عندهم.. الروح التي ينتقصون بها الكثير من الطبقات فعالجها وحاول القضاء عليها، وإلّا فليست الأمَة إلّا إنساناً طبيعياً لا يختلف عن غيره، لكن الظروف أجبرته على أن يكون في ذلك الوضع. وما دامت الظروف هي التي تدخّلت في حياة هذا الإنسان، وهي التي جعلت منه عبداً أو أمَة، فإن هذا يجب ألّا يعدّ مورد نقص عنده أو انتقاص له. ونحن حينما نرجع إلى تاريخ العباقرة ـ سيّما في تاريخنا الإسلامي ـ فإننا سنجد أن العلم مدين إلى الإماء في هذا الجانب، ذلك أن الكثير من هؤلاء العباقرة والعظماء الذين برعوا في شتّى المجالات العلميّة؛ الإسلاميّة والتطبيقيّة والأكاديميّة هم أبناء إماء.

وهذه المسألة ربما كان لها تعليل يمكن أن يعدّ نوعاً من التعويض؛ فهذا الذي يُرمى بأنه هجين، أو أنه ابن أمة ينتابه شعور بالنقص ضمن هذا الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه، وهذا الشعور يدفعه إلى تعويض هذا النقص عنده وسدّه. ولذا فإننا نجده يجدّ في طلب العلم، ويبدع فيه كي يعوّض ـ كما قلنا ـ نفسه أمام الناس مورد انتقاصهم إيّاه، وليثبت لهم أنه إنسان نابه وليس خاملاً. فنراه يبدع وينتج ويصل إلى مستويات متقدّمة في مجال اختصاصه؛ سواءً في العلوم الشرعيّة أو التطبيقيّة.

---

(١) انظر: العقد الفريد ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٥ - ٢٨٦، الفصول المهمة (ابن الصباغ) ٢: ٩٠٠ - ٩٠١.

والواقع أن الإسلام حينما جاء سعى أول ما سعى بكلّ طاقاته وثقله إلى القضاء على هذه النظرة العنصريّة، فكان كلّ همّه محاربة هذه النظريات ومحقها؛ ومن هنا رفع شعاره المشهور: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[1].

وهكذا أتى الإسلام وجعل طلب العلم فريضة، وجعل الناس سواسية لا فرق بين رجل وامرأة، أو بين عربيّ وغيره، ثم أولى المرأة عناية بالنسبة عينها التي أولى بها الرجل دون فرق أو تمايز. وربما يستغرب البعض حينما يعرف أو يقرأ أن الشافعي قد تلمذ لنفيسة بنت الحسين بن زيد[2]، وقد تعجب أكثر حينما تجد أن الكثير من النساء المسلمات قد برعن في شتى مجالات العلوم، وكلّ ذلك بفضل تعاليم الإسلام وتأكيداته على إنماء الجانب العلمي لدى الفرد المسلم عامّة، وكذلك يرجع إلى تعليماته وتعاليمه في خصوص موضوع المساواة في طلب العلم بين الرجل والمرأة من جهة وبين الشريف والوضيع من جهة أُخرى.

أبو داود والموفّق العبّاسي

روى أبو بكر بن جابر خادم أبي داود صاحب (السنن) قال: كنت مع أبي داود

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الأعلام ٨: ٤٤، قال الزركلي: «وهي السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد ابن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولدت سنة (١٤٥)هـ وتوفيت سنة (٢٠٨)هـ. صاحبة المشهد المعروف بمصر. تقيّة صالحة، عالمة بالتفسير والحديث. ولدت بمكّة، ونشأت في المدينة، وتزوّجت إسحاق المؤتمن ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت فيها. حجّت ثلاثين حجّة. وكانت تحفظ القرآن، وسمع عليها الإمام الشافعي. ولما مات أُدخلت جنازته إلى دارها وصلّت عليه. وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، وهي أُمّيّة، لكنها سمعت كثيراً من الحديث».

بغداد، فصلّينا المغرب إذ قرع الباب، ففتحته فإذا خادم يقول: هـذا ولي العـهد الأمير الموفّق العبّاسي يستأذن. فدخلت على أبي داود فأخبرته بمن كان، فأذن له، فدخل وقعد، ثم أقبل عليه أبو داود وقال: ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟ قال: خلال ثلاث. فقال: وما هي؟ قال: تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض، فتعمر بك؛ فإنها قد خربت وانقطع عنها الناس لما جرى عليها من محنة الزنج. بمعنى أنه يأمره بإنشاء حوزة عـلميّة فـيها، أو تحويل أحد مساجدها إلى حوزة علميّة.

فقال أبو داود: هذه واحدة، فهات الثـانية. قـال وتـروي لأولادي كـتاب (السنن). فقال: نعم، هات الثالثة. قال: وتفرد لهم مجلساً للروايـة؛ فـإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامّة. فقال أبو داود: أما هذه فلا سبيل إليها؛ لأن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء. فقبل لكن على أن يضرب بينهم وبين النـاس ستر فيسمعون مع العامّة من ورائه [1].

فهو يرفض العرض لأن أولاد ولي العهد لا يفترقون عن أولاد سائر المسلمين بشيء، فحالهم حال غيرهم من أبناء المسلمين الذين تجمعهم معاً كلمة «**لا إله إلّا الله**»؛ فإن العلم لا فرق فيه بين أمير وغيره من عامّة الناس.

سليمان بن عبد الملك وأحد الخوارج

يروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً أيّام خلافته يوماً وإلىٰ جانبه عمر ابن عبد العزيز، هذا الرجل الطيّب، فجيء بأحد الخوارج وأُدخل علىٰ سليمان،

---

(١) العبر ٢: ٥٤ / ٢، طبقات الشافعية ٢: ٢٩٥، سير أعلام النبلاء ١٣: ٢١٦ - ٢١٧، تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٩٩.

فأراد هذا أن يهيجه، فقال له: ما تقول في الحجّاج؟ قال: الحجّاج خطيئة من خطاياكم، وشرارة من شراركم، ونار من ناركم، فلعنة اللّٰه عليكم وعلى الحجّاج، وإنه سيأتي يوم القيامة عن يمين أبيك، وعن شمال عمّك.

فانفعل سليمان، فقال له الخارجي: إنكم بهذا إنما شاركتم الحجّاج في ظلمه؛ إذ سمحتم له بأن يلي الناس، مع أن اللّٰه تعالى قد لعن الظالم في كتابه. وكان مطرقاً فقال له سليمان: إني أُكلّمك، فلمَ لا ترفع رأسك إليَّ؟ قال: إني أكره النظر إلىٰ وجه يكره اللّٰه النظر إليه.

فاشتدّ غضب سليمان، ثم التفت إلىٰ عمر بن عبد العزيز وقال له: ما تقول؟ قال: اشتمه كما شتمك، وإلّا فاصفح عنه.

فهو يقول له: لا فرق بينكما وإن كنت أميراً وهو أسير، والخلافة لم تزدك شيئاً. فقال له سليمان: واللّٰه إني لأحسبك خارجيّاً. فقال له عمر: واللّٰه إني لأحسبك مجنوناً.

وهذا ما يدعونا إلى تأمّل الروح السمحة للإسلام.. الروح العظيمة التي بنى بها هذا المجتمع الضخم وهذه الدولة الكبيرة.

ويؤيد هذا ويؤكده أن النبي الأكرمﷺ كان قد دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقالﷺ له **«هوّن عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»**[1]، أي لا تضطرب؛ فأنا إنسان عادي.

إذن هذه هي الروح السمحة الإسلامية، وهذا هو الخُلق الإلهي العالي، وهذه هي التربية الإلهية الرفيعة.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١: ١٣٣، كنز العمّال ٦: ٨٨ / ١٤٩٦٥، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٣: ٥٥٦.

مدرسة الإمام الصادق

ثم إن القرآن الكريم قد مدح السلوك العلمي القائم على أساس الضوابط العقليّة لا على أساس التمايز الطبقي أو العرفي أو العنصري؛ ومن هنا نرى أن الإمام الصادق يقول: «**ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقّهوا**»[1]. أي أنه يتمنّى لو أنه يحمل من يمتنع من أصحابه وأتباعه عن طلب العلوم على ذلك، ولو بضرب السياط، وهذا منه غاية في الحرص الشديد على حثّ شيعته وأصحابه على التعلّم. ومن هنا كذلك نجد أنه كان يؤكّد تأكيداً كبيراً، ويحثّ حثّاً بالغاً شديداً على تنويع الحلقات العلميّة التي كان يرعاها مباشرة أو عن طريق تلامذته، يقول الوشاء: دخلت مسجد الكوفة فوجدت تسعمئة شيخ، كلّ يقول: حدثني جعفر بن محمد الصادق[2].

فهؤلاء تسعمئة شيخ، لكلّ شيخ حلقته وهم يتدارسون مختلف أبعاد المعرفة؛ فهناك من يتدارس الأدب، وهناك من يتدارس التاريخ، وهناك من يتدارس التفسير أو الفقه والأُصول، وغير ذلك من العلوم[3]، بل حتّى الطبّ الذي كان للصادق فيه مناظرات مع أطبّاء عصره. وهكذا نجد الكميت وجماعته وإلى جنبهم هشام بن الحكم وجماعته الذين يتدارسون علم العقائد والكلام، بالإضافة إلى الحلقات الدراسية الأُخرى التي تتدارس الفقه والأُصول وغيرهما من فنون العلم والأدب كما ذكرنا.

وكان الإمام يحرص كلّ الحرص على تنميتها وتشجيعها وإمدادها وتهيئة

---

(١) المحاسن ١: ٢٢٩ / ١٦٥. (٢) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠.

(٣) ومن تلامذته في علوم الأبدان جابر بن حيّان، وأبو بكر الرازي.

الأجواء المناسبة لها على شتّى الأصعدة العلميّة وغيرها؛ لأنه عليه السلام كان يعدّ مدرسة يجب أن تتّسع لمذهبه بعلومه كافّة ولأتباعه، ومدرسته هي مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام ومدرسة أمير المؤمنين عليه السلام هي مدرسة رسول اللّه صلى الله عليه وآله ومدرسة الإسلام؛ تحكم به ضرورة أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تلميذ القرآن.

وهكذا كان المسجد يُمثّل هذه المدرسة الضخمة، ويحتضن أداء هذه الرسالة العظيمة. وكانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام تضمّ جميع من ينتمي لفكر أهل البيت عليهم السلام.

حقيقة محبّة أهل البيت عليهم السلام

ربما يظنّ البعض من الناس أن حبّ أهل البيت عليهم السلام يكفي، وأنه لا حاجة لأيّ شيء معه، ويجيب على هذا الظن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: **«كذب من زعم أنه يحبّني، وهو يحبّ الكذب أو الزنا»**. أي أنه يُريد أن يقول: من أحبني فليتخلق بأخلاقي وليتأدب بآدابي. فهم عليهم السلام عندهم منهج واضح هو منهج رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ ولذا كانت مدرستهم مدرسة رسول اللّه صلى الله عليه وآله. إذن فحبّ أهل البيت عليهم السلام أولى بأن يدعو إلى التمسّك بهذه المدرسة، لا إلى الاكتفاء بهذا الحبّ دون معرفة ضوابط وقوانين وقواعد هذه المدرسة، ودون معرفة علوم أهل البيت عليهم السلام التي توصل الناس إلى ساحل الأمان.

الآثار الإيجابيّة لقراءة سيرة الأئمّة عليهم السلام

ومما يؤسف له أن الكثير من أبناء المذهب الشيعي الجعفري لو سُئل عن مقدار ما يعرفه عن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وعطائها وأي رأي لها في العلوم والموارد الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفقهيّة والأُصوليّة والكلاميّة وغيرها، فإنه سيجد أنهم لا يعرفون عنها شيئاً. وهذا أمر يؤسف له، إن المطّلعين بشكل واضح على هذه

المدرسة وفعاليّـتها وفروعها وعلومها قليلون جدّاً. وهنا ينبغي أن نثير تساؤلاً حول عدم استغلال أوقات فراغنا كلّ يوم في مطالعة الكتب التي تتناول هذه الجوانب، فنقرأ في سيرة الرسول الأكرم، وفي سيرة أهل بيته ونطلع على معارفهم وعلومهم وآدابهم وأخلاقهم.

ونحن حينما نقرأ سيرة أهل البيت فإننا إنما نقرأ سيرة عدل القرآن الذي يقرره النبي نفسه فيقول: **«إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض»**[1].

فالواجب إذن هو أن نتّخذ من هذه السيرة سلّماً نرتقي به إلى رسول الله، وبالتالي إلى مراد الله جلّ وعلا. وفي الواقع إننا جميعاً مدعوّون للتعرّف على عطاء أهل البيت، ومدعوّون إلى أن ننهل من مواردهم ومناهلهم التي ليس فيها إلّا المعين البارد الذي يطفئ غلّة العطشان، ويروي ظمأ الصديان. ثم إن من يرِد أن يطّلع على سيرة أيمّتنا يجب عليه أن يطّلع عليها من مظانّها الصحيحة، وهو هنا لا يطّلع على شيء غير مشرّف؛ فإن وجد في هذه السيرة شيئاً من الخرافة والخطأ، فهذا ليس من أهل البيت وإنما هو من أذهان بعض النقلة، أما أهل البيت فهم مثلما يقول الشيخ جمال الدين احمد بن مطيع الحلّي:

قل لمن حجّنا بقول سوانا ... حيث فيه لم يأتِنا بدليلِ
نحن نروي إذا روينا حديثاً ... بعد آيات محكم التنزيلِ
عن أبينا عن جدّنا ذي المعالي ... سيّد المرسلين عن جبريلِ

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

وكذا جبرئيل يروى عن اللـ ـــه بلا شبهة ولا تأويلِ

فتراه بأي شيء علينا ينتمي غيرنا إلى التفضيلِ[(١)]

فسندنا يتّصل حتى يصل إلى أهل البيت عليهم السلام، وسند أهل البيت عليهم السلام إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وسند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبرائيل عليه السلام وجبرائيل عليه السلام إلى اللّه جلّ وعلا. فهذه المدرسة يجب أن نحرص عليها، وأن نعضّ عليها بالنواجذ، وأن نكرع منها ما يكون لنا زاداً وذخراً في حياتنا وبعد مماتنا.

رجع

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ فإنها إنما تمدح النبي يعقوب عليه السلام بلحاظ أن سلوكه سلوك علمي، وهذا هو الذي يريده اللّه جلّ وعلا منّا في كتبه المنزّلة على لسان أنبيائه ورسله.

المبحث الرابع: دور العلم والعلماء في إثراء الدنيا

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، الحقيقة أن الآية الكريمة تصرح هنا بأن الكثير من الناس يُجافي العلم والعلماء، وهذا الحال هو الذي نعيشه الآن؛ فالناس في هذه الأزمنة لديهم عناية كبيرة بالجسد، أما العناية بالروح والفكر والعلم فنادراً ما نجدها عندهم؛ فالشباب تجتذبهم الأضواء فيقضون معها وقتهم بعيداً عن إشغالها في عبادة اللّه جلّ وعلا، أو في طلب العلم، فهم مثلاً يجلسون على مدارج الملاعب وأمام الشاشات الفضّيّة ليراقبوا لعبة أو مباراة، وهو أمر ربما امتدّ إلى مساحة زمنيّة طويلة، وهو بهذا يضيّع على نفسه فرصة التعلّم.

---

(١) الجواهر السنيّة: ٢٢٦، أعيان الشيعة ٣: ١٨٣، ٤: ٢٠٦.

إننا لا نقول: إن ممارسة الرياضة ليست صحيحة، لكن كما أن هناك دعوةً لبناء الجسد، فيجب أن تكون هناك قبالتها دعوة لبناء الروح، فينبغي ألّا نُفْرِط في سدّ حاجات الجسد، وفي المقابل نفرّط في سدّ حاجات الروح. فالإنسان ليس فقط ذلك الذي يُصارع في حلبة السباق، والمتفرّجون يمطرونه بوابل من تصفيقهم، كما أن وجه الحياة لا تغيّره مثل هذه الألعاب وأمثال هؤلاء، والدنيا كذلك لا يغيّرها هذا الهتاف وهذا التصفيق. إننا نعيش الآن عصر الكهرباء والإلكترونيك والفضاء والذرّة، وما إلى ذلك وما تطوّر عنه وأدّى إلى اكتشاف هذه الأجهزة، ونحن إنما نعيشها بفضل العلم.

وحتى هذه الألعاب التي نراقبها لساعات طويلة إننا لا نراقبها إلّا بفضل العلم الذي منحنا أجهزة لم يُعطِناها جسد ضخم يصارع، بل أعطانا إيّاها فكر ومخّ جلس إلى طاولة العلم والكتب، وراح يبحث ويفكّر ويجرّب حتى توصّل إلى اختراع هذه الأجهزة المتطوّرة. فباستور مثلاً جلس في معمله يصارع الجراثيم، وأعطانا نتاجاً غيّر وجه الدنيا، فلولا كشوفاته واستنتاجاته وابتكاراته في مجال اللقاحات لكانت الجراثيم والأمراض المعدية مخيّمةً على هذه الدنيا.

وكذلك من قبل كان الحسن بن الهيثم الذي أعطانا نظريّات رائعة في علم البصريات، فاستحق أن يكون حلقة وصل لنقل الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا. وكذلك الكنديّ في مجال الفلسفة، فهو الذي نقل الفلسفة الإسلاميّة إلى الحضارات الأُخرى. ومثلهم الرازي تلميذ الإمام الصادق﵇ وهو يشرح الجاذبيّة، ونظريّة النشوء والارتقاء، والذي يستحقّ بجدارة وأهليّة أن يكون أُستاذاً لنيوتن ودارون.

فهؤلاء هم الذين غيّروا وجه الحياة ووجه الدنيا بعلمهم، وبالعلم والفكر

والروح تبنى الحضارات والمجتمعات لا بهذه الحلبات التي تنصب لمصارعة الرجال بعيداً عن حلبات العلم. بل إن تلك الحلبات وأمثالها ربما تضمّ الشاب المنحرف الذي يجدف صباح مساء، ولا يهمّه سوى جسده.

وإننا لا نقول: إن الإسلام لا يحبّ الرياضة ولا يُشجع عليها، بل هو على العكس من ذلك؛ فهو يطلب منا أن نعتني بالرياضة وأن نمارسها، ولكنه لا يجعلها كلّ شيء في حياة الفرد المسلم، فهو يعطيها فترةً محدودة لممارستها، وعدا ذلك فإنه يؤكّد على الفرد المسلم أن يغذّي فكره تغذيةً صحيحةً وأن ينمّي عقله بالنظريّات العلميّة، وبالفكر الصحيح، وبالعلوم النظريّة والتطبيقيّة، يقول رسول اللّه ﷺ: «**تفكّر ساعة خير من عبادة ستين سنة**»[1].

فالذي يفكّر ويشغّل عقله، ويستغلّ ما وهبه اللّه من مخّ، وما أُودع فيه من قابلية على الاستنتاج والتحليل.. هذا المخ الذي سكب اللّه تعالى فيه الإبداع هو حقّاً الإنسان الذي يستحقّ أن يقدّر؛ لأنه يُعمل فكره وعقله في مختلف أبعاد المعرفة. فهؤلاء هم الذين غيّروا وجه الحياة، حتى إن القرآن الكريم ينعى على

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠٨ / ٢٦، وقد نسبه للإمام الصادق عليه السلام، مجمع البيان ١٠: ١٤، تفسير السمرقندي ١: ٢٩٩، التفسير الكبير ٢: ١٨٨.

قال الرازي: «وفي التفضيل وجهان:

أحدهما: أن التفكّر يوصل إلى الله تعالى، والعبادة توصل إلى ثواب الله تعالى، والذي يوصل إلى الله خير مما يوصل إلى غير الله.

والثاني: أن التفكّر عمل القلب، والطاعة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح. والذي يؤكّد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه: ١٤، فجعل الصلاة وسيلة إلى ذكر القلب، والمقصود أشرف من الوسيلة؛ فدل ذلك على أن العلم أشرف من غيره».

غيرهم أنهم ليسوا على علم [١]. فالجسد ليس هو الذي يغيّر الحياة بل إن الفكر هو الذي يفعل ذلك؛ لأن الجسد لا يعدو هذه السنوات المعدودة ثم يرمى في التراب؛ طال به المدى، أو قصر، وسيسلم إلى الديدان، وها نحن نسمع قول الشاعر المعاصر وهو ينشد:

قالت وقد سلخ ابتسامتها الأسى ... صدق الذي قال الحياةُ غرورُ
أكذا نموت فتنتهي أحلامنا ... في لحظة وإلى التراب نصيرُ
وتموج ديدان الثرى في أكبدٍ ... كانت تموج بها المنى وتمورُ

فهذه هي النتيجة الحتميّة:

من كان لا يطأ التراب برجله ... وطئ التراب بصفحة الخدِّ

ولو أن هذا المتوفّى رئي بعد أيّام لوجد ذلك الجسد الجميل الأنيق قد أصبح تطؤه الأقدام وتذروه الرياح يميناً وشمالاً، والديدان تعبث به، لكنه لم يبقَ منه سوى الفكر:

وإن الموت أقصرُ قيد باعٍ ... بأن يغتال فكراً واعتقادا

ومع كلّ هذا نجد أن الإسلام لم يهمل الجسد، بل إنه بتعاليمه السمحة حثّ الإنسان المسلم على الاعتناء به، وأمره بأن يتعلّم الضرب بالسيف والرماية والسباحة وركوب الخيل، وحثّه على تربية بدنه تربيةً صحيحة، لكن ـ كما أسلفنا

---

(١) فقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام: ٥٠، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الرعد: ١٦، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَاالظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَاالأَمْوَاتُ﴾ فاطر: ١٩ ـ ٢٢، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ غافر: ٥٨.

ـ على ألّا يكون ذلك على حساب الروح، بل هو يأمر الإنسان بأن يعتني بجسده وروحه بكلّ ما يمكن أن يخدمهما به، وبكلّ ما يقبلانه من أنواع التربية والترويض، يروى أن ملك الروم أراد أن يباهي المسلمين، فبعث إلى معاوية رجلين: أحدهما طويل، والثاني قصير شديد القوّة، يريد أن يبيّن له بأن الذين عنده في دولته مثلهما في الطول والقوّة، فهل في بلاده من يقابلهما؟ فدعا معاوية للطويل بقيس بن سعد بن عبادة، فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه، فلبسها الطويل فبلغت ثدييه، فلاموا قيساً على نزع السراويل، فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويلُ قيس والوفودُ شهودُ

وكيلا يقولوا خان قيس وهذه سراويل عاد أحرزتها ثمودُ

وإني من القوم اليمانين سيّد وما الناس إلّا سيّد ومسودُ

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوّته بمحمد بن الحنفية، فخيّر محمد الرومي بين أن يقعد فيقيمه، أو يقوم فيقعده، فقبل الرومي، فغلبه محمد في الحالتين، ثم جلس له محمد بن الحنفيّة فلم يستطع الرومي أن يقيمه، ووقف له فلم يستطع أن يجلسه، فانصرفا مغلوبين [١].

إذن كان محمد معروفاً بهذه القوّة، ولولا ذلك ما أرسل معاوية خلفه. ويروي المؤرخون كذلك أن أمير المؤمنين أُهديت إليه درع، فاستطالها، وأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: ياأبتِ، علّم موضع القطع. فعلّم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها وبالأُخرى على موضع العلامة، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدّده أمير المؤمنين [٢].

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ٥٦، وانظر فتح الباري ٨: ٦٣ - ٦٤.
(٢) الدر النظيم: ٤٣٩، المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ٤٧٨.

وكان في المجلس رجل، فلمّا رأى فعل محمد قال: واللّه ما رأيت يداً مثل هذه اليد. فكان أن أُصيبت يداه بالشلل، وهذا هو السبب الوحيد الذي أعاقه عن الحضور مع الإمام الحسين‏ إلى كربلاء يوم الطفّ، لقد كان مريضاً يُغمى عليه ساعة ويفيق أُخرى، وحينما عادت قافلة السبايا إلى مدينة الرسول الأكرم‏ سمع ضجّةً، وسمع النعيّ ينادي:

يا أهل يثربَ لا مقامَ لكم بها ... قتل الحسينُ فأدمعي مدرارُ

الجسمُ منه بكربلاءَ مضرّجٌ ... والرأسُ منه على القناةِ يدارُ[1]

فقال لغلامه: ما هذا النداء؟ وما لي أرى المدينة تضجّ بأهلها؟ فقال له: سيدي، يقال: إن أخاك الحسين‏ قد رجع والناس يعزونه بابن عمه مسلم بن عقيل. فقال: إذن ما لابن والدي لا يأتي إلي؟ قال: لكثرة الناس عنده. قال: ربما هو ينتظر قدومي، أسرجوا لي جوادي.

فأسرجوا له جواده، ونشروا على رأسه حلّة للظل، فلما أراد أن يقوم سقط، وقام ثانية فسقط، وكذلك في الثالثة فقال: واللّه إن فيها لمصائب آل يعقوب‏. ثم أقبل حتى توسّط القوم، ولمح مجموعة من الأطفال أقبلوا يهرولون أمام السبايا وهم ينادون: واحسيناه. فنظر محمد إلى ذلك الجمع وقال: لقد فعلتها واللّه بنو أُمية، وسقط إلى الأرض مغمىً عليه، فهرول الرسول إلى الإمام السجاد‏ وقال له: بادر إلى عمّك قبل أن يموت. أقبل إليه السجاد‏ وأخذ رأسه ووضعه في حجره وراح ينضحه بدموع عينيه، ففتح محمد عينيه وقال: من؟ علي هذا؟ قال‏: **«بلى يا عم»**. قال: بني أين أبوك؟ قال: **«ياعم لقد أتيتك يتيماً»**.

---

(١) مقتل الإمام الحسين‏ (أبو مخنف): ٢٣٩، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١١٥.

وهنا أقبلت السبايا إليه يتصايحن، وإذا بزينب وقد أقبلت في المدينة وهي تقول:

مدينةَ جدِّنا لا تقبلينا ... فبالحسراتِ والأحزانِ جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعاً ... رجعنا لا رجالَ ولا بنينا(١)

ثم أقبلت إلى قبر النبي الأكرم ﷺ ناعيةً إليه سبطه الشهيد أبا عبد الله ﷺ، وطافت بقبره الشريف، ثم رجعت والمسبيّات إلى دار الحسين ﷺ، وأخذت بعضادة باب بيته، وما كادت عيناها تقعان على محرابه حتى اختنقت بعبرتها:

عمر ما فارگيتك بيه ... تذكر يوم واحنه صغار
من حضن امي الزهره ... الجِوانح حيدر الكرار
عيني اتبحّر بوجهك ... وروحي وياك ليل انهار

* * *

اخوي من اطب عندك دار ... أرد عيني وأصد فكري
أخاف اتشوف ملعبنا ... الدرجنا بيه من صغري
تمرّ اطيوفك اعليّه ... مثل عذب الهوى تجري

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا ... وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا ... لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا(٢)

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.
(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿١٧٤﴾

العامل الأخلاقي في التشريع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه الآية الكريمة مجموعة مباحث أعرض لها تباعاً إن شاء الله:

المبحث الأول: الأخلاق والاقتصاد

ربما يسأل سائل فيقول: ما هو وجه جمع الآية الكريمة بين موضوع سلوكي وموضوع اقتصادي صرف؟ إن قضية الخمر قضية سلوكيّة خاصّة، وكذلك قضية الميسر؛ فهناك من يشرب الخمر وهناك من لا يشرب، وهناك من يلعب القمار وهناك من لا يلعب، أما الإنفاق فهو مسألة عامّة؛ لأنه موضوع اقتصادي يدخل في باب توزيع الثروة الذي هو أحد أبواب الاقتصاد التقليديّة المتمثّلة بـمثلّث:

---

(١) البقرة: ٢١٩.

الإنتاج ـ التوزيع ـ التداول. وموضوع النفقة يدخل في باب التوزيع كما سيمرّ علينا خلال البحث إن شاء اللّه.

إذن فما هو وجه الجمع بين حالة خاصة وحالة عامّة؟ إن القرآن الكريم يهدف من وراء كلّ حكم من أحكامه إلى جوانب تربويّة، فهو يريد أن يربّي الناس ككلّ، كما أنه يؤمن بأن التربية تنطلق من الفرد إلى المجتمع؛ باعتبار أن الفرد نواة المجتمع الذي هو عبارة عن عدّة أفراد.

خصائص التربية للفرد والمجتمع

ثم إن من المسلّم به أن هناك خصائص تمثّل علاقة تربية الفرد، وخصائص تمثّل علاقة تربية المجتمع، والآية الكريمة جمعت أُنموذجين من نماذج التربية: أُنموذجاً يتعلّق بتربية الفرد، وآخر يتعلّق بتربية المجتمع، وكلاهما متحدّ الموضوع، وهو التربية كما أسلفنا. وغاية ما في الأمر أنها هنا في بعد سلوكي وهناك في بعد اقتصادي. وهذه الأُمور سنوضحها من خلال نقاط البحث التالية:

الأولى: سبب النزول

يروي المفسرون أن جماعة جاؤوا النبي الأكرم ﷺ فقالوا له: يا رسول اللّه، أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال ولكننا غير قادرين على أن نتركها وأن نتخلص منها. فأطرق النبي ﷺ لحظة، فنزلت هذه الآية الكريمة[1].

إن استفتاء هؤلاء حول هذه المسألة عند النبي الأكرم ﷺ يوضّح لنا كيف أن البعض من الناس ينهزم أمام أدنى المؤثّرات دون أن تكون له أدنى إرادة في مقاومتها والتخلّص من تأثيرها. وهذا معناه كما ذكرنا انهزام الإنسان ـ إذ لا يملك

---

(١) الكشّاف ١: ٢٦، وفيه أنهما عمرو ومعاذ.

العزيمة والإرادة ـ أمام هذا المؤثّر. فهؤلاء جاؤوا النبي الأكرمﷺ يسألونه أن يفتيهم في المشكلة التي يعانون منها، ظنّاً منهم بأن هذا شيء يمكن إيجاد حلّ له خارج حدود الشريعة وإطار الدين.

الثانية: الحوافز في التعاليم الدينية

وهنا نقطة يتوجّب الإشارة إليها هي أن التعاليم الدينيّة والقانونيّة عبارة عن حوافز، فإذا لم تلقَ الاستجابة الكافية لم تكن ذات تأثير مطلقاً.

فالتعليم مجرّد حافز، وليس هو الذي يخلق الإرادة عند الإنسان، إذ أنّ الإرادة شيء موجود بالأصل عند الإنسان، ودور التعليم هو تحريك الإرادة، فإذا تحرّكت الإرادة عنده فحينها يحصل العزم. ولتوضيح هذا نضرب مثالاً فنقول: لو أن بعض أجهزة الإعلام كصحيفة ما أو التلفزيون أو غيرهما طالبت الحكومة بإنشاء بعض المشاريع الإنمائية، فإن هذا الأمر بطبيعة الحال يمرّ عبر آليّة دقيقة وثابتة؛ فالمشاريع التنمويّة لا يمكن أن تقوم بها المادّة القانونيّة، بل إن الذي يمكن أن يقوم بذلك هو التعبئة الجماهيريّة روحيّاً، حيث يقنع الشعب بضرورة بذل الجهد من الجميع لأجل إحياء هذا المشروع وإنهائه وتنفيذه وإخراجه إلى أرض الواقع من بين طيّات الورق.

الثالثة: مفهوم التعبئة

فالمادّة القانونية إذا استطاعت أن تعبّئ الجماهير تعبئة روحيّة ونفسية، فإن الجماهير حينها ستتمكن من إنجاز أي مشروع يقرّه القانون، لأن المشروع التعبوي الصحيح هو الذي يهيّئ الأرضية الصالحة لذلك؛ كونه يمر عبر قناة تعبئة الفرد وجعله يشعر بضرورة تدخّله في مثل هذه المشاريع ومواصلة عمله بجدّ

وتفانٍ وإخلاص. والفرد إذا وصل إلى هذه المرحلة من الشعور والإحساس بالمسؤولية الإنسانية فإنه سيبدع في مجال عمله وسيخلص فيه ويتفانى من أجل إتمامه.

ثم إن معنى تعبئة الفرد كذلك إعطاؤه شعوراً بضرورة التوازن والإنفاق فلا يسرق، وإن الصحيح الذي ينبغي على كلّ إنسان هو أن يعبّئ نفسه وكلّ طاقاته ويهيّئها لخدمة المجتمع. وعند الوصول إلى هذه المرحلة فإننا يمكن أن نقول بأننا قد استطعنا أن نعبّئ الجماهير تعبئة صحيحة فاعلة تؤدّي الغرض منها في بناء المجتمع.

وبهذا نخرج إلى نتيجة مؤدّاها أن المادّة القانونية ليس لها من مهمّة إلّا تنبيه الأفراد فقط إلى مواطن العمل، أمّا تحقّق العمل فيلزم فيه التعبئة الجماهيرية، لأن المادّة القانونية لا تتمكّن من أن تخلق مشروعاً إلّا على مساحات الورق.

فسبب النزول إذن أن هؤلاء كانوا يريدون من الرسول الأكرم ﷺ أن يفتيهم في الخمرة، والآية جاءت توجّههم إلى ضرورة أن يعقدوا جلسة محاكمة بين العقول والغرائز، ويحاولوا أن يجعلوا الحكم لصالح عقولهم؛ فمن الضروري أن يتغلّب العقل على الغريزة. وهذا المعنى هو الذي يؤكّد عليه القرآن الكريم في كلّ توجّهاته التربويّة، وهذا ما سنراه من خلال المباحث القادمة حول الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني: مفهوم الخمر

تقول الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، وللمفسرين في الخمر رأيان:

الأوّل: أنه العصير العنبي إذا غلى وأزبد

إن أبا حنيفة يعتبر أن الخمرة هي العصير العنبي إذا غلى وأزبد [١]. وهو خلاف ما يذهب إليه الأعمّ الأغلب ـ كما سنرى في الأمر الثاني ـ من أن الخمرة هي ما يخامر العقل، أي يشلّه ويمنعه عن التصرّف والتفكير، وغير ذلك من فعّالياته ووظائفه. وهذا معناه أن كلّ ما يشلّ العقل عن التفكير خمر؛ سواء كان عصيراً عنبيّاً غلى وأزبد، أو غيره مما يستخرج من الخشب والفواكه وما إلى ذلك. فهو بصفة سلبه اللبّ يحرم، لأنه يعدّ خمراً حينئذٍ.

الثاني: أنه كلّ مسكر وإن لم يسكر إلّا كثيره

وأصحاب هذا الرأي يقطعون بأن ما كان «كثيره مسكر فقليله حرام»، أي أن كلّ مادّة مسكرة هي خمرة. والخمر في اللغة الستر [٢]، وهذا هو السبب في تسمية المسكر خمراً؛ لأنها تستر العقول وتغيّبها عن أن تمارس دورها ووظيفتها، ومنه الخمار الذي يستر صدر المرأة. فالخمرة تحول بين الإنسان وبين عقله.. بين الإنسان وبين أن يعمل ويتصرّف باتّزان واستقامة، وتمنع الإدراك الذي منحه اللّه تعالى للإنسان عن أن يعمل كما أراد له اللّه جلّ وعلا أن يعمل، وهو التصرّف السليم الذي يقبله العقلاء.

وهذه التي تصنع من غير العنب إنما تحرم قياساً على الخمرة العنبيّة، لأن هذه الخمرة إنما حرّمت لإسكارها، فالعلّة إذن في التحريم هو الإسكار [٣]، وهذا

---

(١) انظر: الحاوي الأكبر ١٣: ٣٧٦، الاستذكار ٨: ١٢.

(٢) التبيان ٢: ٢١٢، الكشّاف ١: ٢٦١، تاج العروس ٦: ٣٦٤ ـ خمر.

(٣) وهو ما يسمى عندنا بقياس منصوص العلّة، وهو أحد الأقيسة الثلاثة المعتبرة عندنا، والقياسان الآخران، هما: قياس الأولويّة وقياس تنقيح المناط. انظر: معارج الأصول:

التحريم يمكن الحكم به على كلّ مادّة مسكرة، وتطبيقه عليها كالمخدّرات والحشيشة وكلّ ما يفعل بالعقل ذلك الفعل. فالحكم هذا يشمل الموادّ المائعة والجامدة دون فرق؛ لوجود وحدة الموضوع في المقام وهي الإسكار، والتي أسميناها «العلّة في الحكم».

وبما أن معنى الخمر هو الستر، وهو هنا يستر العقل، فأينما توجد الخمريّة ـ ستر العقل ـ توجد الحرمة بغير حاجة إلى التأمّل وغيره. فالتسمية هنا غير مهمّة مادامت العلّة عينها موجودة واضحة.

ولعلّ الحكمة واضحة في تحريم الخمر، حيث إنها بإذهابها العقل تكون قد أذهبت جوهرة الإنسان، وإقدام الإنسان على هذا الفعل فيه استخفاف بجميع النعم التي يسّرها اللّه تعالى وسخّرها للإنسان لأجل ما منحه من العقل [1]. فاللّه تعالى قد سخّر للإنسان جميع ما في الأرض من حيوانات ونباتات وجمادات لأجل خدمته، فيستفيد من بعضها للأكل، ومن بعضها الآخر للركوب، ومن بعضها الآخر للزينة. وكل ذلك بطبيعة الحال لأنه المخلوق العاقل الوحيد من بين كلّ هذه المخلوقات، ويفترض بمن يملك هذا العقل أن يكون ذا سلوك منظّم ومستوى من الفكر والقوى والطاقات العقليّة لا يمتلكه غيره من الموجودات في عالمنا.

☚ ١٨٥، الوافية ٢٣٦ ـ ٢٣٩.

(١) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: «إن اللّه عزّ وجلّ لمّا خلق العقل قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له،: أقبل، فأقبل، فقال اللّه تبارك وتعالىٰ: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلّا فيمن أُحبّ. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب وإياك أُثيب. ثم خلق الجهل فقال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فلم يقبل، فقال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أبغض إليّ منك، ولا اجعلك إلّا عند أبغض خلقي إليّ». الكافي ١: ١٠ / ١، ٢٠ - ٢٣ / ١٤، الخصال: ٥٨٨ - ٥٩١ / ١٣. .

فإذا أقدم الإنسان على إذهاب العلّة التي من أجلها كرّمه اللّه تعالى، وأباح له كلّ ما في الوجود، وتجرّأ على إهدارها؛ فإنه يكون قد استخفّ بأحكام اللّه وتكاليفه. كما إن عملية إلغاء العقل ومنعه من ممارسة وظيفته هي عبارة عن تحوّل من الرقيّ الإنساني إلى الحالة الحيوانيّة المتدنّية؛ لأنه ما إن يشربها حتى يتحوّل إلى حيوان في تصرّفاته كافّة، كما توحي به سلوكيّاته. دخل نصيب الشاعر ـ وكان مفلقاً أديباً ـ على عبد الملك بن مروان، فوجده يشرب الخمرة، فلمّا جلس إلى جانبه التفت إلى الساقي وقال له: اسقِ أبا رباح.

فالتفت إليه نصيب وقال له: أصلح اللّه الخليفة، أتمكّنني من الكلام؟ قال: نعم. قال: أنا الآن أجلس قربك بعد أن تخطّيت رقاب الناس، ولم يدخلوني إليك إلّا بعد أن عرفوني، فهل ترى أنهم إذ أدخلوني خوّلوني الجميل؟ قال: لا. قال: فحسَبي؟ قال: لا. قال: إذن أموالي الطائلة؟ قال: لا. قال: إذن ما الذي يجعلك تجلسني إلى جانبك؟ قال: أدبك.

أي أنه أجلسه إلى جانبه إكراماً لأدبه، فالتفت إليه وقال: أدبي فرع عقلي، فإذا ذهب عقلي ذهب أدبي، وإذا كان عندي عقل كنت قادراً على أن أتذوّق الأدب وأنظم الشعر، وأن أعرف ما الذي يراد من بيت الشعر، فإذا سقيتني وسلبت عقلي، فبأي شيء أصلح لمنادمتك؟ فأطرق عبد الملك ثم أشار للساقي وأمره بالكفّ عن ذلك، وقال له: صدق أبو رباح[١].

وهذه هي الحقيقة؛ إذ أنّ الإنسان لا يميّزه عن غيره سوى عقله، فإن تسبّب في ذهابه كان كغيره من المخلوقات الأدنى منه منزلة. فالإنسان مطالب بأن

---

(١) الأمالي (المرتضى) ١: ٢٠٥.

يسلك سلوكاً يميّزه عن غيره من الكائنات غير العاقلة، وأن يتصرّف تصرّفاً عقليّاً يتفاعل به مع المجتمع بفكر وتعقّل، وإلّا فإنه سيتحوّل إلى كيان بهيمي، وحينئذ لا ميزة له عن الأنعام. كان قيس بن عاصم كثير معاقرة الخمرة، وشرب مرّة حتى ثمل، فقصد ابنته وهو سكران وغمز عكنتها، وحاول الاعتداء عليها، فلمّا فرّت منه، سبّ أبويها، ثم صعد على سطح داره فرأى القمر فتكلّم معه، وأعطى الخمّار مالاً كثيراً. فلمّا أفاق أُخبر بذلك، فحرّمها على نفسه وأصبح من أعدائها [1].

إنه حرّمها على نفسه؛ لأنه خجل منها وهو يسمعهم يتكلّمون عنه بما اقشعرّ منه جلده، ولأنه هبط بنفسه بهذا السمّ من المستوى الإنساني إلى المستوى الحيواني.

أثر السلوك الجمعي

هناك جملة من الأُمور الشائنة التي يمكن أن يرتكبها الإنسان تحت سلطة السلوك الجمعي، ومنها:

الأول: تناول الخمر

فالإنسان حينما يعود إلى الواقع بعد سكر، وبعد معرفة بما فعل حال سكره فإنه حتماً سيرفض فكرة تناولها ثانية أشدّ الرفض. إن أغلب الذين يشربونها حدّ

---

(١) وقال فيها أشعاراً بعد ذلك، منها قوله:

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً ... ولا أشفى بها أبداً سقيما
ولا أُعطي بها ثمناً حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديما
فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

حول الواقعة والأبيات انظر: الاستيعاب ٣: ١٢٩٥، أُسد الغابة ٤: ٢٢٠: تهذيب الكمال ٢٤: ٦٣ - ٦٤، السيرة الحلبيّة ٣: ٢٤٥.

الثمالة إنما يفعلون ذلك تحت تأثير السلوك الجمعي وبدافعه، ولتوضيح هذا الأمر نضرب مثالاً ببعض الأشياء المستوردة من حضارة الغرب، فهذه الأشياء تأتي تحت غطاء الحضارة وعنوانه. فالإنسان الحضاري هو من يتّصف بصفات محدّدة تميّزه عن غيره وتعطيه تلك السمة، ومن هذه الأشياء أنه لابدّ أن يعيش نمطاً معيّناً من السلوك المتّسم بالتهذيب ورقيّ الكلام وسموّ الخلق، وأن صاحبه يحسن أن يعيش مع المجتمع ويحيا حياةً يسايره فيها بأناقة وثقافة، وبالتالي فإنه يندمج معه اندماجاً كاملاً.

فهؤلاء يتستّرون بهذه الموجات ويفعلون ما يفعلون بحجّة أنه سلوك حضاري، وأن أبناء المجتمعات المتحضّرة في أوروبا خاصّة أو الغرب عامّة يفعلونه، فما إن تعترض على أحد حول شربه الخمر حتى يبادرك قائلاً: إنه تيّار وسلوك لا بأس به؛ لأن الأُمم المتحضّرة تمارسه بشكل دائم ومستمرّ.

المجتمع الجاهلي والسلوك الجمعي

فهذا السلوك الجمعي هو الذي يحكم هذه الحالة؛ لأن الإنسان لو رجع إلى عقله لوجده ينهاه عن شربها ويحذّره منه؛ لأنها موادّ سامّة تفتك بالجسم وتضرّ به صحّيّاً، ولأنها كذلك تجعل الإنسان يفقد عقله وكرامته ويتحوّل إلى كيان حيواني تافه بعد أن رفعه اللّه تعالى، وبعد أن كان شخصاً ذا قيمة ووزن وكرامة. فهو بشربها يفقد اتّزانه، ومع ذلك يصرّ عليه؛ لأنه يتذرّع لذلك بأنه يريد أن يكون من أبناء المجتمع الراقي. وقضيّة الاندماج في المجتمع الراقي والتفاعل معه كان أمراً مطلوباً ومحبّذاً حتى في العصر الجاهلي، فحينما نرجع إلى معلّقة طرفة بن العبد نجده يقول:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

ومعنى هذا أنه يقول: هناك ثلاثة أشياء يعيش الإنسان من أجلهن:

الأولى: شرب الخمر، فهو يقول بعدها:

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تُعلَ بالماء تزبدِ

أي أنه يريد أن يسبق أصحابه وأقرانه بشربة خمر عندما يضيف إليها الماء فإنها تعلو وتزبد.

الثانية: نصرة طالب النصرة، فيقول بعدها:

وكرّي إذا نادى المضاف محنّباً كسيْد الغضا نبّهته المتورّدِ

أي أن أيّ إنسان يندبه أو يستجير به، فإنه سيبادر إلى أخذ سلاحه، ويسارع إلى نصرته دون أن يعرف لأي شيء ندبه، ودون أن يعرف فيما إذا كان على حقّ أو على باطل.

الثالثة: المرأة الحسناء، فهو يقول أخيراً:

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمّدِ[1]

ويوم الدجنّ: هو يوم الغيم، وهو عادة يكون ثقيلاً على الكثير من الناس وطويلاً، فهو يقول: أنا أُريد أن أُقصّر هذا اليوم الطويل بـ«بهكنة»، وهي الفتاة الحسناء[2] يفجر بها تحت الخباء المعمّد.

فهذه الأشياء الثلاثة يرى أنها مثله الأعلى، ويعتبرها التيار الصحيح السائد آنذاك.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد: ١٩، ونسبها في فوات الوفيات ١: ٦١١ لحميد الطوسي، وهو خطأ واضح.

(٢) الصحاح ٥: ٢٠٨٢ ـ بهكن.

ثم إن هذه ليست مسألة اندماج وإنما هي عمليّة تذويب للشخصيّة وبالنتيجة اضمحلالها، وهذا يدلّ على ضعفها ووضاعتها عند شارب الخمر. ولهذا فإن القرآن الكريم يحاول أن يغرس في نفوسنا المناعة ضد هذه المؤثّرات: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[1].

الثاني: الميسر

وهو تصرّف يسلكه الإنسان تحت تأثير السلوك الجمعي كذلك، فيجلس إلى مائدة القمار يعاقر الخمرة ويلعب الميسر (القمار) دون أن يعير ما يملكه مما خوّله اللّه إيّاه وجعله قياماً له ولعائلته أي اهتمام. وهو هنا لا يهدر ماله ومال عائلته فقط بل إنه يهدر طاقة يمكن أن يستفيد منها المجتمع إذ يهدر وقته، فمعروف أن الوقت طاقة يحترمها الإسلام، وما دام طاقة فإن هدره وإتلافه فيما لا فائدة فيه ولا نفع منه ولا جدوى يعدّ فعلاً محرّماً يحاسب عليه الإسلام. والإنسان إذ يفعل ذلك فإنما حاله حال من يأخذ أمواله ليرميها في البحر دون أن يستفيد منها هو أو الآخرون.

فلسفة تحريم الميسر

إن اللّه تعالى سيسائل الإنسان غداً عن هذه الأموال؛ لأن بإمكان هذه الأموال تشغيل شريحة عريضة من المجتمع، وتوفير دخل لهم ومورد قوت وكسب فيما لو وظّفت توظيفاً صحيحاً ومشروعاً، فيُبنى بها مصنع أو مركز عمل. كما أنه يمكن أن يُبنى بها مدرسة أو مسجد أو مستشفى أو ما إلى ذلك من مصارف الخير والبرّ.

---

(١) المائدة: ١٠٥.

وبهذا نعرف أن هذه الأموال التي تُهدر على الموائد الخضراء يمكن أن تغيّر وجه الدنيا، كأن تشبع جوعاناً أو تكسو عرياناً أو تسدّ حاجة محتاج لها بشكل مشروع.

وكما هو معروف فإن الوقت يدخل في كلّ عملية يقوم بها الإنسان، فعلى الإنسان أن يستغلّه في كلّ ما فيه خير ومنفعة؛ من طلب علم، أو عبادة، أو تفكّر في مسألة علميّة، أو عيادة مريض، أو زيارة رحم، وما إلى ذلك من موارد البرّ، لا أن يقتله بشيء تافه يبلّد الفكر والإحساس، ويخشّن الأخلاق، ويجعل صاحبه رهين الروتين اليومي المملّ، بل القاتل أو الرغبة المحرّمة. إذن فإن اللّه تعالى قد حرّمه لهذا.

وهذه الحرمة ثابتة حتى في حال كان اللعب للتسلية، بل حتى لعب الصبيان، دخل إسحاق بن عمار على أبي عبد اللّه الصادق﵇ فقال له: الصبيان يلعبون بالجوز والبيض، ويقامرون، فقال: **«لا تأكل منه؛ فإنه حرام»**[1].

وكان﵇ ينهى عن الجوز يجيء به الصبيان من القمار أن يؤكل، وقال: **«هو سحت»**[2].

وهذا التحريم طبعاً لأنه يدرّبهم وينشّئهم على حب هذا اللعب واحترافه، وبالتالي فإنهم سوف لن يتمكّنوا من التخلّص من إساره وقيده. فهو مقدّمة للحرام، ومقدّمة الحرام حرام. أمّا إذا كان اللعب بالرهان وتلاعباً بالأموال وقوت الناس فللإسلام فلسفة خاصّة في تحريمه، وهي أن اللّه تعالى قد أمرنا بالعمل وكسب المال من حلّه والطيّب منه، وبهذا فنحن لم نأخذها من الفراغ، وإنما هي نتيجة

---

(١) تهذيب الأحكام ٦: ١٩٠ / ١٠٦٩. (٢) تهذيب الأحكام ٦: ١٩٠ / ١٠٧٠.

عمليّة إنتاج اقتصادي مرّت بها سلسلة العمل.

فما نعمل به ربما كان مستورداً من خارج البلد، وما كان كذلك فهو يعني اشتراك الكثير من الأيدي العاملة في عملية تحويله وإيصاله؛ منها صاحب الباخرة أو الطائرة التي أقلّته من الخارج، والسيارة التي تنقله في الداخل والعامل والعتّال (الحمّال) وصاحب المحل المتخصّص في بيعها أو تسويقها. وهنا تكون شريحة عريضة قد ساهمت في إنتاجها بشكل عامّ وانتفعت من مجمل هذه العملية، وهذا يعني أن الإنسان بشرائه هذه السلعة يكون قد أنتج بصورة أو بأُخرى، وقد تمثّل هذا بنقل البضائع مثلاً، وسدّ حاجة المستهلك، والحصول على المال.

وعليه فليس هناك إنتاج يأتي من فراغ، وما كان كذلك فهو غير معترف بشرعيّته دينيّاً، بمعنى أن الإسلام لا يعتبره مالاً كما هو الحال مع القمار الذي يعدّ في حقيقته كسباً من فراغ. فمن يحصل على ألف دينار من غير عمله أو كدّ يده أو وجه شرعي جوّزه اللّه تعالى، لا يعتبرها الشارع ملكاً يجوز التصرّف فيه بأي نوع من التصرّفات؛ فهي لم تأت من عمل في تجارة أو بناء أو غير ذلك، وبهذا يكون قد عطّل طاقة ضخمة يحتاجها المجتمع.

استهلاك العامل الخلقي في القمار

وهذه الأموال التي يكتسبها الإنسان عن طريق لعب القمار ربما يدّعي أنها كسب وإنتاج اقتصادي، لكنه لا يعلم أو يتجاهل أن هذا الإنتاج المادّي يصاحبه استهلاك أخلاقي؛ لأنه قد أخذ ما لا يستحقّه وما ليس له. وهذا اللون من الكسب لا يفرق عن الربا الذي حرّمه اللّه تعالى لأنه استنزاف لأموال محتاجيها ولجهدهم الذي بذلوه إزاء الحصول عليها. فهي عمليّة استغلال شنيعة يتّبعها المرابي ضدّ

المقترض المحتاج لهذا القرض. وهذه العمليّة تعني خلق عنصر استغلال في المجتمع، وبالتالي خلق مجتمع خالٍ من التراحم؛ لأن المجتمع المتراحم هو المجتمع الذي يقرض أبناؤه بعضهم البعض لأجل قضاء حاجاتهم وسداد ديونهم، أما المجتمع الذي لا يقرض إلّا بعوَض زائد، فهو مجتمع خالٍ من المودّة والرحمة والأخلاق.

وبهذا فإن الربا يحرم التعامل به، لما يؤدّي إليه من خلق مجتمع متفكّك.

فالتعامل بين الناس إذا كان قائماً على أساس مادي كان دليلاً على انعدام القيم الأخلاقيّة والتربويّة بينهم، وعلى انعدام التعاون. والإسلام إنما يحثّ ويدعو إلى مجتمع قائم على عمد من الجوّ الخلقي الرقيق والمترف، فهذا هو ما يدعو إليه الإسلام. لكن حينما تنعدم هذه الأُمور، فإنّ المجتمع يتحوّل إلى كيان مادّي قائم على أساس عبادة المال وتقديس الثروة.. مجتمع تنعدم فيه القيم الأخلاقية بكل أبعاده وأبعادها.. مجتمع طريقه طريق المادّة وليس طريق الإنسانيّة الذي فرض اللّه جلّ وعلا التعامل به.

سلبيات التعامل الاقتصادي غير المشروع

إذن الكسب الربوي وكسب الميسر وإن كان فيه جنبة إنتاج اقتصادي، لكنه أداة فعّالة في الاستهلاك الأخلاقي والاجتماعي، واللّه تعالى يريد منا أن نتعامل مع الدنيا على ضوء الوازع الأخلاقي. إن الإنسان ليس آلة للكسب، ولا يقاس بماله أو بما يملك، وإنما هو إنسان إذ يوظّف أمواله في باب الخير والبرّ والإحسان. والأموال إذا وظّفت في باب البرّ فإنها تلعب دورها الكبير في الحياة فيما لو قصد بذلك وجه اللّه تعالى والتقرّب منه.

وهكذا نخلص إلى نتيجة أن الإسلام يحرّمهما؛ لما فيهما من مضارّ، ولأنهما

ينطويان على مشاكل اجتماعيّة كبيرة منها سوء العلائق بين الناس سيّما بين الآخذ والمعطي في المعاملة الربويّة، وتحويل المجتمع إلى كيان قائم على مبدأ رفض الأخلاق والتعامل بها، وتحوّل مبدأ التعامل من الروح والدين والأخلاق إلى المادّة والابتعاد عن القيم، فضلاً عمّا في شرب الخمرة من إذهاب للعقل وتغييب له ولأحكامه.

إنّ الطبّ الحديث يتحدّث كثيراً عن أضرار الخمرة الجسديّة، لكنه يتناسى أكبر أضرارها وهي الجناية على العقل. وكذلك فإن من أقلّ أضراره الجناية على الأبناء، لأن إدمانها ربما يؤدّي إلى حصول حالات التشوّه عند الأجنّة، فما ذنب هؤلاء الأطفال حتى يولدوا بهذه الصورة المشوّهة؟ هذا على الصعيد الخَلْقي أما على صعيد الأخلاق فإن هؤلاء الأطفال سوف يعيشون حالات انتظار وصول الأب إلى البيت ليغدق عليهم من عطفه وحنانه، ويأخذهم إلى حضنه فيُفيض عليهم مشاعره وعواطفه، لكن حينما يعود ثملاً فبأي حال يمكن أن يكونوا عليه وهم يرونه بتلك الهيئة؟ وأي حنان وعطف ورحمة سيغدقها عليهم؟ وكيف يتمكّن من أن يحلّ لهم مشاكلهم العاطفيّة، أو العائليّة، أو المدرسيّة، أو يطلبون ذلك منه وهم يرونه بتلك الحالة؟

وليس هذا الأمر مقتصراً على الطفل فقط، بل إنه يشمل حتى الشباب، بل إن هؤلاء أحوج من الأطفال ـ بحكم سنّهم ومرحلتهم ـ إلى الرعاية والرقابة الأبويّة ومتابعة تصرّفاتهم ومشاكلهم واحتياجاتهم، ووضع الحلول لها، ومراقبة أصدقائهم، ومن يلجؤون إليهم، فيصحّح لهم أخطاءهم ويسدّد خطاهم في طريق الحياة.

فالأب الذي يدخل البيت وهو يترنّح من سكره وينام تاركاً أطفاله دون رعاية

لهم، ومتابعة لمشاكلهم واحتياجاتهم يكون قد جنى عليهم جناية كبيرة. فما ذنب هؤلاء حتى يهملوا هكذا ويتركوا؟

ولعلّ هذه الأسباب هي التي تفسّر لنا العذاب الشديد والعقوبة الكبيرة لشارب الخمرة، والتشديد والنكير على كلّ من يقع في سلسلة صناعتها منذ لحظة زراعتها وحتى وصولها إلى المستهلك [1]. وقد ورد أن **«شارب الخمرة كعابد الوثن»** [2]، فهو بعيد عن رحمة اللّه تعالى.

فهذا هو التأثير السلبي للخمر والميسر، وهذا هو أثرهما في المجتمع، ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: **﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾**. والمقصود بالمنافع هنا: المنافع الاقتصاديّة، وهو أمر واقعي، أمّا **﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾**، فلأنهما يهدمان الوجود ويقتلان الحياة؛ فالخمرة تقتل المخّ، وأحياناً هو ليس أي مخّ، فهو ربما كان مثل مخ ابن سينا، لكن صاحبه يعمد إلى أن يسمّمه بمثل هذا التعاطي المحظور ومعاقرة الخمرة. فهذه الطاقة التي منحها اللّه تعالى للإنسان كي يبدع ويخدم الدنيا والوجود يقوم صاحبها بتدميرها لأجل شيء تافه وبشيء أتفه.

فقوله تعالى: **﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾** يحدّد الطبيعة القاتلة لهاتين الآفتين المفترستين، ثم أخذ ينبّه العقل لإيجاد محاكمة بين هذين الطرفين **﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾** و**﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾**. فأرشد إلى ذلك بقوله: **﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾**.

وبطبيعة الحال فإنه ليس هناك من عاقل يقدم على شيء إثمه أكبر من نفعه،

---

(١) لعن رسول اللّه ﷺ في الخمر عشرة: «غارسها وحارسها وبائعها ومشتريها وشاربها والآكل ثمنها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها». الكافي ٦: ٤٢٩ - ٤٣٠ / ٤، سنن ابن ماجة ٢: ١١٢٢ / ٣٣٨١.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٠٧، عمدة القاري ٢١: ١٦٥.

فالعقل ينهى عن ذلك، ويحكم بأن كلّ عمل إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرّم فعله.

المبحث الثاني: آليّة الإنفاق وموضوعه وضوابطه

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ﴾، وفي هذا المقطع الشريف انتقلت الآية الكريمة من الموضوع الفردي إلى الموضوع الجماعي؛ لتبيّن أن المجتمع يجب أن يقوم على مبدأ التراحم، وأن يبتني على أساس التعاطف والتكافل. وإذا كان الإنسان يفكّر في أن يرحم المجتمع، ويساعد في إنقاذه من وهدة الفقر والضياع، وأن ينتشله من حالة العوز، فعليه أن يعرف ما الذي يمكن أن ينفقه وما هي طبيعته. وهنا جاء سؤال هؤلاء عن هويّة الإنفاق، فنزلت الآية الكريمة تحدّد لهم ما الذي يمكنهم أن ينفقوه، وتضع لهم الضوابط في ذلك فقالت: ﴿قُلْ الْعَفْوَ﴾. والعفو فيه آراء عدّة للمفسرين نجملها بالآتي:

الأوّل: أنه الأفضل

ومعنى هذا أن يكون الإنفاق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1]، فالآية الكريمة تحثّ أن يكون الإنفاق من أفضل ما يمتلك المرء وما يحبّه هو لا ممّا تعافه نفسه، وإذا أراد أن يكسو إنساناً فعليه أن يكسوه من أفضل ثيابه وبإرادته، توفّي أحد الأنصار وكان قد أوصى أن يكون وصيّه على توزيع تركته وصدقاته رسول الله ﷺ، وذكر في وصيّته أن عنده حظيرة فيها الكثير من التمر، وطلب أن يتولّى النبي ﷺ توزيع ما فيها بعد موته، فلما جاء النبي ﷺ إلى حظيرة التمر، وأتمّ توزيع تمرها بقيت

---

(١) آل عمران: ٩٢.

حشفة في زاوية من الزوايا، فتناولها ﷺ وقال: **«والله لو تصدّق بهذه في حياته لكانت أفضل له من جميع ما تصدّقنا به عنه بعد مماته»**.

ذلك أن إنفاق الإنسان بنفسه حال حياته يكون عن إرادة منه، أي أنه إنفاق طواعية، كما أنه إنفاق لما يحبّ، أمّا بعد موته فهو ليس كذلك؛ لأنه قد تركه ولا سبيل له عليه، ولأنه لا يتمكّن حينئذ من الانتفاع لنفسه به؛ فلا هو إنفاق عن رغبة، ولا هو إنفاق عن طواعية. ولهذا كان الإنفاق حال الحياة أفضل منه بعدها وإن كان أقلّ. وخير الإنفاق ما كان عن طيب قلب ومبادرة إنسانية.

وكذلك يجب على المنفق أن ينظر إلى من أنفق عليه على أنه كأهله أو كأُمّه وأبيه، لا أن يتصدّق أو ينفق عليهم بالرديء لأنهم ليسوا أهله، فالمسلمون أُسرة واحدة وعائلة واحدة، جاء أحد الصحابة بزكاة ماله تمراً إلى رسول الله ﷺ، وكان تمراً رديئاً، وأغلبه حشف، فأخذ ﷺ بيده حفنة من ذلك التمر والتفت إلى المسلمين فقال ﷺ: **«هل يقدّم هذا الرجل مثل هذا التمر لأمّه وأبيه لو أرادا أن يأكلا؟»**. قالوا: لا يا رسول الله. فقال ﷺ: **«فلم يقدّم هذا للمسلمين؟ أوليس المسلم أخا المسلم؟»**[1].

فالمسلم كما ينظر إلى أبويه وأهله ويعطف عليهما، فعليه أن ينظر إلى المسلمين كذلك ويعطف عليهم، فهو يجب أن يعرف أن ما ينفقه إنما هو مال الله وعطاؤه، وأن الله لن يناله من ذلك شيء: **﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾**[2]، بل إنه سيعود على المنفق نفسه أولاً، وعلى المجتمع ثانياً؛ لأن الله تعالى إنما أمر بهذه الأشياء إحياء للمجتمع، وإصلاحاً لأمر الناس وشؤونهم. ولذا

---

(١) قريب منه في جامع البيان، المجلد ٢، ج٣: ١١٧، الدر المنثور ١: ٣٤٦، ولم ينسباه إلى الرسول ﷺ.

(٢) الحج: ٣٧.

فإن على الإنسان أن يفترض أن المجتمع هو أبوه وأمّه، وهو بهذا لن يقبل منه إلّا الطيب، وفي الحديث عنه ﷺ: **«إن الله طيّب، ولا يقبل إلّا الطيّب»** (١).

اشتهى الإمام السجاد عليه السلام عنباً، فلم تحصل عليه جارية له إلّا بعد أسبوع فاشترته له، وقدّمته له وقت إفطاره، ووضعته بين يديه، فجاء سائل فدفعه إليه، فدسّت جاريته إلى السائل فاشترته منه، ثم أتت به فوضعته بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أُم الولد مثل ذلك، حتى فعل ثلاث مرات، فلما كان في الرابعة جاءته به وقالت له: تناوله؛ فإنك تشتهيه من مدّة ثم تؤثر به على نفسك. فتناوله منها وأكله (٢).

وهكذا كان دأبه ودأب آبائه وأبنائه عليهم السلام، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام حينما يريد أن يشتري ثوباً لا يشتري من بزّاز يعرفه؛ كيلا يخفّض له من قيمة الثوب، فيذهب إلى بزّاز لا يعرفه، أتى عليه السلام سوق الكرابيس مرّة، فإذا هو برجل فقال: **«يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟»**. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك.

فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام أنه عرفه مضى عنه، حتى انتهى إلى غلام، فاشترى منه ثوباً بثلاثة دراهم، وآخر بدرهمين، ثم قال لقنبر: **«يا قنبر، خذ الذي بثلاثة دراهم»**.

فقال له: يا سيّدي أنت أولى به مني؛ تصعد المنبر وتخطب الناس. فقال عليه السلام: **«وأنت شاب ولك شره الشباب، وأنا أستحي من ربي أن أتفضّل عليك؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألبسوهم ممّا تلبسون، وأطعموهم ممّا تأكلون»** (٣).

---

(١) عوالي اللآلي ٢: ٧٠ / ١٨١، مسند أحمد ٢: ٣٢٨، سنن الدارمي ٢: ٣٠٠، صحيح مسلم ٣: ٨٥.

(٢) بحار الأنوار ٦٤: ٧٢ / ٥٥.

(٣) انظر روضة الواعظين: ١٠٧، وقد مرّ مثله في ص ٧٨ ـ ٧٩ من هذا المجلّد.

تكســـو وأنتَ قـــطيفةٌ مَـــرقوعةٌ ... وتَـــموتُ مـــن جـــوعٍ وأنت بَـطينُ
وتـــرقّ حـــتى قـيل فـيك دُعـابة ... وتـــفحّ حـــتى يـــفزعَ التـــنّينُ
خـــلقٌ أقـــلّ نـــعوتِه وصـــفاتِه ... أن الجـــلالَ بـــمثله مـــقرونُ
آلاؤك البـــيضاءُ طـــوّقتِ الدُّنَـــا ... فَـــلها عـــلىٰ ذِمـــمِ الأنَـــامِ دُيـــونُ(١)

والإمام ﵇ بهذا إنما يجسّد معنى من المعاني القرآنـيّة ومـفهوماً ضـخماً مـن مفاهيمه السامية.

الثاني: أنه الاعتدال فيه

وبناء على هذا الرأي فإنّ الإنفاق يجب أن يكـون خـاضعاً لقـاعدة الوسـط الذهبي؛ فلا إفراط ولا تفريط، أي التوسّط في الإنفاق من حيث الكميّة، فلا يكون من القلّة بحيث إنه لا يسمن ولا يغني من جوع كما فعل المنصور ـ المشهور بأنه كان شديد البخل جدّاً ـ مع مسلم الحادي، وهو رجل كان يقف على طريق الحاجّ ليمدح ذوي السلطان واليسار والجاه، فيفوز منهم بالعطايا والجوائز، وكان على طريقهم يوماً، فرأى موكباً ضخماً، فسأل عنه، فقيل: هذا موكب المنصور، فذهب إليه وحدا له بقول الشاعر:

أغـــرّ بـــين الحـــاجبين نـــورُهُ ... يـــزينه حـــياؤه وخـــيرُهُ
ومسكـــــه يشـــوبه كـــافورُهُ ... إذا تـــغدّى رفـــعت ســـتورُهُ

فطرب المنصور حتى ضرب برجله المحمل، ثم قال: يا ربيع، أعـطِه نـصف درهم. فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين! واللّه، لقد حدوت لهشام فأمر

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

لي بثلاثين ألف درهم. فقال المنصور: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم؟ يا ربيع، وكّل به من يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأُروّضه حتى وافق بعد أن شرط له مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة، أي مجاناً [1].

وهذه المسألة ليست غريبة من المنصور، فهو مشهور بالبخل، وعطاؤه لم يكن يتجاوز هذا الحدّ، يسأل فيعطي الدرهم والأقل منه [2]. في حين أن البعض ممّن يسري الجود في دمه يُسأل فيعطي من إهابه لمن سأله، ويمنح جميع ما عنده. قيل لقيس بن سعد ﷺ: لقد أسرفت في الخير! فقال: لا إسراف في الخير أبداً، فإن كان إسراف فهو في غير الخير. ذلك أن الإسراف لا يكون إلّا في الأُمور المحرّمة، أمّا ما كان فيه رضا اللّه تعالى فليس فيه من إسراف أبداً.

نوع الحكم في الآية الكريمة

والحكم في هذه الآية الكريمة حكم تنزيهي، أي أنها لا تنطوي على حكم شرعي ملزم بهذا، لكن الأفضل أن يفعل الإنسان ذلك حينما ينفق شيئاً من ماله، فينفق بشكل معقول لا يضرّ بنفسه أو بعائلته، ولا يصل حدّ الإجحاف. فالإنفاق المعتدل هو الإنفاق الذي ليس فيه بخل وإضرار بالمحتاج، وليس فيه إسراف وإضرار بالمنفق نفسه، بل يعتبر النمط الأوسط [3].

---

(١) المستطرف من كلّ فن مستظرف ١: ٣٧٤.

(٢) ولذا سمي بالدوانيقي. والدانق: سدس الدرهم. الصحاح ٤: ١٤٧٧ ـ دنق.

(٣) قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

الثالث: أنه الفائض عن الحاجة

إن هذه الآية الكريمة نزلت في بدء تنظيم الدولة الإسلاميّة اقتصادياً، أي أن النظام الاقتصادي الإسلامي لم تتبيّن ملامحه بعد. فلما نزلت الآية بعث النبي الأكرم خلف المسلمين وسألهم عن دخلهم ومقدار مصرفهم، ثم أمرهم بأن يعطوا الفائض عن دخلهم للفقراء والمحتاجين.

لقد لجأ رسول الله أوّل الإمر إلى سنّ هذا القانون لينظّم المجتمع، ويخلق حالة من التوازن داخله، ويعيد الثقة للمحتاجين فيه بهذا النظام الجديد وأبنائه وأتباعه، بمعنى أنها كانت مرحلة استثنائية.

فالنبي عندما جاء بهذه الرسالة الخالدة وجد أناساً لم يكونوا دون ما وصفتهم به الزهراء، فقد كان وصفها مطابقاً لحالهم دون مبالغة أو إطناب، تقول في ذلك: **«وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرق**[1] **فأنقذكم الله بأبي محمد منها»**[2]. فهؤلاء كانوا يأخذون دم الحلم ويعالجون به الوتر ثم يأكلونه، ويسمونه «العلهز»[3]؛ إذ لا يجدون ما يأكلون.

ولو اعتُرض على هذا بأن الأوروبيّين يأكلون كلّ أنواع الحيوانات، لقلنا بأن هؤلاء يأكلونها ترفاً لا جوعاً، أما أُولئك فكانوا يأكلون هذا من جوعهم وفقرهم

☚ مَحْسُوراً﴾ الإسراء: ٢٩.

(١) الطرْق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق.

(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٥، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ آل عمران: ١٠٣.

(٣) العين ٢: ٢٧٨ ـ علهز، والعلهز نفسه هو القراد الكبار، أو الحلم.

وليس من ترفهم. وقد سئل أحد أبناء الجزيرة آنذاك: ماذا تأكلون؟ قال: نأكل كلّ ما دبّ ودرج إلّا أم حُبين[١]. وأم حبين: دويبة على هيئة الحرباء عريضة البطن جدّاً[٢].

فهؤلاء كانوا بهذا اللون من الفقر المدقع، وكان إلى جانب هؤلاء المعوزين جماعة يبيتون وموائدهم ملأى بأنواع الأطعمة والأشربة.

ولذا فإن وظيفة الإسلام كانت إعادة التوازن إلى هذا المجتمع الذي أنهكه الفقر والجوع والألم، فعالجه بعدّة حلول منها أنه فرض أخذ الفائض عن حاجات الأغنياء وأعاد توزيعه على الفقراء، ثم فرض الزكاة التي نسخت هذه الآية[٣]، ثم توالت قواعد وأُسس التنظيمات الاقتصادية.

الإنفاق في غير المال

فهذه هي الآراء المطروحة في تفسير ﴿الْعَفْوَ﴾ الوارد في الآية الكريمة. وينبغي التنويه هنا إلى أن اللّه تعالى لم يفرض الإنفاق في الأموال فقط، بل إنه تعالى فرض الإنفاق في أُمور كثيرة؛ ففرض الإنفاق في العلم كذلك، وجعل إنفاقه وزكاته تعليمه لمن يطلبه، وكذلك فرض الإنفاق على العقل وجعل ذلك حسن المشورة، وفرض الإنفاق في الجاه وجعله قضاء حوائج الناس[٤]، وفرض على

---

(١) أدب الكاتب ١: ١٦٥، وانظر ثمار القلوب ١: ٢٥٨.

(٢) العين ٣: ٢٥٠ ـ حبين.

(٣) انظر: التفسير الأصفى ١: ١٠٤ ـ ١٠٥، تفسير السمرقندي ١: ١٦٨، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٦١، الديباج على مسلم ٣: ١١٦.

(٤) وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كفارة عمل السلطان قضاء حوائج الإخوان». الفقيه ٣: ١٧٦/٣٦٦٦.

الدم نفقة، وجعل ذلك إجابة داعي الجهاد في الحقّ دفاعاً عن الدين والعقيدة والمقدّسات والوطن والكرامة.

فالدم يدّخر للدفاع من مثل هذه الأُمور، وهذا ما فعله الإمام الحسين﴿ع﴾ حيث إنه بذل دمه ودماء أهل بيته وأصحابه في سبيل العقيدة والمبدأ والحريّة، وكم حاولت الأقلام عزله عن الساحة، لكنها لم تستطع؛ إذ كان أصحابها يظنّون أن قضيّة الإمام الحسين﴿ع﴾ هي قضيّة عابرة، وثورة طارئة شأنها شأن أي حركة سطحية ما تلبث أن تقوم حتى تخمد جذوتها وتنطفئ شرارتها ويموت ذكرها، ثم بعد ذلك تصبح في خبر كان، جاء عبد اللّه بن عباس﴿رض﴾ إلى الإمام الحسين﴿ع﴾ حينما عزم على الخروج إلى كربلاء وقال له: إلى أين يابن رسول اللّه؟ قال﴿ع﴾: **«جدّي رسول اللّه﴿ص﴾ أمرني بأمر، وأنا ماضٍ لأجله»**.

وهنا يروي المؤرّخون حول منشأ هذا الأمر أنه﴿ع﴾ رأى جده﴿ص﴾ في المنام يأمره بالقتال والجهاد، والحال خلاف هذا؛ ذلك أن الإمام الحسين﴿ع﴾ لم يكن بالذي يتعبّد بالرؤيا في مثل هذه الأُمور الضخمة التي سيترتّب عليها الدم. فالصحيح أنه﴿ع﴾ قد أمره رسول اللّه﴿ص﴾ بالقتال والجهاد حال حياته في مثل هذه الحالات، كما أمر أباه﴿ع﴾ كذلك [1]. ولذا فإنه﴿ع﴾ قاتل بناءً على هذا الأمر الذي أبلغه إياه رسول اللّه حال حياته﴿ص﴾.

وهو﴿ع﴾ متعيّن بهذا الأمر؛ باعتباره أبرز رموز الأمّة، فهو﴿ع﴾ يرى أن من الواجب عليه أن يقف بوجه الباطل وأهله، ويرى لزاماً عليه نصرة الحقّ وأهله؛

---

(١) قال أمير المؤمنين﴿ع﴾: «أمرني رسول اللّه﴿ص﴾ بأن أُقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين» المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلىٰ ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

ولذا فإنه عليه السلام أخبر ابن عباس رضي الله عنه بأن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أمره بهذا الأمر، وأنه ماضٍ له. كما أن عبد اللّه بن جعفر دخل عليه في جماعة، فسألوه عن سبب خروجه، فقال لهم مثل ما قال لابن عباس رضي الله عنه، فقالوا له: لكن إذا كنت خارجاً للقتال فما ذنب هؤلاء النساء والأطفال، تحملهم معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ فقال عليه السلام لهم: **«قد قال لي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ اللّه تعالى قد شاء أن يراهن سبايا على أقتاب المطايا»**. فعرفوا منه إصراره وعزمه على المضي لما خرج إليه، وعدم تراجعه، فسلّموا عليه ومضوا[1].

دور زينب عليها السلام بعد معركة الطفّ

إن زينب عليها السلام في واقع الأمر لم تكن سبيّة، وإنما كانت لسان الحركة المعبّر، والجهاز الإعلامي الذي أزال الغبار الذي حاولت السلطة آنذاك أن تطمس به حقيقة هذه الحركة الإلهيّة، فأزاحت الغبار عن أهدافها وأعلنتها للناس بوجهها الحقيقي المشرق. لقد وقفت بعد مصرع الحسين عليه السلام في كلّ ميدان وأمام كلّ سلطان تشرح حقيقة الثورة وحقيقة ما جرى.. حقيقة النظام الحاكم وتسلّطه وتعسّفه.. فكانت اللسان الذي فضح حقيقتهم وعرّاهم أمام أنفسهم وأمام الناس، فعزّ عليهم أن يتركوه دون أن يشبعوه ذلاًّ وألماً، ودون أن يذيقوه نار حقدهم إيغالاً في أذى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته.

ولذا التفت إليها يزيد وهي عقيلة الطالبيّين وابنة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وابنة أمير المؤمنين عليه السلام، وتوجّه إليه بالسبّ والتقريع، فكان أن ألجأها إلى أن تقف وسط

---

(١) انظر: مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المختصر: ٨٧، ٣١٧، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٤، ينابيع المودّة ٣: ٦٠.

المجلس وتُخرس الألسن بخطبتها الثائرة التي قالت من ضمن ما قالت فيها: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق بين يديك كما تساق الأُسارى أن بنا على اللّه هواناً، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور لك متّسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالىٰ: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[(١)]؟

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول اللّه ﷺ سبايا قد هتكت ستورهن...»[(٢)].

فبهذا اللون من الأداء والثوريّة وقفت وقفة شموخ وتحدٍّ، تسطّر كلماتها معاني الثورة وأهدافها، ثم خرجت هند زوجة يزيد، وكانت قد نشأت وربيت في بيت أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك اتّصل أبوها عبد اللّه بن عامر بالبلاط، فنشأت له علاقة بالأُمويّين، فلمّا خطبت ابنته ليزيد زوّجه منها، فلمّا سمعت صوت السيّدة زينب عليها السلام ألفته، فسألت إحدى جواريها عنها وقالت لها: ويحك، إني أسمع في المجلس صوتاً شبيهاً بصوت سيدي علي بن أبي طالب عليه السلام. فقالت لها جاريتها: وأين نحن من علي بن أبي طالب؟ لقد قتل قبل عشرين سنة. قالت: إن لم يكن الصوت له فهو صوت قريب له. ويحك اذهبي وانظري من يكون.

فذهبت الجارية ثم رجعت بعد حين وقالت لها: مولاتي إنها زينب، فقالت لها: ويحك، اذهبي واسألي أي زينب هي، فإن اسم زينب كثير تداوله. فذهبت

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

الجارية ثم عادت بعد ذلك وهي تقول: سيدتي يقال: إنها زينب بنت علي بن أبي طالب. فلطمت هند وجهها وقالت: فضّ اللّه فاك وأجهد بلاك، ما الذي جاء بزينب ابنة علي إلى هذا المكان؟ وأين منها الحماة من آل هاشم؟

ثم بعد أن تأكّدت من أنها زينب بعينها أماطت خمارها، وأزاحت الستار، ودخلت المجلس، فالتفت إليها يزيد وقال لها: هند تبرزين بين الرجال؟ أما تستحين من هذا؟ فقالت له: ويحك أنا استحي وهذه عقيلة آل عبد المطّلب في مجلسك؟ فلما سمعت زينب ذلك اختنقت بعبرتها:

فأين نزار في متون خيولها ... ترى بالسبا قد آلم السوط خافقي

أُقلّب طرفي لا حميّ ولا حمى ... سوى هفوات السوط من فوق عاتقي

* * *

فقل لسرايا شيبة الحمد مالكم ... قعدتم وقد ساروا بنسوتكم حسرى

وأعظمُ ما يشجي الغيور دخولها ... على مجلس ما بارح اللهوَ والخمرا

يعارضها فيه الدعيّ مسبّة ... ويصرف عنها وجهه معرضاً كبرا[1]

---

(١) المجالس الفاخرة في مصائب العترة الطاهرة: ٣٢٦ – ٣٢٧، وفيات الأيمّة: ١٦٦.

﴿١٧٥﴾

القرآن والإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[(١)].

مباحث الآية الكريمة

إن هذه الآية الكريمة تصف القرآن بوصف سيكون موضوع بحثنا هذه الليلة المباركة إن شاء الله تعالى، لكن قبل الشروع في هذا البحث ـ وصف القرآن الكريم ـ لابدّ من ذكر مباحث ثلاثة حول الحروف المقطّعة الموجودة في أوائل السور الشريفة كمقدمة لما يليها من مباحث، فنقول:

المبحث الأوّل: المدلول الصوتي للحروف المقطّعة في القرآن

إن هذه الحروف هي من قبيل ﴿حمٓ﴾[(٢)]، ﴿الٓمٓ﴾[(٣)]، ﴿عٓسٓقٓ﴾[(٤)] إلى آخره، وسيكون البحث في هذا الموضوع على الحروف كافّة؛ سواءً ما جاء منها على شكل فردي كآية المقام، و﴿صٓ﴾، أو على شكل غير فردي، أي جاء على أكثر من حرف واحد كما مرّ.

---

(١) ق: ١.
(٢) الآيات الأُول من سور: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.
(٣) الآيات الأُول من سور: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.
(٤) الشورى: ٢.

أقسام العبادات

ولقد تناولت هذه الموضوع فيما سبق أكثر من مرّة، وتناولت فيه آراء المفسّرين في المسألة، لكن هنالك أشياء لابدّ من أن أُلفت النظر إليها لأهمّيتها، وهي أننا نعرف أن العبادات تكون على ثلاثة أقسام هي: العبادات اللسانيّة، والعبادات الجارحيّة والعبادات القلبيّة، وهي المعتقدات:

الأولى: العبادات القلبيّة (المعتقدات)

إن العبادات القلبيّة تكون على نحوين وفق اللحاظ المنظور فيها:

النحو الأول: العقائد التي تخضع لمسؤوليّة العقل

وهذه العقائد هي التي تعبّدنا اللّه بها عن طريق اعتقادنا بها في قلوبنا، فاللّه تعبّدنا بها من دون أن نفهمها، أو من دون أن نتلفّظ بها، بل هي ما وقر في الجنان والقلب أو انعقد عليها.

ومن هذا: الاعتقاد بوقوع الحشر والنشر والحساب والعقاب والجزاء بعد الموت والجنّة والنار وما إلى ذلك. والذي يُفترض أن هذه العقائد يجب ألّا يتلبّس بها الإنسان تلبّساً عشوائياً غير واعٍ، بل إن الذي ينبغي عليه هو أن يكون قد اعتنقها واعتقدها عن فهم وعلم ومعرفة ومنهج علمي صحيح؛ كي يستطيع أن يفهم فلسفة الحساب. إننا مثلاً نعتقد بمسألة هي أن الشخص الذي يستطيع أن يضع شيئاً أو يخلق شيئاً بإرادته لهو قادر أن يصنعه ثانية.

وحتى لا نبتعد عن الموضوع نقول: إن اللّه جلّ وعلا حينما خلق الإنسان أول الأمر من التراب، فهل من المعقول أنه تعالى لا يستطيع أن يعيده إلى الحياة مرّة ثانية بعد أن أنشأه النشأة الأُولى؟ طبعاً هو تعالى يستطيع ذلك، وأمر عدم

الاستطاعة على هذا النحو مستحيل عليه تعالى؛ لأنه ما دام قد خلق الإنسان وأبدعه من العدم في المرّة الأُولى، فهو أقدر على أن يعيده ثانية؛ لأنه حينئذ سوف لن يخلقه من عدم وإنما سيخلقه من أصل موجود فيه وهو الجسم الذي بلي وبقي في الأرض.

فاللّه جلّ جلاله قادر على أن يخلق ما خلق أولاً، وليس في هذا تعجّب أو استنكار؛ لأن اللّه جلّ وعلا قادر على كلّ شيء.

وهنا أقول: إننا إنما آمنّا واعتقدنا بهذه العقيدة لأننا جئنا لها بقياس منطقي صحيح. ثم إن هناك أشياء قد أمرنا اللّه تعالى بالاعتقاد بها والتصديق بها، وهي تكمن في صلب العقيدة القلبيّة.

وهذا معنى متعقَّل، بمعنى أنه يخضع لمسؤوليّة العقل، كوحدانية اللّه جلّ وعلا فنحن نعتقد أنه تعالى واحد. وهذا يسمى معنى متعقّلاً، فلو أن شخصاً ادّعى تعدّد الآلهة فإن العقل حينئذ يحكم بعدم صحّة هذا؛ لأنه سيحكم بتعارض الإرادات حسب عدد الآلهة؛ وبالنتيجة فإنه سيحصل تناقض في عملية الخلق، وسيحصل تضارب في واقع الإرادة[1].

إذن لابدّ من عقيدة التوحيد، وهي من الأُمور القلبيّة التابعة للقسم الأول.

النحو الثاني: العقائد التي لا يمكن تعقلها

ومن هذا اعتقادنا بوجود الصراط وحقيقته، وأن الخلائق تمرّ عليه يوم القيامة؛ فنحن نعتقد به على أنه حقيقة واقعة لا يمكن الخوض فيها ولا في وجودها، ولا

---

(١) قال جلّ من قائل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّـهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ٢٢، وهو ما يسمى الدليل العقلي القرآني.

يصحّ تكذيبها، لكننا من جهة أُخرى نعتقد أيضاً بأن هذا الصراط هو أحدّ من السيف وأدقّ من الشعرة، كما ورد في الروايات [١]. فما هو هذا الذي يكون أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف، ومع ذلك فإن الخلق يتدافعون للمرور فوقه يوم القيامة؟ إن هذا ممّا لا يمكن أن نتعقّله أو نتصوّره، لكننا ملزمون بالاعتقاد به؛ لأنه ورد كذلك في الروايات الصحيحة الصريحة التي تأخذ برقابنا للاعتقاد به.

نعم إننا مطالبون بالاعتقاد بوجوده بهذا المقدار، أما معناه، وكيف يتمّ المرور عليه وهو بهذه الصفة، فهذا ما ليس موضحّاً في لسان الروايات . ومثال ذلك أيضاً اعتقادنا بوجود ميزان توزن به الحسنات والسيئات، فإننا يمكن أن نتعقل ـ وهذا أمر طبيعي ـ وجود ميزان مادّي توضع فيه الكتل المحسوسة لوزنها، لكن أن يكون هناك ميزان مادّي توضع فيه أشياء معنويّة كالحسنات والسيئات فإن هذا مما هو داخل في حيّز غير المتعقّل؛ فغير المحسوس لا يمكن أن يوضع ويوزن في ميزان هو أساساً صُنع لأجل الأشياء المحسوسة.

الثاني: العبادات الجارحيّة

والعبادات الجارحيّة كذلك تكون على نحوين:

النحو الأول: العبادات المتعقّلة

وهي العبادات المتعقلة التي تكون ضمن إطار حركة الجوارح وأفعالها، فنحن نتعقّل معنى الصلاة، وأنها يجب أن تشتمل على جوانب تدخل في عنصر صحّتها، وكذلك نتعقّل أنها أشياء تشتمل على طهارة روحيّة، فالإنسان حينما يجلس في

---

(١) انظر: الأمالي (الصدوق): ٢٤٢، تصحيح اعتقادات الإماميّة: ١٠٨، ١٠٩، صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٢٠، فتح الباري ١١: ٣٩٥.

محرابه يستلهم الخير من اللّه عزّ وجل، ويطلب منه أن يسلكه على الصراط المستقيم. وهذا بحدّ ذاته أمر متعقّل، ومثله الصيام الذي نعرف أنه وسيلة من الوسائل التي تدفعنا إلى التحكّم بإراداتنا وغرائزنا، وتجعلنا نحس بالاندماج مع المسلمين، وضرورة التوحّد معهم حينما ندرك أنهم جميعهم يتوجّهون عند دخول وقت صلاة المغرب إلى أداء هذه الفريضة ثم لتناول طعام الإفطار امتثالاً لأمر اللّه جلّ وعلا [1].

فهذا ممّا يُمكن تعقّله أيضاً والتعرّف على أسراره وفلسفته؛ لأن هذه الفلسفة وهذه الأسرار أُمور قابلة لأن تُتعقّل.

النحو الثاني: العبادات غير المتعقّلة

وهناك عبادات جارحيّة غير متعقَّلة، وهذا النمط من العبادات كلّفنا اللّه بها وبأدائها مع أننا لا يمكن أن ندخلها في إطار العقل، وذلك مثل بعض الأفعال المختصّة بالحج كرمي سبع حصيّات على شاخص من الحجر. فالعلّة الحقيقيّة والهدف الذي يكمن وراء هذه الحالة هو هدف غير متعقّل، ولا يمكن أن نصل إليه بتوسّط عقولنا فقط، مع إنها عبادة جارحية. فأهدافها مجهولة، وعلّتها غيرُ معلومة بالنسبة إلينا، وتبقى أسرارها طيّ الكتمان.

الثالث: العبادات اللسانيّة

والعبادات اللسانية وهي كذلك تكون على نحوين:

النحو الأول: العبادات المتعقّلة

ومثال ذلك قراءة القرآن والأدعية والأذكار، وما إلى ذلك. فهذه الأُمور هي

---

(١) قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ البقرة: ١٨٧.

عبادات تؤدّىٰ باللسان، ونحن نفهم ونعقل الغرض منها، كما سيمر علينا إن شاء اللّه تعالى من خلال البحث.

النحو الثاني: العبادات غير المتعقَّلة

وذلك مثل هذه الحروف التي أُفتتحت بها بعض السور، فنحن نقرؤها دون أن نفهم المراد الحقيقي منها. إننا مطالبون بأن نعتقد بها، ومطالبون بأن نعتقد بأن اللّه تعالى تعبّدنا بقراءتها، لكن الغرض الحقيقي والمغزى الواقعي لقراءة مثل هذه الكلمات أو الحروف المقطّعة يبقى سرّاً مستغلقاً على عقولنا وأفهامنا. وحتى المعاني التي يذكرها البعض من المفسّرين حول هذه الحروف المقطّعة هي معانٍ تبقى تقريبيّة وليست حقيقيّة أو واقعيّة.

وقد يسأل سائل فيقول: ما هو السرّ في وجود مثل هذه العبادات غير المتعقَّلة؛ سواءً كانت قلبيّة أو جارحيّة أو لسانيّة، وهي عبادات لا يمكن للإنسان أن يتعقّلها؟

وجواب مثل هذا الاشكال يمكن أن يقال فيه: إن القرآن الكريم بهذه التكليفات غير المتعقَّلة يريد أن يضع الإنسان في إطاره الحقيقي، وأن يبيّن له حجمه الواقعي ومحدوديّته، بمعنى أنه يريد أن يقول لنا: إن العقل البشري عقل محدود قاصر عن أن يتصوّر كلّ شيء أو يفهم كلّ شيء، وعليه أن يعتقد بأنه ذو قابلية محدودة في فهم الأشياء وبيان حقيقتها، وأن هذا الأمر موكول إلى اللّه جلّ وعلا.

وهذا هو الواقع فعلاً؛ ذلك أن الإنسان يجب عليه أن يضع نفسه في موضعها الحقيقي[1] فهذا العقل مهما كان مقدار مداركه وقابليّاته على الربط والتحليل

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «رحم اللّه امرأ عرف قدره، ولم يتعدَّ طوره». عيون الحكم

والفهم يبقى قياساً إلى العقل المطلق قاصراً عن كلّ شيء؛ لأنه عقل إنسان، والإنسان بحدّ ذاته محدود، وليس هنالك من موجود مطلق الإدراك والمعرفة سوى اللّه جلّ وعلا.

إذن فإن اللّه تعالى حينما يتعبّد الإنسان بشيء ويأمره به فعليه أن يمتثل لهذا الأمر، وأن يوجد هذا المعنى الخارجي، وإلّا عدّ عاصياً، بغض النظر عن كونه يتعقّل هذه التكليفات والأوامر أو لا يتعقّلها. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن اللّه تعالى عبر هذا الكتاب الكريم يريد أن يربّي الإنسان على الطاعة المطلقة والانقياد الكامل إلى الإرداة الإلهية، والانصياع التامّ إلى أوامر السماء؛ لما فيها من مصلحة له.

إذن فالمسألة هي مسألة تربويّة يُريد القرآن الكريم هنا أن نتبناها وأن نذعن للّه جلّ وعلا بها وأن يعوّدنا عليها، فنعتقد اعتقاداً مطلقاً وكاملاً أن عقولنا قاصرة عن فهم كثير من الأشياء، وإدراك كثير من الجزئيّات والظواهر التي نراها أو نسمع بها، وأن نعتقد أن من يظن بأن عقله بمفرده قادر على أن يصل إلى كلّ شيء، ويستطيع أن يوصله هو بدوره إليه لهو إنسان مخطئ، ولابدّ أن يأتي عليه يوم يكتشف فيه هذا الخطأ.

إن الكثير من الناس كانوا يعتقدون أن العقل سوف يحلّ جميع مشاكلهم الحياتيّة على أصعدتها ومستوياتها كافّة، لكن الواقع العملي أثبت أن هذا وهم، وباطل، وأنه لا يعدو كونه اعتقاداً طوباويّاً؛ لأنه اعتقاد يستلزم الاستغناء عن الدين، ويتضمّن إمكانيّة التخلّي عنه وترك الأُمور كلّها إلى العقل ليضع لها حلولها

☚ والمواعظ: ٢٦١، شرح كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ٣٠ / ٣٥.

المناسبة. لكن الواقع أن العقل لم يستطع أن يوظّف العلم توظيفاً كاملاً، وما كان يظن أنها حلول للمشاكل التي يمرّ بها الإنسان أصبحت هي بنفسها ـ الحلول ـ مشاكل جديدة عجز العقل والعلم عن أن يوجد الحلّ المناسب لها.

ومن ذلك أنهم وضعوا أنظمة وقوانين لكلّ المشاكل التي يمرّ بها الإنسان، لكن بمرور الوقت تحوّلت هذه الأنظمة نفسها إلى مشاكل أصبح الإنسان يعاني منها. وفجأة يكشف الإنسان أن العقل الإنساني طفل لا قابلية له على تبيّن مصلحته، وأنه بأمسّ الحاجة إلى أن توجّهه وتسدده قوّة خارجية أجنبيّة عنه، وليس من موجّه أو مسدّد له إلّا الدين السماوي.

إذن فإن اللّه تعالى إنما صنّف لنا هذه العبادات الثلاث على أساس هذين القسمين ـ المتعقَّل وغير المتعقَّل ـ فإنه إنما يُريد أن يربي عقولنا ويجعلها تعتاد هذه النظريّة، وهي أن الإنسان يجب عليه أن يذعن إذعاناً كاملاً للّه جلّ وعلا، وأن يطيع إرادة السماء طاعة تامّة، وأن يكون على مستوى ما تعبّده به الشرع القويم. ولهذا فإنه يجب عليه أن يشعر بأن لعقله حدوداً، وأن هذه الحدود يستطيع العقل أن يتحرّك ضمن إطارها، ولا يمكن له أن يتحرّك خارج هذا الإطار؛ لأنه حينئذ يدخل في مجال غير مجاله، ويجول في ميدان غير ميدانه وفي مضمار غير مضماره، ويطأ أرضاً ليست موطئه.

والعقل بما أنه قوّة فلابد أن يكون له حدّ، وهكذا الأمر بالنسبة إلى جميع حواسّه؛ فالعين لها القدرة على أن تتحرّك ضمن إطارها، والإذن لها ذلك الحد أيضاً، وبقيّة الجوارح الأُخرى لها ذلك الحدّ الذي تتحرّك ضمن إطاره.

المبحث الثاني: سبب استعمال الحروف المقطّعة

إن القرآن الكريم يتكوّن من مجموعة من الكلمات هي بدورها عبارة عن

مجموعة من الحروف، وبهذا فإننا نعتبر الحرف مادّة للكلمة وأصلاً لها؛ لأن هذا النسيج المتماسك من الحروف، والذي تلبسه الكلمات هو الجزء الأهم في بناء الكلمة نفسها وبالتالي بناء اللغة ككلّ. وبهذا فإننا نعدّ الحرف جزءاً أساسيّاً فيها، ولعلّ بهذا اللحاظ نجد أن القرآن حينما يريد أن يقسم بلفظة ﴿وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾[1]، فإنه إنما يقسم بلفظة يذهب ذهن الإنسان إلى معناها الحرفي، فيتبادر إلى ذهنه أن كلمة ﴿الزَّيْتُونِ﴾ هي النبات الذي يؤكل ويستخرج منه الزيت، وأن كلمة ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ معناها الجبل الذي حدثت عليه المناجاة بين النبي موسى عليه السلام وربّه جلّ وعلا.

فالقرآن عندما يقسم بهذه الأشياء فإن الذهن ينصرف إلى معناها الموضوع لها، لكن إذا أقسم بالحرف فإن الذهن حينئذ يتوقّف عن الانصراف إلى معنى محدّد، لأن هذا الحرف ليس له معنى قائم في نفسه. وبهذا نعرف أن القسم إنما وقع بهذه الحروف؛ لأن اللّه جلّ وعلا يريد أن يمجّد أصل القرآن الكريم؛ لأن هذه الحروف المادّيّة هي أصل القرآن، فأراد اللّه سبحانه وتعالى أن يكرّم القرآن بتكريمها، ويمجّده بتمجيدها، يجعلها موضع تكريمه وتعظيمه حيث إنه تعالى أقسم بها، وهو جلّ وعلا لا يقسم إلّا بعظيم وإن رأيناه نحن غير ذلك.

المبحث الثالث: الجنبة الإعجازيّة للحروف المقطّعة

إننا نرى أن الكلمات التي أقسم اللّه تعالى بها هي عبارة عن كلمات لها معانٍ مختلفة، وهذا ثابت ومعلوم، لكن الحروف التي أقسم اللّه بها كما جاء بها التنزيل، وكما نزل بها جبريل عليه السلام مثل ﴿الٓمٓ﴾، فإننا نلاحظ عليها أنها تأتي بعدها كلمة

---

(١) التين: ١ ـ ٢.

﴿الْقُرْآنِ﴾، أو كلمة ﴿تَنزِيلُ﴾[(١)]، أو كلمة ﴿الْكِتَابُ﴾. فمثلاً يقول تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[(٢)]، و﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، و﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾[(٣)]. وهذا يقودنا إلى قاعدة عامّة هي أن هذه الحروف المقطّعة إذا جاءت في أوائل السور فإنها دائماً تعقب بكلمة ﴿الْقُرْآنِ﴾، أو بكلمة لها معنى القرآن، أي مرادفة لها.

إن المقصود بهذا أنه خطاب للعرب، فكأن اللّه تعالى يقول لهم: إن القرآن الكريم نزل بلغتكم وبحروفكم التي تستخدمونها والتي تتكلّمون بها، وبهذا يكون أمراً معجزاً لهذا الكتاب؛ لأنكم تتكلّمون الحروف عينها، وتنطقون اللغة نفسها، لكنكم لا قدرة لكم على أن تأتوا بمثل هذا القرآن[(٤)]، ولا تستطيعون ذلك، بل ببعضه[(٥)]، أو بسورة منه[(٦)]، كما ورد في القرآن الكريم نفسه. فالقرآن الكريم إنما كان معجزاً لأنه جاء بهيئة أو تركيب أو أُسلوب خاصّ ميّزه عن غيره من الأساليب والتراكيب اللغوية التي كانت معروفة آنذاك؛ كونه كلام اللّه جلّ وعلا

---

(١) السجدة: ٢. (٢) ص: ١.

(٣) البقرة: ١ ـ ٢.

(٤) قال عزّ من قائل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء: ٨٨، وقال جلّ من قائل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء: ٨٨.

(٥) قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هود: ١٣.

(٦) قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ٢٣، وقال عزّ اسمه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يونس: ٣٨.

وكونه كلاماً عليه مسحة الربوبيّة، والإعجازُ بالنتيجة ربما يكون من هذا الجانب أو من هذه الجهة.

وهذا يمكن تشبيهه بكلمة أو خطبة أو نص أدبيّ يكتبه أديب، ثم نأتي بهذا النصّ الأدبي المكتوب ونضعه بجانب القرآن الكريم، وحينها سنرى أننا إنما نضع حصاة بجانب درّة أو ياقوتة. والسرّ في هذا طبعاً أن هذا كلام البشر وهذا كلام اللّه، وكلام اللّه لا شائبة ولا غبار على اعتقاد أنه أشرف الكلام وأفضله.

المبحث الرابع: دور الروايات الإسرائيليّة في تراثنا

بعد ذكر هذه المباحث الثلاثة كمقدمة للمباحث التالية نعود إلى الآية الكريمة فنقول: إننا في هذه الليلة التي يُظنّ أنها ليلة القدر بناءً على الروايات التي تقول: يطلب القدر في العشر الأواخر [١] أي من الليلة التاسعة عشرة إلى الليلة التاسعة والعشرين، وهي الليالي المفردات، ففي مثل هذه الليالي يطلب وجه اللّه جلّ وعلا، وتطلب رحمته بطلب هذه الليلة. ونحن إذ نكون في العشر الأواخر من هذا الشهر المبارك نحاول أن نجتهد ونتقرّب إلى اللّه سبحانه وتعالى؛ لأنه قريب من عبده، فإذا كان العبد يريد من اللّه أن يعود عليه بالرحمة، وأن يعود عليه بالعطف والمغفرة والتوبة، فإن عليه أن يعطي اللّه جلّ وعلا قليلاً من وقته.

إنا في هذه الليلة المباركة نحاول أن نترسّم ما أرادته السماء في هذه الآية الشريفة في نعت القرآن فهي تقول: ﴿قٓ﴾، ولمعرفة المقصود بالحرف ﴿قٓ﴾ لابدّ لنا من الرجوع إلى المعنى الأصلي لها، وعند ذلك سنجد أن المفسّرين

---

(١) كما في رواية عبد اللّه بن أنيس الأنصاري، المعروف بالجهني، وسيوردها المحاضرﷺ بعد صفحات.

ينقسمون إزاءه على رأيين. لكن قبل الخوض في هذا لابدّ من تمهيد حول الفكر الإسرائيلي ودوره في شلّ حركة التفسير والحديث عند المسلمين عن أن ينفتحا على أُفق الإسلام الرحب، وما إلى ذلك من محاولات تشويه لهما.

إن الآراء الإسرائيلية والروايات المختصّة بهذا العنوان هي آراء وروايات تسلّلت بحنكة وحذق إلى كتب التفسير عند المسلمين، وإلى كتب الحديث أيضاً. ومن أراد أن يتأكّد فلينظر إلى كتب التفسير مثل (تفسير الطبري)، وإلى كتب الحديث فإنه سيجد أنها مملوءة بالفكر الإسرائيلي، وهو الفكر الذي جاءنا من اليهود الذين أسلموا نفاقاً، أو أنهم ـ كما هو حال بعضهم ـ أسلموا إسلاماً حقيقيّاً لكنهم لم يستطيعوا أن ينزعوا أفكارهم السابقة، ويستبدلوها بالأفكار الإسلاميّة الجديدة. وبهذا فإنهم قاموا بنقل تلك الأفكار إلى روايات وآراء التفسير عند المسلمين.

إنهم بهذا يكونون قد لوّثوا الحضارة الإسلامية؛ لأنهم دسّوا فيها مثل هذه السموم. هذا بالنسبة لمن أسلم حقيقة لكنه لم يستطع أن ينزع أفكاره اليهوديّة، أمّا البعض الذين أسلموا نفاقاً فهؤلاء جاؤوا بهذه الأفكار عن عمد لكي يدسّوا في هذا الدين الجديد أفكارهم السوداء سعياً منهم وعملاً على نخره، ولمحاولة قتله عبر تشويه الآراء وتزوير الروايات الواردة في التفسير والأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم ﷺ.

فالقارئ حينما يتأمّل بعض هذه التفاسير يجد أنها متأثّرة تأثّراً واضحاً بيّناً بالفكر اليهودي. ولعلّ المشكلة الكبرى والمصيبة الطامّة أننا الآن حينما نقول: إن الرويات التي تأتي عن طريق فلان أو فلان هي رواية خرافيّة، وهي مطبوعة بطابع يهودي فإن من يسمعنا من الطرف الآخر لا يعتبره كلاماً صادراً عن واقع

ودراسة وتحرٍّ واستقراء، ولا تصوّره له نفسه على أنه صادر غيرة على الدين، وأننا بهذا نريد أن ننظّف الدين من هذه الأشياء الدخيلة عليه، والتي تحاول أن تمسخ هويته، ولا يحمل هذا الكلام على أنه محاولة للدفاع عن الدين بل إنه يبادر إلى الرد بعصبيته المعهودة، فيتعصّب إلى ذلك الراوي أو إلى ذلك الشخص الذي قام بدسّ هذه الأفكار والروايات. وبالنتيجة فإنه يتّخذ هذا الأمر منبراً ومنطلقاً وحجّة لتهجّمه علينا، ولتطاوله ولتكفيره لنا.

وكمثال على هذا أن الحجاج بن يوسف الثقفي.. هذا الشخص الذي لا يمكن لأحد أن يمدحه أو أن يمجّده؛ فعندما نستقرئ تاريخ الإنسانيّة منذ ولادتها وحتى الآن فإننا نجدها تخجل من ذكر هذا الشخص ومن النماذج الأُخرى التي على شاكلته؛ لأنها تعدّهم عاراً عليها. لكن للأسف الشديد مع أن الحجاج بهذه الصفة، ومن هذا النمط الذي يعدّ عاراً على الإنسانية فإننا نجد إلى الآن من يكتب عن الحجّاج يمدحه. إننا لا نريد أن نلوّث هذا المنبر الشريف بذكر هذا الشخص ونقائصه، فلديه ألف منقصة ومنقصة، لكن ما يحزّ في النفس شيئاً ويثير فيها الأسى أننا كما قلت لا زلنا إلى الآن نقرأ الكثير من الكتب التي تكتب عنه نقداً ودراسة. إن هنالك الكثير من الرسائل التي كتبت والشهادات التي منحت على ضوء دراسات قدّمت للماجستير والدكتوراه حول شخصيته.

إننا نريد أن نؤكّد على أن هذا أمر في غاية القسوة على التاريخ، وعلى الأمّة الإسلامية والاستهزاء بها؛ لأن الإنسان حينما يريد أن يكتب عن الحجّاج فما الذي يمكن أن يكتبه عنه؟ وما الذي يمكن أن يقدمه لهذه الأمّة؟ وهل يقدّم إلّا أُنموذجاً للغدر أو الخسّة أو الانحطاط؟

إنه أُنموذج واضح وبيّن لمسخ من مسوخ التاريخ التي تحاول هذه الأقلام أن

ترفع من شأنها، وأن تضعها في مصافّ غيرها من الذين يستحقّون فعلاً أن يكتب عنهم. فهؤلاء بدلاً من أن يكتبوا عن شخصيّة مشرقة في تاريخ الإسلام، وبدلاً من أن يكتبوا عن قضايا تهمّ الساحة الإسلامية وتعالج مشاكلها وقضاياها المعاصرة نجدهم يلجؤون إلى الكتابة عن هذا الشخص وهو من هو كما ذكرنا ووصفنا.

وهذا نابع من مبدأ واحد هو أن الفكر الشيعي قد ركّز على هذا الشخص وعلى انحرافاته وعلى ظلمه وعلى ابتعاده عن اللّه جلّ وعلا؛ فلأن الفكر الشيعي ينتقص منه ويذمّه لما عنده من نقائص يبرز في الطرف المقابل من يحاول أن يرفعه وأن يعلي شأنه بأمثال هذه الكتابات والدراسات.

وليس هذا الأمر مع الحجّاج فقط، بل إن هنالك الكثير من الذين يكتبون عن أمثال الحجاج.

ومثل قضية الحجّاج قضية الإشارة إلى هؤلاء اليهود الذين غزوا كتب التفسير والحديث عند المسلمين بأفكارهم اليهودية، فما إن انبرت لهم جماعة من العلماء وقالوا بحقّهم ما قالوا من أن هؤلاء يدسّون فكر اليهود في الفكر الإسلامي وبين ثناياه حتى استشاط لهم جماعة من الطرف المقابل غضباً، واستُثيروا تعصّباً لهم، وراحوا يدافعون عنهم أشدّ الدفاع.

وهذا الأمر لا يقتصر علينا فقط بل يمتدّ ليشمل كلّ كاتب وإن كان على غير مذهبنا، وكمثال على هذا فإن الكاتب المعروف محمود أبو رية حينما ألّف كتابه المشهور (أبو هريرة) فإنه تعرّض لهجوم كبير وضغوط كثيرة ومحاولات لقتله، فكان يأتي إلى مكان ما في القاهرة يلتجئ إليه، وكنت أنا حينها في ذلك الوقت في القاهرة. كلّ هذا ضدّ رجل أبدى رأيه ونقد نقداً موضوعيّاً صحابيّاً من صحابة الرسول الأكرم ﷺ، وهو نقد صحيح ومشروع يجب أن تُعطى الحريّة فيه لكلّ

مسلم في أن يتّبع هذا، وفي أن يحذو حذوه، وأن ينقد نقداً علميّاً قائماً على الأسس والقواعد العقلية، وضوابط المنهج العلمي؛ حتى يصل إلى النتيجة التي يبتغيها.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الجوّ العلمي والجوّ الموضوعي غير موجودين في واقعنا، بل إن الجوّ السائد والمسيطر والذي يستولي على عقول هؤلاء هو الجوّ المشحون ضدّ كلّ من يريد أن يقول كلمة حقّ، ويريد أن يعطي الكلمة حقّها وأثرها.

وهم لا ينتبهون إلى أن هذا التصرّف يعود بنتائج سلبيّة وليس بنتائج إيجابية، وهؤلاء إنما يدافعون عن مثل عكرمة الذي كان يكثر الكذب على ابن عباس، قال عبد الله بن الحارث: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس، وعكرمة موثق على باب الكنيف، فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ فقال: إن هذا يكذب على أبي[1].

وهو فعلاً كان متأثّراً جدّاً بالفكر اليهودي، وقد روى عن ابن عبّاس روايات منحرفة. لكننا مع ذلك نجد من يبرز للدفاع عنه فيما يكتبون من رسائل جامعية. إن هؤلاء لا تهمّهم مصلحة الإسلام والمسلمين، مع أنها يجب أن تكون فوق كلّ اعتبار وفوق كلّ شيء. إننا يجب أن نتحلّى بقاعدة أن عبادة الأشخاص هي غير صحيحة، بل إن الشخص إذا لم يكن متأطّراً بإطار مصلحة الإسلام والمسلمين، فإنه لا ينبغي الدفاع عنه، ولا ينبغي تكريمه وإلّا فإننا حينئذ سنتخلّى عن ثوابتنا ومبادئنا في الدفاع عن الأُمّة وعن الدين.

---

(١) المعارف - ابن قتيبة - ص ٤٥٥ - ٤٥٦، الوافي بالوفيات ٢٠: ٣٩ - ٤٠، وفيات الأعيان ٣: ٢٦٥ - ٢٦٦. وقد ذكرنا في ج ٣ ص ٣١ / الهامش: ٢ ما ذكره رجاليّو أهل السنّة فيه من قدح وذمّ.

إن هذا الغذاء العظيم الذي أعدّه اللّه ووهبه للإنسانية ـ وهو العقل ـ يجب ألّا يهمل وألّا يترك جانباً، ويتصرف على خلاف إرادته وتوجيهه. ثم إن هذا الأمر لا يعني إلّا شيئاً واحداً هو قتل الإنسانيّة وقتل تاريخها الطويل من أجل ثلاثة أشخاص أو أربعة تدفعهم نحوه الأهواء والرغبات الكائنة في نفوسهم. وهذا أمر غريب في بابه، ومصيبة كبرى وطامّة عظمى تصيب المسلمين من ذلك الوقت وإلى هذا الزمان.

المبحث الخامس: في معنى ﴿ق﴾

على أيّة حال فإن المفسّرين يختلفون كما قلنا في معنى كلمة ﴿ق﴾، وقد انقسموا إزاء معناها على رأيين:

الرأي الأول: أنه جبل محيط بالأرض

وهو ببالغ الأسف رأي إسرائيلي دسّته في كتب التفسير اليد الإسرائيلية الخبيثة التي كانت تعشعش في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت وتعيث به؛ وهذا المعنى للكلمة هو الذي يرويه عكرمة عن ابن عباس‏ﷺ من أنه الجبل الذي يحيط بالدنيا، وأن أطراف السماء تقع عليه. وهذه الرواية غريبة وشاذّة ولا يمكن قبولها، سيما في هذا العصر الذي تطوّرت فيه العلوم الفلكيّة تطوّراً هائلاً. فلو أننا سألنا تلميذاً في الصفّ السادس الابتدائي أو في المرحلة المتوسطة عن الأرض لقال: أنا أعرف أن الأرض كرة معلّقة في الهواء، يتحكّم فيها قانونا الجذب والطرد المركزيّين، فالأرض ثابتة في مسارها بفعل هاتين القوّتين اللتين تسيطران عليها واللتين هما من بديع صنع الخالق جلّ وعلا، فلا تنحرف عن مسارها باتّجاه الشمس أو نحو الفضاء المجهول.

وإذا كان هذا حال الطالب الذي يدرس في أواخر المرحلة الابتدائيّة أو بالمرحلة المتوسّطة فما بالك بمن يختصّ بعلم الفلك، أو لا أقل من أن يكون ذا ثقافة عامّة يدخل ضمنها هذا المجال الفلكي؟ والمصيبة أن مثل هذا المختصّ أو هذا العالم غير الفلكي المثقّف بثقافة عامّة حينما يقرأ مثل هذه الرواية في تفاسيرنا فإنه سيقول: إن السمة الغالبة على كتب التفسير عند المسلمين هي هذه الخرافات. وهذا يعني أن هذا الجيل كلّه سيتحمل مضاعفات وعواقب مثل هذه الروايات ليس إلّا لأن عكرمة قد روى هذه الرواية.

وهذا النمط من الروايات بطبيعة الحال إنما يصدر من أُناس تأثّروا بالإسرائيليّات، وأن من يروِ مثل هذه الروايات عن هؤلاء فهو بطبيعة الحال لم يحسن الاختيار. إن هناك جماعات من الرواة أو غيرهم يعمدون إلى أخذ الروايات من منابع كدرة، ويبتعدون عن المنابع الصافية لها، والتي تمثّل جوهر الإسلام ولبّه وأصله. إن المنابع الكدرة تخلق لنا ألف مشكلة ومشكلة؛ لأنها تؤدّي إلى الإساءة إلى الإسلام والمسلمين، وإلى الفكر والمبادئ التي نادى بها الرسول الأكرم ﷺ.

مغالطات محمد فريد وجدي

وهذه المسألة لم تكن مختصّة بعلم التفسير فقط، بل إنها امتدّت لتشمل حتى الحديث والفقه والتاريخ، كما أنه ليس المقصود هنا من أرّخ فيما مضى من القرون، بل إنه يمتدّ إلى عصرنا الحاضر. وعلى سبيل المثال أننا لو نظرنا في كتاب (دائرة معارف القرن العشرين) وعلى الرغم من أن عنوانها يوحي بغزارة مضمونها أو أن المفروض أنها يجب أن تكون كذلك لكننا حينما نتصفح أو نقرأ ما كتبه

المؤلّف عن سيدي شباب أهل الجنة لوجدنا أنه لم يكتب عنهما ما يتجاوز الثمانية أسطر، فهو لا يذكر عن الإمام الحسن إلّا قوله: ولد الحسن قبل الهجرة بستّ سنوات [١].

ولو أردنا أن نتتبّع هذا الكتاب لكنّا في حيرة من أمرنا على ما سنجده فيه وعليه، فهل نحسده على هذه الكتابة، أم على معرفته بالتاريخ، أم على عبقريته التي قادته إلى أن يكتب بإيجاز شديد جدّاً ـ وهو إيجاز مخلّ ـ عن السبط الأكبر وأحد سيّدي شباب أهل الجنة وابن رسول اللّه. إن الحسن يمثّل الامتداد الطبيعي للنبي، وكلّ المسلمين يعرفون أن تاريخ الولادة الذي ذكره غير صحيح؛ فهل إن الزهراء ولدت الحسن وعمرها سنتان؟ لأن الزهراء وُلدت بعد المبعث النبوي الشريف بخمس سنوات أي قبل الهجرة بثماني سنوات، فإذا كان الإمام الحسن على رواية صاحب (دائرة معارف القرن العشرين) قد ولد قبل السنة السادسة للهجرة، فهذا يعني أن فاطمة الزهراء قد ولدته وهي في السنة الثانية من عمرها الشريف.

وهذا واقعاً يثير الاستغراب حول شخصيّة المؤلّف وجهله بالتاريخ إلّا أن يقال: إن الإمام علياً تزوج الزهراء وعمرها سنتان، وولدت الحسن بعد فترة الحمل أي في السنة نفسها.

ثم حينما يأتي إلى وفاته يطالعنا بأُعجوبة ثانية فيقول: مات الحسن في أيام معاوية سنة إحدى وأربعين للهجرة [٢]، أي أنه توفّي بعد وفاة أبيه أمير المؤمنين بسنة واحدة. وهذا خلاف البديهيّات والمسلّمات التاريخيّة التي

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٣: ٤٤٣. (٢) المصدر نفسه.

تروي خلاف ذلك. وإذا كانت هذه المسائل تعتبر أبجديات التاريخ وبديهيّاته وأوّليّاته وكانت (دائرة معارف القرن العشرين) تعطي عنها هذه المعلومات المغلوطة، فما بالك بالأُمور التاريخيّة الأكثر إشكالاً وغموضاً؟ وما الذي يمكن أن يفعله مثل هذا الكاتب عند كتابته التاريخ؟ ومن أين للقارئ أن يستقي معلوماته التاريخيّة إذا كانت كتب التاريخ والموسوعات ملوّثة بهذا الشكل من الأخطاء والتزوير والدسّ وغير ذلك؟

وحال هذا الكاتب مع الإمام الحسين عليه السلام ليس أحسن من حاله مع الإمام الحسن عليه السلام فهو حينما يكتب عنه عليه السلام يكتب سطوراً أربعة أو خمسة، وكأنما يقفز بين عينيه أو بين سطور كتابه يزيد بن معاوية وهو يكتب ما يكتب عن الإمام السبط الشهيد عليه السلام.

ومثل هذا الشخص الذي يعتبر مشحونا ومتأزّماً كيف يمكن له أن يترك عندنا انطباعاً وثقة بتراثنا وتأريخنا، وما يكتب حوله من دراسات وأحداث؟

وكما أشرت قبل قليل في بداية هذا المبحث فإن كتب التأريخ في هذا الشأن لا تعدو كتب التفسير التي هي كتب مشحونة بمثل هذه الروايات وبالفكر اليهودي الذي عاث في الفكر الإسلامي تخريباً وفساداً.

وحينما ينادي منادٍ طالباً من المفكّرين والعلماء أن يخلّصوا المجتمع من هؤلاء الذين يرتبطون ارتباطاً آيديولوجياً بالفكر اليهودي فإن الطامّة الكبرى تحلّ به، والمصيبة العظمى تهبط على رأسه. وهذا الأمر من مصائبنا؛ لأننا حينما نضع أيدينا على الجرح أو على الداء الذي ينفذ من الجسد المذبوح فإن الأمر يتحوّل إلى مصيبة وكارثة تكفّر على إثرها طائفة كاملة، وتصبح مشركة على أساسها.

على أية حال فإن المعنى الذي ذكره عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه معنى غير

مقصود بل إنه بعيد جداً عن المراد.

الرأي الثاني: أنه مشتق من الاقتفاء

أما المعنى الحقيقي أو المقصود فهو الذي يلتفت إليه بعض المفسّرين، ومنهم الفخر الرازي فينقله، وهو معنى رائع فيقول: ﴿قٓ﴾، هو اسم فاعل من (قفا، يقفو) كما أن ﴿صٓ﴾ اسم فاعل من (صاد)، وهو مأخوذ من المصاداة التي هي المعارضة. وعلى هذا فمعناه: إن هذا القرآن قافٍ لجميع الأشياء بالكشف. ويشترك حينئذٍ بمعناه مع معنى قوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[1]، إذا قلنا: إن الكتاب هناك هو القرآن الكريم[2].

فالقرآن إذن يقفو كلّ المعلومات بالكشف، وهو تبيان لكلّ شيء، أي أنه يتتبّع المعلومات فيكشفها. والقرآن هو كنز المعلومات، وهو الزاد الذي ادّخره اللّه عزّ وجلّ للبشريّة، فاذا طلب الإنسان بغيته وجدها في القرآن الكريم.

القرآن والمجتمع الإسلامي

وليس المقصود بالبغية هنا هو كلّ ما يطلبه الإنسان كأن يطلب تأسيس معمل أو صناعة معدّات، أو إيجاد حلّ لمعادلة كيمياوية أو ما شاكل، فهذا في الحقيقة هو تصوّر الناس السذّج الذين يريدون من القرآن أن يضع لهم منهجاً للزراعة أو للصناعة أو للعلوم التطبيقية. إن هذا التصوّر هو تصوّر مخطوء؛ لأن بغية كلّ شيء عادة تكون من سنخه، فالبغية التي تراد من القرآن هي بناء المجتمع الأمثل.

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) التفسير الكبير ٢٧: ١٢٧.

والقرآن الكريم قادر على أن يضع لنا هذا المجتمع الشريف الفاضل الذي يخلو من كلّ عيب أو صفة ذميمة.. المجتمع الذي تحكمه الضوابط والأُصول والقواعد الدينيّة والأخلاقيّة، وهذا هو المجتمع الذي ينشده كلّ إنسان؛ لأنه هو المجتمع السعيد.

فنحن حينما نطالب القرآن بأن تكون هذه بغيتنا منه، فنحن لا نعدو الحقيقة أو الوظيفة التي أناطها اللّه تعالى بالقرآن الكريم؛ لأننا حتماً سنجد هذه البغية موجودة بين طيات هذا الكتاب الكريم وفي آياته وحروفه.

السنخيّة أمر ضروري في التقنين

وبالغ الأسف يمكنني أن أقول: إن المجتمع والتاريخ الإسلاميّين لم تكن فيهما محاولات جادّة لصناعة المجتمع تحت عين القرآن، وعلى ضوء مفاهيمه وأخلاقيّاته إلّا في فترات خاصّة مرّ بها التاريخ الإسلامي، وإلّا فأين هو المجتمع الذي يمكن أن نصفه بأنه مجتمع إسلامي أو نصنّفه ضمن هذه الدائرة؟ وهل هنالك نسبة تقارب الـ(٧٠٪) من سلوكه التي يجب أن تكون على مقتضى السلوك الإسلامي؟ إن الشخص إذا كان يمتلك آلة ثم يصيبها عطل ما؛ فإنه إن أراد أن يصلحها، وكانت تحتاج إلى استبدال قطعة غَيار منها، فإنه سيبحث عن قطعة من حجم هذه الآلة نفسه، فلا يشتري القطعة عينها إذا كانت لآلة أكبر حجماً أو لآلة أصغر حجماً.

وهذا واضح؛ إذ أن جزء الشيء يجب أن يكون من سنخه لا أن يكون من سنخ غيره، والمجتمع كذلك، وهو لا يعدو في هذا الأمر حال تلك الآلة التي تعطّل أحد أجزائها، فنحن كعرب وكمسلمين لنا مجتمعاتنا الخاصّة، ولنا حضارتنا ولنا

تاريخنا ولنا فكرنا الذي يميزنا، ولنا مزاجنا الذي يفصلنا عن غيرنا، فإذا أردت إصلاح شخص فلابدّ من أن تأتيه بقطعة غيار من سنخه عينه، لا أن تأتيه بها من سنخ غيره؛ لأنها حينئذ سوف لن تتناسب مع قوانين أخلاقيّاته أو ثوابته وما إلى ذلك.

وعليه فحينما يعمد المفكّرون إلى استيراد مبادئ من خارج وسطنا الإسلامي، أو أخلاقيات وقوانين تربويّة لا تمتّ إلى ديننا الحنيف بصلة، فإنهم بهذا يكونون قد هدموا هذا المجتمع؛ لأنهم يرومون إلى أن يرصدوا له قوانين خارجة عن طبيعته، وتتنافى مع مزاجه؛ إذ أن هذه القوانين المستوردة لا يمكن بحال من الأحوال أن تساير الفطرة والتربية والقواعد الإسلاميّة، وكلّ ما يمتّ إلى الإسلام بصلة.

وحتماً فإن هذه الأفكار والمبادئ والنظريّات المستوردة ستفشل على مستوى التطبيق؛ لأنها لم تلاحظ طبيعة الفرد المسلم، ولم تنبثق من وسطه أو من واقعه أو من دينه.

ومن يدّعِ بأن الإنسان هو الإنسان في كلّ مكان وكلّ زمان، فهو واهم؛ لأن الإنسان لا تختلف طباعه باختلاف بيئته وعقائده ودينه ومذهبه وأخلاقيّاته ومحيطه الذي يعيش فيه، فمزاج الإنسان الشرقي يختلف عن مزاج الإنسان الغربي، والعقيدة عند الشعوب الشرقيّة تختلف عنها عند الشعوب الغربيّة. بل إن هذا الأمر واقع حتى على مستوى أبناء الدين الواحد؛ فنحن مثلاً نرى ضرورة الإيمان بأن القرآن نبع من منابع السماء في حين أن بعض أبناء هذا الدين يأخذون بأفكار يهودي حاقد في التفسير والتاريخ، ويدّعي أن هذا هو الذي يصلح المسلم.

إذن فهنالك فروقات بين أبناء الأديان المختلفة، وبين أبناء المناطق الجغرافيّة المختلفة، وكلّ اختلاف مبنيّ على طبيعة الدين أو الرقعة الجغرافيّة أو المبدأ والعقيدة وما إلى ذلك. ومن الموارد التي يختلف فيها المسلمون مع غيرهم بحيث إن أفكارهم لا تصلح بأن تكون قواعد لتربية المسلمين قضية الختان، فهي قضية حسّاسة جدّاً؛ إذ أن المسلمين بتوجيه من دينهم الحنيف يرون ضرورة ختان الذكر بعد أن يولد بفترة لا تقل عن السبعة أيام، فإذا بلغ اليوم السابع استحبّ ختانه، ثم إنه بعد ذلك يجب عليه سيما إذا بلغ مرحلة التكليف الشرعي. اما غيرنا من المسيحيّين فلا يرون الختان.

الآثار الإيجابيّة للختان

وقضيّة الختان قضيّة صحّيّة وقضيّة أخلاقيّة في آن:

أمّا القضية الصحّيّة، فلأن رفع هذا الطرف أو هذه الجلدة المسماة بالقلفة تعني عدم تراكم الأوساخ ومخلّفات البول في العضو الذكري، وتراكمها يؤدّي بالتالي إلى نموّ البكتريا فيه، وبالنتيجة فإنه يصبح ناقلاً للأمراض مع أنه العضو الحسّاس عند الإنسان؛ لأنه الوسيلة الوحيدة الطبيعيّة لنقل الحياة من كائن إلى آخر، أو من جيل إلى آخر.

وأمّا القضية الأخلاقية، فهي أن رفع هذه القلفة عن العضو يؤدّي إلى عملية خنق لحالة الشبق التي تنتاب الإنسان فيما لو كان أغلف غير مختون، وهو بهذا يصبح كالحيوان عرضة لأن يقع فريسة الشبق في كلّ لحظة بمجرّد احتكاك هذا العضو بهذه القطعة من الجلد.

إذن فهناك أهداف شرعية وآداب وأخلاقيّات وكذلك آثار صّحيّة يفرضها المشرّع الإسلامي في خصوص عملية الختان. ومع كلّ هذا يأتي الرأي العلمي

متمثّلاً بفرويد الذي يقول: إن المسلمين يختنون أبناءهم نتيجة ميراثٍ اجتماعي. ثم يبدأ بتحليل وتفسير هذا الميراث الاجتماعي وبيان منشئه على ضوء تصوّره فيقول: عندما هبط آدم على الأرض أراد أن يختص وحده بالنساء دون أن يزاحمه أحد عليهن، لكن أولاده حينما بلغوا راحوا ينازعونه عليهن ويزاحمونه، فأخذ يقطّع أعضاءهم التناسليّة حتى لا يزاحموه في هذا الأمر. ثم بعد ذلك أخذت عملية القطع طابعاً أكثر رأفة حيث إنها انتقلت إلى قطع هذه الجلدة (القلفة) فقط دون قطع العضو كاملاً. وبهذا فإن المسلمين قد أخذوا هذه الفكرة من آدم نتيجة للميراث الاجتماعي.

لكن أرجو أن ينتبه إلى أن هذه النظرية العلمية ـ سيما أنها صادرة من عالم معروف ـ حينما تأخذ طريقها لتدرّس للطلاب، فما الذي يمكن أن يقوله أبناؤنا عن آبائهم؟ إنهم سيقتنعون بفكرة أن الابن يجب ـ أو أنه لا أقلّ من أن يكون كذلك في بعض الحالات ـ أن يقوم بمخاصمة أبيه من أجل النساء، أي أنهما يتزاحمان على المرأة.

إن هذا التفسير يعني طعن العامل الخلقي والعامل الأُسري من الخلف بخنجر مسموم، وهي نظرية علميّة مبتنية على خرافة لأننا كمسلمين واعين متفتّحين نعلم أن هذا غير صحيح وأنه لم يقع، وأن هذه الرواية ليست إلّا رواية إسرائيليّة. وهذه النظرية تعدّ تتمّة لنظريّات فرويد؛ لأنه بطبيعة الحال كما هو معلوم عنه يقوم بعزو كلّ الحالات التي تنتاب الإنسان إلى العامل الجنسي، ويعلّل كلّ الانفعالات والعواطف بالعوامل الجنسية. إن مثل هذه النظريّات الوافدة والتي تمثّل ثقافة يهوديّة إذا انتشرت، فإنها حتما ستؤدّي إلى حصول نزاع طبقي داخل هذا المجتمع.

والمجتمع إذا حصل فيه تفاوت في توزيع الثروة فإنه حتماً سيتعرّض إلى حالة من حالات التناحر والتفكّك، وربما الاقتتال. والبعض من الناس إذا رأى أنه لا يستطيع أن يوفّر لعائلته لقمة الخبز، فيخرج منذ الصباح باحثاً عن العمل ويرجع إلى بيته منهكاً جسديّاً ونفسيّاً؛ لأنه لم يحصل على عمل يكسب منه قوته وقوت عائلته ذلك اليوم، ثم يدخل بيته فلا يجد رغيفاً ويجد أفواهاً مفتوحة تنتظره فإنه حتماً سيحصل عنده ردّة فعل اتّجاه هذا المجتمع، سيما إذا كان فيه من هو يأكل حدّ التخمة، وسيما إذا كان يرى أن هناك أشخاصاً في المنطقة التي يعيش فيها يتقلّبون في النعمة، ويلبسون من أحسن ما يُلبس ويأكلون من ألذّ ما يؤكل، ويتمتعون بأنواع الملذّات والأطعمة.

فمثل هذا حتماً سيحقد على هذا المجتمع، وربما تحوّل إلى أداة سرقة، وربما يقتل من أجل أن يسرق؛ لأن هذا المجتمع جعله في حالة لم يقدر معها أن يشتري الشيء الذي يشتهيه، ولم يحفظوا له حاجاته الأساسية، وحينها سيملأ الحقد قلبه دون حدود. إن هذا المجتمع سيتعرّض إلى هزّات اجتماعيّة لا يمكن تلافيها ما لم تُكفل الحاجات الأساسيّة للفقراء والمعوزين الموجودين فيه.

فهذا هو الواقع، بخلاف ذلك الذي يأتي ويردّد نظرية يهودي حاقد يريد أن يذبح الناسُ بعضهم بعضاً، فيصوّر للآخرين أنه يبني لهم نظاماً من هذه النظريات التافهة، مع أن المسلم لو اجتهد ونظر في القرآن الكريم لوجد أنه يكفل له كلّ حاجاته التي يبتغيها إزاء بناء مجتمع صالح، ولوجد فيه كامل التشريعات القانونيّة والاجتماعيّة التي تكفل له حياةً هانئة رغيدة وسعيدة.. تشريعات تنبع من محض الرحمة.. من القرآن الكريم الذي يصوغ الحياة نظاماً يسعد من يتبعه، فيقنّن صيغ التكامل الاجتماعي ويبني صورةً وهيكلاً للحياة المثلى التي يجب أن ينشأ عليها المجتمع الإسلامي.

إن كلّ هذا يمكن أن يُبحث عنه في القرآن الكريم، ومن يبحث في القرآن الكريم سيجد أنه قد وضع يده على كنز ثمين لمثل هذه القضايا الاجتماعيّة والقانونيّة والاقتصاديّة وغيرها، ولهذا فإن الذين حملوا القرآن حملوا رسالة عظمى إنسانية وأخلاقية وأدبية إلى الإنسانية كافّة إلى البشريّة إلى الحياة بأجمعها.

دخل الفرزدق مع أبيه غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين، فقال له: **«من أنت؟»**. فقال: غالب بن صعصعة المجاشعي. قال: **«ذو الإبل الكثيرة؟»**. قال: نعم. قال: **«ما فعلت إبلك؟»**. قال: أذهبتها النوائب، وذعذعتها الحقوق. قال: **«ذاك خير سبلها»**. ثم قال له: **«ومن هذا الغلام معك؟»**. قال: هذا ابني، وهو شاعر، ومن مواليكم ومحبّيكم. فقال: **«علّمه القرآن؛ فهو خير له من الشعر»**[1].

أما كيف أن الشعر يجعله ينزلق في مزالق غير محمودة العاقبة، فيقرّره ما نلاحظه من حال مجموعة من الشعراء الذين يرون الطغاة والبغاة المتجبّرين على الإنسانيّة، والذين هم في حقائقهم لا يعدون الخنازير إلّا إنهم في صور البشر. ومع كلّ هذا نجد أن هذه الحفنة المهملة من الشعراء يعمدون إلى مدحهم وإعطائهم ألقاباً فوق مستواهم الحقيقي بكثير وكثير. وهم إنما يمدحونهم لأجل حفنةٍ من الأموال، فيبيعون دينهم وضمائرهم وحريّاته بهذه الدنانير البخسة، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، يدخل أحدهم على الرشيد فيخاطبه قائلاً:

خليفةَ اللّه إنَّ الجودَ أوديةٌ ... أحلَّك اللهُ منها حيث تجتمعُ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ٢١ - ٢٢، كنز العمال ٢: ٢٨٨ / ٤٠٢٦، الإصابة ٥: ٣٠١ / ٧٠٥٠.

إن أخـلـفَ الـغـيـثُ لـم تـخـلف مـخائلُه أو ضـاق شـيءٌ ذكـرناه فـيتسعُ
مـن لـم يـكـن بـبني الـعباس مُـعتصماً فـليس بـالصلوات الـخمس يـنتفعُ[١]

ويدخل آخر على عضد الدولة، ويخاطبه بقوله:

لو كـان عـلمُك بـالإله مـقسّماً بـالخلق مـا بَـعث الإلهُ رسـولا
أو كـان لفـظُك فـيهُمُ مـا أنـزل الـ ـتوراةَ والفـرقانَ والإنـجيلا[٢]

إن هذين قد أحلّا الرشيد وعضد الدولة منزلة هي أكثر من أن تكون لهما، بل إن حقيقتهما وواقعهما لا يعدوان أن يكونا ملاصقين للتراب، أو لأدنى المراتب على سلّم الحياة. وكلّ هذا من أجل بضعة دراهم يأخذانها فيستبدلان دينهما بدنياهما مع أنه ثمن رخيص جدّاً إذا ما قيس إزاء ما فرّطا به من دين ومروءة وضمير، وغير ذلك. لكن هذين الشاعرين في حقيقتهما ونفسيهما رخيصان؛ لأنهما لو لم يكونا كذلك لما فعلا ما فعلا، فلو كان عندهما شيء من كرامة لما فعلا ذلك؛ فهما قد رميا بكرامتهما كلّها تحت أرجل الطغاة من السلاطين والكثير من أتباعهم الذين لا يعدلون سوى حشرات تدبّ على الأرض. إن هؤلاء يحاولون أن يبنوا تاجاً من المدح الكاذب.

وهذا موجود في كلّ مراحل التاريخ وفي كلّ أدواره.. إنه أمر موجود منذ أن قامت الدنيا وإلى يومنا هذا.

فالقرآن الكريم يريد للإنسان أن ينأى بنفسه عن مثل هذا؛ ولذا فإنه يعلّم الإنسان الكرامة، ويعلّمه ألّا يكون ممّن يسعى وراء رغباته وشهواته: ﴿لَا تَمُدَّنَّ

---

(١) الأبيات لمنصور النمري. تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢، ١٣: ٦٩، باختلاف في ترتيبها.

(٢) البيتان للمتنبي. أعيان الشيعة ٢: ٥٥١، يتيمة الدهر: ٢١٠.

عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، فهو يقول له: إن الدنيا مهما حاولت أن تخلب لبّك ببريقها، فكن أكبر من هذا البريق؛ لأنك إنسان قد كرّمه اللّه ووهبه العقل، ووهبه الحرية، ووهبه القابليّة على التفكير واتّباع طريق الخير واجتناب طريق الشر. فما قيمة رغيف الخبز إذا غمس بماء المذلة؟ وما قيمة حفنة من المال إذا غمست بوعاء هدر الإنسانيّة؟ إن على الإنسان ألّا يهدر إنسانيّته من أجل حطام دنيوي ضئيل زائل.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يربّي الإنسان ويريد أن يرتفع به وبمشاعره إلى مستويات راقية؛ ولذا فإنه يقول له: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[٢]، فاذهب واعمل واكتسب مالاً حلالاً من عرقك ومن كدّ يدك؛ فبمقدار ما تعطي الأرض فإنها ستعطيك، وعطاؤها على قدر ما تعطيها من قوة وطاقة وعمل وبمقدار ما تسقيها بها به من عرقك وجدك وتعبك.

فهذا العمل هو الذي يجعلك مقدساً في نظر الدين وهو الذي يحفظ لك كرامتك؛ لأن الدين نفسه يدعو الإنسان إلى أن يحفظ كرامته أعظم تكريم؛ لأنه بالعمل ستصبح يده مكرمة.

إذن في واقع الأمر إننا إذا أردنا أن نبحث عن المجتمع المثالي فإننا لن نجده إلّا بين ثنايا القرآن الكريم فهو الذي يبني لنا هذا المجتمع، وهو الذي يرشدنا إلى الكيفية التي نهيكله بها.

وإن اللّه تعالى عندما قال في كتابه العزيز: ﴿قٓ﴾، فإن هذه الكلمة تعني الكثير الكثير من موارد حفظ كرامة الإنسان؛ لأنها كما قلنا اسم فاعل بمعنى كاشف،

---

(١) الحجر: ٨٨. (٢) النجم: ٣٩.

والقرآن يكشف لنا كلّ الوسائل التي تخدم في عمليّة بناء المجتمع، وتثبت دعائمه، ولا يترك وسيلة دون أن يوظّفها في سبيل تحقيق هذا الهدف. فكلّ ما يخدم تحقيق هذا الهدف يضعه بين أيدي الناس؛ كي يستفيدوا منه في تحقيق هذه العمليّة الاجتماعيّة التي دعت إليها الأديان السماويّة منذ أن خلق اللّه آدم عليه السلام وإلى يومنا هذا.

المبحث السادس: في جمع القرآن

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾، إن البعض يسأل عن معنى كلمة القرآن، والقرآن في واقع الأمر يعنى الجمع، أي المجموع.

لكن هنا يبرز سؤال آخر هو: هل إن القرآن كان مجموعاً على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أم لا؟ إن الكثير من الروايات[١]، وخصوصاً الروايات الواردة عن العترة الطاهرة عليهم السلام تنصّ على أن القرآن الكريم جُمع أيام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم عرضه على جبرائيل عليه السلام، وكان جبرائيل يعرضه على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في كلّ سنة مرة إلّا في السنة التي توفي فيها (صلوات اللّه عليه) فإن جبرائيل عليه السلام عرضه عليه مرتين[٢].

ومن هذا نعرف أن القرآن الكريم كان مكتوباً عند أمير المؤمنين عليه السلام في حياة رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

مصحف أمير المؤمنين عليه السلام

أما عند بعض الصحابة فإنه لم يكن مجموعاً على أيّام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإنما جمع

---

(١) الاستيعاب ٣: ١١٣٠.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٨: ٥٠٧، فتح الباري ٩: ٤٠، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٢٠٤.

شتاته بعد ذلك، فجمعه على رأي هؤلاء أمير المؤمنين على ترتيب نزول سوره وآياته الشريفة (١)، وكان يقول: **«أيها الناس سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلّا حدّثتكم عنها متى نزلت؛ بليل أو نهار، أو في مقام أو في سفر، أم في سهل أم في جبل، وفيمن نزلت؛ أفي مؤمن أو منافق، وما عُني بها؛ أخاصّ، أمّ عامّ»** (٢).

وفعلاً فقد كان القرآن الكريم مكتوباً بخطّ يده، وكان يضع شروح كلّ آية تحتها أو فوقها ليبيّن لمن يأتي بعده معانيَ هذه الآيات التي ربما استغلقت على هؤلاء. وهذا هو القرآن الذي وردت عنه روايات كثيرة بأن حجمه أكبر من حجم القرآن، وهذا يُقصد به الأصل والتفسير معاً؛ لأن القرآن الكريم ليس فيه زيادة ولا نقصان، وما في أيدي الناس منذ عهد الرسول الأكرم إلى الآن هو هذا القرآن الكريم، وهو ما بين الدفّتين لا زيادة فيه ولانقصان.

فكلّ ما في الأمر أن هذه الزيادة جاءت نتيجة هذه الشروح التي أضافها أمير المؤمنين عليه؛ فقد كان يسأل رسول الله عن كلّ آية بمجرّد أن تنزل، فإذا أجابه الرسول مبيّناً له معناها أثبته تحتها أو فوقها كما قلنا؛ كيلا يضيع هذا الشرح.

والداعي لهذا الشرح أن معاني القرآن توقيفيّة، أي أنها تحتاج إلى أن ينصّ عليها النبي، لا أن تُفسّر حسب الآراء والأهواء، فكان يكتب معاني

---

(١) الاستذكار ٢: ٤٨٥، الإتقان ١: ١٦١ / ٧٥٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٢٢، سعد السعود: ٢٨٤، ذخائر العقبى: ٨٣، الاستيعاب ٣: ١١٠٧، كنز العمال ٢: ٥٦٧ / ٤٧٤٠، تفسير نور الثقلين ٥: ٦٤٦ / ٢١، ولم يذكر قوله: «أو في مقام أو في سفر» سوى الحويزي.

الآيات؛ لما أوجب هذا كونه من الأُمور التوقيفية، ولما فيه من حفظ معاني القرآن عن أن تضيع، أو أن تتناولها الأهواء.

المبحث السابع: في معنى صفة المجيد

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿الْمَجِيدِ﴾، وصفة المجيد تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنه عظيم في مضامينه

إن عظمة القرآن في واقع الأمر لا تحتاج إلى كثير من الكلام؛ ذلك أن عظمة مضامينه العالية لا خلاف بين المسلمين في وجودها. إنّ كلّ مضمون من مضامين القرآن الكريم هو مضمون عظيم وجبّار. فالقرآن الكريم فيه الكثير من المضامين التي تناولها بين طيات آياته الشريفة، ومن هذه المضامين نذكر:

الأول: المضمون الأسري

وهو المضمون الذي تكلّمنا عنه آنفاً، أي مضمون بناء الأُسرة، فالقرآن الكريم وضع تصميماً معيّناً خاصّاً لهيكلة الأُسرة الإسلاميّة التي تتكوّن من الزوج والزوجة اللذين يجمعهما رباط شرعي مقدّس، ومن أطفال شرعيّين جاؤوا إلى الدنيا نتيجة هذا الرباط المقدّس. ثم إنه وضع لهؤلاء قوانين تنظّم علائقهم وتنظّم تواصلهم وتنظّم كيفيّة تعاملهم مع بعضهم البعض. فالإسلام أعطى الزوج حقوقه وواجباته، وأعطى المرأة حقوقها وواجباتها، وأعطى الأولاد حقوقهم وواجباتهم، وأوقفهم على كلّ ما لهم وما عليهم؛ كي تعيش الأُسرة بسلام ودعة وتوادّ وتعاطف.

إن الزوج كما هو معروف له حقّ على زوجته وأولاده، والزوجة والأولاد كذلك، ومعنى هذا أن هناك علاقة ثلاثيّة مغلقة تربط بين هذه الأطراف الثلاثة التي

تشكّل الأُسرة الإسلاميّة. وهكذا نرى أن هـذا التـصميم الذي وضـعه الإسـلام الحنيف للأُسرة الإسلاميّة هو تصميم لا يطرأ عليه الخلل، ولا يصل إليه النقص. وهذا مثله كمثل المهندس المقتدر العبقري الذي يضع تصميماً لبيت قبل بنائه، فهو يضع تصميماً عالي الدقّة بحيث إن البنّائين لو اتّبعوا في بنائه كلّ ما رسـمه هـذا المهندس بالدقّة المطلوبة وبالكيفيّة الصحيحة، لكان البيت على أحسن ما يكون من نظام وجمال معاً، وما إلى ذلك من أُمور يختصّ بها علم الهندسة.

أما إذا جاء بنّاء لا يعرف عن البناء شيئاً، ولا يفهم لغة الهندسة ولا لغة الخرائط والتصاميم، فإنه حينئذ سيبني البيت على غير ما هو مرسوم في هـذه الخـريطة، وبالتالي فإنه سيعطينا بيتاً غير منسجم الأجزاء.. بيتاً تعْوِزه الكثير مـن العـناصر الضروريّة الداخلة في قيامه. وبالنتيجة فإنه سيكون بيتاً غير صالح للسكن.

والأُسرة في هذا الأمر حالها حـال هـذا البـيت؛ لأن الإسـلام أعـطانا هـذا الأُنموذج الرائع للبناء، وهو بهذا يكون قد رسم لنا التصميم الصحيح، لكننا بعد أن أخذنا هذا التصميم، وبعد أن عرفنا ما هي القوانين التي تنظّم علاقاتنا وحـقوقنا وواجباتنا، وما لنا وما علينا، فإننا قد بدأنا نطبّقها بشكل غير صحيح، أو نستغلّ بعضها لصالحنا أو لصالح طرف على حساب طرف آخر. وهذا بالنتيجة أدّى إلى حصول هذا الاختلال في توازن الأُسرة؛ ممّا أدّى إلى خلق أُسرة غـير مـتّزنة.. أُسرة بعيدة عن روح الإسلام وبعيدة عن نظام الإسلام وعمّا أمر اللّه لها أن تكون عليه.

وكدليل على هذا نذكر أن النبي ﷺ يقول: **«تـخيّروا لنـطفكم؛ فـإن العـرق دسّاس»**[1].

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

وكما هو معلوم فإن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى؛ ولذا فإن على أي مسلم يريد أن يقدم على الزواج أن يبحث عن المكان الصالح الطاهر لنطفته، لا أن يبحث عن الجمال أو المال وما إلى غير ذلك من أُمور تخصّ الدنيا. فهذه الأُمور تزول وتذهب، أمّا إذا كان البحث عن المرأة لدينها وصلاحها وطهارتها، فإن هذه الأُمور لن تذهب وإن امتدّ العمر، أو طال الزمن.

والمحصّلة أنه عندما لا يقام اعتبار لهذه الأُمور ثم أثمر هذا الزواج ذرّيّة فإنه سيُثمر ذرّيّة غير صالحة، وسيُثمر أبناءً ليسوا على وفق التربيّة الإسلامية التي يريدها الله جلّ وعلا. وحينما يفعل هذا النشء ما يسيء، فإننا حينئذ نذمّ المجتمع وننعته بالفساد. وهذه مغالطة واضحة بيّنة، لأن المجتمع لم يفسد إلّا بعد فساد أفراده، فالمجتمع إنما فسد بعد فساد هذه الوحدات أو الخلايا الصغيرة التي تكوّنه، والتي هي عبارة عن الأفراد والأُسر. وكشاهد على هذا نذكر أنه في يوم من الأيام نظر أبو العيناء إلى ابنه وقال له: يابن الزانية، فردّ عليه قائلاً: **﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾**[1].

وهذا أمر صحيح جدّاً؛ لأن الإنسان الشريف لا يقرب أمثال هؤلاء النساء، بل إنه يبحث عن المرأة الشريفة الطيّبة الطاهرة التي تحفظ له بيته إن غاب، والتي تُكرم الزوج إن حضر. وعليه فإن حسن الاختيار يقع على عاتق الزوجين، وعاتق الأهل بالنسبة للزوج وبالنسبة للزوجة.

فعليهم أن يفكّروا قبل أن يزوّجوا أبناءهم وبناتهم ممّن سيزوّجونهم، وكيف هي أخلاقهم، وكيف هي آدابهم، وكيف هو التزامهم الديني، وكيف هي محافظتهم على

---

(١) النور: ٣.

العقائد والآداب والتقاليد، وما إلى ذلك.

فنحن إذا تنصّلنا عن المنهج الذي رسمه القرآن الكريم للأُسرة، وابتعدنا عن التركيب الصحيح لها، والذي تحفظه لنا آيات هذا الكتاب الكريم، فإننا نكون قد انحرفنا عن الإسلام، وانحرفنا عن مبادئ اللّه، وانحرفنا عن أوّليّات الدين؛ لأننا سوف نخلق أُسرة فاسدة سيّئة، وهو بخلاف ما أمر اللّه تعالى وما يريده لنا من خلق أُسرة صالحة كريمة تتعامل بالدين ويحكم علاقاتها الأدب والأخلاق والالتزام.

الثاني: المضمون الاقتصادي

ومثل هذا المضمون هناك المضمون الاقتصادي الذي عالجه القرآن الكريم، فهو من المضامين العالية التي تناولها القرآن الكريم كذلك. فالقرآن الكريم رسم لنا سمات المنهج الاقتصادي، ومعالم التعامل الصحيح في عمليّة التبادل التجاري؛ كيلا ننحرف عنه ونقع في الخطأ والحرام والإثم. ولو أننا ابتعدنا عن هذا المنهج العظيم وهذا الطريق الصحيح، واتبعنا سبيلاً غيره من الأنظمة الوضعيّة السائدة، فإننا سنخلق منهجاً اقتصاديّاً سيّئاً قائماً على أساس الابتعاد عن العامل الخلقي، وكذلك فإننا نكون قد أضعنا وصفة السماء، وهي الوصفة الصحيحة التي تصفها للمجتمع؛ كي يعيش بطبيعة الحال السعادة، وكي يعيش الاستقرار والأمن وكي يبتعد عن الاعوجاج.

إننا إنما ابتعدنا عن كلّ هذا؛ لأننا لم نطبّق هذه الوصفات التي هي عبارة عن مضامين عالية، والتي هي عبارة عن قواعد وقوانين وأُسس تربويّة عالية على شتّى الأصعدة. فكلّ شيء نزل به القرآن فهو عظيم، وكلّ قانون رسمه القرآن هو قانون سامٍ وعالٍ، لكننا لم نطبق هذه المضامين ولم نلتفت إلى هذه الحقائق الراقية

السامية التي توفّر عليها هذا الكتاب المقدّس؛ وبالتالي فإننا نكون قد أضعنا أنفسنا، وتركنا الثقافة الوافدة تتقاذف بنا كما تتقاذف الريح السفينة وسط البحر. يقول تعالى في كتابه العزيز: **﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾**[1].

فالقرآن الكريم يأمرنا بأن ندعو هؤلاء الربائب وأمثالهم لآبائهم، لا أن ندعوهم لأنفسنا، والهدف أن القرآن الكريم يريد أن يقرّر العرب بأن عندهم في موروثهم وثقافتهم وحضارتهم حالة يحتقرون فيها الإنسان الذي يُقال له «ابن فلانة»، فهم حينما يريدون أن يحتقروا شخصاً نسبوه إلى أُمّه فقالوا له: «ابن فلانة»، أو «ابن النابغة»، أو «ابن المترهّلة»، أو «ابن الرطبة». ونسبة الإنسان إلى أُمّه يعدّ لوناً من ألوان الشتم عندهم.

وهكذا يتّضح أن القرآن الكريم يريد منهم أن يتركوا هذا الأُسلوب الذي لا يلتقي مع مبادئ الدين الإسلامي وأوّليّاته؛ لأنه أُسلوب يؤدّي إلى حدوث مهاترة وحدوث حالات من المشادّة بين الإنسان وأخيه الإنسان. أمّا حينما يدعى الإنسان باسم أبيه، فيقال: «فلان بن فلان»، فإن فيه بعداً عن موارد الشتم، كما أن المجتمع سوف يحفظ له هذا النسب، وبالتالي فإنه سيحترمه ويقدّره.

وخلاصة الأمر أن القرآن الكريم يريد أن يعوّد هؤلاء على استعمال الأدب في التعبير والتخاطب، لكن بعض المفسّرين يذهب بعيداً ويشطّ كثيراً حينما يحاول أن يستنتج شيئاً آخر بعيداً عن المعنى الصحيح والمراد لهذه الآية، وهو في حقيقته خلل في التفسير، فهذا البعض من المفسّرين يقول: إن الآية الكريمة ليست ناظرة إلى هذا المعنى المارّ، وإنما هي ناظرة إلى أن الولد لا يحمل شيئاً من أُمّه وأن الأُمّ

---

(١) الأحزاب: ٥.

لا دخل لها في عملية خلق الولد، بل إنها مجرّد وعاء لحمله وليس أكثر، أمّا الأب فهو العامل الوحيد المؤثّر في عمليّة الخلق هذه. ومعنى هذا أن الأُم لا تأثير لها على الولد بعكس الأب الذي هو كلّه تأثير عليه.

ومعلوم أن هذا المبدأ كان شائعاً عند العرب فترة طويلة، يقول المأمون:

لا تَـزدَرِينَ فـتىً مـن أن تكـونَ لهُ ... أمٌّ مـن الرومِ أو سـوداءُ عـجماءُ
فـإنَّما أُمَّـهاتُ النَّـاسِ أوعـيةٌ ... مُسـتودَعاتٌ وللأنسـاب آبـاءُ[1]

وبناءً على هذا فإن الأُم هي مجرّد وعاء كما قلنا، وليس لها أي تأثير على الولد، ولا في عملية خلقه. وبطبيعة الحال فإن هذا جاء نتيجة التفسير المغلوط لآيات الكتاب العزيز، فالإنسان حينما يشاهد الهيكل الذي يُريد أن يصفه له القرآن الكريم كي يحفظ حياته يجد أنه ينهدم أمام عينيه، فهو قد انهدم بسوء تصرّفاتنا نحن بني البشر، ونتيجة سوء تطبيقنا لمفاهيم الإسلام وسوء تفسيرنا لآيات القرآن الكريم.

المعنى الثاني أنه الكريم

أمّا كيف أن القرآن كريم، فيتّضح هذا ممّا أعدّ اللّه تعالى من العطاء الجزيل والخير العظيم لقارئه ومتّبع أحكامه.

فضيلة قراءة القرآن

وقد ورد في جملة من الأحاديث الشريفة أن **«من قرأ القرآن في المصحف متّع بصره وخفّف عن والديه وإن كانا كافرين»**[2].

---

(١) السيَر الكبير (الشيباني) ١: ٤٦٦/٣٢٧.
(٢) الكافي ٢: ٦١٣ / ١، ثواب الأعمال: ١٠٢.

ويقول الرسول الأكرم ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»**(١).

ويقول ﷺ: **«قراءة القرآن تطهّر القلب من النفاق»**.

ويقول ﷺ: **«التطلّع في القرآن الكريم قربة من القربات إلى الله عزّ وجلّ»**.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«تعلّموا القرآن؛ فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه؛ فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره؛ فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته؛ فإنه أحسن القصص»**(٢).

فالواقع أن القرآن الكريم مصدر مجدنا ووجودنا وكرامتنا وعزّنا، وهو كذلك مصدر حضارتنا، ويكفي هذا الشهر (شهر الله.. شهر رمضان) شرفاً أن نزول القرآن الكريم كان فيه، قال تعالى: **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾**(٣).

وقال عزّ من قائل: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾**(٤). وعليه فإن قراءة القرآن تستحب في ليالي هذا الشهر المباركة سيما في ليلة القدر، هذه الليلة التي يعبّر عنها الجهني في روايته المشهورة بأنها الليلة الثالثة والعشرون من هذا الشهر المبارك، ورواية الجهني هي كما يرويها زرارة عن أحدهما عليهما السلام من أنه دخل عليه، فسأله عن الليالي التي يستحبّ فيها الغسل في شهر رمضان، فقال عليه السلام: **«ليلة تسع عشرة، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين»**. وقال: **«في ليلة تسع عشرة يكتب**

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٣: ٣٦٣ / ٣٧٨٨، مسند أحمد ٢: ٢٥٢، ٢، ٤٠٧، صحيح مسلم ٨: ٧١.
(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١١٠.
(٣) البقرة: ١٨٥.
(٤) القدر: ١.

وفد الحاج، وفيها يفرق كلّ أمر حكيم، وليلة إحدى وعشرين رفع فيها عيسى ﷺ وفيها قبض وصي موسى ﷺ، وفيها قبض أمير المؤمنين ﷺ، وليلة ثلاث وعشرين، وهي ليلة الجهني [١]**، وحديثه أنه قال لرسول الله ﷺ: إن منزلي ناءٍ عن المدينة، فمرني بليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة في شهر رمضان. فدعاه رسول الله ﷺ، فسارّه في أذنه، فكان الجهني إذا كانت ليلة ثلاث وعشرين دخل بإبله وغنمه وأهله وولده وغلَمته، فبات تلك الليلة في المدينة، فإذا أصبح خرج بمن دخل به، فرجع إلى مكانه».**

وفي رواية عبد الله بن بكير: «**فأمره بليلة ثلاث وعشرين**» [٢].

الغاية من إخفاء ليلة القدر

وكأنما الغاية من إخفاء هذه الليلة المباركة هو توسيع دائرة الفترة الزمنية التي يتقرّب فيها العبد من ربّه، فكلّما اتّسع زمان العبادة كثرت ساعات التصاق العبد بربه. فالغاية إذن هي أن ينصرف الإنسان إلى اللّه سبحانه وتعالى.

وفي هذه الليالي الأخيرة.. الليالي التي تسمى ليالي القدر يستحبّ الكثير من الأعمال التي يستحسن إيقاعها فيها؛ فيستحب للإنسان أن ينشغل فيها بالعبادة وقراءة القرآن والصلاة بشكل خالٍ من الرياء والتفاخر أمام الناس. فلو كان المصلّي يشعر بأن إحياءه لهذه الليالي يسبّب له لوناً من الرياء، بمعنى أنه يشعر بالارتياح عندما يراه الناس وهو قائم وقاعد وراكع وساجد، فإنه حينئذٍ لا ينتفع بها ولو كانت صلاته من المغرب إلى الصباح؛ لأن هذا يعني أنه يعيش في لحظات

---

(١) واسمه عبد اللّه بن أنيس الأنصاري.

(٢) انظر: دعائم الإسلام ١: ٢٨٢، الفقيه ٢: ١٦٠ - ١٦١ / ٢٠٣١، تهذيب الأحكام ٤: ١٩٦ / ٥٦١.

رياء، فمثل هذه العبادة تعتبر غير مقبولة، بل إن ركعتين سرّاً يـؤديهما الإنسـان بعيداً عن أنظار الناس فيما بينه وبين ربّه أفضل من كلّ هذه العبادة.. أفضل مـن هذه الألف الركعة التي يأتي بها رياءً في المسجد أمام الناس ليقال فيه: إنه عابد، وإنه مصلٍّ، أو إنه تقي.

فالإنسان إذن يجب أن يجعل عمله خالصاً لوجه اللّه تعالى؛ لأنه إذا راءى في عمله ينادى بأربعة أصوات يوم القيامة **«ياكافر، يا فاجر، يا غادر، ياخاسر، حبط عملك وبطل أجرك، ولا خَلاق لك؛ فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له»**[1].

وهذه خسارة مضاعفة يصل إليها الإنسان؛ لأنه حينئذ يكون قد فقد شيئين: الأجر والراحة؛ ذلك أنه قد أجهد نفسه في العبادة، فأتعب جسـمه، ولم يـحصل على الأجر؛ لأنه قد راءى فيه. ثم إن هذه الخسارة تتجسّد في أنه ليس هنالك من استثمار إيجابي لوجود الإنسان داخل المسجد.. هذا المسجد الذي هو بيت اللّه جلّ وعلا.. المسجد الذي كان أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلاة والسلام) يقول فيه: **«الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة؛ لأن الجـنّة فـيها رضـا نفسي، والجامع فيه رضا ربّي»**[2].

فالإنسان حينما يجلس في المسجد فالمفترض به أن يسعى إلى تحصيل رضا اللّه جلّ وعلا؛ لا أن يذهب هذا الجلوس هدراً بعدم الذكـر، أو بـالتفوّه بـفضول الكلام الذي لا يثاب المرء عليه بل ربما عُوقب لتدخّله فيما لا يعنيه[3]. ثـم إن

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٦٧٧ ـ ٦٧٨ / ٩٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠.

(٢) إرشاد القلوب: ٢١٨، وسائل الشيعة ٥: ١٩٩ / ٦٣٢٥.

(٣) مرّ أمير المؤمنين عليه السلام برجل يتكلّم بفضول الكلام، فوقف عـليه، ثـم قـال: «إنك تـملي علىٰ حافظيك كتاباً إلى ربّك، فتكلّم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك». الأمالي (الصـدوق): ٨٥ / ٥٣.

المسجد هو في حقيقته جنّة أيضاً؛ إذ أنه جنّة روحيّة للإنسان؛ ذلك أن الجنّة المادّيّة في واقع الأمر لا تملأ شعور الإنسان باللذّة، ولا تعطيه الإحساس بها كاملة؛ فاللذائذ المادّيّة سريعة الزوال. ونحن حينما نسميها لذائذ، فإنما نتجوّز في هذه التسمية، أي أنها تسمية مجازية، وإلّا فإنها في حقيقتها ليست بلذائذ أبداً، وإن كانت كذلك فهي قصيرة الأمد سرعان ما تزول.

ومن هذا مثلاً أن الإنسان حينما يأكل طعاماً يتلذّذ به، فإن هذه اللذّة الناشئة من مضغ الطعام وتذوّقه ستذهب بمجرّد وصول الإنسان إلى مرحلة الشبع، وبمجرد أن يُنهي طعامه. فاللذّة حينئذ تذهب بذهاب عملية الأكل.

وليس هذا الأمر مختصّاً بالطعام أو الشراب أو الغريزة الجنسيّة، بل إنه يمتدّ ليشمل حتى حالات البناء واللباس؛ فمثلاً حينما يبني الإنسان بيتاً فخماً كبيراً، فإنه سيلتذّ بالسكن فيه، وحينما يدخله يشعر بالفرح والنشوة، لكن هذه النشوة وهذا التلذّذ سرعان ما يضمحلّان تدريجياً ورويداً رويداً حتى ينتهي أثره نهائياً بعد فترة زمنية، بحيث إنه سيدخل هذا البيت ويخرج منه وكأنه قد دخل إلى بيت عادي لا إلى قصر فخم، فلا يكاد يحسّ بذلك الإحساس عينه الذي كان يحس به حينما بنى بيته أول مرّة، أو حينما سكنه أول لحظة.

أمّا لو جلس الإنسان إلى عالم، أو في المسجد واستفاد من هذا الجلوس ومن وجوده في المسجد بعبادة أو مذاكرة القرآن وأحكامه وتشريعاته أو انتفع بمسألة خلقيّة أو علميّة، فإنه سيبقى منتشياً متحسّساً تلك اللذّة حتى بعد أن يمرّ زمنها، أو حتى بعد أن يمرّ وقتها لأنه كلّما تذكّرها أحسّ بتلك اللذّة والنشوة تتملّكانه؛ كونه قد علم شيئاً، أو كونه قد ابتكر شيئاً، أو كونه قد اكتشف شيئاً، وما إلى ذلك. فصاحب النظريّة أو الاكتشاف قد يبقى يتحسّس لذّة تلك النظريّة أو الاكتشاف

ما دام على قيد الحياة.

فاللذائذ الروحية هي التي تخلد ويبقى أثرها ما دام الإنسان على قيد الحياة، بل إن هذه اللذّة الروحيّة سوف تصاحب الإنسان حتى بعد موته حينما يقف بين يدي اللّه عزّ وجلّ يوم القيامة.

وعليه فان الإنسان حينما يتوجه إلى المسجد ويقف بين يدي البارئ عزّ وجلّ يناجيه ويخاطبه ويدعوه، فإنه سيعيش في جنّة روحيّة، يقول رسول اللّه ﷺ: **«من توضّأ وخرج من بيته قاصداً بيت اللّه، كان في ضيافة اللّه تعالى»**.

فما الذي يمكن أن يدور في خلدنا من كرم سيقدّمه اللّه عزّ وجلّ لشخص سيكون ضيفه؟ وكيف سيكون إحساس الإنسان إذا علم أن هذا الكرم والعطاء الربّانيّين سيتضاعفان أضعافاً كثيرة إذا وقع ذلك في شهر رمضان، بل سيتضاعف أكثر وأكثر إذا وقع في هذه الليالي المباركة؟

كيف نحيي ليالي القدر؟

أما إحياء هذه الليالي فليس له حدّ، ولم يُفرض فيه مقدار معيّن على الإنسان، فلا يكلّف اللّه نفساً إلّا وسعها، فبوسع الإنسان أن يقرأ من القرآن بقدر ما يستطيع، وأن يصلي بقدر ما يتمكّن من ذلك وبالمقدار الذي يقوى عليه من الصلاة وقراءة القرآن. فهذه الأُمور تتعلّق بالاستعدادات الشخصيّة، وبإقبال القلب وإدباره، وبطبيعة النفس عند الإنسان.

من مستحبات ليالي القدر

لكن لا بأس بأن نشير إلى أن من المستحبّ والمسنون في مثل هذه الليالي المباركة أن يهدي الإنسان ثواب بعض الأعمال إلى أبويه إذا كانا ميّتين. وهذه

العبادة التي تهدى إلى الأبوين تختلف عن تلك التي يُعطي الإنسان إزاءها مبلغاً من المال إلى غيره ليصلّي عنهما أو ليصوم، أو لينوب عنهما في أداء فريضة الحجّ مثلاً أو الزيارة أو ما إلى ذلك؛ لأن مثل هذه الصلاة ستفقد الحرارة التي يمكن أن تكون عليها فيما لو صلّاها الابن نفسه لوالديه.

فهذا الإنسان حينما يقف بين جدران البيت، أو بين جدران المسجد ويقرأ القرآن بمحض رغبته، ويتوجّه إلى الله بكامل الإرادة والانقطاع، ثم يُهدي ثواب هذا العمل إلى والديه، فإنهما سيتلمّسان الحرارة في مثل هذا الأداء وفي مثل هذا العمل؛ لأنه حينئذ يكون نابعاً من قلب الولد، وسيكون حينئذ متأثّراً بمشاعره وأحاسيسه تجاه أبويه اللذين غيّبهما عنه التراب. سُئل الإمام الصادق﵇: يصلّى عن الميت؟ فقال﵇: **«نعم، حتى إنه ليكون في ضيق فيوسّع الله عليه ذلك الضيق، يؤتى فيقال له: خُفّف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك»**. فقيل له: فنشرك بين رجلين في ركعتين؟ قال﵇: **«نعم»**. ثم قال﵇: **«إن الميّت ليفرح بالترحّم عليه والاستغفار له كما يفرح الحيّ بالهديّة تُهدى إليه»**[(١)].

فهذه الهدية إذا وصلت إلى الميّت فإنها تحمل إليه الخير العميم والاستغفار والذكر. ومن المستحبّات أيضاً في هذه الليلة الصلاة والاغتسال والدعاء والانقطاع إلى الله عزّ وجلّ؛ لأن في هذه الليلة تُكتب المنايا والبلايا ووفد الحاجّ[(٢)]. فكلّ ما يخصّ الإنسان في عامه القابل منذ لحظته هذه إلى لحظته التي تمثلها من عامه القابل، يُكتب على الإنسان ليلة القدر.

---

(١) الفقيه ١: ١٨٣ - ١٨٤ / ٥٥٤، عوالي اللآلي ٢: ٥٣ - ٥٤ / ١٤١.
(٢) الدعوات: ٢٠٧/٥٦١، بحار الأنوار ٩٤: ٥/٥.

نظرة حول البداء

وأرجو أن يُنتبه هنا إلى معنى البداء، وهو أن الإنسان يكتب له عمر محدّد في مثل هذه الليلة أو رزق محدّد أو قضية محدّدة، لكن بشرط وجود شيء أو بشرط عدمه. فالإنسان مثلاً لو كتب له أنه سيعمّر مئة سنة، لكنه بشرط شيء هو أن يصل رحمه، فإنه لا يعمّر المئة ولا يصل إليها ما لم يصل رحمه؛ فإن وصله وإلّا فلن يصل إلى هذا العمر، بل إنه سيعمر ثمانين سنة مثلاً. والعكس صحيح، وكذا في قضيّة الأرزاق والمصائب والابتلاءات والأفراح والمسرّات وما إلى ذلك من أعراض الدنيا.

إن معنى هذا أن المشروط عدم عند عدم شرطه، فإذا تخلّف الشرط تخلّف المشروط. ولا يعني هذا أننا ننسب إلى اللّه سبحانه وتعالى الجهل، بل إنه تعالى يعلم كلّ شيء في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن ما عندنا من بداء هو بهذا المعنى، أي أن اللّه جلّ وعلا يعلّق حصول شيء على وجود غيره؛ فيعطي الإنسان عمراً طويلاً بشرط أن يصل رحمه، فإذا لم يصل رحمه بدا لله حينئذ أن يقصّر من عمره.

إننا نبرّئ اللّه جلّ وعلا من دعوى أنه يعلم بعد جهل؛ لأن هذا الذي يعلم بعد جهل هو كائن ناقص وليس كاملاً، واللّه جلّ وعلا ذات مقدّس ومنزّه عن النقائص، وهو عنوان الكمال وغايته. كما إننا نصرّح في كلّ كتبنا ومن كلّ منابرنا بأن من يقل: إن اللّه جلّ وعلا يعلم بعد جهل فهو كافر. وما هؤلاء الذين يهرّجون على الإماميّة بأنهم يقولون بالبداء مصوّرين ذلك بصورة أنه علم بعد جهل إلّا أُناس مغرضون، وهم حثالات لا يراعون وحدة المسلمين، وهم في واقع الأمر أُناس تخلّت عنهم ضمائرهم، وفارقهم وازعهم الديني، ولا يرقبون اللّه في

كلامهم، وفيما تثبته أقلامهم.

إن قضيّة البداء قد طُرحت عندنا في عشرات المصادر أو الكتب التي اُلفت سواء حول هذا الموضوع مستقلّة، أو سواء كان ضمن مواضيع اُخرى من علم الكلام، وكلّها لا تشير ولا تثبت ولا تقرّ هذه التهم التي نُتّهم بها من أن اللّه يعلم بعد جهل.

رجـع

على أية حال فإن اللّه تعالى يكتب وفود الحاجّ إلى بيته الحرام في ليالي القدر، أي أن من كتب له أجل فإن أجله يمتدّ حتى يذهب إلى بيت اللّه، ويحجّ هذا الحرم الطاهر المقدّس، ويؤدّي هذه الفريضة الصرورة. بمعنى أنه يكتب له أن يعيش إلى السنة التالية، ويكتب له الصحّة والعافية. فلكل هذه الاُمور يكتب للّه تعالى البداء في ذلك. واللّه عزّ وجلّ يُحبّ من عبده أن يتضرّع إليه؛ لأن التضرّع إليه جلّ وعلا لون من ألوان العبوديّة ونمط من أنماط الكمال. ولابدّ للإنسان من أن يستمدّ هذا الكمال من قوّة مطلقة، وليست هذه القوة المطلقة إلّا اللّه جلّ وعلا.

والإنسان بإقراره بعبوديّته لهذا الخالق العظيم يكون قد سعى إلى تحصيل الكمال لنفسه؛ لأنه مخلوق ناقص أبداً، ويحتاج إلى من يرعاه ويمدّه بالكمال، يقول تعالى: **﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾**(١).

فالإنسان في واقع الأمر يجب عليه أن يستثمر هذه الليلة، وأن ينقطع فيها إلى عبادة اللّه جلّ وعلا، وأن ينشغل بمناجاته وقراءة القرآن والدعاء وما إلى ذلك من المستحبّات التي وردت في روايات رسول اللّه ﷺ وأهل بيت العصمة من

---

(١) الفرقان: ٧٧.

آله عليهم السلام ، فينتفع بعطائها. سئل أحد العبّاد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيتَك؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن يكلمني اللّه قرأت القرآن؛ لأنه كلام اللّه، وإذا أحببت أن أُكلّم اللّه دعوته وصلّيت له.

ذلك أن اللّه تعالى ليس له حجاب يحجبه عنه حينما يخاطبه، فهو يخاطبه مباشرة دون واسطة أو حاجب أو بوّاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، فنحن إذ نقرأ هذه الآية نكون بين يديه خاضعين خاشعين لجلالته ولعظمته ولقدرته. فاذا قرأ الإنسان القرآن في هذه الليلة المباركة فإنه يكون قد حصل على الأجر العظيم من اللّه جلّ وعلا.

وليس معنى هذا أن القرآن لا تستحبّ قراءته في كلّ آن وفي كل زمان، بل إننا مندوبون إلى قراءته كلّما سنحت لنا الفرصة لذلك، فللقلوب إقبال وإدبار[2] ويجب أن نستغلّ إقبالها في التوجّه إلى اللّه والانقطاع إليه، وفي قراءة القرآن وأداء النوافل.

وهذا هو دأب أيمّتنا عليهم السلام حتى في أحلك ساعاتهم، كما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرمّ الحرام، فقد دخلت عليه أُخته الحوراء زينب عليها السلام وكانت مرهفة الحسّ والشعور، فأخبرها بما سيكون عليه من أمر هو وأهل بيته وأصحابه يوم العاشر من المحرّم، وأن صباحه صباح حزن، يحمل إليها المآسي والآلام.

فأحسّت بأن الإمام عليه السلام ينعى إليها نفسه الشريفة، فندّت من عينها دمعة، فمدّ

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن للقلوب إقبالاً وإدباراً؛ فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض». نهج البلاغة / ٣١٢.

الإمام الحسين بيده إلى جيبه وأخرج منديلاً ليمسح به الدمع من عينيها، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين وقال لها: **«يا أُخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان»**. ثم ترقرقت عيناه بالدموع وقال: **«ولو ترك القطا لناما»**.

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصابا؟ فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي. ثم خرّت مغشيّاً عليها، فقام الحسين فصبّ على وجهها الماء وقال لها: **«يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كلّ شيء هالك إلّا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون، وهو فرد وحده. أبي خير منّي، وأُمّي خير منّي، وأخي خير منّي، ولي ولكلّ مسلم برسول الله أُسوة»**.

فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: **«يا أُخيّة إني أقسمت فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور. أُخيّة إذا أنا هلكت»**[1]. فصاحت: والوعتاه ابن أُمّ[2]:

إن چان تريدني أنسى	ابطل النوح وونيني
إخذ ذكراك من گلبي	واخذ صورتك من عيني

(١) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الأمالي (الصدوق): ٢٢١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

أيّـــام الچـنت ويّـاك   أنـــاغيك وتـــناغيني

* * *

منهو انـصدع يا بـين صـدعي   لهـدات تسـعر تـحت ضـلعي

أخـبي عـن الشـمّات دمـعي   واضمّ ونّتي حتى على سـمعي

واذكرك بنصّ الليل والعِي

﴿١٧٦﴾

مزايا الرسول الأكرم ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[1].

مباحث النص الشريف

في هذه الآية الكريمة مجموعة أبحاث أعرض لها إن شاء الله تعالى على التوالي:

المبحث الأول: معنى التوكل وموضوعه

إن موضوع التوكّل من المواضيع التي يكثر حولها التساؤل، وإثارة علامات الاستفهام؛ لما ينطوي عليه من مورد خلاف بين المسلمين. ونحن قد اعتدنا في حياتنا اليوميّة وفي معاملاتنا على أن نقول عند كلّ مناسبة منها: توكلت على الله، فالمجتمع عندما يكثر من ترديد هذه الكلمة والتأكيد عليها عند كلّ حركة أو فعل فهو يعني أنه يعتمد في أُموره كلّها على الله تعالى. ولنا هنا أن نتساءل عن ماهية التوكّل هذا، وعن معناه الشرعي، إنّ التوكّل بمفهومه العامّ يعني تفويض الأمر،

---

(١) الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩.

فحينما نقول: توكّلنا على الله فإن هذا يعني أننا نفوّض أُمورنا كلّها إليه تعالى يتصرّف فيها كما يشاء ويريد.

التوكل بين الوعي واللاوعي

لكن بناء على هذا التعريف يرد إشكال هو أن التوكّل بهذا المعنى هل يعدّ توكّلاً واعياً، أم أنه توكل غير واعٍ؟ بمعنى هل إنه عملية عقلية إرادية واعية، أو إنه عملية من متبنّيات اللاوعي عند الإنسان؟ سوف أنقل هذه الحادثة التي تلقي الضوء على هذه المسألة وتزيدها إيضاحاً كي نتمكن من أن نخلص إلى النتيجة الصحيحة حول هذا الإشكال. دخل أعرابي على النبيّ ﷺ في المسجد فقال له النبي ﷺ: **«أين تركت راحلتك؟»**. قال: يا رسول الله، أرسلتها وتوكّلت على الله. فقال له النبي ﷺ: **«اعقل وتوكّل»**[(١)].

أي أن على الإنسان أن يحصّل الأسباب الطبيعية أولاً ثم بعد ذلك يتّجه إلى التوكّل؛ كي يكون حينئذ عملية واعية يتحكّم بها العقل والشعور. فبعد أن يكمل الإنسان الأسباب الطبيعية التي يجب عليه مراعاتها فإنه حينئذ يترك الباقي على الله تعالى ليدبّر له أمره ويدير له حياته. فالأسباب الطبيعية لابدّ من تحصيلها أوّلاً في كلّ حال؛ باعتبارها القدر العقلائي الذي يعتمد عليه الإنسان في تحصيل مقدّمات العمل الذي يقدم عليه وفي تصريف أُموره.

وينبغي التنويه إلى أنه يجب ألّا يفهم من هذا أن الأسباب الطبيعيّة لها الأثر الكامل في حياة الإنسان، أو أنها علّة تامّة لحدوث مجرياتها، فهذا الاعتقاد غير صحيح مطلقاً، فهي مطلقاً لا تكون العلّة في ذلك أو في حفظ الإنسان متعلّقاته.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٠١.

فالأعرابي حينما يعقل ناقته فهذا لا يعني أنه قد أمن عليها من السرقة أو التعدّي أو الموت، لكن هذه المقدّمات هي من مسؤوليّة الإنسان وواجباته؛ لأنه لو لم يعقلها في مكان أمين ثمّ تعرّضت للتعدي فإنه سيجعل من نفسه عرضة للوم أهله وأصحابه، أما لو عقلها كذلك ثم توكل على اللّه لكنها تعرضت للسرقة أو التعدّي فإنه حينئذٍ لا لوم عليه. فهذا التصرّف (عدم عقل الناقة) يعدّه المشرع تصرّفاً خالياً من الشعور بالمسؤولية.

وعليه فإن الإنسان يجب أن يتصرّف دائماً بداع من الشعور بالمسؤولية في كلّ مجالات تصرّفه، وليس في بعضها دون البعض الآخر؛ فكلّ ما يصدر عن الإنسان من فعل يجب أن يكون خاضعاً لهذا الشعور. وهذا هو معنى التوكّل الصحيح، أي الذي تتوفّر فيه المقدّمات وتحصيلها دون التوكّل الخالي عنها إلّا الأشياء التي تكون خارجة عن قدرة الإنسان لظرف يقسره أو لحالة ألجأته إليها طبيعته.

إذن فالأغلب من أُمور الإنسان لا يكفي فيها التوكّل وحده، فأن يقول الإنسان: توكّلت على اللّه، ويكتفي ثم ينتهي الأمر لهو اعتقاد باطل غير صحيح، بل لابدّ من عمل معه، ثم بعد ذلك يأتي دور التوكّل. سأل أبو الأسود الدؤلي أحد أبنائه ـ وهو أبو حرب ـ عن سبب عدم خروجه لطلب الرزق، وكان قد لزم منزل أبيه بالبصرة؛ فلم يكن ينتجع أرضاً، ولا يطلب الرزق في تجارة ولا غيرها، وعاتبه على ذلك ليحثّه على العمل، فقال له أبو حرب: إن كان لي رزق مقدّر فسيأتيني. فقال له أبوه:

وما طلب المعيشة بالتمنّي ... ولكن ألقِ دلوك في الدلاءِ
تجئك بملئها يوماً ويوماً ... تجئك بحمأة وقليل ماءِ[1]

---

(١) مستدركات أعيان الشيعة ١: ٦٣، خزانة الأدب ١: ٢٨٠.

فالمهم أن على المرء أن يعرض نفسه على مواطن الكسب ولا يظلّ حِلس بيته ينتظر قدوم رزقه كما ينتظر قدوم موته. إن مثل هذا التصرّف من الإنسان يعدّ تصرّفاً غير واعٍ وغير مقبول، لأنه ينطوي على لون من تأخير الأسباب الطبيعية عن مجال تحرّكها، وعزلها عن ميدان عملها.

ثم إن المفترض بالإنسان أنه كائن منتج، وطبيعة الكائن المنتج تحتّم عليه أن يحرز مقدّمات الإنتاج التي يتطلّبها هذا المشروع؛ فعليه أن يهيّئ نفسه وفق قواعد السنن الكونية لتحقيق هذا الأمر، ثم يترك المتبقّي على اللّه جلّ وعلا.

إذن لا شك في أن التوكل على اللّه تعالى نوع من الأعمال النفسية العامة، والجانب النفسي أمر ضروري للإنسان، والإنسان لا تكفيه صحته الجسدية في أداء دوره في الحياة ما لم تصاحبها الصحة النفسية التي تعد أساساً مهماً جداً في استقامة السلوك وتوازن الفرد، وبانعدامها لا يمكن للإنسان أن يعيش حياةً مطمئنة. وينبغي التنويه إلى أن الصحّة النفسية لا يمكن لأي شيء في الوجود أن يهيئها للإنسان سوى العقيدة، ولا يمكن أن توجد إلّا في ثناياها وثنايا الدين؛ لأنهما الطرفان الوحيدان اللذان يوفران الطمأنينة للفرد والمجتمع، وهما اللذان يمتصّان من النفس شعورها بالألم.

ويمكن تقريب هذا بما لو أن إنساناً أصابته مصيبة فإنه سينهار تحت وطأتها وضغوطها ما لم يكن متسلحاً بعقيدة وإيمان باللّه تعالى، ويعتقد اعتقاداً تطمئنّ معه نفسه إلى أن اللّه سيعوّضه عن مصيبته هذه وسيلهمه الصبر عليها. إن اعتقاد الإنسان هذا هو لون من ألوان الإيمان بأن هناك من يمدّه بالقوة عند مصيبته، وسيمنحه الطاقة على امتصاص الشعور بالألم والتمزّق الذي سوف ينتابه فيما لو لم يكن متسلحاً بهذا الإيمان. ولذلك فإن القرآن الكريم يسعى إلى أن يشبع هذه

الظاهرة عند الإنسان وإلى أن يحيي هذا الجانب النفسي عنده: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1]، أي أننا جميعاً عائدون إلى الله تعالى.

المبحث الثاني: في متعلّق التوكّل وصفاته

تقول الآية الكريمة: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، فهي تأمرنا بالتوكل على الله جلّ وعلا، وعلينا أن نتوقف عند هاتين الصفتين ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وإلى وجه الجمع بينهما، وهو أمر هام جداً وضروري. ومنشأ هذه الأهمية أن هذه الآية الكريمة بعد أن أمرتنا بالتوكّل، بيّنت لنا صفات الذي ينبغي أن نتوكّل عليه، فقالت: ﴿الْعَزِيزِ﴾، أي القوي الذي يصحّ الاعتماد عليه، ثم قالت: ﴿الرَّحِيمِ﴾، أي أن من نتوجّه إليه لنتوكّل عليه عزيز، وفي الوقت نفسه رحيم بعباده عامّة ومن يتوكّل عليه خاصّة. فهذه الرحمة تقابل العزّة وتعادلها دون أن تمسخها.

إن بعض ذوي الرحمة يصل بهم الأمر في مواطن معيّنة إلى درجة أنهم يفقدون معها الحزم في معالجة الأُمور وإلى درجة من الرقّة لا يخاف منه، وكذلك إن البعض من ذوي القوة أو العزّة يصل بأحدهم الأمر أنه يفقد الإحساس بالرحمة تجاه الآخرين فينتصف لنفسه ولا يُنتصف منه، أما عند الله تعالى فإن الأمر مختلف، فهو رحيم عزيز.. رحيم في موقف يقتضي أن تكون فيه رحمة ولين، وعزيز في موقف يقتضي أن يكون فيه حزم وشدّة واتخاذ قرار مناسب. وهذا لأجل تحديد صورة تحقّق للإنسان معنى التوازن وطبيعته؛ فيبيّن له أن الله تعالى من جهة قوي عزيز وحازم، ومن جهة أُخرى هو رحيم رفيق بالآخرين يتعامل

---

(١) البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧.

معهم على ضوء هذه الرحمة والرفق واللين. فالجمع بين هاتين الصفتين يهدف من ورائه إيجاد معنى التوازن هذا.

ولو تتبّعنا التاريخ لوجدنا أن فيه الكثير من الأعزّاء الذين تصل بهم عزّتهم إلى مرحلة القسوة التي أراقوا معها الدماء وانتهكوا الأعراض والحرمات[1] دون أن تغشاهم ذرّة من رحمة بأولئك المظلومين. أمّا رحمة البارئ جلّ وعلا فيمكن أن تشمل حتى فرعون نفسه، حينما فرض اللّه تعالى الزكاة على النبي موسى ﷺ وأوجبها على بني إسرائيل، أبى قارون أن يدفعها، فصالحه نبي اللّه موسى ﷺ عن كلّ ألف شيء على شيء واحد، فلمّا رجع قارون إلى بيته وحسب مقدار المبلغ وجده كبيراً هائلاً مع أنه يعادل (١٠٠ر٠)، من ثروته، فلم تطب له نفسه بدفعه.

وربما كان هنا عنصر مبالغة في تصوير هذه الثروة الضخمة، بل ربما كان وصفاً أُسطورياً، لكن الغرض أنه ورد بهذا التعبير ليبيّن لنا الصورة التي رسمتها الرواية لهذه الثروة.

على أية حال لم يرُق الأمر قارون، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: يا بني إسرائيل، إن موسى قد أمركم بكلّ شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: مرنا بما شئت. فقال: آمركم أن تجيؤوا بفلانة البغي، فنجعل لها جعلاً على أن تقذف موسى بنفسها، وتتّهمه بأنه قد زنى بها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه.

فأتوا بها، فجعل لها قارون حكمها على أن ترمي النبي موسى ﷺ بممارسة الخطيئة معها، وأن تقذفه بالزنا. فلمّا كان الغد أتى بنو إسرائيل، ثم أتى النبي

---

(١) كمسرف بن عقبة وسمرة بن جندب والحجّاج بن يوسف وغيرهم.

موسى عليه السلام، فقال له قارون: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك؛ لتأمرهم و تنهاهم، ولتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شريعتهم. فخرج عليه السلام إليهم، فقام فيهم خطيباً، فوعظهم وقال: **« يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مئة، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت »**. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال عليه السلام: **« وإن كنت أنا »**. فقال قارون: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فقال عليه السلام: **« أنا ؟ »**. قال: نعم. قال عليه السلام: **« ادعوها، فإن قالت فهو كما قالت »**.

فلما أن جاءت قال لها نبي اللّه موسى عليه السلام: **« يا فلانة، أنا فعلت لك ما يقول هؤلاء؟ »**. فتداركها اللّه تعالى بالتوفيق، وقالت في نفسها: لأن أُحدث اليوم توبة أفضل من أن أُوذي رسول اللّه عليه السلام، ثم قالت: لا، كذبوا، ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي.

فلما قالت هذا أُسقط في يد قارون، ونكس رأسه، وسكت الملأ، وعرف أنه وقع في مهلكة، وخرّ نبي اللّه موسى عليه السلام ساجداً يبكي ويقول: **« يا رب، إن عدوّك قد آذاني وأراد فضيحتي، اللهم إن كنتُ رسولك فاغضب لي وسلّطني عليه »**. فأوحى اللّه سبحانه إليه أن **« ارفع رأسك، ومر الأرض بما شئت تطع »**. فقال النبي موسى عليه السلام: **« يا بني إسرائيل، إن اللّه تعالى قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبت مكانه، ومن كان معي فليعتزل »**.

فاعتزلوا قارون، ولم يبقَ معه إلّا رجلان، ثم قال النبي موسى عليه السلام: **« يا أرض خذيهم »**. فأخذتهم إلى كعابهم، ثم قال: **« يا أرض خذيهم »**. فأخذتهم إلى ركبهم، ثم قال: **« يا أرض خذيهم »**. فأخذتهم إلى حِقوهم، ثم قال: **« يا أرض خذيهم »**. فأخذتهم إلى أعناقهم، وقارون وأصحابه في كلّ ذلك يتضرّعون إلى النبي

موسى﴿ع﴾، وقارون يناشده الله والرحم. حتّى روي في بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة، وموسى﴿ع﴾ لا يلتفت إليه لشدّة غضبه، ثم قال: **«يا أرض خـذيهم»**. فانطبقت عليهم الأرض، فأوحى الله سبحانه إلى موسى: **«يا موسى، استغاثوا بك سبعين مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزّتي وجلالي، لو إياي دعـوني مـرّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً»** (١).

وهذا هو الواقع ـ كما أشرنا ـ من أمر القسوة التي يكون عليها بعض ذوي العزّة والقوّة والمنعة، وهذه هي رحمة الله تعالى: **«لوجدوني قريباً مـجيباً»**. وهـؤلاء يتنامى رصيدهم من السيئات كلّ لحظة، لكن الله تعالى مع ذلك أعطاهم القـوّة والعافية والصحّة والأموال وكلّ المؤهلات الدنيوية؛ لأنه **«إنما يعجل من يخاف الفوت»** (٢)، والله جلّ وعلا لا يخاف الفوت؛ ولذا فإنه لا يعجل أبداً ولا يعاجل أحداً بالعقوبة، فكل الدنيا بسمائها وأرضها في قبضته (٣): **﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾** (٤). فللّه رحمة تسع البرّ والفاجر.

إذن ينبغي على الإنسان في ضوء حالة التوازن التي تحاول هذه الآية الكريمة أن تثبتها في أذهاننا وتبيّنها لنا أن يعرف أن الرحمة التي يشار إليها فـي جـميع

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٢٥٦ - ٢٥٧، تفسير الثعلبي ٧: ٢٦٤ - ٢٦٥، تفسير البغوي ٣: ٤٥٧ـ ٤٥٨.

(٢) الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاؤه﴿ع﴾ فـي ردّ كـيد أعـدائـه، مـصباح المـتهجّد: ٣٧٠ / ٥٠١.

(٣) ورد في الحديث القدسي الإلهي: «من لم يرضَ بقضائي، ولم يـصبر عـلى بـلائي، ولم يشكرني على نعمائي، فليخرج من أرضي وسمائي، وليطلب ربّاً سواي». الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ٨: ٣٨٠، المعجم الكبير ٢٢: ٣٢١.

(٤) الزمر: ٦٧.

موارد الإشارة في القرآن أو السنة يجب ألا تفارقها حالة من العزّة والحزم في اتّخاذ القرارات والمواقف الصحيحة. فاللّه تعالى إذا أراد أن يأخذ أحداً بذنبه فعل من غير أن يستطيع أحد الحيلولة دونه هذا، ولو أراد أن يعاقب مدينة لقلب عاليها سافلها[١].

إننا نرى الآن ما تفعله الزلازل والبراكين من تدمير لمدن بكاملها وطمرها، فكم من مدينة تنعم بوسائل الراحة والرفاهية والترف وإذا بها وقد ابتلعتها الأرض تحت وطأة بركان أو تهاوت تراباً من شدّة زلزال خربها: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢].

فالرحمة لابدّ أن تلازمها القوّة ويقارنها الحزم؛ كي تسير الأُمور على خير، ولتعمر الأرض. وهنا تكمن دقّة التعبير القرآني الذي يهدف إلى تركيز هذه الحالة في الأذهان، والتي تقترن فيها الرحمة بالحزم، وأن هذا يجب أن يكون شأن كلّ من يتصدّى للمسؤولية أو غيرها. فالإنسان يجب عليه ألّا يفرّق بينهما في جميع مستلزمات حياته ومواطن اتّخاذ القرارات والمواقف.

المبحث الثالث: فضل الصلاة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾، ربما يحمل من لا إلمام له بالأهداف والأساليب القرآنية في التعبير كلّ لفظ قرآني على ظاهره دون أن يحاول النظر إلى ما بين السطور واستخراج المعنى المراد من النصّ القرآني. ومن هذا قوله تعالى: ﴿تَقُومُ﴾ من آية المقام؛ فالقيام لغة هو الكيفيّة المضادّة

---

(١) كما يحدّثنا التاريخ عن سدوم وعاموراء، انظر تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٣٠٩.

(٢) هود: ١٠٢.

للقعود [١]، لكنه هنا يراد به صلاة الليل التي كان ﷺ يقومها، أي أن اللفظ لم يؤخذ على ظاهره.

والقرآن الكريم في هذه الآية المباركة يبيّن لنا أن قيام النبي الأكرم ﷺ ليله هو قيام لوجه اللّه تعالى ولأجله كما يشير إليه الخطاب القرآني له ﷺ. ودليل هذا أن المرائي لا يمكن أن يقوم ودونه ستر من ظلمات الليل، فالمرائي لا يصلّي إلّا أمام الحشود من الناس، فهو لا يقوم في السحر، بل يقوم في وضح النهار، فيعرض نفسه لأنظار الناس ليبيّن لهم أنّه من أهل الدين والتقوى، في حين أن الإنسان المخلص في دينه وتقواه، والذي يعزم على الانقطاع إلى اللّه تعالى خلاف ذلك تماماً.

انقطاع أمير المؤمنين ﵇

يروى أن أمير المؤمنين ﵇ كان يخرج ليلاً إلى بصيلات النخل ـ البصيلات: هي النخل الذي لا ينبت قرب مجرى الماء، أو نهر يشرب منه، بل إنه يشرب الماء عن طريق جذوره التي تمتدّ في الأرض ـ لينقطع إلى اللّه تعالى. وهذه العبارة تعني أن هذا النخل يقع بأطراف المدينة، فلا عمران قربه ولا ماء. فهو ﵇ كان يقصد ذلك المكان مبتعداً عن الرقباء والعيون؛ ليخلو إلى ربّه تبارك وتعالى، يناجيه ويدعوه ويعبده. وهنا نعرف أن في عبارة «بصيلات النخل» كناية عن انقطاع الإنسان لربّه بعيداً عن الأنظار.

وهذا الخلق والالتزام ممّا اكتسبه من الرسول الأكرم ﷺ؛ فقد كان ﵇ ملازماً له لا يكاد يفارقه، وقد كان ﷺ إذا أراد أن يقوم إلى اللّه سبحانه وتعالى قام في

---

(١) لسان العرب ٣: ٣٥٧ ـ قعد.

أعماق السحَر مناجياً عابداً حتى تورّمت قدماه من كثرة العبادة، فهبط عليه الأمين جبرئيل عليه السلام يحمل قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[١]، أي أن اللّه تعالى لم ينزل عليك القرآن لتعذّب نفسك كلّ هذا العذاب، وتقف إلى أن تتورّم قدماك وينتفخ ساقاك. وهنا يأتي الردّ النبوي الشريف معبّراً عن محض العبودية للّه تعالى والإذعان له: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**».

فهو ﷺ يخاطب جبرائيل عليه السلام مبيّناً له جملة من الحقائق، فقال: إن اللّه تعالى قد وهبني النعم الجزيلة، ومنحني عطاياه الكثيرة، فلابدّ أن أشكره، ومن مظاهر شكره تمجيده وتقديسه وعبادته. فاللّه تعالى حينما أفاض على الإنسان الوجود وجب عليه أن يشكره حقّ شكره وأن يشعر أنه لو لا هذا الخالق لما كان له وجود من أصل.

أقسام النعمة

إن الإنسان العالم الواعي لا يمكن إلّا أن يعتقد أن هذه النعم لابدّ أن تكون صادرة من خالق حكيم مريد. وإنه ليعلم كذلك أن أعظم نعمة أنعم بها اللّه تعالى عليه هي نعمة الحياة أو نعمة الوجود: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً﴾[٢].

والنعمة نعمتان:

الأولى: نعمة العوض

وهي أن يصنع أحد طرفي المعادلة معروفاً للطرف الثاني أو ينعم بنعمة عليه، فيحاول الطرف الثاني أن يردّ هذا المعروف أو يشكر هذه النعمة؛ فينعم عليه بنعمة تقابلها.

---

(١) طه: ١ ـ ٢.

(٢) مريم: ٩.

الثانية: نعمة الابتداء والامتنان

وهي النعمة التي تكون من اللّه تعالى لمخلوقاته؛ فهي نعمة ابتداء؛ لأن هذه المخلوقات لم تتقدّم إليه تعالى بنعمة سابقة حتى يقال: إن نعمة اللّه عليها نعمة عوض، فاللّه جلّ وعلا ينعم نعمة ابتداء أبداً؛ فهو تبارك وتعالى الذي أفاض عليها الوجود والحياة بعد أن كانت تراباً جماداً دون سابق نعمة منها كما ذكرنا: ﴿**كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**﴾. فهذه النعمة التي يراها الإنسان ويشعر بها هي هبة من اللّه له ومنّة منه عليه.

الحركات الإصطلاحية والتزمّت الديني

إن أي إنسان له مسكة من علم لا يمكن أن يعدو هذا التقرير ـ أن الحياة والوجود هبة وإفاضة من اللّه وحده ـ ولا يمكن أن يكون هناك عالم بالمعنى الدقيق لا يؤمن بهذه الحقيقة. فحتى «دارون» كان يؤمن بوجود اللّه تعالى، وأنه خالق الكون، لكنه لمّا تعرّض إلى هذه الحملة الكنسيّة التي أُثيرت ضدّه نتيجة مواقفه العلمية التي تخالف متبنّيات الكنيسة؛ ممّا أدّى إلى أن تتّخذ الكنيسة منه موقفاً، ولأنه راح يسلّط الأضواء على عقائد الكنيسة، راحت الأقلام تتناوله بالانتقاد والتجريح ونسبة الكفر والإلحاد إليه. بل وأكثر من هذا أننا نجد أن نظريته في التطوّر لا تصطدم مع الدين إطلاقاً.

نقد نظرية التطوّر

ولو أننا تتبعنا تاريخ الحركات الإصطلاحيّة في العالم لوجدنا أنها جميعاً تجابه بهذا النمط العدائي من المجابهة، وتواجه تحت ستار الدين، مع أن المسألة ليست مسألة دين، وإنما هي مسألة سياسة تتستّر بغطاء الدين. ومعنى هذا جرّ الدين إلى

ساحة النزاع السياسية وإقحامه فيها؛ لجعله يخدم أهدافها وأغراضها. وهذا اللون من الممارسة المتستّرة تحت غطاء الدين يعدّ توجّهاً خطراً؛ لأنه يضع الدين في موقف يجعل الناس تتّخذ منه موقفاً عدائيّاً، ومن ثم تبتعد عنه. ومن هذا ما يروى من أنه في خلافة المهدي كان كلّ من تغضب عليه السلطة يرمى بالزندقة ويقتل [١]، وفي أيّام المأمون كانت مسألة خلق القرآن وقدمه سبباً في إراقة الكثير من دماء الخصوم [٢].

نظرية التلخيص

وعليه فإن «دارون» ليس هو الأول ولا الأخير في مسلسل توجيه الحملات الغربية ضدّ العلماء والمجدّدين في تاريخ البشريّة. وحينما نقرأ الأصل الإنجليزي لكتابه نجد أنه كان يؤمن بوجود اللّه تعالى إيماناً واضحاً بيّناً، وكان يؤمن بحقيقة أنّ اللّه جلّ وعلا هو واهب الحياة، وغاية ما في الأمر أنه قال: إن الإنسان قد تكوّن من خليّة، وإن هذه الخلية تطوّرت. وهذا كما أشرنا إليه لا يصطدم مع الدين أبداً. فالجنين في بطن أُمّه يسير وفق نظرية التلخيص، وهي نظرية وضعها العالم «يونك» وتنصّ على أنّ الحويمن بعد أن يلقح البويضة تتطوّر إلى ما يسمى بالزايگوت «ZYGOTE»، ومن ثم ينمو ويتطوّر حتى يصبح إنساناً سوياً، وهو تطوّر يلخّص مراحل مسيرة الإنسان التطوريّة. وهي نظرية ضخمة يبحثها علماء

---

(١) سيأتي مثال هذا في الحادثة التي وقعت بين المهدي هذا وبين ابن عبد القدّوس بعد أن اتّهمه بالزندقة، ثم حكم عليه بالقتل والصلب في هذه المحاضرة تحت عنوان (بين المهدي وابن عبد القدّوس).

(٢) حتى وصل الأمر إلى تكفير بعض علماء السنة لمن يقول بخلق القرآن. انظر: البحر الرائق ٥: ٢٠٩، المغني ١٢: ٣٠، حاشية در المختار ٤: ١٤.

الاجتماع بصورة مفصّلة.

على أية حال فإن دارون يعتقد بأن الحياة هبة من اللّه تعالى الذي خلق الخليّة الحيّة ووهبها الحياة باعتبار أن فاقد الشيء لا يهبه لغيره، فالحياة لا يـمكن أن تأتي من شيء ميّت، بل إنها لابدّ أن تأتي من حيّ. وكل ما في الأمر أن نـظرية التطور ترسم صورة للخلق تختلف عن الصورة الكلاسيك التي ترسمها كتب الدين عندهم مثلاً.

والقرآن الكريم ربما يشير إلى هذه القاعدة؛ ولذا فإننا نجد فيه تنويهاً إلى مثلها كما في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[1]، والعلق: الدودة الصغيرة التي تكون في الطين باستثناء أبينا آدم ﷺ وخلقه؛ فإن اللّه تعالى خلقه ابتداء، غير أن ما بين أيدينا من التاريخ الطبيعي لا يمكن أن يعطي حقائق واقعية في هذا المجال.

رجـع

إذن فليس هناك من عالم له أدنى مسكة من علم وهو ينكر وجود اللّه سبحانه وتعالى ويقول بالصدفة التي تتعارض مع منطق الرياضيات وكل متبنّياتها.

وما دام اللّه تعالى هو مفيض الوجود والحياة، وهو المنعم المتفضّل على خلقه فلابدّ من شكره، وأحد مظاهر شكره هو الانقطاع إليه، فعلى العبد أن يخلو بنفسه مع خالقه أوقاتاً يتّصل بها معه. وهذه الأوقات هي الجزء الحقيقي من الحياة وما عداه أوهام، والحياة كلّها وهم لولا لحظات الانقطاع الخالص إلى اللّـه تـعالى والتواصل معه.

---

(١) العلق: ١ ـ ٢.

رأي النظريّة التسمويّة في نشوء المعرفة

وفي هذا المضمار أودّ أن أذكر أن إحدى النظريات التي تفسّر نشوء المعرفة عند الإنسان تذكر أن كلّ هذه الموجودات الخارجية هي في الواقع لا وجود حقيقيّ لها، بل هي موجودة في مخ الإنسان فقط. وهي نظرية كما هو واضح من مذهبها فيها مبالغة؛ كونها تذهب إلى أن كلّ الموجودات هي عبارة عن صورة مرتسمة في الذهن وليس لها أي وجود خارجي متحيّز، وأن الحياة هي طيف خيال في كلّ أبعادها. صحيح أنه ليس هناك من يملك تفكيراً سليماً وعقلاً صحيحاً وهو يعتقد بأن هذه الدنيا لها صفة الدوام، لكن لا على النحو الذي تذهب إليه هذه النظرية.

إذن فالدنيا في حقيقتها ليست إلّا ظلاً زائلاً، يقول المعري:

خلق الناس للبقاء فضلّت ... أمّة يحسبونهم للنفادِ
إنما ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة أو رشادِ [1]

فهم يُنقلون من عالم إلى آخر.. من عالم الوهم والخيال إلى عالم الحقيقة وكأنهم لم يعيشوا هذا العالم إلّا لحظات بعدها انداح كلّ شيء: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** [2]، كما عبر عنها القرآن الكريم، وكما عبر عنها كذلك بقوله: **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** [3]. والواقع الذي ينبغي التسليم به هو أن من يعقل نفسه ووجوده وما حوله فلابدّ أنه يؤمن بأن الدار الآخرة هي الحيوان.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٨١ - ١٨٢، تاريخ بغداد ٤: ٤٦٤، الوافي بالوفيات ٧: ٦٧.
(٢) العنكبوت: ٦٤. (٣) الأنعام: ٣٢.

إذن فإن اللّه تعالى يريد من عباده التواصل معه والانقطاع إليه، لأنه هو الأحق بأن يشكر، وهذا الفعل مظهر من مظاهر الشكر كما أسلفنا.

ولحظات الانقطاع والتواصل لا تتأتّى للإنسان كلّ حين، فهناك لحظات قليلة يحسّ الإنسان فيها بالتجلّي، وهي لحظات عظيمة، غير أن النبي ﷺ كان يعيشها في كلّ جزئيّات حياته وعبادته؛ ولذا فإن القرآن الكريم يقول له: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾، فكان ﷺ إذا جنّ عليه اللّيل صفّ قدميه واتّجه إلى اللّه عزّ وجلّ.

وهكذا كانت ليالي أهل بيته ﷺ، وهي الصورة التي يرسمها لنا أبو فراس الحمداني في ميميّته الرائعة، وهو يقارن بين البيوت العلوية وبيوت العبّاسيّين، فيقول:

تبدو التلاوة من أبياتهم سحراً ... وفي بيوتكمُ الأوتار والنغمُ
إذا تلوا سورة غنّى خطيبكم ... قف بالديار التي لم يعفِها القدمُ[1]

فقصر الخلد (دار الرشيد)، كان يصبحه الصباح بمحضر الرشيد والأغاني تصدح فيه عوض ذكر اللّه تعالى، يصحب ذلك عزف القيان ورقص الجواري ومعاقرة الخمور، أمّا دور آل محمد ﷺ فكانت عامرة بذكر اللّه جلّ وعلا، فلا يمر عليها الليل دون أن يُسمع منها رنين التوجّع والخوف من اللّه تعالى والفزع منه إليه، ولا يعانقها السحر دون أن تبهج الكون منها أنوار تلاوة القرآن الكريم والبكاء وملامح الاتّصال باللّه جلّ وعلا.

فهل يستوي هذان البيتان؟ أبداً، لا يمكن أن يستويا بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يقول به عاقل. ودليل هذا أن بيت العلويّين بقي خالداً مع الدهر، بل إنه

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

بيت افترع الخلود افتراعاً، أما بيت العباسيّين فقد اندثر وانقطع أثره ،ولم يعد يذكره ذاكر، يقول أحد الشعراء:

هيّا بنا لربى الزوراء نسألها	عن ثلّتين هما موتى وأحياءُ
فقد مشت وبنو العبّاس سامرة	في ألف ليلةَ حيث العيشُ سرّاءُ
دار الرقيق وقصر الخلد طافحة	بما يلذّ فأنغام وصهباءُ
ومِل إلى الكرخ وانظر قبّة سمقت	تجاذبتها الثريّا فهي شمّاءُ
وحيِّ فيها إماماً من أنامله	سحابة الفضل والإنعام وقّاءُ

المبحث الرابع: في معنى التقلّب في الآية

ثم قالت الآية: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، وللمفسرين في التقلّب رأيان:

الرأي الأوّل: عبادته ﷺ في الأسحار

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المقصود بهذا المقطع الشريف هنا: عبادة الرسول الأكرم ﷺ في جوف الليل، وعين اللّه تراه. وهذا المعنى لا يمكن أن يكون غريباً؛ لأن بيت النبي ﷺ كان بيت ركّع وسجود. وهذه الآية الكريمة توحي بأن من حوله على غير شاكلته في العبادة والانقطاع، فمن بين كلّ هؤلاء هو ﷺ وحده الذي كان يقيم ليله حتى ورمت قدماه.

الرأي الثاني: طهارة آبائه عليهم السلام

وبناء على هذا الرأي فإن المقصود هنا بالتقلّب هو الانتقال من صلب إلى صلب. أي أنه ﷺ كان يتنقّل في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهّرة. وهذا الرأي مرويّ عن الإمام الباقر عليه السلام [1]؛ لأن الرسول الأكرم ﷺ لابدّ أن يكون

---

(١) مجمع البيان ٧: ٣٥٨.

كذلك؛ لئلّا يتطرّق إليه العيب والنقد من الناس، فهو ﷺ لم تدنّسه أرحام الشرك والجاهلية.

التهافت في روايات العامّة

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها الخلاف بيننا وبين المذاهب الإسلاميّة الأُخرى التي تجيز وقوع ذلك ولاترى به بأساً، ويروون أنه ﷺ كان قد مرّ بالأبواء (المكان الذي دفن فيه أبواه)، ونزل على قبر أُمّه، فناجى ربّه طويلاً ثم بكى حتى اشتدّ بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكى نبي الله ﷺ بهذا المكان إلّا وقد حدث في أُمّته شيء لا نطيقه. فقال ﷺ لهم: **«ما يبكيكم؟»**. قالوا: يا نبي اللّه، بكينا لبكائك. فقال: **«نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أُمي فبكيت. واستأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرّأ من أُمّك كما تبرّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه»** (١).

ونحن في هذا المضمار نطالب من يروي هذه الرواية أن ينظر إلى الروايات الأُخرى الواردة في المقام قبل أن يرويها؛ كيلا يحصل تصادم أو تعارض بين هذه الروايات والرواية التي يرويها. ومن هذا القبيل ما يروى عن أبي هند الحجام الذي كان يحجم لرسول اللّه ﷺ، فاحتجم رسول اللّه ﷺ عنده، فلما فرغ دفع إليه دمه، وقال له: **«اذهب به فوارِه حيث لا يراه أحد»**. فذهب به فشربه، فلما رجع قال له رسول اللّه ﷺ: **«أين الدم؟»**. أو قال له: **«ما صنعت به؟»**. قال: جعلته في

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١، صحيح مسلم ٣: ٦٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠١، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٤، ٣٧٥، ٢: ٦٠٥، تفسير البيضاوي ٣: ١٧٩، صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٤٥، مجمع الزوائد ١: ١١٧.

مكان أظنّ أنه أخفى مكان عن الناس. فقال ﷺ: **«فلعلّك شربته؟»**. فقال: نعم. فقال ﷺ: **«ما كان ينبغي لك أن تفعل، وقد جعله الله عزّ وجلّ حجاباً لك من النار. فلا تعد»**[(١)].

ونحن لا نعوّل على هذه الرواية؛ لأننا نقول: إن ابن النبي نفسه لو عصى الله دخل النار. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن من يروي هذه الرواية يرى عدم دخول أي جسد إلى النار ما دام فيه جزء من جسد الرسول ﷺ، في حين أن أُمّه وأباه ﷺ يعذّبان بالنار مع أنهما جزء منه وهو جزء منهما؛ لأنهم من بعض، فلحمه لحمهما ودمه دمهما، والعكس كذلك، إن هذا إلّا تناقض.

طهارة آباء الإمام عليه السلام

على أية حال فإن آباء النبي ﷺ يمكن أن يكونوا مشركين على رأي المذاهب الإسلامية، أمّا نحن فلا نذهب إلى هذا الرأي، بل إننا نعدّي موضوع طهارة الآباء للإمام عليه السلام، لأنّ العلة في نصب الإمام عليه السلام هي عينها العلّة في نصب النبي ﷺ وبعثته، والمفروض أن النبي ﷺ يجب ألّا يكون عنده ما ينفّر الطباع منه وكذلك الإمام عليه السلام حكمه حكمه. فالنبي ﷺ يرفع شعار التوحيد وكذلك هي وظيفة الإمام عليه السلام؛ لئلّا يعترض معترض على النبي أو الإمام ويقول: كيف تدعو إلى التوحيد وكنت بالأمس مشركاً، أو كان آباؤك مشركين؟

إن مثل هذه التهمة تعدّ نقصاً في حقّ الرسول أو الإمام عليهما السلام، والله تعالى يأبى لأنبيائه وأوصيائهم عليهم السلام أن تكون فيهم جهة نقص، أو أن يولدوا من مصدر فيه جهة

---

(١) لم نعثر على هذا الحديث بزيادة قوله ﷺ: «وقد جعله الله عزّ وجلّ حجاباً لك من النار» فيما بين أيدينا من مصادر. انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٠٩، أُسد الغابة ٢: ٢٤٧، قال: «وقد أخرجه الثلاثة». كنز العمّال ١٥: ٤٣٦ / ٤١٧٢٨.

نقص. وهذا هو الأمر الذي حدا بنا إلى القول بأن أبا طالب مات مسلماً مؤمناً.

دليل إسلام أبي طالب﵁

ولإثبات هذا الأمر لابدّ من سرد تمهيدي له، ولنذكر في هذا الباب قصتين يذكرهما التاريخ:

الأولى: بين المهدي وابن عبد القدوس

إن عند العقلاء كافّة أن إقرار العاقل على نفسه حجّة، ومن ذلك أن صالح بن عبد القدوس البصري ـ وكان أحد الشعراء ـ اتّهمه المهدي العبّاسي بالزندقة، فأمر بحمله إليه، فلمّا أحضروه بين يديه وخاطبه أعجب بغزارة أدبه وعلمه، وبراعته وحسن بيانه، وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله، فلمّا ولّى ردّه وقال له: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسِهِ
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذا الضنى عاد إلى نكسِهِ

قال: بلى. قال: إذن فأنت لا تترك أخلاقك ولا عقيدتك، وقد كنت زنديقاً وسترجع زنديقاً، ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك. ثم أمر به فقتل، وصلب على الجسر [1].

الثانية: بين أمير المؤمنين﵇ وأعشى همدان

صعد أمير المؤمنين﵇ المنبر مرّة فقال: «**سلوني قبل أن تفقدوني، فإنكم لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مئة أو تضلّ مئة إلّا حدّثتكم بناعقها وسائقها حتى يخرج الدجّال**». فقام إليه أعشى همدان الشاعر

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٣٠٤ / ٤٨٤٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

فقال: من لا يحسن أن يقول مثل هذا؟ إن هذا لحديث خرافة.

والواقع أن هذا الرجل العظيم جاء في غير أوانه وسابقاً لعصره؛ لأنه جاء في عصر معاوية وأمثال معاوية[١] .. معاوية الذي حينما أراد أن يأخذ ولاية العهد ليزيد قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبي فله هذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس؛ فأنت سيّد الخطباء[٢].

في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يتعامل مع هؤلاء الأجلاف بمنتهى الديمقراطية والانفتاح والحرّية.. وهذا الأمر بطبيعة الحال مصيبة وبلاء، ولذا فإنه عليه السلام كان يشعر بغربة وألم، فكان يخرج إلى الصحراء لينفس من كربه، يقول ميثم رحمه الله: كنت أتفقّده عليه السلام فأراه جالساً في الجبّانة، وهو ينكت الأرض بإبهامه ويقول:

وفي الصَّدرِ لُباناتٌ	إذا ضاق بها صدري
نكتّ الأرضَ بالكفِّ	وأبديتُ لها سِرِّي
فمهما تُنبِتُ الأرضُ	فذاك النَبتُ من بَذري[٣]

وكان يصعد على المنبر فيقول: **«أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ ... أوّه على إخواني الذي تلوا القرآن فأحكموه... »**[٤].

---

(١) حتى إنه عليه السلام قال: «أنزلني الدهر حتى قيل: معاوية وعلي». الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤٥، لقد شيّعني الحسين: ٢٣٥. (٢) الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٣.

(٣) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢. وقد مرّ في ج ٢ ص ٥٥ من كتابنا هذا. (٤) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

فهؤلاء القلائل هم الذين كان عليه السلام يأنس بهم، لكن الحروب أخذتهم، وهذا اللون من الصحبة الذي كان ينشده عليه السلام لهي الصحبة الحقّة التي كان عليه السلام يعيش معها، وهي التي كانت تتفهّمه، لكن ما حصل هو أن أصحابه تركوه يعيش الغربة.

على أية حال فإن أعشى همدان هذا قال له عليه السلام: هذا حديث خرافة، فتبسّم الإمام عليه السلام وقال له: **«لو شئت لنلتك بطرف سيفي، ولكن سيسلّط الله عليك غلام ثقيف»**. فقالوا: يا أمير المؤمنين، ومن غلام ثقيف؟ قال عليه السلام: **«غلام لا يدع للّه حرمة إلّا انتهكها، ولا عظيمة إلّا ارتكبها»**.

ثم أخذ في وصف الحجّاج بن يوسف الثقفي، وفعلاً أدرك هذا الرجل الحجّاج فقتله؛ حيث إنه كان خرج مع ابن الأشعث فأُتي الحجاج به أسيراً، فقال له: يابن اللخناء، أنت القائل لعدوّ الرحمن، يعني عبد الرحمن بن الأشعث:

يابن الأشجّ قريع كنـ ... ـدة لا أبالي فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيـ ... ـس وأنت أعلى الناس كعبا
نبئت حجّاج بن يو ... سف خرّ من زلق فتبّا
فانهض هديت لعلّه ... يجلو بك الرحمن كربا
وابعث عطية في الحرو ... ب يكبّهن عليه كبّا

فقال: أيها الأمير، وأنا القائل:

أبى اللّه إلّا أن يتمّ نوره ... ويطفئ نار الكافرين فتخمدا
وينزل ذلّاً بالعراق وأهله ... كما نقضوا العهد الوثيق المؤكّدا
وما لبث الحجاج أن سل سيفه ... علينا فولى جمعنا وتبدّدا

فالتفت الحجاج إلى من حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن أيها الأمير، ومحا بآخر قوله أوله، فليسعه حلمك. فقال: لاها اللّه! إنه لم يرد ما ظننتم، وإنما

أراد تحريض أصحابه. ثم قال له: ويلك، ألست القائل:

إن نلت لم أفرح بشيء نلته ... وإذا سبقت به فلا أتلهّفُ

ومتى تصبْك من الحوادث نكبة ... فاصبر فكلّ غيابة تتكشّفُ

أما واللّه، لتطلعن عليك غيابة لا تنكشف أبداً، يا حرسيّ اضرب عنقه[1].

وقد قال بعضهم: نالته دعوة العبد الصالح، يعنون أمير المؤمنينعليه السلام.

فمثل هذا يُستنتج من شعره أنه يذهب هذا المذهب فيلزم به، ويعاقب عليه. وهنا سوف ندخل إلى موضوعنا الذي مهّدنا له، وهو موضوع إيمان أبي طالبعليه السلام، فما دام كلّ من المهدي والحجاج قد استدلّا على ابن عبد القدوس والهمداني من شعرهما فإن أبا طالبعليه السلام كذلك من الحقّ أن يستدلّ له من شعره على إيمانه، فهو الذي يصدح بشعره قائلاً:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب[2]

ونسمعه يقول:

كذبتم وبيتِ اللّه نخلي محمداً ... ولما نطاعنْ دونه ونناضلِ[3]

---

(١) لم نعثر عليها أنها مع أعشى همدان، ولا بهذه الكيفيّة، انظر هذه المصادر مجتمعة: بصائر الدرجات: ٣١٧، شرح الأخبار ٢: ٣٩، المحتضر: ١٥٧، المسترشد: ٦٧٢ / ٣٤١، مناقب آل أبي طالب ٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة ١: ٣٢٠ - ٣٢٢.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبويّة ١: ٢٣٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧.

(٣) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤١، أخبار مكّة ٢: ٣٧٥، السيرة النبويّة ٢: ١١١، ٢١٧، ٣: ٢٩٢، ٥: ٤٧، تاريخ الطبري ٢: ٥٧٧، الكامل (ابن عدي) ٣: ٤٠٩، أعلام النبوّة ١: ١٧٢، دلائل النبوّة ١٨٥، الفائق في غريب الحديث ١: ١٠٥، الاستيعاب ٢: ٤٦٨، الاكتفاء (الكلاعي) ١: ٢٢٠، ٢٦٧، ٢: ٥٦، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٥٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٣: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٠٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، باختلاف في رواية البيت.

ونسمعه يقول:

نبيّ أتاه الوحيُ من عندِ ربّهِ ومن قال لا، يقرعْ بها سنَّ نادمِ[(١)]

ويقول:

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوَسَّدَ في التُّراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك مخافة وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريّة دينا[(٢)]

إن من يقرأ ديوان أبي طالب﵁ يجده طافحاً بملامح التوحيد والإيمان والعقيدة المخلصة للّه تعالى. ولست أدري ما هو الفرق بين من يقول: «أشهد ألّا إله إلّا وأشهد أن محمداً رسول اللّه» نثراً، وبين من يقولها شعراً!

سرّ تكفير أبي طالب﵁

إن التاريخ الأسود كلّ يوم يطلع علينا بمدّعٍ جديد يعلن عبره أن أبا طالب﵁ مات كافراً مشركاً، وكأنه قد فتح فتحاً كبيراً في مجال التاريخ، مع أن السبب واضح، وهو أنه أبو أمير المؤمنين﵇ ولو لا أنه أبوه لما تعرّض لهذه الحملة

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣، مناقب أهل البيت﵈ (الشيرواني): ٥٨.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٦، السيرة الحلبيّة ١: ٤٦٢، البداية والنهاية ٣: ٤٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

ورحم الله ابن أبي الحديد حيث يقول:

ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ لما مُثّل الدّين شخصاً فقاما

فذاك بمكّة آوىٰ وحامىٰ وهذا بيثرب جسّ الحماما

فللّه ذا فاتحاً للهدىٰ وللّه ذا للمعالي ختاما

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

الشعواء عليه. لقد ذكرت في إحدى المحاضرات أن مجموعة من العلماء الأزهريّين نشروا بحثاً انتهوا فيه إلى أن من يذهب إلى كفر أبي طالب فهو كافر؛ لأنهم توصّلوا إلى نتيجة أن من يكفره يؤذِ النبي الأكرم ﷺ، ومن يؤذِ النبي ﷺ يؤذِ اللّه تعالى، ومن يؤذِ اللّه فهو كافر.

هذا هو الاستنتاج الذي انتهوا إليه، والواقع أنه كذلك؛ لأن رسول اللّه ﷺ شيّعه ووقف على قبره واستغفر له. وهناك روايات في هذا الصدد من أهل البيت عليهم السلام يذكرون فيها أن أبا طالب كأصحاب الكهف أظهر الشرك وأضمر الإيمان فآتاه اللّه أجره مرّتين [1]، وأنه كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه [2]. لكن مع كلّ هذا يخرج علينا سمرة بن جندب.. الأجير الذي امتلأ جوفه خمراً، وتلوّثت يداه بالإثم وتلطّختا بالدم، والذي خالط السحت رأسه فيروي عكس هذا، والسبب معروف كما ذكرنا، وهو صلته بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

رجع

إذن فنحن نقول: إن العلّة التي توجب أن يكون النبي ﷺ طاهر الآباء هي العلّة عينها التي نقولها في الإمام عليه السلام؛ فكما أن النبي ﷺ لابدّ فيه من صفة طهارة الآباء وعدم شركهم فكذلك الإمام. وهذا هو الذي يريد القرآن الكريم من خطابه للرسول الأكرم ﷺ بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾. يقول البوصيري:

لم تزلْ في ضمائر الكون تُختا ... رُ لك الأمهاتُ والآباءُ

تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياءُ

---

(١) الكافي ١: ٤٤٨ / ٢٨، الأمالي (الصدوق): ٧١٢ / ٩٨٠.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٢٣٢ / ٢١٤٤٠.

وبــدا لـلـوجود مــنك كــريمٌ ... مــن كــريمٍ آبــاؤه كــرماءُ

نسبٌ تــحسبُ العُــلا بــحُلاها ... قَــلَّدَتها نــجومَها الجــوزاءُ

حــبَّذا عــقدُ ســؤددٍ وفــخارٍ ... أنت مـنه اليـتيمةُ العـصماءُ[1]

ويقول آخر:

لو لم يكن قلباً لكلّ ساجد ... بـالساجدين الغرّ ما تـقلّبا

فهو تقلّب في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهّرة، ولذا فإننا نخاطبه في الزيارة الشريفة بمخاطبتنا عترته؟: «**أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة**»[2]. وظلّت تجلّيات هذا النور تنتقل في ذرّيّة الرسول، يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين فرأيت شفتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة، فوالله، لقد شغلني نور وجهه عن التفكير بقتله، فأقبلت إليه، وقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا وربّ الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: «**صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك**»[3]:

تركت الخلق طرّاً في هواكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطّعتني بالحبّ إرباً ... لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا[4]

وافتقدته نساؤه، فقالت إحداهن: مالي لا أرى لأبي عبد اللّٰه شخصاً ولا أسمع له صوتاً؟ فقالت الأُخرى، لعلّ الخيل حالت بيننا وبينه. فقالت أُختها: حاشا ابن أبي أن تضمّه خيل أو رجال. ثم انحدرن إلى مصرعه بين تلك الجثث والأشلاء:

---

(١) ديوان البوصيري: ٩.

(٢) كامل الزيارات: ٤٠٣ / ٦٣٩، مصباح المتهجّد: ٧٢١ / ٨٠٦.

(٣) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٤) بيتان ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

نادَت فَقطّعت القلوبَ بشجوِها   لكنما انتظَمَ البيانُ فريدا
إنسانَ عيني يا حسينُ أُخَيُّ يا   أملي وعِقدَ جُماني المَنضودا
ما لي دعوتُ فلا تجيبُ ولم تَكنْ   عَوَّدتَني من قبلِ ذاكَ صُدودا
أَلِمِحنَةٍ شغَلتكَ عنّيَ أم قِلىً   حاشاك إنك ما بَرِحتَ وَدُودا
حَنَّتْ فَلم تَرَ مثلَهُنَّ نَوائحاً   إذْ ليسَ مثلُ فقيدِهِنَّ فقيدا
وثواكل بالنوح تسعد مثلها   أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا[1]

* * *

أُخَـي ما عوّدتني منك الجفا   فعلامَ تجفوني وتجفو من معي
أُخي أين أبي عليّ المرتضى   ليرى انكساري للعدى وتخضّعي
منهوبةٌ مشتومةٌ مسبيةٌ   مسلوبةٌ حتى الخمارَ وبرقعي

* * *

اتمرمرت واللّه بيتاماك   يحسين ما لي حيل فرگاك
عدنا اشبعد ظل لو فگدناك



(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي : ٣٩.

﴿١٧٧﴾

نظام الأُسرة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأوّل: الأسرة في القرآن الكريم

هذه السلسلة من الآيات المباركة تعتبر من معطيات النظام التشريعي لفقه الأُسرة، أو الفقه الاجتماعي. وقد عالج الإسلام في هذه الآيات الكريمة مسألة تعدّ من أخطر المسائل الاجتماعيّة؛ فنحن نعرف أن المجتمع بناء والبناء يتكوّن من لبنات، والأُسرة هي اللبنة الأُولى في البناء الاجتماعي. ومن البديهي أن من يرِد أن يبني بناءً متيناً فلابدّ من أن يختار اللبنات السليمة المتماسكة التي تصمد أمام الضغوط والعوامل الأُخرى. وكذلك هو حال الأُسرة؛ لأن من يرِد أن يبني مجتمعاً صالحاً ويؤسّس لنظام اجتماعي متين فلابدّ له من مراعاة لبناته التي هي

---

(١) المؤمنون: ٥ ـ ٧.

الأُسر. وعليه فيجب في هذه الأُسر أن تكون قويّة متماسكة أمام الظروف الحياتيّة وغيرها؛ كي نبني هذا المجتمع الصالح، وإلّا فإن هذه اللبنات إن كانت خاوية فإن المجتمع نفسه سينهار بها؛ لأنه حينئذٍ سيصبح خاوياً مثلها.

إذن الأُسرة معيار المجتمع بصلاحها يصلح وبفسادها يفسد؛ لأنها العشّ الذي يوفّر الحنان والعطف لأفرادها، فيخرجون إلى الحياة أصحّاء سليمين من العقد النفسية.

طرق إشباع الغريزة

وبالنتيجة فإنها المصنع الذي يورّد للمجتمع عناصره الصالحة، وأفراده الذين يمكن أن يتحمّلوا عبء مسؤولية حفظ هذا المجتمع.

كما أنها المصنع الذي يفرز منظومة القيم والأخلاق التي تغذّي المجتمع فيما لو كانت صالحة؛ لأن الأُسرة هي التي تباشر ممارسة عملية التربية في المجتمع، وهذه الممارسة تتمّ من طريقين:

الأوّل: الإشباع المباشر

وهو الإشباع الذي يكون بمستوى الحواسّ الظاهرة كاللمس، أو عند مقابلة شخص لشخص.

الثاني الإشباع غير المباشر

وهو نوع الإشباع الذي يتمّ عبر وسائل الاتّصال؛ سواء منها الكلاسيك كالرسائل أو الحديثة كاستعمال الهاتف وما ماثله؛ لتوعية الفرد؛ لأن الأُسرة ترى أن أي فرد من أفرادها مسؤول منها وإن كان بعيداً عنها.

فالإنسان إذا ترعرع داخل أُسرته حظي بوسيلة الإشباع المباشر، وهو اللون

الذي له التأثير الأكبر على الأفراد في عمليّة التربية، فيكون تأثير الأُسرة به أبلغ وآكد من أي تأثير لمؤثّر آخر من المؤثّرات الأُخرى للمحيط، كالمدرسة والشارع وغيرهما من وجوه المحيط الأُخرى. فالمدرسة مع ما لها من تأثير هامّ، وما تلعبه من دور أهمّ على الأفراد في تربيتهم وتغذيتهم وتنشئتهم، لكنها لا يمكن أن تبلغ الدور والأثر اللذين تلعبهما الأُسرة.

فالمجتمع إذن يقع تحت تأثير كبير للأُسرة، وبالتالي فإن تفاعل الأفراد معها يختلف عن تفاعلهم مع غيرها من الوجوه الأُخرى للمحيط.

ولكلّ هذا فإن القرآن الكريم يؤكّد على بناء الأُسرة بناءً سليماً، فعمد إلى وضع قوانين خاصّة لحمايتها وحماية أفرادها من كلّ ما يمكن أن يخدش وجودها أو يغيّر مسيرتها وتركيبتها اللتين أكّد عليهما وعني بهما. فالقرآن الكريم يريد من الأُسرة أن تكون بناء نظيفاً يجعل مشاعر أفرادها نظيفة نقيّة طاهرة؛ لأن المشاعر النظيفة تقود إلى خلق إنسان نظيف وتجعل منه عنصراً يتفاعل تفاعلاً سليماً مع مجتمعه وما حوله.

الغريزة والإسلام

وجاء علاج القرآن الكريم بهذا اللون من التأكيد على نظافة وطهارة المجتمع فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾. إننا نعرف أن الإسلام لم يجرّد الإنسان من وسائل التعامل من غريزته، بل إنه وضع الغريزة عنده لحفظ بقائه واستمرار نوعه، ثم أمره بالتعامل معها بلون مخصّص من ألوان التعامل بعد أن شرع له القوانين التي تحكم عمليّة التعامل هذه. فالإنسان تتملّكه غريزة الكرامة؛ لأن الإنسان من غير كرامة كائن لا قيمة له، ولا يستطيع

أن يعيش أو يحيا حياة مستقرّة ثابتة؛ ولهذا فإن الإنسان دائماً وأبداً يبحث لنفسه عن كلّ ما من شأنه أن يكرمها.

عوامل هدم الأسرة

إن عمليّة الهدم الأُسري هذه تتمثّل بأحد عاملين خطرين، أي أنها تنشأ من منشأين هما:

الأول: تقديم تسهيلات بديلة عن الزواج

وهذه التسهيلات عبارة عن جوانب أُخرى من وجوه تفعيل الغريزة عبر استغلال ثورتها، كأماكن الاختلاط والعري المنتشرة في كلّ مكان؛ ممّا يؤدّي إلى سقوط الشباب في هاوية الانحراف والخطيئة والإثم والفساد المروّع، وإلى مآسٍ ضخمة لا يمكن التعامل مع نتائجها أو معالجة إفرازاتها ومضاعفاتها.

الثاني: وضع العقبات أمام المتزوّجين

وكما اتّضح فإن هذا الإنسان تتملّكه غريزة الجنس التي تعدّ الغريزة الأُولى في الحفاظ على النوع الذي لا يمكن أن يستمرّ لو لا عملية التزاوج الخاضعة لهذه الغريزة. ولذا فإننا نقول: إن الأُسرة هي المصنع الذي يمدّ النوع بالأجيال التي تكفل له الاستمرار والدوام. فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن تكون منبعاً صافياً نظيفاً نقيّاً من الأكدار والشوائب الأخلاقيّة، وبخلاف هذا فإن الأجيال ستتعرّض جميعها إلى التسمّم والضياع.

الإسلام يذلّل عقبات الزواج

فالإسلام جاء لتهذيب الغريزة كيلا تتسمّم الأجيال؛ ولذا فإنه هنا يأمر بحفظ الفروج؛ لأن الجملة الإنشائية جاءت بصيغة الخبر، وهو باب معروف في علم

الأُصول، فاللّه تعالى إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، فهو إنما يأمر بحفظ الفروج وصيانتها عن الوقوع في الخطيئة، وبحفظ هذا الجهاز وعدم استعماله إلّا في مكانه النظيف. والمسرب الصحيح لهذا الجهاز هو الزواج الشرعي، لكن هل أمر الإسلام بالزواج الشرعي ووقف مكتوف اليدين متّخذاً موقف المتفرّج ومكتفياً به دون تدخّل منه في تذليل العوائق أمام هذه المهمّة الشريفة؟ طبعاً لا؛ لأنه وضع الكثير من النظم والقوانين لتسهل عملية الزواج، ولتذليل الصعاب والعقبات التي تقع أمامها، ومن هذه العقبات:

الأولى: عقبة المهور

إن أمر الزواج ليس سهلاً سيّما في أيّامنا هذه؛ حيث إنه قد تحوّل إلى مشكلة تجاريّة تترصّد الوافدين إلى هذا الطريق، وأصبح عقدة قاتلة تمثُل أمام أعين الشباب المتطلّعين إليه. فإعداد البيت المطلوب من الزوج، وتأثيثه وتهيئة مستلزماته إجراءات تتطلّب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً؛ لأنّه يمثّل بيت المستقبل، فلا مستقبل ما لم يكن هناك بيت يضمّ الزوجين. لكن هذا البيت أصبح عقدة كأداء في طريق الزواج الآن لما توضع له وإزاءه من شروط، حتى تحوّل الأمر إلى مساومة ومبالغة في طلب المهر ولوازم العرس، بل وإلى مفاخرة الناس. فالذي أصبح في منظور الناس هو كم كان مهر فلانة؟ وما هي مواصفات البيت الذي سيسكنها فيه زوجها؟ دون أن تكون هناك حصّة في هذا المنظور لسعادة الزوجين الحقيقيّة، أو للهدف الأسمى من هذا الزواج.

وهكذا ينشغل الناس في مثل هذه الأُمور التافهة دون الولوج إلى جوهر الزواج، وإلى الهدف الحقيقي الذي يريده اللّه تعالى من ورائه، وهذه الأُمور التافهة من شأنها أن تهدم هذه العمليّة وأن تقوم بتدميرها وتقويضها.

وهذا الموضوع لا يمكن لأحد أن يوفّيه حقّه في مثل هذه العجالة، فهو موضوع ذو مساحة واسعة عريضة، ويحتاج إلى مناقشة أوسع ومعالجة أكبر، لكن ما أودّ أن طرحه هنا هو أنّ الإسلام قد ذلّل أهمّ العقبات المزروعة في طريق الزواج، وهي عقبة المهر، فاعتبر مقداره أمراً لا قيمة له، ولم يعره أي أهمية؛ ولذا فإن ذكر المهر ليس شرطاً في العقد؛ لأنه ليس ركناً من أركانه، غاية ما في الأمر أنه إذا لم يذكر المهر فإن للزوجة مهر المثل، أي مثل مهر بنات طبقتها ومستواها.

ما يصح منه المهر

والمهر يصحّ أن يكون من كلّ ما يصحّ أن يُتموّل به، والتموّل هو ما له علاقة بالمتموّل، وهو كلّ ما له ماليّة، ويكفي فيه أن يكون كفّاً من بُرّ أو شعير، أو تعليم بضعة آيات من القرآن الكريم، يروى أنه جاءت امرأة إلى رسول اللّه ﷺ فعرضت نفسها عليه، فقال لها: «**اجلسي بارك اللّه فيك، أما نحن فلا حاجة لنا فيك، ولكن تملّكيننا أمرك؟**». قالت: نعم. فنظر رسول اللّه ﷺ في وجوه القوم، فدعا رجلاً منهم فقال لها: «**إني أُريد أن أُزوّجك هذا إن رضيت**». فقالت: ما رضيت لي يا رسول اللّه فقد رضيت.

ثم قال ﷺ للرجل: «**هل عندك من شيء؟**». قال: لا واللّه يا رسول اللّه. قال ﷺ: «**ما تحفظ من القرآن؟**». قال: سورة البقرة والتي تليها. قال ﷺ: «**قم فعلمها عشرين آية وهي امرأتك**»[1].

إذن فالمهر يمكن أن يكون من كلّ ما له ثمن وإن قلّ.

وليعلم بأن المهر الكبير لا يمكن أن يخلق سعادة أو يطرد تعاسة، فالبيت الذي

---

(١) المجموع شرح المهذّب ١٥: ٢٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٤٢، تلخيص الحبير ١٢: ٣١١، تنوير الحوالك: ٤٢٩ - ٤٢٧ / ١١٠١.

يخلو من السعادة لا تعوّضه عنها الأموال والرياش ولو حشي بالذهب؛ لأن السعادة لا تنبع من المال، بل من أصحاب البيت أنفسهم، فما لم تنبع منهم فلن يحسّوا بها أبداً.

فلا البيت ولا المال يمكن أن يخلقا عند الإنسان الاستقرار والهدوء النفسيّين اللذين يمكن أن يوفّرهما عشّ صغير يعيش أفراده الوئام والحبّ، ولا المهر يمكن أن يخلق مجتمعاً فاضلاً حينما يجعل منه البعض عقبة في طريق الأزواج بأن يفرض مهوراً عالية؛ مما يؤدّي إلى التمزّق، أو إلى حصول تكتّل من العوانس والعازبين؛ ممّا يؤدي إلى حصول مفاسد لا حدود لها.

الثانية: عقبة الكفاءة

إن مفهوم الكفاءة قد حدّده الإسلام على لسان نبيّه الكريم ﷺ بقوله: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة»**[1]. فالمسلم كفء المسلم، أمّا الاعتبارات الأُخرى فالإسلام يلغيها تماماً.

وتشريع الكفاءة بهذا المفهوم المحدّد لم يضعه الرسول الكريم ﷺ على مستوى نظري فقط، بل إنه شغل حيّزاً عمليّاً واضحاً في مساحة تشريعاته، فخطا خطوات في سبيل تطبيق هذا التشريع وتحقيقه؛ فزوّج بنت سيّد البطحاء (ابنة عمّته) من زيد، وهو مملوك، فـ**«المسلم كفء المسلم»**، ولذا فإنه ﷺ تزوّج صفيّة بنت حيي بن أخطب، وهي ابنة يهودي، وتزوّج ماريّة القبطيّة. وبهذا عالج هذه المشكلة ومحا هذه الروح الجاهلية من أذهان الناس.

وهكذا نجد أن الإسلام حاول إزالة جميع العقبات التي واجهت الزواج، وأكّد

---

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ ـ ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

على بناء البيت الأُسروي القائم على الحبّ والحنان والعاطفة والوئام، والذي يحقّق الروح الإسلاميّة لحياة الزوجين.

الثالثة: عقبة الفقر

ومن العقبات التي تقف في وجه الزواج الفقر، وقد عالجها الإسلام بأن شرع وجوب إعطاء كلّ من لم يتمكّن من دفع المهر ما يكفيه من بيت المال؛ دفعاً للمفسدة المحتملة، ومساهمة في حل هذه المشكلة؛ لأن بيت المال إنما أُنشئ لحلّ هذه المشاكل ومعالجتها. وهذا الحلّ يعني توفير القنوات النظيفة والمجرى الطاهر لاحتضان هذه العملية السامية التي يهدف من ورائها إلى بناء المجتمع المسلم كذلك.

ونحن لا نستطيع أن نخلق القنوات النظيفة بالوعظ والتنظير، بل لابدّ من تطبيق ذلك فعلاً، وإلّا فإذا كان الواقع العملي مرّاً أسودَ، وبعيداً عن روح التنظير الإسلاميَ فإن هذا المشروع الإلهي سيفشل حتماً، وحينها لن تجدي الموعظة ولا الإرشاد نفعاً أو ثمرة؛ لأن القول ما لم يدعّم بالعمل فإنه سيتبخّر بعد فترة وجيزة من الوعظ به.

وعليه فإن المفروض بأولياء الفتيان والفتيات أن يضعوا أيسر الوسائل العمليّة التي تسهّل أمر الزواج، فهو المشروع السماوي الذي يزرع البذرة الطاهرة ويحقّق القناة الطاهرة والنواة الطاهرة؛ كي يكون بناء المجتمع بناء طاهراً. إن الوعظ والإرشاد هما آخر حلقتين في سلسلة الحلول التي يضعها الإسلام لمشاكلنا؛ لأنه يخلق الأُطر العامّة لحلّ كلّ مشكلة، وهي بدورها تخلق الجوّ النظيف والعلاقات النظيفة التي لا تتحكّم فيها الغريزة. وإنما قلنا: إن الغريزة لا تتحكّم بها؛ لأن الإسلام يسعى إلى تحديدها عبر إشباعها بالطرق المشروعة، فما لم يكن هناك

طريق مشروع لإشباعها، ثم تأجّجت عند الإنسان ولم يتمكن من أن يتحكّم فيها فإنها ستدفعه إلى فعل الحرام.

وبهذا فالإسلام بهذه الأُطر يحلّ مشكلة الغرائز، وبالتالي مشكلة الوقوع في الحرام. ولتقريب المعنى نضرب مثلاً بالرجل المعدم الجائع الذي يرى أكداس الأطعمة قربه، ثم يأتي من يحذّره من أن يمدّ يده إليها؛ فإن غريزته حينئذٍ تحثّه على الوثوب إليها وتدفعه إلى تناولها. فنداء الغريزة سيظلّ يلحّ عليه، وما السرقات التي نراها اليوم هنا في بريطانيا إلّا مثال واضح على نداء الغريزة حيث إن معظم هذه السرقات يقوم بها الجياع والفقراء. ومثل هذا فإن الحلّ الجذري لمشكلته هو توفير جوّ عمل له، وليس توفير الموعظة أو النصح والإرشاد إلى ترك السرقة وبيان حرمتها.

ولذا فإن أوّل ضمان يقدّمه اللّه تعالى لأصحاب الجنّة هو إشباع حاجاتهم الأساسية [١]. وبالمستوى نفسه خلق الجوّ العملي الميسّر للزواج، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾. فتهيئة الجوّ العملي المناسب للزواج المشروع هو من أوّل أولويات الإسلام، ثم بعد ذلك يجيء دور الأمر بحفظ النفس وصيانتها عن الوقوع في الخطأ.

لماذا القسوة في عقوبة الزنا؟

وربما يعترض معترض فيقول: لماذا كلّ هذه القسوة في القانون الإسلامي تجاه مرتكب مخالفة الزنا، فيجلد أو يرجم حسب وضعه وحالته الاجتماعيّة؟

إن الجواب على مثل هذه التساؤل هو أنه لمّا كان الإسلام قد وفّر المتنفّس

(١) قد مرّ هذا المبحث مفصّلاً في محاضرة (معالم التربية الإسلامية) في ج ٧ من كتابنا هذا.

الشرعي لإشباع هذه الغريزة، ثم هيّأ لها أسبابها وذلّل العقبات التي توضع أمامها، فإنه حتماً سيعاقب من يخالف هذا القانون؛ لأنه حينئذٍ لا ضرورة للمخالفة والجنوح إلى الخطيئة مع ما تنطوي عليه من مضاعفات اجتماعيّة خطرة وربما قاتلة؛ من اعتداء على أعراض الناس وحقوقهم الشخصية وانتهاك حرمات النواميس البشريّة. فهذا الاعتداء على الآخرين يحوّل صاحبه إلى أداة مفسدة في المجتمع يجب علاجها أو قطعها.

وعليه فإن هذه العقوبة ليس فيها أي قسوة مطلقاً، بل إنها وسيلة للحفاظ على المجتمع من الانهيار والضياع والتشرذم.

فتعريض مجتمع كامل للفساد وجعله عرضة للهويّ في منحدر الرذيلة من أجل الحفاظ على حياة فرد واحد مفسد لهو أمر يرفضه العقل والعقلاء، ولا يقرّه من له أدنى معرفة. فالإسلام يضحّي بالفرد المفسد من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع وكيانه ووجوده.

إن من يحاول أن يطبق أحكام الإسلام في المجتمع دون أن يهيّئ السبل التي أمر اللّه تعالى بالعمل بها في سبيل تيسير الزواج لهو بعيد جدّاً عن روح الإسلام. فعلى الإنسان أن يطبّق كلّ ما أمر اللّه تعالى به؛ سواء كان في مضمار الأحكام والقوانين الرادعة، أو في مضمار تهيئة سبل الزواج وغيره من إشباع حاجات الأفراد الأساسية وتيسيرها، وإلّا فإنّ من يسعَ إلى تطبيقها بهذا الشكل وبهذه الصورة القائمة يكن حاله كحال من يستيقظ في رمضان وقت السحر وهو لا يصوم بدعوى أنه ليس بكافر؛ فإذا كان لا يمتثل أمر الصوم فإنه يمتثل الأمر بالسحور؛ لأنه ليس كافراً؛ ولذا فهو يريد أن يمتثل هذا الأمر الوارد عن رسول الإسلام ﷺ بخصوص عدم ترك السحور.

وبالفعل فإن هناك من يطبّق الإسلام بهذه الصورة العوراء، مع أنّ الإسلام يأمر بتهيئة الأُطر والحلول أوّلاً ثم العرض على السوط أو السيف ثانياً.

فاللّه سبحانه وتعالى إنما ينزل هذا العقاب الرادع لحماية المجتمع وحفظه. وعليه فالواجب سدّ كفايته ومراعاة احتياجاته قبل تعريضه للعقوبة. فاذا فعل كلّ ذلك له فحينها يمكن عدّ المخالف مجرماً أو عنصراً خطراً على المجتمع يجب أن يقام عليه الحدّ أو يجتثّ.

المبحث الثاني: قضية الرقّ في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، ومسألة الإماء وملك اليمين وجدها المستشرقون وأعداء الإسلام لقمة سائغة فراحوا يستغلّونها ضدّ الإسلام أسوأ استغلال، فاتّهموه بأنّه يذهب بعيداً في تربية هذا السعار الجنسي في نفوس أتباعه؛ لأن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يعني مطلق الرقم الذي يستطيع الإنسان شراءه منهن، مهما كان، ومن ثم مقاربتهن. فلماذا كلّ هذا الإغراق والإفراط في استعمال الغريزة الجنسيّة؟ ولماذا هذا الإطلاق المفرط لها من عقالها بتغذيتها بهذا السعار؟ إن من يتفوّه بمثل هذا الكلام إمّا أن يكون مغرضاً كما هو الحال عند هؤلاء، وإمّا أن يكون جاهلاً بحقيقة حال الحكم في الإسلام.

الرقيق وإدارة مواقع الاقتصاد

إن الإسلام أراد أن يعالج مشكلة اجتماعيّة كانت قائمة آنذاك، وهي مشكلة وجود العبيد، وهؤلاء لم يكن وجودهم لترفٍ أو نحوه، بل إنهم كانوا يشكلون إحدى ركائز الاقتصاد في المجتمعات كافّة آنذاك، فنظام الإجارة لم يكن معروفاً

آنذاك بعد، وملامح النظام الاقتصادي المبتني عليها لم تكن متميّزة واضحة. فجميع مواطن العمل لم تكن تدار بنظام الإجارة أو العمالة المعروف حاليّاً، وإنما كانت تدار بنظام الرقّ؛ فكلّ الخدمات الاجتماعية والاقتصاديّة كان الرقيق يديرونها.

فالإسلام حينما جاء وجد هذا النظام (نظام الرقّ) سائداً، فهو لم يوجده ولم يخلقه، بل إنه عالجه وقنّنه. ولم يكن هذا حال العرب فقط، بل إنه حال جميع الأُمم التي كانت سائدة آنذاك كالفرس والروم وغيرهم. فهذه المسألة حينما جاء الإسلام وجدها مغروسة في المجتمع راسخة جذورها في أرضه.

لماذا لم يحرّم الإسلام الرقّ؟

وربما يسأل سائل فيقول: لماذا لم يحرّم الإسلام الرقّ؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال بأن الإسلام لا يخطو خطوة دون دراسة أو حساب لنتائجها، فالتشريعات الإلهيّة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون آتية نتيجة تسرّع فيها، أو أن تكون غير مدروسة. وهذا التسرّع في الأحكام يمكن أن يمثّل له بمن يأمر بإيقاف جميع المصانع والمعامل التي في البلد دون سبب وجيه أو علة مقبولة. إن معنى هذا توقّف الحياة كاملة عن الحركة. وعليه فإن تحريم الرقّ بشكل مفاجئ معناه تعطيل المرافق الحيويّة والحياتيّة كافّة.

ومعلوم أن تعطيل هذه المرافق معناه تعطيل الحياة نفسها، فالعبيد كانوا بمثابة المحرّكات التي تدير الآلات؛ ولذا فإن الإسلام عمد إلى علاج مسألة الرقّ علاجاً تدريجيّاً بشكل لن يتوقّف معه النشاط الحيوي أو الاقتصادي للناس، ولا يخلق أي مشكلة في المجتمع، ولا سوء علاقة بين العبيد وأسيادهم.

فالإسلام عالج الرقّ علاجاً على مراحل عدّة وبأنماط مثلها، ومن جملة هذه الأنماط ملك اليمين، حيث إن الجارية أو المملوكة بمجرّد أن تحمل من سيّدها فإن ملكيّتها تصبح متزلزلة فلا تباع ولا تشترى، وبمجرّد أن تلد تحسب من حصّة ولدها، ثم تنعتق منها بعد موت سيّدها.

مناشئ الرق المشروعة

هناك أكثر من منشأ ومصدر للرق، لكن الإسلام لا يعتبر منها منشأ شرعيّاً سوى اثنين هما:

الأوّل: سبي الحرب المشروعة

فكلّ حرب تقع بين المسلمين من جهة بأمر الرسولﷺ أو الإمامعليه السلام وبين الكافرين من جهة أُخرى، ثم يغلب فيها المسلمون ويأسرون فيها من أهل تلك البلاد، كان هذا الأسير رقيقاً لهم.

الثاني: أولاد الجواري

وكذلك كلّ جارية تلد بزواج من رقيق مثلها يعدّ أبناؤها رقيقاً مثلها، فهم يتبعونها في حكم الرقّ.

فالمرأة حبّبب للرجال أمرها، ولذا فإن الإسلام استغلّ هذه الغريزة كوسيلة لعلاج قضيّة الرقّ، فأمر بنكاح الإماء لتحقيق هذا الهدف. وهو لون من ألوان استغلال الغريزة من أجل تحقيق أهداف مشروعة. ومعنى هذا أن الإسلام أوّل من حاول القضاء على الرقّ عبر هذه الغريزة الملحّة وهذّبها. فالمرأة مصدر من مصادر الرقّ كما ذكرنا، وتحرير الرقّ تخليص للإنسان من ذلّ العبوديّة التي هي خلاف الفطرة؛ فاللّه تعالى خلق الناس أحراراً ولم يخلقهم عبيداً

ولم يصرّح باستعبادهم.

ومسألة الرقّ بحثها العلماء والفقهاء والمفسّرون المسلمون بإفاضة، ولو أن أحداً قرأ الشروط التي يضعها المشرّع على من يملك رقيقاً لوجد خلالها أن هذا العبد سيّداً من سادات البيت، وليس مملوكاً رقيقاً؛ ففي هذه الشروط والإلزامات أن الغلام يأكل ويشرب مع سيّده[1] ويلبسه مما يلبس[2]، ويجب أن يعامله كما يعامل نظيره لا أن يعامله على أنه خادم له، فلا يناديه بـ«يا غلام» أو «أيها العبد»، بل يجب أن يناديه بـ«يا فتى» و «يا فتاة»[3].

وسائل الإسلام للقضاء على الرقّ

وكذلك حارب حالة العنف التي يمارسها بعض الأسياد ضدّ مماليكهم، وجعل إزاءها أحكاماً مختصّة، فمثلاً جعل على من يضرب عبده فتحدث عنده عاهة بذلك أن يعتقه.

وبهذا نجد أن الإسلام فتح أبواباً كثيرة لتحقيق جانب العتق وإثباته وترسيخه في المجتمع، فيتقرّب إلى الله تعالى بهذا. فهذا الجانب الأخلاقي ويضاف إليه أمر الإسلام بالمعاملة الحسنة والرقيقة، بل بمعاملتهم معاملة الأخ لأخيه دليل واضح على رغبة الإسلام الأكيدة في تخليص الرقّ من عبوديّتهم.

---

(١) فالإمام الرضا ﷺ كان يحمل قربة الماء ويسقي غلمانه، وقد قال له أحدهم مرّة: ما تصنع يابن رسول الله؟ مرنا ونحن بخدمتك. فقال: «الأب واحد وهو آدم، والأم واحدة وهي حوّاء، ويجمعنا دين الإسلام». الكافي ٨: ٢٣٠ / ٢٩٦.

(٢) بل أفضل ممّا يلبس، كما كان يفعل أمير المؤمنين ﷺ مع غلامه قنبر، انظر روضة الواعظين: ١٠٧.

(٣) يقول رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي». مسند أحمد ٢: ٣١٦.

إثارتان حول الآية الكريمة

وهنا نقطتان أودّ أن أذكرهما وأُعالجهما حول هذا المقطع الشريف، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، وهما:

الأولى: حصر وسائل الاتّصال الجنسي بالزوجة وملك اليمين

فربما يقول قائل: إن الآية الكريمة حصرت سبيل الاتّصال الجنسي بطريقين اثنين هما: الزواج الدائم وملك اليمين، فمن أين جاءت الطرق الأُخرى التي يقول بها البعض كالمتعة عند الشيعة مثلاً؟

وللإجابة على هذا الاعتراض أودّ أن أُمهّد له فأقول: إن هذا الموضوع واسع جدّاً وبعيد الغور لا تتّسع له هذه العجالة، وقد كتب حوله الكثيرون. ثم إن هذا المكان ليس مجال بحثه، بل إنه يجب أن يبحث بين العلماء؛ لأنهم أهل الدليل، والأقرب في الوصول إليه، وأهل الفهم فيه. ذلك أنه موضوع معقّد؛ ولذا فإنني سأُبيّن هنا رؤوس مطالب حوله.

مشروعية المتعة

إن هذه المسألة ليست مسألة مزاج يذهب بصاحبه في اتّجاه معيّن دون إعارة الدليل أيّة أهمّية، فنحن نتّفق مع المسلمين جميعاً[1] ـ أي أن الأمر إجماعي ـ حول مشروعيّة هذا النكاح في الإسلام، فالكلّ يتّفق ويعترف بأن اللّه تعالى قد شرعه وأجازه بقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا

---

(١) التفسير الكبير ١٠: ٤٩، قال: «واتّفقوا على أنها كانت مباحة».

﴿تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (١)، وشرعه رسول الله ﷺ حيث إنه ﷺ أمر مناديه فنادى بالإذن للناس فيها، وظلّوا يعملون بها في زمن النبي الأكرم ﷺ، والخليفة الأوّل، وفي شطر من زمن الخليفة الثاني الذي حرّمها بعد ذلك بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأُعاقب عليهما (٢). فهو ينسب التحريم إلى نفسه.

فمسألة مشروعيّة هذا النكاح ممّا لا شك فيه، وهو موضع اتّفاق بين المسلمين، لكننا نسمع بعد ذلك من يقول: إن هذا الحكم قد نُسخ (٣)، مع أن موضوع النسخ هذا فيه كلام ونقاش (٤). وقال آخرون: إن الخليفة الثاني إنّما

---

(١) النساء: ٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٣٣ / ٥، المبسوط ٤: ٢٧، المغني ٧: ٥٧٢.
سأل يحيى بن أكثم رجلاً بصرياً فقال له: بمن اقتديت في تحليل المتعة؟ قال: بعمر بن الخطّاب. قال: كيف ذلك؟ قال: حيث قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا أنهى عنهما وأُعاقب عليهما. فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه.
الصراط المستقيم ٣: ٢٧٦ - ٢٧٧، محاضرات الأُدباء ٣: ٢١٤.

(٣) تحفة الفقهاء ٢: ١١٩، بدائع الصنائع ٢: ٢٧٣، البحر الرائق ٢: ٥٨٦، ٣: ١٩٠، نيل الأوطار ٦: ٢٧١.

(٤) روى الطبري عن شعبة عن الحكم قال: سألته عن هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أمنسوخة هي؟ قال: لا. ثم قال الحكم: قال علي ﷺ: «لولا أن عمر ﷺ نهى عن المتعة ما زنى إلّا شقي».
جامع البيان ٥: ١٩، تفسير الثعلبي ٣: ٢٨٦.
وعن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس ﷺ عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ قلت: بلى. قال: فما تقرأ: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى؟). قلت: لا أقرؤها هكذا. قال ابن عبّاس: والله لهكذا أنزلها الله، ثلاث مرات. وكذلك قرأها طلحة بن مصرف وسعيد بن جبير.
المصدر نفسه.

حرّمها لمصلحة؛ أو أنها قد أُسيء استعمالها، وبعضهم يقول: إنها رخصة في السفر والشدّة فقط، كما لو أن هناك جيشاً يريد أن يخرج للقتال؛ فعوض أن يقع المحارب في الحرام شرع اللّه تعالى له هذا الحكم ليقيه من المعصية والوقوع في الخطيئة.

وكلّ هذه التعليلات والتأويلات يناقشها العلماء، ولا أودّ أن أدخل فيها، مع أن كلّ هذه التعليلات التي قدّمت لتبرير التحريم واهية غير ناهضة؛ أما نسبة التحريم إلى النبي ﷺ فأوهى من بيت العنكبوت، فهو ﷺ لم يحرّمها مطلقاً. وأهل البيت عليهم السلام كانوا على هذا.

إن عقد المتعة عقد كامل، وعلاقته علاقة شرعيّة صحيحة، وهو زواج صحيح باستثناء بعض الفوارق الأدبيّة كاستثناء الطلاق؛ لأنها تنفصل عنه بمجرّد انتهاء المدّة المقرّرة في العقد، وانتفاء الإرث إلّا أن تشترط عليه في صلب العقد، وكذلك مسألة النفقة. وفيما عدا هذا فإنها تشارك الزوجة في مثل حقوقها.

ردّ دعوى بطلان المتعة

يمكن ردّ دعوى بطلان المتعة بأُمور منها:

الأولى: بطلان الإجماع

ودعوى الإجماع على تحريم المتعة دعوى باطلة؛ لأن هناك ثلّة من الصحابة كانوا عليها مثل أبي سعيد الخدري وعبد اللّه بن عمر وآخرين.

الثاني: أن من الزوجة الدائمة من لا ترث ولا نفقة لها

ثم إن الزوجة الدائمة نفسها لا تعدّ في حالات معيّنة زوجة، كما لو كانت في حالة نشوز، فالناشز كالمتمتّع بها لا نفقة لها، وكما لو أن امرأة قتلت زوجها فإنها في مثل هذا الحال لا تخرج عن نطاق الزوجيّة، لكنها مع ذلك لا ترث، فهي

تشارك المتمتّع بها في هذه الحالة؛ إذ تتخلّف عن الحصول على بعض المزايا المترتّبة على الزوجيّة مع أن هذه المتخلّفة عن هذه المزايا زوجة، وداخلة في عموم الآية الكريمة.

الثالث: أنه رخصة

والمسألة هنا هي رخصة من اللّه تعالى لعباده (١)، وليست عزيمة، أي أنها ليست حكماً تكليفيّاً وجوبيّاً، فإذا أراد أحد أن يتوقّف عنها فلا شيء عليه، لكن هذا لا ينفي مشروعيّتها، وأدلّتها من الكتاب السنة مستوفاة بصورة كاملة.

ولو رجعنا إلى المذاهب الإسلاميّة لوجدنا أنها تطرح آراء غريبة في بابها، لكننا لا نريد أن نمسّ أبناء هذه المذاهب. كما أننا لا ندّعي عليهم زوراً أو تهريجاً، بل سأنقل لك آراءهم من كتبهم، فمثلاً الإمام أبو حنيفة يرى أنه لو أن شخصاً عقد على امرأة في مجلس وطلّقها في المجلس نفسه قبل غيبته عنهم، ثم ولدت هذه المرأة بعد ستّة أشهر، فإن الولد ابن له شرعاً (٢). فهل عمدنا نحن إلى التهريج عليه في كتبنا أو في خطبنا؟ وهل قلنا: إن هذا زنا؟

كما أن بعض المذاهب الإسلاميّة ترى أن الرجل إذا وطئ امرأته ثم توفّي عنها، فإنها حتى إذا ولدت بعد أربع سنوات فإن هذا يعدّ ولداً شرعياً للمتوفّى (٣)؛ فيرثه.

فهل سُمع أحد منا يشتم أو يستخدم ألفاظاً نابية ضدّ من يدّعي أن الحمل يمكن أن يبقى في بطن اُمّه أربع سنوات، وقلنا: إن هذا يصطدم بالعلم؟ إننا نعدّ صاحب

---

(١) مغني المحتاج ٢: ١٤٢.
(٢) المجموع شرح المهذّب ١٧: ٤٠٤، المغني ٩: ٥٤.
(٣) المغني ٩: ١١٧.

هذا الرأي عالماً مسلماً، وأقصى ما يمكن توجيهه إليه أننا ننقل رأيه ونخطّئه على ضوء الدليل والمنهج العلمي الثابت، أما السبّ والشتم فلا؛ لأنه ليس من شيم العالم الورع.

ومن ذلك أيضاً أن الإمام الشافعي [١] والمالكي [٢] يريان أن الرجل يجوز له التزوّج من المتولّدة من الزنا إذا كانت من صلبه؛ لأنها لا تعدّ بنتاً شرعيّة، ومن لم تكن ابنة شرعية فحكمها حكم الأجنبيّة في جواز الزواج منها.

وهي مسألة يخالفه فيها أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى؛ لأنهم يعتبرونها ابنة وإن كانت بنت زنا. ومع هذا فإننا لم نقدح بشخصيّة هذا الرجل العلميّة: ولم نقل: إن الإمام الشافعي يفتي بصحّة الزواج من البنت (معاذ اللّه)؛ لأن هذا ليس من شأننا ولا من أخلاقنا، بل إن غاية ما يمكن أن نقوله هنا هو أن هناك خطأً في التطبيق أدّى إلى حصول مثل هذا. أي أننا نناقش دليله نقاشاً موضوعيّاً لا مسحة فيه للتهريج على الآخرين.

الأحناف يفتون بالمتعة

إن عند الأحناف رأياً مفاده أن من يعقد على امرأة وهو ناوٍ تطليقها بعد مدّة من الزمن لكنه لم يصرّح به بلسانه، وكانت الزوجة تعلم بهذا والولي يعلمه والعاقد كذلك، فإن الزواج يعتبر شرعيّاً وصحيحاً [٣]. وهنا نودّ أن نسأل: ما هي المتعة؟

---

(١) انظر: المجموع شرح المهذب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠.

(٢) المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣.

(٣) قال الحصكفي: «وبطل نكاحُ متعةٍ ومؤقتٍ وإن جهلت المدّة أو طالت في الأصحّ، وليس منه ما لو نكحها على أن يطلّقها بعد شهر، أو نوى مكثه معها مدّة معيّنة».

وهل هذا النكاح إلّا صورة أُخرى لهل؟ وليس من فرق بينهما سوى أن الزوج هنا لا يظهر المدّة على لسانه ولا يشترطها، وفي المتعة يشترطها، ويظهرها عليه ويصرّح بها. ومع ذلك فإننا لم نتعرّض بألسنتنا وأقلامنا لهم، بل إننا نتعامل بالخلق العلمي.

إن هذا الأمر (التعرّض للمذاهب الأُخرى) ليس نزاعاً فقهيّاً فقط، ولم يعد كذلك، بل إنه أصبح يمسّ وحدة المسلمين ووجودهم وتآصرهم، ولذا فإن الخوض فيه يعدّ هدماً لوحدة المسلمين. فالذي ينبغي بمن يملك أدنى حسّ إسلامي وشعور بالمسؤوليّة ألّا يثير مثل هذه التشنّجات في وقتٍ المسلمون أحوج إلى الوحدة من غيره. فإذ أراد عالم ما أن يناقش دليلاً ليثبته أو ليفنّده، فيجب أن يكون في هذا الأمر خدمة للمسلمين لا هدم لهم أو تمزيق لصفّهم، وجعلهم يضرب بعضهم بعضاً.

إن هذا التصرّف خلق مشين لا ينبغي أن يكون عليه المسلم.. المسلم الذي يأخذ دليل الآخرين ويخضعه للنقاش الموضوعي ليخدم به الدين، وليقدّم به غذاء للأجيال التي ستخلفه، وزاداً له بين يدي اللّه جلّ وعلا؛ لأنه يعلم أن اللّه تعالى سيسأله غداً عن كلّ كلمة ينطق بها ويقولها، فـ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

☚ الدر المختار ٣: ٥٦ - ٥٧.

بل حتى أبناء المذهب الحنبلي، قال عبد اللّه بن قدامة: «وإن تزوّجها بغير شرط إلّا أن في نيّته طلاقها بعد شهر، أو إذا انقضت حاجته في هذا البلد ـ الذي سافر إليه ـ فالنكاح صحيح في قول عامّة أهل العلم إلّا الأوزاعي قال: هو نكاح متعة. والصحيح أنه لا بأس به، ولا تضرّ نيّته، وليس على الرجل أن ينوي حبس امرأته، وحسبه إن وافقته وإلّا طلقها».

المغني ٧: ٥٧٣، وبمعناه في الاستذكار ٥: ٥٠٨.

(١) ق: ١٨.

التلقيح الصناعي

وهنا تطفو على السطح أمام العلماء في هذا المجال مشكلة هي تدخّل الطب لإجراء عملية تلقيح صناعي داخل المختبر، وهو إجراء تعالج به بعض السيّدات ممّن يتّصفن بأن عندهن تشوّهات خلقيّة تمنع من حدوث الحمل، وربما تكون العاهة عند الرجل نفسه، فيعجز عن إجراء الاتّصال الجنسي. وبهذه الطريقة يعاد للمرأة شعورها بالأُمومة. وهذا التلقيح يتصوّر على نحوين:

الأوّل: أنه تلقيح لبويضة المرأة بماء رجل أجنبي.

الثاني: أنه تلقيح لها بماء زوجها الشرعي نفسه.

أي أن الطبّ يقوم بدور الرجل، فبدلاً من أن يوصل الزوج النطفة بنفسه عبر الفراش إلى الزوجة، يقوم الطبّ عنه بذلك، فيأخذ منه حيمناً ليلقّح به بويضة زوجته. وهذا يعني أنه تلقيح من الرجل نفسه لكن بصورة غير مباشرة، حيث إن هذه البويضة الملقّحة تزقّ بعد ذلك (إكمال عمليّة التخصيب) في رحم المرأة؛ لتنمو بشكل طبيعي.

إن موقف الفقه الحديث من هذه المسألة واضح وجليّ، وهو أن هذه العمليّة لا إشكال فيها مادامت النطفة والبويضة لزوجين شرعيّين، وبه فإن الولد الذي سيتولّد من عملية التلقيح هذه ولد شرعي لا شائبة في صحّة نسبته لصاحب النطفة؛ لأنه زوج شرعي أمام الدين والقانون والعرف. أمّا إذا كان صاحب النطفة أجنبيّاً عن المرأة فإن هذا قطعاً يعدّ زنا واضحاً، وهو حرام بالنتيجة، ولا يلحق الولد بصاحب النطفة.

وكدليل على هذا أن الإمام الحسن بن علي عليهما السلام كان في مجلس أمير المؤمنين عليه السلام إذ أقبل قوم فقالوا: يا أبا محمّد، أردنا أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «وما

حاجتكم؟». قالوا: أردنا أن نسأله عن مسألة. قال: **«وما هي؟ أخبرونا بها»**. فقالوا: امرأة جامعها زوجها، فلما قام عنها، قامت بحموتها فوقعت على جارية بكر فساحقتها، فألقت النطفة فيها فحملت، فما تقول في هذا؟ فقال﵇: **«معضلة وأبو الحسن لها، وأقول فإن أصبت فمن الله ثم من أمير المؤمنين﵇، وإن أخطأت فمن نفسي، فأرجو ألّا أُخطئ إن شاء الله؛ يعمد إلى المرأة فيؤخذ منها مهر الجارية البكر في أول وهلة؛ لأن الولد لا يخرج منها حتى تشقّ فتذهب عذرتها، ثم ترجم المرأة؛ لأنها محصنة، ثم ينتظر بالجارية حتى تضع ما في بطنها، ويردّ الولد إلى أبيه صاحب النطفة، ثم تجلد الجارية الحدّ»**.

فانصرف القوم من عند الحسن﵇، فلقوا أمير المؤمنين﵇ فقال لهم: **«ما قلتم لأبي محمد؟ وما قال لكم؟»**. فأخبروه، فقال: **«لو أنني المسؤول، ما كان عندي فيها أكثر مما قال ابني»** [١].

وفي هذه الرواية أربعة أحكام [٢] هي محلّ نقاش بين علماء المسلمين وفقهائهم، ولذا فإن بعضهم يأخذ بها جملةً، وبعضهم يناقشها ويعدّ بعضها غير ناهض فلا يأخذ به.

وهنا في مسألة التلقيح الصناعي فإن الولد حينما يتكوّن من نطفة الأجنبي فإن عليه دفع دية للمرأة إن كانت عذراء؛ لأنها حينما تلد فسوف تفقد عذريّتها. والدية عبارة عن مهر المثل. ويبقى الأمر خارج النطاق الشرعي، فلا يلحق الولد به.

وعليه فإن مجمل العملية هذه (التلقيح الصناعي) محرّمة؛ لأن الرجل ليس بزوج.

---

(١) الكافي ٧: ٢٠٢ - ٢٠٣ / ١.

(٢) هي: أخذ مهر الجارية البكر من الزوجة، ورجم المرأة، وإلحاق الولد بأبيه صاحب النطفة، وجلد الجارية الحدّ.

وهذه المسألة داخلة تحت قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

المبحث الثالث: الهدف الأخلاقي في الآية الكريمة

إنّ المشرّع الإسلامي يهدف من جملة ما يهدف إليه في هذه الآية الكريمة إلى خلق المناعة الأخلاقيّة في جوّ الأُسرة والمجتمع؛ لأنه يريد لهذا الجوّ أن يكون نظيفاً طاهراً. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الإنسان إنما تُخلق عنده المناعة بعد أن تتيسّر له سبل الزواج، فهذا هو الأمر الأساس في توفير المناعة الأخلاقيّة في المجتمع، وليس الخطب والواعظ والإرشادات التي يجب أن تأتي بعد ذلك؛ كي يمكن لها أن تحدث تأثيرها.

أي أنها لا يكون لها ذلك التأثير الواضح والملموس ما لم تمهّد لها الطريق بشكل عملي، وهذا التمهيد العملي هو عبارة عن إجراء عملي أيضاً تقوم به المؤسّسات الاجتماعيّة المختصّة؛ سواء كانت تابعة للدولة أو لم تكن كذلك، فتذلّل عقبات الزواج وتيسّر أمره لطالبيه. فهذه الطرق العمليّة هي التي تركّز جانب العفّة في المجتمع، وفي أخلاقيّات الأفراد، وترسّخها عندهم.

كما أن تيسير الزواج ليس فقط بإزالة بعض عقباته كارتفاع المهور، وتحديد مفهوم الكفاءة إسلاميّاً وليس على أساس عرفي أو طبقي، بل إنه يتمّ عن طرق سدّ الذرائع الموصلة إلى التحلّل الخلقي عند الشباب، وغلق بابها في وجوههم. ونقصد بهذه الذرائع ما أشرنا إليه في أول المحاضرة، وهو الوجه البديل للزواج بما ينتشر من دور للدعارة والتفسّخ، أو عدم التزام المرأة بالحجاب الإسلامي، فتسير في مكان وظيفتها أو في الشارع وهي نصف عارية أمام أنظار طامحة لا تستطيع إلى الزواج سبيلاً، ثم يأتي دور التلفزة ووسائل الإعلام المكتوبة

الأُخرى يجد فيها الإنسان كل ما يمكن أن يثير له غريزته.

إن هذا الشابّ بطبيعة الحال حينما لا يمتلك القدرة على الزواج، ثم يرى كلّ هذه المغريات أمامه فإنه حتماً سيندفع نحو الرذيلة، وسيسعى إلى الوقوع فيها لإشباع هذه الغريزة الجامحة.

وأنا أقولها بملء فمي: إن الشاب المسلم الذي يصبر عن الوقوع في الرذيلة، ويعفّ نفسه وجوارحه، فإن له أجر الشهيد؛ لأنه حينئذ يكون قد تخلّق بأخلاق القرآن الكريم وتأدّب بآدابه. هذا مع وجوب الاعتراف بأن المسألة ليست سهلة أبداً، ووضع حل لها وعلاج كذلك ليس بالأمر السهل إطلاقاً؛ لأنها مسألة مستحكمة ومتمكّنة؛ ولذا فإنّ العلاج يجب أن يكون جذريّاً. فالإكثار من المواعظ والخطب مع وجود المحفّزات الكثيرة سوف لن يكون له أدنى تأثير أبداً، يقول أبو الطيّب المتنبّي:

هيهات لا تتكلّفن لي الهوى ... فضح التطبّعُ شيمةَ المطبوعِ (١)

فهذه الغريزة أمر مطبوع عليه كلّ إنسان، أمّا التعليم والإرشاد فهو تطبّع، أو تكيّف مع الظرف بالتطبّع، وهناك فرق كبير وبون شاسع بين الغريزة والتكيّف بالتطبّع.

لكن هنا نقطة لا ينبغي إغفالها، وهي أن الإنسان إذا وقف نفسه على أجواء القرآن الكريم والخلق القويم، فإنه يستطيع أن يعصم نفسه ولو إلى حدّ ما عن الوقوع في شرك الخطيئة والرذيلة. لكن أين يمكنْ أن نحصل على من يأتي ويجلس ليسمع في مجالس الذكر؟ إن من حسن حظّنا أن تكون هناك ثلّة تقصد

(١) الوافي بالوفيات ٧: ٢٧٨.

هذه المجالس لتستمع إلى الذكر والتذكير باللّه والآخرة؛ لأن الوسائل المضادّة أقوى منّا؛ ولذا فإنها تجذب الشباب إليها بقوّة.

إن علينا أن نحتفي بهذا الذي يبحث عن الكلمة الواعية الهادفة التي تربّيه وتهذّبه، ويجب أن نكرمه؛ لأن هناك في الطرف المقابل وسائل تتعامل مع الغريزة عند الإنسان؛ فتجرّه إليها عن طريق تحفيزها وإثارتها. وهي وسائل أقلّ ما يمكن أن يقال في نعتها: إنها مجرمة؛ لأنها تمارس الجريمة ضد الأخلاق، فتحاول أن تفسد قدر ما تستطيع، فلا تترك وسيلة من وسائل الانحطاط وجرّ الشباب إلى الرذيلة دون أن تفعلها معه؛ كي توقعه في مستنقع الخطيئة وشراكها، فهي توصل إلى الشباب كلّ لوازم الفساد تحت مختلف المسميات.

وهذا الأمر في الحقيقة عبارة عن جريمة منظّمة ترتكب بحقّ الأخلاق تقبع وراءها أصابع خفيّة تعمل على القضاء على عنصر الأخلاق في المجتمعات ودثره. وهي جريمة تتعامل مع الأخلاق والغريزة بنمطين من التعامل؛ فهي تستثير الغرائز وتقتل الأخلاق؛ تستثير الغرائز بما تحاول نشره بين الناس من مسبّبات الانحراف، وتقتل الأخلاق؛ لأنها ترى أن الإنسان ما دام متمسّكاً بأخلاقه وقيمه ودينه، وما زال يتوفّر على جوانب من المناعة الخلقيّة، فإن هذا سوف يقف عقبة كأداء في طريقها.

ولذا فإننا مثلاً نرى أن من جملة وسائلها التي تعمد إلى التعامل بها مع الشباب أن تلفت نظره بأسماء وآديولوجيّات مختلفة، كأن ترفع يافطة عريضة كبيرة يكتب عليها «دار الفن»، وليست دار الفنّ هذه سوى وكر مخزٍ للأجساد العارية، ومحطّة لاستثارة الشهوات والغرائز المنحطّة. ولست أدري ما علاقة هذا بالفنّ الذي يعني جمال الروح وجمال النفس. إن مثل هذه الدور لا عمل لها

سوى أن تعرّي الإنسان من أخلاقه، لكن أن تغذّيه بالخلق أو الكرامة أو حبّ الوطن فلا؛ لأن هذه المفاهيم غير مأخوذة بنظر اعتبارها، وكأنها ترى أن هذه المسميات هي الوجه المظلم في الحياة، وأن الوجه المضيء فيها هو إشباع رغبات الغريزة فقط.

إن هؤلاء يتستّرون خلف هذه اليافطات العريضة ليمسخوا أخلاق الشباب، وليعرّوهم من ثقافتهم الدينيّة، وليجرّدوهم عن مناعتهم الأخلاقيّة. وما هذه العناوين (رقيّ، تطوّر، حضارة، مدنيّة) إلّا واجهة تختفي خلفها النوايا الحقيقيّة لهذه الوسائل الهدّامة، وكأنها لا تعرف من الحضارة والرّقي إلّا جانب العري. ومثل هؤلاء كمثل من يترك الصلاة مدّعياً أن اللّه تعالى نهاه عنها بقوله: ﴿**لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ**﴾، فلمّا قيل له: ولكن لها تتمّة هي ﴿**وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾[١]، قال: أنا لا حاجة لي بتتمّة هذه الآية، وكلّ ما أُريده هو طرفها.

فالواقع أن هؤلاء حالهم مع التطوّر وفهمه كحال هذا التارك صلاته، فهم لا يأخذون من التطّور سوى العري والفساد والانحلال، ولا يرون من الفن سوى الجسد العاري والانحطاط والإفساد.. الجسد العاري الذي يستلّ من نفسه ونفوس قاصديه الكرامة والشعور بالمناعة. في حين أن الفن بمعناه الصحيح هو جمال للروح وتربية للنفس على الملكات الطيّبة والأخلاق السامية، وشحذ القرائح للرقيّ بالإنسان وجعله يعيش أسمى حالات الإنسانيّة فينتج ويبدع ويخدم نفسه ومجتمعه بفكرة ما أو معنى من المعاني السامية لتقوية جانب النفس الأخلاقي والأمانة والخصال الحميدة.

---

(١) النساء: ٤٣.

الأصابع اليهوديّة في نشر الرذيلة

أمّا تربية الناس على شرب الخمرة والتهتّك والتحلّل فلا يمكن أن يكون فنّاً أبداً، بل هو هدم للتربية السليمة، وجرّ للناس إلى هاوية الانحدار والرذيلة. ولو أننا استقصينا الأمر لوجدنا أن خلف كلّ هذه المحاولات المجرمة يداً يهوديّة تدفع بها وتحثّها على السير دون توانٍ أو توقّف؛ لأن كلّ النظريّات التي قلبت العالم رأساً على عقب هي نظريّات يهوديّة، واليهود هم وراء كلّ فساد وإفساد في الدنيا. وها هم يصولون في الساحة لوحدهم ويدّدون من يريدون تهديده دون أن يكون لهم أي رادع منّا، أو أي موقف لنا أو تأثير في هذا العالم، بل إن شأننا هو الاستيراد والتلقّي.

إن هؤلاء اليهود أصبحوا قوّة كبيرة، وأصبحت يدهم تطال أي مكان تريده، وأصبحت أسلحتهم وصواريخهم جاهزة لتدمير أي بلد إسلامي يحسّون أنه يشكل خطراً على وجودهم وكيانهم، والمسلمون غافلون عن كلّ هذا، فأصبحوا مصداقاً لقول الشاعر:

نستر الجبن عند مؤتمرات ... فلنا عند مجلس الأمن ساحُ
ونسوّي من الهزيمة نصراً ... والجلابيب ضجّة وصياحُ
ويحنا لو على الجراح انطوينا ... وسكتنا حتى تقول الجراحُ [1]

وهذا هو الواقع، فالمسلمون أصبحوا مثار سخرية الآخرين، وقد سحقت كرامتهم هذه الثلّة الضائعة (اليهود)، هؤلاء الذين كانوا يدفعون الجزية لنا أصبحوا هم السادة وأصبح المسلمون هم العبيد.

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

وهكذا نشطوا وأصبحوا وراء كلّ فساد وإفساد في الأرض.. وراء قتلنا المادّي والمعنوي؛ فقد رسموا الطرق ووضعوا الخطط الكفيلة بالقضاء علينا وبإبادتنا. مع أن الإسلام لم يعادِ قوماً لأجل أن عندهم ديناً أو عقيدة، بل إنه كرّم الأديان السماويّة الأُخرى وأتباعها، لكن اليهود في المدينة لما راحوا يحوكون المؤامرات ضدّ الإسلام ورسول الإسلام، وضدّ المسلمين اضطرّ الرسول الأكرم إلى إخراجهم منها؛ لأنهم أصبحوا يشكّلون عنصر خطر على وجود الإسلام، أو لا أقل من أن لهم تأثيراً سلبيّاً عليه. فقد كانت أصابعهم وراء كل فاجعة أصابت المسلمين.

يزيد يستشير مسيحيّاً في استعمال والٍ على الكوفة

ولم يكن اليهود وحدهم في هذه المؤامرة العظمى على التاريخ، بل هناك من حذا حذوهم من المسيحيّين الذين رأوا في هذا الدين عنصر خطر عليهم، فراحوا يعملون معاولهم فيه، ومن هذا أن يزيد بن معاوية لما أراد أن يبعث إلى الكوفة والياً عليها بعد خروج الإمام الحسين استشار أحد المسيحيّين في الأمر حيث إنه دعا سرجون مولى معاوية فقال له: ما رأيك؟ إن حسيناً قد وجّه إلى الكوفة مسلم بن عقيل يبايع له، وقد بلغني أن النعمان ضعيف، فمن ترى أن أستعمل على الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على عبيد اللّه بن زياد، فقال له سرجون: أرأيت لو أن معاوية نشر لك، أكنت آخذا برأيه؟ قال: نعم. فأخرج سرجون عهد عبيد اللّه على الكوفة وقال: هذا رأى معاوية، فولِّ عليها عبيد اللّه بن زياد، فهو الذي سيقف في وجه الحسين [١].

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٣ - ١٧٤، الإرشاد ٢: ٤٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٥، الكامل في

فانظر إلى هذه المشورة اللئيمة، وما الذي فعلته بعد ذلك، وما هو الأثر الذي ترتّب عليها، إنه إصبع لئيم وخبيث وراء أعظم نكبة أصابت الإسلام والنبي ﷺ نفسه، والمسلمين كذلك.

وفعلاً جاء عبيد اللّه بن زياد ودخل الكوفة وصعد المنبر وخطب الناس قائلاً: «أمّا بعد: فإن أمير المؤمنين ولّاني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم كالوالد البرّ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبقِ امرؤ على نفسه:

الصدق ينبي عنك لا الوعيد

ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً» (١).

ثمّ حشد الناس وأخرجهم إلى حرب الإمام الحسين عليه السلام.. نعم لقد خرجوا لكنهم خرجوا لحرق خباء أظلّهم عن نار الكفر، وخرجوا لتقطيع أعضاء خلّصتهم من ضلال الشرك وعبوديّة الوثنيّة، خرجوا لإراقة دم الرسول الأكرم محمد بن عبد اللّه ﷺ الذي جمع كلمتهم بعد تشتّت وتفرق، ولمّ شملهم بعد تجزّؤ وتمزّق، وبنى هذه الدولة العظيمة المترامية الأطراف، والتي ينعم بها يزيد وأمثاله، وراحوا يعيثون فيها فساداً.

ولذا فإن الإمام الحسين عليه السلام خاطبهم يوم العاشر من المحرّم وأنّبهم على خذلانهم إياه مع أنه ابن من رفع أساس هذا الدين، وابن من أراق دمه في سبيل هذا الدين، وأنهم به وبجدّه وأبيه اجتمعت كلمتهم وعزّوا بعد أن كانوا أذلّة، وأنّهم

☚ التاريخ ٤: ٢٢ – ٢٣.

(١) الإرشاد ٢: ٤٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢٣ – ٢٤، مقاتل الطالبيّين: ٦٤.

بهم نالوا عروش قيصر وكسرى، فأصبحت النعم تغدق عليهم آناء الليل وأطراف النهار. فهل من كان مثله وهذه سابقته يستحقّ أن يكون جزاؤه منهم أنهم يحشدون الجيوش لقتاله وقتل أطفاله وعائلته؟

وفعلاً خرج الحسين ﷺ بطفل عمره ستة أشهر ليطلب له الماء؛ لأنه ليس من الرجولة منع الماء عن طفل رضيع، وقال لهم: **«إن كنتم منعتم الماء عن الكبار، فما ذنب هذا الطفل الرضيع؟ فاسقوه شربة من ماء فقد جفّ حليب أُمّه»**. فنادى منادٍ: اقتلوه، ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. فرماه حرملة بن كامل بسهم فوقع في نحره وهو في يد أبيه فقطعه من الوريد إلى الوريد[1]، فاضطرب كما تضطرب السمكة في الماء. ثم رجع به الحسين ﷺ ووضعه في حجر أُمّه، وقال: **«اللهم لايكن أهون عليك من فصل ناقة صالح»**.

فأخذته أُمّه، ووضعته في مهده فامتلأ من دمه، فلم يحتمل الإمام ﷺ هذا المنظر، فاحتفر له بجفن سيفه، وواراه التراب:

ولو تــراه حــاملاً طــفله	**رأيت بــدراً يــحمل الفــرقدا**
مُـخضّباً مــن فــيض أوداجــه	**ألبســه ســهم الردى مــجسدا[2]**

* * *

يــا رجــواي عگـبك مــا بــعد لوليت	**اخلاف حسين عيب اگعد تحت ظل بيت**
يــبني الكــربلا يــبني عسـى لا جيت	**يبني اتمددت يـمّي ولا شـربت المـاي**

---

(١) الاختصاص ١: ٥٧٨.

(٢) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

فهرس العناوين الرئيسة



المحتويات